أسامة غريب



وليد

إرهاصات موقعة الجحش

إرهاصات موقعة الجحش

أسامة غريب

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ٢٠١١

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١١/١٥٨٤٤
ISBN 978-977-09-3064-9

أسامة غريب

إرهاصات موقعة الجحش

دار الشروق

إهـداء

إلى الشاعر العربي الكبير

عبد الرحمن يوسف

أحد أبطال ثورة ٢٥ يناير العظام

الجحش ليس مجرد حيوان أعجم

الجحش ذهنية تدار بها أمور الشعوب الغافلة

وقد حُكمت مصر لمدة ثلاثين سنة بذهنية الجحش

المحتويات

في وجه سلطان.. حرامي

ارجع يا محسن... إحنا كنا بنهزر!

كتاكيته.. بُني!

آه.. قلبي!.. قلبي!

الزعيم... نياهاهاهاهاهههه!

الريِّس حباحة

تقاسيم

انتصاب حمامات

لهيب جهنم

السلعوَّة

السعد وعد

السِّيخ المحميّ

ماذا يَفعل بالنهار؟

السِّر في بيـر

الفرافير

أقوى من سانجام

مقدمة

قصة أصحاب الجحش

لم أكن أتصور أن قلبي يتسع لكل هذه الفرحة. ثمانية عشر يومًا ونحن نسير على طرقات النار التي أشعلها الطاغية تحت أرجلنا. ثمانية عشر يومًا ونحن في مصر نحلم بأن ينزاح الكابوس ويتركنا نعيش ونبني بلدنا.

ثمانية عشر يومًا وهو يعاند ويكابر ويناور ويداور ويستخدم كل وسائل الخداع. ثمانية عشر يومًا ونحن ننام على الثورة وعليها نصحو. نبيت على الأمل ونستيقظ ونحن نرجو أن يفهم وأن يحس وأن يدرك أنه أصبح مكروهًا على نحو غير مسبوق، وممقوتًا كما لم يحدث لأحد قبله ولا حتى شاوشيسكو أو فرانكو أو ماركوس.. فكل واحد من هؤلاء على سوئه كانت له حسنات.. أما هذا فلم يفعل طيلة ثلاثين عامًا سوى التخريب المنظم لكل شيء وأي شيء في مصر!

لقد كنا لفرط اليأس نظن أننا سوف نحتاج بعد موته لمائة عام حتى نتخلص من آثاره وما أفدحها! ومن بصماته وما ألعنها! لأنه أصاب مصر في أعز ما تملك. كنا نقول إن اليابان وألمانيا قد تدمرتا تدميرًا

كاملًا في الحرب العالمية الثانية، لكنهما عادتا لتقفا على الأرض من جديد وتحقق كل منهما إعجازًا من حيث التقدم وعبور الماضي بفضل شيء واحد، هو أن بنيتهم التحتية قد خربت تمامًا، ولكن بنيتهم الفوقية وهي البشر ظلت على تفوقها ورقيها وبهذا استطاعت أن تخرج من تحت الركام وتبهر العالم. وكنا نقول إن مصيبتنا أفدح من مصيبة ألمانيا واليابان لأن عدو مصر الذي اعتلى السلطة فيها هدم البنية الفوقية وحطم الإنسان من الناحية البدنية والصحية وأصاب وعيه ووجدانه في مقتل وفرض عليه الهيافة والسخافة وأفقده الشعور الوطني والحس الإنساني وجعل كرة القدم هي جل اهتمامه وخرب تعليمه فأصبحت المدارس والجامعات تخرج أميين، وغيّر بوصلة الوطنية فجعل الصهاينة أصدقاء وحارب كل معاركه ضد العرب والمسلمين.

كنا ننظر للسفن التي تغرق على سواحل إيطاليا واليونان وهي تحمل المهاجرين غير الشرعيين من المصريين الذين يحاولون الفرار من الجحيم، ويؤثرون الموت المحتمل على الحياة الذليلة في وطن أصبح خرابة.. كنا ننظر ونبكي من الحسرة لأن الطلاينة واليونانيين كانوا في السابق هم الذين يأتون لمصر من أجل العمل والحرية والأمان. كنا ننظر بحسرة لهجرة العقول وهرب المتميزين والمتفوقين بعد أن أدركوا أن الحاكم يزدريهم وينظر إليهم بتوجس ويفضل عليهم الجهلة والأغبياء..

كنا ننظر ونغرق في الحزن لعلمنا أنه يكره الأذكياء ويعمل على حصارهم ويرحب بالأغبياء حتى يشعر بالتفوق بينهم. كنا نراه وهو يقرب المجرمين ويبسط عليهم حمايته ويضطهد الشرفاء ويشردهم.

كنا نراه يختار أعوانه من الوزراء والمحافظين على ضوء معيار بالغ الشذوذ وهو إصراره في شغل كل منصب يشغر على اختيار صاحب الملف المتخم بالجرائم وبخاصة جرائم الاستيلاء على المال العام، وفي المرات المحدودة التي نجحت فيها بعض الشخصيات العادية التي لا يجري الإجرام في عروقها في المرور بدون قصد كان يقصيهم في أقرب فرصة!

لهذا كله كنا نظن والأسى يعتصر قلوبنا أن التغيير والخروج إلى فضاء الحرية والتقدم والعدل بعيد بعيد بعيد.. صحيح أنني ككاتب لم أنشر اليأس أبدًا بين الناس وكنت أسعى إلى نشر الأمل في النفوس، لكنني في داخلي كنت شديد الحزن على وطني الذي أقعدته الهموم وأعجزته عن أن يثور مطالبًا بحقوقه.. حتى عندما انتفض الأحرار في تونس كنت أظن أننا لن نحظى بثورة مماثلة لأن حجم التخريب في مصر أضعاف ما عانته تونس.

والحقيقة أن فرحتنا الطاغية باندلاع الثورة كان مرجعها إلى أننا لم يخطر ببالنا أننا نمتلك كل هذه الإرادة وكل هذا العزم. لم نكن نظن أن شبابنا لديهم كل هذا الوعي وكل هذا الإصرار والاستعداد لبذل الدم.. وهذا لعمري من أغرب الأشياء التي كانت عصية على تفكيري.. إذ من أين لهؤلاء الشباب بكل هذا الوعي وقد انهار التعليم وظلت وسائل الإعلام تطفح قاذورات في وجوههم طوال ثلاثين عامًا؟! من أين لهم بكل هذا العزم وقد لوث مبارك ماءهم وطعامهم وأصابهم بالأمراض؟! من أين لهم بكل هذا الإيثار والرغبة في التضحية وقد زرع في الناس الأنانية وجعل لقمة العيش مرتبطة بالخسة والنذالة والسلوك الوضيع؟! من أين لهم بكل هذه الأخلاق الرفيعة التي جعلتهم يرتفعون فوق الآلام

ويعلون على الجراح ويظلون على إصرارهم بأن تكون ثورتهم سلمية حتى عندما أطلق عليهم الأنذال الرصاص الحي والقنابل، وأطلقوا عليهم الخيول والجمال والبغال مع راكبيها من الدواب الذين تسلحوا بالمدى والسيوف وقنابل المولوتوف؟! ومن أين لهم بكل هذا التحضر الذي جعل ميدان التحرير وسائر أماكن التظاهر بالمدن المصرية هي آيات في النظافة.. نظافة المكان ونظافة السلوك وهم الذين أغرقهم الحكم في مشكلات القمامة التي كانت ترتفع كالجبال بالشوارع دون أن تجد من يرفعها؟!

لهذا كله فقد أصابت الثورة العالم كله بالذهول.. بل إنني أجازف بالقول إنها فاجأت الشباب الذين قاموا بالثورة أنفسهم حيث لم يكونوا يتصورون كل هذه القوة والروعة التي ميزت تحركهم طوال أيام الثورة. وهذا يؤكد أن هذا الشعب العبقري يمتلك مخزونًا حضاريًا لا ينفد، ومنابع للعظمة لا أعرف حقيقة من أين تأتي.

يكفي أن العالم كله قد أبصر نظام مبارك النازي يطلق الرصاص على الرءوس وفي سويداء القلب ويفعل بالشباب الحر البريء ما لم يفعله هتلر وموسوليني ونيرون من أجل البقاء في الحكم وإجهاض الثورة وإطفاء فرحة الناس بالنصر الذي لاحت بشائره.

لقد أثبتت السلطة في معالجتها للأحداث أن البلادة والتكلس والعفن التي ميزت ثلاثين سنة من الحكم هي التي سادت إدارة الأزمة حتى بدأ الناس يظنون أن هذا الرجل لا يعيش معنا على هذا الكوكب..كل الناس ترفضه، وهو وبطانته يقولون: وماذا يعني خروج عشرة ملايين من شعب قوامه ثمانون مليونا من البشر؟! أرأيتم

السماجة والنطاعة وانعدام الإحساس؟ لقد كاد الرجل يصيب الناس بسكتة قلبية في كلمته الثالثة والأخيرة عندما تواترت الأنباء عن أنه سيعلن تنحيه فإذا به يخرج على الناس بكلام سخيف ظل يردده منذ ثلاثين سنة بلا انقطاع.. لقد صرخ الناس في كل مكان على أرض مصر بعد انتهاء كلمته من فرط الهستيريا التي دفعهم الرجل إليها.. بل إن هناك الآلاف الذين سقطوا مغشيًّا عليهم من ارتفاع ضغط الدم بسبب الكمد والغيظ، وهناك الملايين الذين بكوا بحرقة وهم يرون الصورة تمضي نحو الحريق الهائل الذي يريده الحاكم من أجل البقاء لستة أشهر أخرى يقوم خلالها بترتيب أوضاعه.

* * *

في الفصل الأول من هذا الكتاب قدمت رؤيتي لأيام الثورة وأحداث تلك الأيام.

وفي الفصل الثاني قدمت المقالات التي كنت أكتبها كل يوم من أيام الثورة حتى ١١ فبراير يوم خلعنا الطاغية.

وفي الفصول الثالث والرابع والخامس قدمت ما كتبته تعليقًا على ما تلا الثورة من أحداث.

أما باقي الفصول فقد كُتبت جميعًا خلال عام ٢٠١٠... وقد قصدت من هذا التحديد شيئين: الأول أن يعرف القارئ أن كل الأحداث التي وقعت في عام ٢٠١٠ بمصر كانت تفرش الطريق وتمهده لموقعة الجحش. كل ما فعله النظام السياسي من عمليات إجرامية فاحشة كان يكشف لأي مراقب أن النتيجة الحتمية لكل هذا هي استدعاء الجحش في النهاية.

وما تزوير انتخابات مجلس الشورى ومن بعده مجلس الشعب بهذه الغلظة والغباء إلا من تجليات ذهنية الجحش. وما وضع الآلاف من أحكام القضاء في صفيحة الزبالة بواسطة السلطة إلا من الإرهاصات الجلية بأن يوم الجحش آت لا ريب فيه.. وقد كنت في كل هذا متابعًا وراصدًا في كتاباتي لكل ما يحدث من أصحاب الجحش.

وإذا كان القرآن قد حمل لنا في واحدة من سوره الكريمة قصة أصحاب الفيل بزعامة أبرهة الحبشي الذي أراد هدم الكعبة، فإن أحداث عام ٢٠١٠ وما تلاها بمصر قد روت لنا وسجلت في التاريخ قصة أصحاب الجحش الذين أرادوا هدم مصر!

وأما السبب الثاني فهو أن يعرف القارئ الظرف والسياق الذي كتبتُ فيه موضوعات هذا الكتاب، ذلك أن الحابل قد اختلط بالنابل بعد الثورة حتى إن أولاد اللصوص والغواني الذين ملئوا الساحة السياسية والإعلامية أصبحوا يزعمون أنهم كانوا معارضين لحكم مبارك طول عمرهم!.. وكل ولاد الرقاصة الذين قدموا عروض التعري على مسرح مبارك أصبحوا الآن يلعنونه بعد أن غادر الحكم!.. وكل الحرامية والنشالين قد اندسوا في الزحام وتظاهروا بأنهم يطاردون اللص معنا، وقد ارتفع صوتهم أعلى منا جميعًا قائلين بكل بجاحة: امسك حرامي!

القاهرة ٢٨ مايو ٢٠١١

في ظلال الجحش

رأيتُ الجحشَ جحشَ بني كليبٍ

تيمم حــول دجلــة ثــم هــابـــا

رغبنــا عــن هجــاء بنــي كليــبٍ

وكيف يُشـاتم النـــاسُ الكلابـــا

«الراعي النميري»

في الطريق إلى الجحش

عندما بدأت أحداث الثورة المصرية يوم ٢٥ يناير كنت خارج مصر.

في الأيام التي سبقتها كنت أتابع الشباب يتنادون على الإنترنت بضرورة الخروج والتظاهر في هذا اليوم الذي هو أيضًا عيد الشرطة.

كنت أشعر بالحسرة لأن هذا اليوم ٢٥ يناير تم اختياره عيدًا للشرطة لأنه اليوم الذي تصدى فيه جنود وضباط الشرطة للإنجليز في عام ١٩٥٢ وسقط منهم شهداء، بينما لم نعرف نحن الذين لم نعاصر زمن الاحتلال الإنجليزي.. لم نعرف للشرطة وظيفة سوى فرض الإتاوات على الناس وحماية اللصوص الأكابر بكل الطرق، ونشر الفزع وتعذيب الناس وترويعهم طول الوقت.

لم أشعر بالحماسة لهذه النداءات لأنني تصورتها مثل سابقاتها لن تسفر إلا عن تجمع بضع مئات سوف يهتفون حتى تتشقق حناجرهم ثم يعودون لبيوتهم منهكين.. أو أن يقوم الأمن منذ البداية بالتعامل معهم بتشتيتهم وتفريق جمعهم والقبض على عدد منهم... ودمتم!

مع نهاية اليوم اتضح لي أن شيئًا مختلفًا سيحدث، وأن جنينًا يتخلق من رحم الأيام، وأن فجرًا جديدًا جميلًا على وشك البزوغ.

خشيت أن يحدث شيء سيئ لمصر وأنا بعيد عنها، أوْ أن يحدث شيء طيب لا أكون جزءًا منه.

حدَّثت نفسي بأن الأسوأ قد حدث طوال ثلاثين سنة وليس أمامنا إلا أيامٌ حلوة لو صبرنا وثابرنا وضغطنا وكثفنا الضغط.

رأيت نفسي مثل المجنون أبحث عن حجز على أي طائرة لأعود فورًا لمصر وأكون مع الناس في الشارع مستعدًّا للنصر أو الشهادة.

حدثني بعض الأصدقاء بأن دوري كاتبًا ليس في الشارع وإنما خلف المكتب حيث أكتب لمؤازرة الثوار وفضح المجرمين.

رغم نبل مقصد هؤلاء الأصدقاء فقد انفجرت فيهم قائلا: سنوات طوال وأنا أكتب وأكتب وأفضح مبارك الأب ومبارك الابن وبقية العصابة الإجرامية ولم يبد أن شيئًا يتغير. كان مبارك يتركنا نكتب أملًا في أن نسقط من الإعياء ثم نذوي ونموت، وكان يسلط صحفييه وكتابه لرفع القضايا ضدنا لبهدلتنا في المحاكم وتشتيت جهودنا.

ومما يجدر بي ذكره في هذا المقام أنني ـ مع عنف وقسوة ما كتبت طوال السنوات الماضية ضد كل رجال السلطة.. وكانت الكتابة وبخاصة الساخرة التهكمية التي اعتمدتها ضدهم تصيبهم في الصميم، ـ كنت مع هذا وللمفارقة فإن مسؤولًا واحدًا لم يتقدم ضدي ببلاغ للنيابة، ولكن من تقدموا كانوا جميعًا من الكتاب والصحفيين

الذين يملكون أوراقًا وأقلامًا ومساحات يستطيعون من خلالها أن يردوا على ما أكتب، لكن على العكس جبنوا جميعًا عن المواجهة ولجئوا إلى رفع القضايا!

وعلى الرغم من أن حق التقاضي المكفول للجميع هو من سمات التحضر والمدنية، فإن ما يثير الدهشة أن خمسة وثلاثين صحفيًّا من مختلف الصحف والمجلات الحكومية والحزبية والخاصة قد تكتلوا وذهبوا بربطة المعلم بعد أن حصلوا على إذن من الأخ مكرم محمد أحمد نقيبهم الهمام لمقاضاتي والثأر مني. خمسة وثلاثون من الأشاوس أرادوا إخراسي ولم يستطع أيهم أن يرد عليّ على الورق!

إيييه... ما الذي ذكرني بهذا الآن؟..آه افتكرت.

لم أستطع صبرًا على المكوث وقررت أن أعود لأكون مع الناس.

طَرح وفساتين

عثرت على مقعد في طائرة إلى مصر تهبط في مطار برج العرب غربي الإسكندرية.

وصلت مساء ٢٧ يناير. قضيت وقتًا طويلًا أبحث عن حقيبتي الضائعة حتى وجدتها في النهاية، ولكن عندما خرجت إلى الساحة خارج المطار لأبحث عن تاكسي وجدت نفسي وحدي على الرصيف في مواجهة البرد القارس وليس سوى الريح تؤنس وحدتي!

عدت إلى الموظفين بالداخل أسألهم عن الباصات والتاكسيات وهذه الأشياء اللطيفة التي يصادف أن تكون موجودة عادة خارج المطارات فأخبروني أن المطار جديد والحركة به محدودة وأن طائرة تهبط كل عدة ساعات.. وعرفت أنه أثناء ضياع الوقت في البحث عن حقيبتي كانت الباصات والتاكسيات قد حملت ركاب الرحلة جميعًا وانصرفت ولم يبق سواي!... طيب ما الحل؟ أجابني واحد ابن حلال بأنه سيدلني على سائق يمكن أن يوصلني إلى القاهرة... رأيتهما يتهامسان وهما ينظران نحوي فأيقنت أن الحديث يدور حول تقشيطي ولهف أكبر ما يستطيعان لهفه من شخص واقع من فوق جبل مثلي!

تقدم الاثنان نحوي وأخبرني السائق أنه سيأخذ مني ٨٠٠ جنيه فقط نظرًا لظروفي!

تعجبت جدًّا لأنني قطعت ثلاثة آلاف كيلو بالطائرة ولم أدفع سوى ستمائة جنيه فقط وسألته عن ماهية هذه الظروف التي جعلته يرأف بحالي ويطلب ٨٠٠ جنيه فقط، وما المبلغ المعتاد الذي كان سيطلبه من واحد ليس في ظروفي؟

تحدث إليّ بحديث يشبه كلام صفوت الشريف وفتحي سرور ومفيد شهاب وعلي الدين هلال..ذلك الكلام الذي يدفعني عادة للذهاب لدورة المياه للرد عليهم!

ركبت معه إلى القاهرة ولما بدأ يثرثر طلبت منه أن يخرس طوال الطريق ويتركني في حالي.

أوصلني الوغد حتى ميدان لبنان ورفض أن يكمل بي إلى المقطم.

وصلت البيت في الصباح الباكر من يوم ٢٨.. نمت وصحوت عند الظهر لأعرف أن الدنيا مشتعلة في كل أنحاء مصر.

نزلت مسرعًا إلى وسط البلد فوجدت الشرطة تسد الطرق وتمنع الناس من العبور. كان الجو معبأ برائحة البارود وكان الهواء يحمل الغازات المسيلة للدموع التي ألقوها على الشباب فتدخل الأنوف تهيج الأغشية المخاطية وتؤذي العيون. لم أكن أعرف إلى أين أتوجه أو ماذا أفعل. ابتعدت عن شارع طلعت حرب وحاولت الوصول إلى ميدان التحرير من ناحية قصر النيل أو شامبليون. وضح أن جهزة الأمن اعتبرت ميدان التحرير بمثابة قدس الأقداس الذي لا يجوز

التفريط فيه ظنًّا منهم أن من يسيطر عليه يحسم المعركة. (ثبث فيما بعد أنهم كانوا محقين في هذا).

كانت العربات والمدرعات تملأ شارع شامبليون والعساكر بالآلاف.. آه يا ربي!.. كم أرثي لهؤلاء التعساء الذين أخذوهم من الحقول حيث كانوا يزرعون القمح والقطن وجردوهم من الإنسانية ثم أطلقوهم على شعب مصر بعد أن أمدوهم بالأسلحة!

صادفت كثيرين ممن أعرفهم والتقيت شبابا من قرائي أقبلوا نحوي في حب وحاولوا الدفع بي للخلف عندما اشتد ضرب قنابل الغاز، لكني اندفعت في حماية موجات منهم إلى الأمام فأخذت الرصاصات المطاطية تنهمر ومعها أنواع من الطلقات لم يسبق لي أن رأيتها... للمرة الأولى في حياتي أرى كيف يصوب الجنود... كان البعض يصوب في الأسفل نحو الأقدام والبعض يصوب لأعلى.. وأخذت الصرخات تعلو والجموع تتشتت لتعود وتتجمع من جديد. أبصرت مجموعة من الجنود يصوبون طلقاتهم نحو جذوع الأشجار ونحو أعمدة النور ونحو الحوائط الخرسانية، وتعجبت.. ولكن بعدها كان الصراخ يشق عنان السماء لأن كل طلقة كانت ترتطم بجسم صلب ثم تنشق عن مئات الشظايا الحارقة التي تنتشر بسرعة البرق فتخترق وجوه الشباب ساخنة مثل الجمر!

تزايد عدد القنابل المسيلة للدموع ولم أكن قد أخذت أي احتياطات كاستعمال الكمامات والكولا والخل وباقي الأشياء التي نصح بها التونسيون.. وجدت أنفاسي تضيق وأنا ضيق الصدر بطبعي وشُعبي الهوائية لا تحتمل الخنقة، وزاد على هذا حالة العمى

التي شعرت بها بعدما وجدت نفسي عاجزًا عن الرؤية وعيناي ملتهبتان كالجمر.

اندفعت أجري لا أدري إلى أين، فأمسكني أحد الشباب وقال: يا أستاذ فلان خليك معايا. أخذت أجري وهو ممسك بيدي لفترة طويلة. عندما توقفنا سألته: أين نحن؟ فقال: في شارع الجمهورية. غاب عني قليلًا ثم أحضر ماء وأخذ يغسل لي وجهي وعينيّ. كنت أسعل بشدة ولا أستطيع التوقف عن السعال، وظننت أن روحي ستصعد نهاية لهذا السعال المتصل، ثم وجدت نفسي أتقيأ على الرصيف.. يا إلهي! أهذه هي القنابل المسيلة للدموع؟.. إنها على وشك أن تسيل أمعائي وتخرجها من جوفي. (فيما بعد عندما انتصرت الثورة عرفنا أن وزارة الداخلية كانت تستورد أسلحة فاسدة منتهية الصلاحية لقمع الشعب وذلك حتى يضع الوزير فارق السعر في جيبه..يعني لم يكتف المجرمون باستيراد أغذية فاسدة لكن وصلت سفالتهم لاستيراد أسلحة انقضت صلاحيتها..في الحقيقة ما زلت لا أعرف الفارق بين أسلحة القمع الطازجة وتلك الفاسدة!).

همت على وجهي لساعات طويلة ونسيت أين تركت سيارتي وعدت إلى البيت سيرًا على الأقدام. وعندما فتحت الأخبار عرفت أن شباب الثوار كسروا الشرطة وجعلوها تفر ليس من أمامهم فقط وإنما اختفت من مصر كلها. هذا وقد علمنا فيما بعد أن بعض رجال شرطة مبارك الذين كانوا يستأسدون على المتظاهرين المسالمين العزل قد عادوا إلى بيوتهم متخفين، وقد بالغ بعضهم في التخفي فارتدى جلابية نسائية وطرحة حتى لا يعرفه أحد!

وفي نفس الليلة أخذت دبابات الجيش تنتشر في كل مكان.. ثم توالت الأخبار عن حريق مقر الحزب الوطني ونهب المتحف المصري، ثم أخذت العصابات المسلحة التي تزعمها ضباط وأمناء الشرطة وضمت الأوباش والشبيحة من كل صنف ولون في ممارسة السلب والنهب واقتحام المحلات والمساكن، وأخذت تروع الناس في الشوارع.. ثم تلا ذلك فتح أبواب السجون على مصاريعها تنفيذا لخطة عرفنا فيما بعد أن حبيب العادلي قد وضعها مع مباحث أمن الدولة!

شركات اتصالات خائنة

في ذلك الوقت كان حسني مبارك وزبانيته قد قطعوا الاتصالات التليفونية وفصلوا خدمات الإنترنت حتى يسهل عليهم احتواء الثورة بعد أن أدركوا أن التواصل عبر شبكة الإنترنت وخصوصا من خلال مواقع تويتر وفيس بوك كان له الدور الرئيسي في تجميع الشباب والتواصل بينهم.

ما لم يفهمه البلداء من رجال مبارك المخلصين لتراثه في الفهم والتصرف أن قطع الاتصالات الهاتفية وخدمات الإنترنت قد جعل الذين كانوا ينوون متابعة المظاهرات من خلف شاشات الكمبيوتر لا يجدون مفرًّا من النزول إلى الشارع لمعرفة ما يحدث! ومن ثم فقد ضخت القرارات الغبية بمئات الآلاف من المحتجين إلى الشوارع في مدن القاهرة والإسكندرية والسويس والمنصورة والإسماعيلية وبورسعيد وبني سويف وطنطا ودمنهور وغيرها.

كان يوم ٢٩ يناير هو يوم اللجان الشعبية بامتياز. بعد غياب الشرطة واختفائها المفاجئ، وبعد اشتعال النيران في مراكز وأقسام الشرطة في طول البلاد وعرضها وجد الشعب نفسه عاريًا من الأمن في مواجهة البلطجية مصحوبين بفلول الشرطة المعبأة بالرغبة في الانتقام.

كانت عمليات السلب والنهب سريعة ومنظمة بما يشي بأنها كانت تمثل تنفيذ خطة موضوعة سلفًا لنشر الرعب في الشارع المصري حتى يفهم الناس أن الخروج على حسني مبارك لن يأتي بالحرية والكرامة وإنما بالخراب!

(أظهرت التحقيقات فيما بعد مع حبيب العادلي وزير الداخلية أنه قام بوضع خطة لترويع الشعب المصري إذا قام بثورة ضد الحكم قوامها الاعتماد على مباحث أمن الدولة وعشرات الآلاف من البلطجية الذين يعملون لحساب وزارة الداخلية).

لن ينسى التاريخ أن التليفزيون المصري الرسمي وبالذات برنامج «مصر النهارده» قد أدَّى دورًا خسيسًا ضد شعب مصر وكان بمثابة شوكة في ظهر الثوار عندما كان مذيعو أمن الدولة يبثون الذعر في نفوس المصريين من الثورة التي يقوم بها المضللون من أصحاب الأجندات.. عملاء أمريكا وإسرائيل وإيران وقطر ومنظمة حماس.. هكذا!.. ومن خلال تحريضهم السافر للأمن بأن يسحق المتظاهرين ويخلص مصر من شرورهم! ومن خلال التقارير الزائفة المفبركة عن مكالمات تأتيهم من سيدات يصرخن هلعًا بينما يتعرضن للاغتصاب في بيوتهن على يد الثوار! (ثبت فيما بعد أن المكالمات التليفونية كانت تأتي من مبنى التليفزيون نفسه!).

لن ينسى شعب مصر أن القنوات الخاصة المملوكة لرجال الأعمال الذين تربوا في حضن مبارك واستولوا على الأراضي والأموال كانت تقوم بنفس الدور الوسخ في الافتراء على الثورة والثوار ومحاولة قتل الأمل في نفوس الناس عبر تيئيسهم وإشعارهم بالعجز عن مقاومة مبارك وأجهزته الرهيبة.

لن ينسى شعب مصر الدور الذي قام به الديناصور الخسيس برأسه الصلعاء وكرشه المتدلي وهو ينتقل من إستوديو إلى إستوديو يشتم شباب مصر ويسخر من الشهداء ويفعل أقصى ما في وسعه حتى يحافظ لمبارك على كرسيه..ذلك الكرسي الذي يأتي بالمغانم للديناصور صديق العائلة!

في هذا الوقت قام المصريون دونما اتفاق في كل أحياء القاهرة وغيرها من المدن بإقامة كردونات وعمل لجان شعبية في كل شارع وكل حارة لحماية البيوت والممتلكات والأعراض من هجمات ميليشيات مبارك المسلحة بعد أن شاع انتقال البلطجية بسيارات إسعاف مسروقة ودراجات نارية مسروقة يغيرون بها على المتاجر والمولات والمنازل.

في البداية كان يثير ضحكي منظر الرجال والشباب والأطفال في الشارع وقد تسلح كل منهم بما استطاع، فهذا يمسك بسكين مطبخ وذاك يقبض على عصا غليظة وثالث يحمل حجرا مدببًا ورابع يمتشق سيفًا..آه والله سيفًا لا أدري من أين أحضره.. يقفون في الشارع بالليل والنهار في عز برد يناير وفبراير القارس.

بعد قليل كففت عن الضحك وأيقنت أن الأمر فعلًا أصبح مسألة حياة أو موت، وأن الأهالي إذا لم يتولوا الدفاع عن أنفسهم فلا أمل لهم في النجاة من عصابات مبارك المسلحة.

وعلى الرغم من أن اللجان الشعبية كانت تعوق انطلاقي بالسيارة في الطريق لأقرب نقطة لميدان التحرير فإنني وغيري كنا نتعامل مع

الأمر بسعادة وبخاصة أن الشباب الذين أقاموا نقاط التفتيش كانوا جميعًا وبلا استثناء في غاية الرقي والدماثة والحزم معًا.

في الليل اعتدت أن أنزل مع سكان العمارة الذين قاموا بتقسيم أنفسهم في نوبات للحراسة، وكنت أجلس معهم نتدفأ على الحطب الذي كنا نشعله ونشرب الشاي ونتسامر بينما أعيينا مفتوحة على الخطر الذي لم يبتعد بعد ممثَّلًا في مباحث أمن دولة الطاغية وبلطجيتهم المنفلتين. وكنا نسمع صيحات الشباب في الأماكن المجاورة وهم يهتفون كلما قبضوا على أحد البلطجية أو أحد عناصر شرطة مبارك قبل أن يقوموا بتسليمه لرجال الجيش.

ومن الأمور الجديرة بالتأمل أن الثورة قد أخرجت من الناس أفضل ما فيهم.. هذا ما كنت ألحظه وأنا أعبر مسافة كيلو متر واحد في ساعتين! كانت النقطة توقفني ويطلب مني الشباب إبراز تحقيق الشخصية ورخصة السيارة، وبعد أن يسمحوا لي بالمرور أتوقف عند نقطة أخرى بعد ٥٠ مترا تفعل الشيء نفسه. ورغم الوقت الضائع لم أكن أتململ من هذا الإجراء الشعبي الذي كان يقوم به تلامذة صغار بينما كان بقية الأبناء يتظاهرون ويعتصمون في الميادين والساحات الرئيسية مطالبين مبارك بالرحيل ومعلنين بأنهم لن يتزحزحوا من أماكنهم حتى يرحل الطاغية.

كنتاكي وفيليه بالخلطة

بدأت القنوات الفضائية تبث صورًا وأفلامًا التقطها مواطنون توضح هول ما ارتكبته الأجهزة الأمنية في حق أبناء مصر، وكان لقناة الجزيرة نصيب الأسد.

كانت قناة الجزيرة بعد أن تم التشويش على تردداتها وإغلاق مكتبها بالقاهرة وتكسير كاميراتها ومنع مندوبيها من العمل قد طلبت من كل من قام بالتقاط صور وأفلام من مواقع الأحداث أن يبعث بها للقناة.

وهكذا كسبت الجزيرة آلاف المراسلين من كل المحافظات بالمجان بسبب حماقة وجهل فرسان مبارك الإعلاميين الشرطيين!

أظهر أحد هذه الأفلام مدرعة تسير في المهندسين بأقصي سرعة وتدهس في الطريق كل من تقابله..لقد كانت منطلقة بهدف قتل أكبر عدد ممكن من شباب المتظاهرين، وقد أدت المهمة بنجاح.. ولحسن الحظ أن ثمة من قام بتصويرها حتى تكون وثيقة تصم مبارك بالعار إلى الأبد.

فيلم آخر قامت بتصويره في الإسكندرية فتيات كما يظهر من

أصواتهن في الفيديو، وقد كن في حالة هلع بينما يشاهدن من شرفة الشقة أسفل البيت شابًّا مسالمًا أعزل يقف وحده في الشارع فاتحًا ذراعيه، وأمامه عدد من الجنود شاهرين أسلحتهم الرشاشة. كانت البنات تهمهمن في لهفة قلب تليق بأمهات على الفتى الذي يقف وحيدًا يتحدث إلى الحيوانات المسلحة ولا نسمع في الفيديو ما كان يقول لهم.. لكن أعتقد أنه كان يسألهم: لماذا تفعلون بنا هذا ونحن أهلوكم؟ ويبدو أنه أراد تأكيد سلميته وحُسن نيته فخلع رداءه وهو يقترب منهم ثم رفع يديه لأعلى وكأنه يعلن أنه لا يملك سوى صدره العاري يواجه به جحافل المغول.. ارتفعت أصوات البنات في الشرفة تطلب الستر من ربنا وتبدي اللهفة على الفتى الذي يتقدم من الجنود عندما انطلقت فجأة رصاصات الغدر من أشاوس مبارك في صدر الشاب الذي سقط على الأرض مضرجًا في دمائه بينما صرخات الفتيات الهستيرية في البلكونة تمزق القلب على القمر المغدور.

فيديو ثالث أذاعته الجزيرة تبدو فيه سيارة فارهة يندفع سائقها في جنون بشارع قصر العيني بقلب القاهرة مقتحمًا تجمعات الشباب الذين كانوا في مسيرة بالشارع ومطيحًا بكل من يصادفه قبل أن يختفي تاركًا وراءه أربعة عشر جثة ممددة على الأرض غير عشرات المصابين. (تواترت أنباء عن أن اللواء إسماعيل الشاعر مدير أمن القاهرة هو الذي كان يقود بنفسه السيارة القاتلة التي قيل أيضًا إن رجاله قد سرقوها من السفارة الأمريكية ليرتكبوا بها الجرائم).

في يوم الأحد ٣٠ يناير كان ميدان التحرير ممتلئًا عن آخره بأكثر من مليوني مواطن، وقد فاض الناس وتمدد المتظاهرون حتى ميدان طلعت حرب وميدان عبد المنعم رياض.

عندما دلفت إلى الميدان من جهة الجامعة الأمريكية وقفت في الطابور وخضعت للتفتيش السريع الذي كان الشباب يقومون به للتأكد من خلو المتظاهرين من الأسلحة، وقدمت لهم تحقيق الشخصية ليتأكدوا من كون الشخص ليس أحد مجرمي الشرطة أو البلطجية.

كانت وجبة الطعام الرسمية المعتمدة في الميدان هي أطباق الكشري التي قام الشباب بجلبها من محل كشري التحرير، وهو على بعد خطوات من الميدان، ويبدو أنه بحاسته التجارية ظل مفتوحًا رغم إغلاق كل المحلات بالمنطقة، فكان المزوِّد الرئيسي للشباب بالطعام..إلى جانب أن كثيرين من أفراد شعب مصر وقد احتضنوا شباب الثوار أخذوا يتوافدون على الميدان حاملين معهم المؤن والأدوية والبطاطين والأغطية للذين يبيتون ساهرين تحت قصف البرد والمطر مقسمين أنهم لن يرحلوا حتى يرحل الجبان.

ولا أنسى شابًّا ابن بلد كان يحمل على يديه طاولة محملة بأطباق الكشري وهو يشق طريقه داخل الميدان قائلًا بخفة ظل لا حدود لها: وسّع للكنتاكي السخن.. حاسب على الفيليه بالخلطة اللي جاي من مطعم مكسيم.. افتح طريق لطلبية الكباب الإيراني المفلفل... هلموا يا قوم إلى وجبات العم سام على حساب السفارة الأمريكية!

وكان بالطبع يسخر من التليفزيون المصري ومن قناة المحور وغيرها من القنوات التي كانت تبث الدعاية الرخيصة وتطلق الشائعات في حق الشباب الثائر وأشهرها ما قام به برنامج ٤٨ ساعة الذي فبرك لقاء مع إحدى العاهرات التي زعمت أنها تلقّت تدريبًا

بالولايات المتحدة بصحبة زعماء الثوار من الشباب ثم عادوا لينفذوا المخطط الأمريكي على الطبيعة!

(فيما بعد اعتذر مقدم البرنامج ومقدمته بأنهما كانا ضحية رئيس تحرير البرنامج الذي فبرك القصة بالاتفاق مع العاهرة لحساب صاحب المحطة الذي تربطه بالنظام مصالح اقتصادية!).

هذا غير ما فعله الديناصور الأصلع الخسيس الذي أطلق قيحه على الشاشات وزعم أن وجبات مطعم كنتاكي تصل إلى الشباب طوال الوقت مدفوعة الثمن من جهات أجنبية!

لم يدر الخسيس أن مطاعم كنتاكي هي بالأساس مطاعم شعبية للفقراء، وزبائنها في مصر معظمهم من الطلاب والصنايعية وليست مطاعم فاخرة بحال، ولم يفهم أن معظم الشباب الذين تحدوا الموت وخرجوا يطلبون الحرية هم بالأساس ممن يقال عنهم «أولاد ناس» وأهلهم من الموسرين وبالتالي لا يصعب عليهم تناول وجبة متواضعة كهذه.. وفاته أيضًا أن مطعم كنتاكي بميدان التحرير وسائر فروعه بالقاهرة كانت مغلقة طوال أيام الثورة!.. لكن ماذا نقول للوضاعة والانحطاط؟!

بيتزا وريش ومخاصي

لم تكن قوات أمن مبارك التي انكسرت وانكشفت وبانت خستها هي الخطر الوحيد على الثورة، ولم تكن كتائب مبارك الإعلامية بقيادة وزير الإعلام القابع حاليًا في سجن طرة لجرائم السرقة ونهب المال العام، هي الوحيدة التي وقفت في وجه الثورة واتهمت أنبل أبناء مصر بأحط الصفات، لكن كان هناك نوع آخر من عشاق مبارك صدم موقفهم الرأي العام في مصر بشدة عندما انحازوا لسيد الجريمة المنظمة على حساب شباب الثورة.

عشاق المخلوع هؤلاء ليسوا إلا نفرًا من الفنانين الذين كنا نحسن الظن بهم فإذا بهم بدون مناسبة يتنكرون للجمهور الذي صنعهم ويُؤْثِرون عليه ظالمه وقاتله!

نأخذ السيد طلعت زكريا كمثال..هذا الفنان دخل قلوب الناس وحقق نجاحًا طيبًا بفضل الجمهور وليس بفضل مبارك، ومع هذا فقد سمح لنفسه بأن يظهر في التليفزيون متهمًا أزهار الوطن الغضة بأنهم يتخذون من ميدان التحرير وكرًا لتعاطي المخدرات وممارسة الجنس الجماعي!.. فأي ترخص وأي سوء مآل هذا الذي ألقى بنفسه إلى دركه الأسفل حضرة الفنان الواعد؟.. وماذا فعل له الذين

استشهدوا والذين أصيبوا بعاهات وهم يدافعون عنه وعن أولاده ويطلبون لهم الكرامة والتحرر من أخلاق العبيد؟

ليس طلعت زكريا وحده وإنما هناك أيضًا الممثلة السابقة سماح أنور التي ظهرت في حديث تليفزيوني موجود على اليوتيوب لمن أراد أن يشاهده طالبت فيه بإضرام النار في المعتصمين بميدان التحرير حتى تستريح سيادتها منهم وتعود إليها سكينتها وهدوءها!

كما انضم جانب من الفنانين لمظاهرات خرجت لتأييد مبارك ولعْن الثوار شارك فيها يسرا وإلهام شاهين وزينة.

ولا ننسى الفنان عادل إمام الذي يطلق عليه شماشرجيته لقب الزعيم الذي أدان بكل قوة المتظاهرين وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، وطالب الشعب المصري بعدم الانصياع إلى أفراد مناهضين لحضارة مصر ورقيها، مشيرًا إلى وجود أياد خفية لا تريد لمصر أن ترى النور ولم ينس الزعيم أن يشيد بسياسة القائد حسني مبارك الحكيمة التي حفظت مصر من كل سوء. فعل عادل إمام هذا قبل أن يعود فيؤيد الثواربعد انتصار الثورة ويقول إنه كان مع الثوار من أول لحظة!

ولعل الكليب الشهير للفنان تامر حسني الذي شاهدناه جميعًا من ميدان التحرير بعد أن نال علقة ساخنة على أيدي الشباب، عندما كلفه النظام بالذهاب للميدان ومحاولة التأثير عليهم بما له من شعبية، وذلك من أجل حملهم على الانفضاض والرحيل من الميدان... وقد قام باعتلاء المنصة المنصوبة بالميدان وبدأ يخطب في المتظاهرين.. وباقي القصة معروف.

بعد العلقة جلس تامر حسني يبكي ويولول ويقول إنه تم خداعه والتغرير به، وأنه نادم على ما فعل!

وهناك في قائمة من عادوا الثورة آخرون ضمتهم قوائم وضعها الثوار ومن بينهم أشرف زكي الذي قاد مظاهرة تأييد لمبارك بميدان مصطفى محمود وروجينا ومحمود ياسين ومحمد صبحي وغادة عبد الرازق.

ومن الفنانين الذين تم طردهم شر طردة من ميدان التحرير على أيدي الشباب الثائر الممثل أحمد السقا الذي أعلن تأييده لمبارك بكل وضوح ولم ير الدم الذي أغرق كفي رئيسه وحبيبه المخلوع!

المشكلة في نظري لا تكمن في وجود مؤيدين لحسني مبارك، فهذا أمر وارد ومتوقع، فهناك من تمتع في عهده بالحظوة والعز والدلال، كما أن هناك من الفنانين من يفتقد الوعي والثقافة ويتصور أن الحاكم بالضرورة على حق. ليست هناك مشكلة في تأييد مبارك، لكن الكارثة تكمن في أن معظم هؤلاء قد شتموا أولادنا وشنَّعوا عليهم ونثروا افتراءاتهم وأكاذيبهم بحقهم، وهذا موقف يتجاوز الرأي السياسي ويتجاوز حتى النفاق المعتاد الذي ألفناه منهم، وكنا نتصور أن دماء الشهداء ستعيدهم إلى صوابهم.. لكن هيهات!

غير أن أغرب وأطرف المواقف التي رأيتها من أحد الفنانين المدلهين في هوى نظام السيد حسني مبارك هو موقف الممثلة المعتزلة عفاف شعيب، وهو مسجل بالصوت والصورة على

اليوتيوب، ولا أنكر أنني أعود إليه من وقت لآخر كلما عز الضحك بسبب طرافته وتخطيه كل حدود العبث.

قالت عفاف شعيب في البرنامج التليفزيوني والأسى يملأ ملامح وجهها إن الثورة عطلت الحياة وأزعجت الناس. وأثبتت الفنانة الكبيرة كلامها هذا بمثالين بالغي الدلالة.. ابنة أخيها قالت لها: أريد أن آكل بيتزا يا عمتي. وللأسف عجزت العمة عفاف عن إحضار البيتزا لأن محلات البيتزا كانت مغلقة بسبب الثورة!

ليس هذا فقط ولكن ما يزيد النقمة على الثوار أن ابن أخيها الطفل ذا العامين طلب هو الآخر أن يأكل ريش مشوية، وكانت الطامة الكبري أن محلات الكباب هي الأخرى كانت مغلقة!.. فياللثورة الغادرة التي حرمت الأطفال من أطعمتهم المفضلة!

في الحقيقة لم يدهشني في حديث عفاف شعيب سوى جزئية بسيطة عجزت عن فهمها..أي رضيع هذا الذي يبلغ من العمر سنتين ويريد أن يتعشى لحومًا مشوية؟

على أيامنا كان الرضيع الذي لم تنبت له أسنان يرضع من ثدي أمه أو يتعاطى الببرونة المملوءة بالحليب، لكن يبدو أن لأطفال الجيل الجديد ميولا واتجاهات جديدة لا يفهمها أمثالي!

لكن حمدًا لله أن موجات التظاهر قد انحسرت وفورة الثورة قد هدأت، والحياة الطبيعية قد عادت، ومحلات الكباب والبيتزا فتحت أبوابها في كل مكان، ويمكن للابنة الحبيبة أن تأكل البيتزا كما تشاء، كما يمكن للرضيع الغالي أن يدوس ما طاب له الدوس في اللحوم المحمرة والمشوية، وأن يضرب إذا أراد «طواجن مخاصي

وعكاوي ولحمة راس»، فضلًا عن صواني الرقاق والكبيبة والمكرونة بالبشاميل!

مع وعد منا بأن نقيم في الثورة القادمة بميدان التحرير ركنًا للمشاوي والمعجنات حتى لا نحرم أحدًا من مزاجه الخاص، وحتى لا يفكر السادة الأكّيلة في أن يجهضوا لنا الثورة!

الأشكيف وإف ١٦

في يوم الثلاثاء ١ فبراير كانت اللجان الشعبية التي تشكلت لحماية البيوت والممتلكات من هجمات بلطجية مبارك قد تزايدت بشكل كبير وأصبحت المسافات بين الواحدة والأخرى في الشارع ضيقة للغاية، وصار التحرك بالسيارة في غاية الصعوبة.

من الواضح أنه إلى جوار الشباب الواعي الذي أحس بخطورة الموقف كان هناك تلامذة صغار أرادوا أن يجدوا لأنفسهم أدوارًا فأصبحوا يقيمون الحواجز ويستوقفون السيارات المارة على بعد أمتار معدودة من الكمين السابق بدون أي داع!

لكن مهما كان الأمر فهم في النهاية مهذبون وراغبون في عمل شيء. على العكس من رجال الشرطة الذين عشنا معهم عمرنا كله واتسم أداؤهم الأمني بالخيبة وانعدام الكفاءة التي عوضوها بالوحشية والخروج على القانون.

وفي الحقيقة لقد كنت طرفًا في نقاشات في ميدان التحرير مع بعض الشباب حول هذه القضية، ولا يؤسفني أنني كنت منحازًا للرأي القائل بأننا بدون شرطة على الإطلاق أفضل حالًا منا في ظل إرهابيين يديرون وزارة الداخلية!

عندما وصلت ميدان طلعت حرب في الصباح كان مكتظًّا بالذين يأخذون استراحة من هتافات التحرير والذين يلوذون بمكان أقل صخبًا لإمكانية الرد على المكالمات التليفونية. وقد كنت شخصيًّا ألجأ إلى بير السلم في عمارة بميدان طلعت حرب عندما أتلقى مكالمة من الفضائيات التي كانت تتابع ما يحدث على الطبيعة عن طريق الاتصال بالكتَّاب والصحفيين الموجودين بموقع الحدث.

داخل ميدان التحرير كانت الصورة مشرقة رغم القلق والتوتر والترقب والعيون المسهدة من التعب وقلة النوم.

إلى جوار ناصية شارع الجامعة الأمريكية تكونت وحدة إسعاف من أطباء متطوعين كانوا يضعون بادجات واضحة تبين أسماءهم وطبيعة عملهم.. كانت تعمل بالتناوب لمداواة من يمرض من الشباب أو يتلقى طوبة أو رصاصة أو طعنة غادرة ممن يندسون بين الثوار من رجال مبارك!

كنت أقف بين مجموعة من الشباب نستمع إلى أحد الشعراء يلقي قصيدة في ركن من الميدان عندما ارتجت الأرض فجأة من تحت أقدامنا ودوى صوت انفجارات شديدة وسمعنا صوت الزجاج والخشب يهتز في بنايات الميدان، ولمحنا فوق رؤوسنا في السماء طائرتين مقاتلتين عرفنا فيما بعد أنهما من طراز إف ١٦ تعبران السماء بسرعة خارقة. وللحق فإن أعصابي قد اهتزت بشدة وظننت أن الميدان يتعرض للقصف بالقنابل! نظرنا بعضنا إلى بعض في ذهول لا نكاد نصدق ما نراه ونسمعه. هل يقوم الأشكيف مبارك بقصفنا بالطائرات أم ماذا؟ ثوان وكانت الطائرتان قد عادتا أدراجهما بعد أن

أخذتا لفة في السماء وعاد الصوت المخيف يزلزل الميدان من جديد. ما هذا الذي يحدث؟! هل جن الأشكيف وفقد صوابه؟! أيريد أن يقصف متظاهرين مدنيين مسالمين بالطائرات؟!

أخذت الأحاديث الجانبية بين الموجودين بالميدان تحتدم بعد هذا التصعيد الخطير من جانب مبارك. قال البعض إن موقف الجيش لم يتضح بعد من ثورة الشعب وربما ينحازون للطاغية باعتبارهم مؤسسة عرفت بالتراتبية والأقدمية وتنفيذ الأوامر، وربما أن مبارك قد أصدر أوامره بقصف الميدان وإبادة المتظاهرين. وقال البعض الآخر إن مبارك القادم من القوات الجوية يريد أن يبعث لنا برسالة أن الجيش معه وأن الطيران يعمل لصالحه وأنه قد يستخدمه ضد الشعب إذا لم يتراجع ويفض المظاهرات المطالبة برحيله. وقال رأي ثالث إن الجيش المصري هو جيش شعب مصر وليس جيش الحاكم، ولهذا لا يمكن أبدًا أن تمتد يده بسوء إلى أبناء مصر،ذلك لأن مصر على عكس غيرها من البلدان العربية يتشكل جيشها من أبنائها فقط.

ونحن نعلم بالطبع أن هناك من الجيوش العربية من يتكون من جنود مرتزقة أفارقة وطيارين من أوكرانيا ورومانيا، كما أن هناك جيوشًا أخرى تعتمد على المجنسين الباكستانيين والبلوش، غير جيش آخر يعتمد على أبناء الطائفة العلوية التي تكون عشرة بالمائة فقط من السكان!

أما الجيش المصري فهو ببساطة مكون من أبناء مصر جميعًا.. أبناء قبلي وأبناء بحري.. القاهريين والسكندريين والسوايسية، الصعايدة والسواحلية، النوبيين والسيناويين وقبائل أولاد علي،

الأقباط والمسلمين، البيض والسُّمر..الجيش المصري هو مصر مختصرة.

شعرنا باطمئنان إلى هذا الرأي الأخير، ومع هذا فقد تعالت الأصوات والهتافات تشق عنان السماء باعثة برسالة إلى الطاغية: لن نرحل من هنا..أنت الذي سترحل، لن نخاف منك ومن كل شياطينك، وليست أمامك لتجلينا عن الميدان إلا أن تقصفنا بالقنابل وتبيدنا عن آخرنا.

(ثبت بعد نجاح الثورة أن الجيش كان معنا منذ اليوم الأول، وأنه استعان بنا كما استعنا به للقيام بالثورة وتأمينها، والخلاص من الكابوس الذي جثم على أنفاس شعب مصر وجيشها معًا).

يوسف وهبي

كان الأداء السياسي للأزمة التي تمر بها البلاد من جانب السلطة يتسم بالغباء والجهل والبلادة اللامتناهية.. تلك التي ميزت أيام وشهور وسني حكم مبارك الطويلة الكئيبة الراكدة الرتيبة.

كان أول ظهور لمبارك يوم ٢٨يناير والشوارع مشتعلة والأمن الغادر مختف ومدرعات الجيش تنتشر في الشوارع.

ظن البعض أن طائر العقاب يمكن أن يتعطف علينا ويعطينا «كتاكيت» وهو الذي اعتادت أسرابه أن تنقض علينا وتخطفهم من بين أيدينا، وتصوروا أن ظهور الرئيس قد يحمل أخبارًا تحمل أي أمل للناس.

لكن صدقت توقعاتي وخرج الأستاذ علينا ليقيل حكومة أحمد نظيف ويختار بدلًا منه أحد أعوانه وتلامذته وهو أحمد شفيق، فأضحك شعب مصر بأكمله على النكتة السخيفة، لأنه في الحقيقة لا فرق بين شفيق ونظيف، فالاثنان من نفس الماعون الذي يطبخ فيه مبارك منذ ثلاثين سنة، فضلًا عن أن أزمة مصر سببها رأس السلطة وليس أذنابها وذيولها.. والحال لن ينصلح بذهاب سكرتير وقدوم سكرتير جديد!

كما ظن مبارك وهو يعلن البشارة المتمثلة في تعيين السيد عمر سليمان نائبًا لرئيس الجمهورية.. ظن أن المصريين سيبيتون يرقصون في الميادين العامة من فرط الفرح والسرور. أنا متأكد أن هذا كان ظن مبارك فعلًا بدون مبالغة، ذلك أن قرار تعيين نائب كان بالنسبة له أصعب من تجرع السم، ولهذا فلا بد وأنه اعتقد أن القرار قد يسعد الشعب الثائر!

ومرة أخرى يثبت مبارك أنه أبعد ما يكون عن نبض وأحلام وأفكار واحتياجات الشعب الذي جثم على أنفاسه عشرات السنين. كانت حسبة مبارك للأشياء على الدوام أن ما يسعده لا بد وأن يؤلم ويؤذي الشعب بالضرورة، كما أن ما يؤلمه لا بد وأن يكون مصدر سعادة لهؤلاء الأشرار المناكيد. لكن فات الأستاذ هذه المرة أننا لا نريده هو ولا ابنه ولا أي أحد خدم في بلاطه، وفاته أن آمال الناس قد ارتفعت ولا أحد يستطيع الوقوف في وجه الأحلام التي اتخذت شكل الأمواج الهادرة.

بعد ذلك ازدادت الأمور سوءًا وأيقن البلداء في البلاط أن خطبة أخرى من الرجل تحمل أشياء جديدة قد تمثل طوق النجاة للنظام العجوز الهرم. وهكذا كان الظهور الثاني مساء الثلاثاء أول فبراير.

ظل التليفزيون منذ المغرب يذيع على الناس أن الرئيس سيلقي كلمة بعد قليل، وظن حسنو النية مرة أخرى أن مبارك قد يرحم شعبه ويعلن تنحيه عن الحكم.

طال الانتظار والناس متسمرون أمام الشاشات في البيوت والشوارع، والقلق يحرقهم.

في طريق العودة للبيت الساعة العاشرة بصحبة أحد الأصدقاء راهنته على أن مبارك يجلس الآن سعيدًا في قصره وهو يعلم أن الناس تكاد تنفجر من الإعياء والغضب في انتظار كلمته. لكن صديقي رفض الرهان لأنه كان من نفس رأيي، بل زاد باعتقاده أن الرئيس ربما كان يتعشي الآن وزة محشية بالخلطة!

عند منتصف الليل أطل الرئيس على الناس والجدية تكسو ملامح وجهه وأخذ يقرأ من ورقة أعدت له بعناية. كان من الواضح أن من كتب له هذه الكلمة قد تعمد أن يعبئها بالاستمالات العاطفية التي تؤثر في الناس وعمل على اللعب على أوتار مشاعر المصريين، فجعل الرجل يتحدث عن عمره الذي أفناه في خدمة الوطن في السلم والحرب!.. وتحدث عن أنه ارتبط بهذه الأرض ولن يموت إلا بمصر، وقال إنه موافق على تعديل شروط الترشيح لرئاسة الجمهورية وسيعمل على تعديل المادتين ٧٦ و٧٧ (وهو الأمر الذي بح صوتنا من أجله لسنوات!) وقرر أنه سيقوم بتنفيذ بعض أحكام القضاء التي طالما داسها بحذائه، ولم ينس أن يزف إلى الناس في لهجة منكسرة أنه لم يكن ينوي ترشيح نفسه في الانتخابات القادمة، ثم طلب البقاء في الحكم إلى آخر فترته حتى يحقق للناس ما يطلبونه!

شعرت بعد انتهاء الكلمة بحنق عظيم على هذا الرجل الذي دمر دولة كبيرة شامخة وأذل شعبها وجعل منها وطنًا مسكونًا بالعار، ثم عندما ثار عليه الشعب إذا به يلوذ بالتمثيل ويتقمص دور يوسف وهبي فيتمسكن ويظهر كرجل عجوز هرم يتعرض للعقوق من أبنائه الذين لا يريدون أن يرحموا شيخوخته، بل يتعمدون إهانته في هذه السن!

في تلك الليلة شعرت بالخطر وخشيت على الثورة من فرط طيبة الشعب الذي تأثر لخطبة الرجل العجوز ونسي تاريخه الحافل بكل أنواع الجرائم.

وزاد الطين بلة أن مذيعات التليفزيون في معظم القنوات قد ظهرن والدموع في عيونهن وألسنتهن تلهج بالشكر للأب الحاني الذي استجاب لمطالب شعبه وقبل ألا يرشح نفسه مرة سادسة! وبدا أن الفيلم الهندي قد دخل على الناس غرف نومهم وتركهم على استعداد لأن يعتذروا للرئيس ويطلبوا منه العفو والسماح!

فات الناس الطيبين أن الرجل وقد وعدهم بعدم الترشح إلا أنه لم يقل لهم إن ابنه جمال لن يترشح هو الآخر، وفاتهم أن هذا الأب العطوف هو نفسه الذي أصدر أوامره في الأيام السابقة بقتل مئات المتظاهرين بدم بارد. وفاتهم أن الرجل الذي لا يطلب سوى ستة شهور إضافية في الحكم قد جلس على العرش ٣٠ سنة ولم يحقق سوى الخراب، فماذا سيفعل في الشهور الستة؟ لم يدرك كثيرون أن الرجل يريد شراء الوقت لاحتواء غضب الناس وجعلهم ينصرفون ثم يكون انتقامه بعد ذلك.. ومن الطبيعي أن الناس لن تستطيع أن تقوم بثورة جديدة بعد ستة شهور لأن الثورات ليست عشرة طاولة نلعبها على القهوة!

بعد الخطبة مباشرة نشط الحكماء الذين شكلوا لجنة أسموها بهذا الاسم في دعوة الشباب إلى الرجوع للبيوت بعد أن قام الرئيس بتلبية جميع المطالب.

لم أكترث للحكماء الخارجين من معطف مبارك، لكن ما كسر

قلبي في تلك الليلة هو التليفونات التي رنت في مليون جيب داخل ميدان التحرير وكانت الأمهات هن الطالبات يتضرعن إلى فلذات الأكباد أن يريحوا لهفة قلوبهن وأن يكتفوا بما حققوا ويعودوا للبيوت بعد أن كفاهم الرئيس بحكمته وعطفه شر القتال!

كانت الأمور كلها تلعب لصالح الرئيس، ولا بد أنه قد فرك كفيه فرحًا بالنتيجة المبهرة للخطبة الميمونة، لولا أن الرئيس نفسه بسلوكه الذي لا يعرف غيره قد أحيا الثورة من جديد بفعلته البربرية التي أقدم عليها رجاله بعد ساعات معدودة.

استدعاء الجحش

كان للكلمة المسمومة التي ألقاها حسني مبارك مساء الثلاثاء ١ فبراير أثر لا تخطئه عين، فقد نجح بكل أسف في خداع ربات البيوت والبسطاء من شعب مصر الطيب عندما رسم له كهنة البلاط أن يخرج على الناس كرجل عجوز مهزوم يتعرض للجحود والنكران من شباب في سن أولاده وأحفاده.

أحسستُ بغصة في الحلق وخشيت على وحدة الصف التي كانت حتى هذه اللحظة هي السلاح البتار الذي هزم قوات الأمن وهز عرش الطاغية.

كان الأمر الذي استوقفني أكثر من غيره هو حجم النذالة والخسة التي تعامل بها نظام الحكم الساقط مع رجاله وخدمه وسكرتاريته من الوزراء والمسؤولين، إذ بمجرد أن لاحت نذر الثورة في الأفق أسرع مبارك بالتخلص من رئيس وزرائه أحمد نظيف وتعامل معه كخرقة قذرة بصق فيها ثم ألقاها في صفيحة الزبالة، وذلك عندما أصدر أوامره بإعفائه من منصبه واستدعاء أحمد شفيق بدلًا منه!

ليس هذا فقط وإنما سارع أيضًا بالتعامل مع صديقه ورفيق دربه

في الإرهاب وتفجير المنشآت وتلفيق التهم..وزير داخليته حبيب العادلي وكأنه طاعون يتعين التخلص منه فألقى به إلى السباع وأتاحه لأجهزة التحقيق لتقتص منه، وذلك حتى يفتدي نفسه به في قضية قتل المتظاهرين.

والآن بعد الكلمة التي ألقاها والتي كانت عبارة عن مشهد تمثيلي أداه مبارك بمهارة غريزية أخذ معاونوه في التفكير في طرْق الحديد وهو ساخن، فاتخذوا قرارًا بأن يواجهوا مظاهرات الاحتجاج في الشارع بمظاهرات مضادة مؤيدة لمبارك، ويا حبذا لو كانت مليونية حتى يرتبك العالم الذي يتابع الأحداث ويتصور أن المشكلة ما هي إلا تضارب في الرؤى واختلاف في الآراء وانقسام سياسي في الشارع المصري بين مؤيدين للرجل ومعارضين. وبهذا يتم تجريد المظاهرات من وهجها النبيل وتأثيرها الدولي، فضلًا عن إطفاء حماسة الثوار وزعزعة ثقتهم في أنفسهم.

وعليه قام رجال المخلوع.. زكريا عزمي وأحمد عز وفتحي سرور وصفوت الشريف وإبراهيم كامل وغيرهم من قيادات الحزب الوطني بالتنسيق مع اللصوص الكبار من رجال الأعمال السفلية.. قاموا بالاتفاق على حشد ما يستطيعون من جماهير في الشارع، مع اختيار مكان فسيح يسمح للحشود الغفيرة من عشاق الطاغية بالتعبير عن مشاعر الحب والولاء على نحو ظاهر يسد عيون الكاميرات المفتوحة على اتساعها.

وقع الاختيار على ميدان مصطفى محمود بالمهندسين مكانًا للمظاهرات المقترحة، ولكن ظهر للسادة المتآمرين مشكلة إجرائية بسيطة لم يعملوا حسابها:

من بين ما يزيد على ثمانين مليون مصري لا يوجد أنصار أو محبون أو مؤيدون حقيقيون لحسني مبارك في الشارع المصري!

تساءل زعماء العصابة: وأين الموظفون الذين كان يتم إخراجهم من شركاتهم للتصويت في الانتخابات والاستفتاءات المزورة مقابل مائة جنيه؟

وأين العمال الذين كان رجال الأعمال من أصحاب المصانع يحشدونهم مقابل وجبة ساخنة للإيحاء بأن هناك من يدلي بصوته في تمثيليات التزوير؟

كانت الإجابة المفاجئة بأن أولئك وهؤلاء قد تمردوا على العبودية وعادت إليهم الروح وظهر انتماؤهم الحقيقي، فسرت في عروقهم دماء الثورة وتمترسوا وسط المحتجين في كل مدن مصر.

وهنا تساءل سادة الجريمة المنظمة من جديد: وأين الضباط والأمناء وعساكر الأمن المركزي وجنود الشرطة، فضلًا عن البلطجية وأصحاب السوابق الجنائية الذين يمكن الاستعانة بهم كالمعتاد والتظاهر بأنهم أنصار مدنيون للزعيم المحبوب؟

ومرة أخرى تأتي الإجابة بأن عددًا لا بأس به منهم ارتدوا ملابس نسائية ولبسوا طُرحًا كالنساء، وذلك من أجل التخفي عن عيون الشعب، ثم عادوا متسللين إلى بيوتهم تاركين الشارع لمصيره!.. والباقون في حالة نفسية سيئة لا تسمح باستدعائهم للقيام بالمطلوب.

ما العمل إذن؟!

ليس هناك مفر من أن يكون المجرمون والجنائيون وحدهم

هم جماهير الزعيم بعد العجز عن تطعيمهم بمجاميع الكومبارس المعتادة!

تم عقد اجتماعات سريعة في أكثر من مكان أشرف عليها جمال مبارك نجل الزعيم الذي وصلت رسالته لرجال الأعمال وقياديي الوطني واضحة وضوح الشمس بعد أن أدرك الجميع دقة الموقف، وأن مستقبلهم على المحك، وكل ما سرقوه ونهبوه سيصبح في مهب الريح إذا عجزوا عن القيام بالمهمة.

تبارى الجميع في محاولة التصرف فقام سامح فهمي وزير البترول ببذل أقصى جهد لجمع ما يستطيع من رجال، وحاولت عائشة عبد الهادي وزيرة القوى العاملة أن تفعل أي شيء، أي شيء لإنقاذ الموقف، وكان منظرها في ميدان مصطفى محمود واقفة تهتف من مجامع قلبها لا تخطئه عين.

من الجدير بالذكر أن عائشة عبد الهادي بالذات كان موقفها غاية في الحرج. كان الجميع يعلمون أنها لن تستطيع في عهد آخر أن تحصل على أي وظيفة عادية لأنها لم تحصل على شهادة عليا أو حتى متوسطة!.. وأمثالها من النساء في المجتمع المصري لا يحصلن في العادة إلا على وظيفة دادة في مدرسة أو بائعة ترمس على قارعة الطريق أو ما شابه. وكان خصومها يتندرون دائمًا بأنها لم تحصل على الابتدائية!.. لكن أنصارها للحق نجحوا في رد كيد الأعادي وأثبتوا حصولها على الشهادة الابتدائية.. وبمجموع كبير!

وطبعًا حكاية عائشة عبد الهادي مع سوزان مبارك معروفة للجميع، وولاؤها المطلق للهانم يعرفه القاصي والداني، إذ إن السيدة

حرم الرئيس التي ليس لها أي صفة دستورية أو تنفيذية قد استغلت تحول البلد إلى عزبة مملوكة للإكسلانس زوجها والمحروس ابنها قد أتت بالحاجة عائشة صاحبة الابتدائية وزيرة، متخطية كل أصحاب الدكتوراهات والخبرات والتاريخ السياسي.

ومن الطبيعي أن هذا المنصب سمح للست عيشة بمقعد بمجلس الوزراء وسيارة سوداء فخمة بستائر مسدلة، وحرس خصوصي، وطليعة من الموتوسيكلات تسبقها وتبشر بقدومها، وكذلك كشك حراسة أسفل البيت!

وغير مستغرب طبعًا أن هذا الولاء قد سمح لها بأن تنحني على يد زوجة الرئيس في أحد اللقاءات العامة وتبوس يدها في مشهد ذليل شهير صعق شعب مصر من أقصاه إلى أقصاه.. ويمكن لمن لا يصدق أن يشاهده على اليوتيوب.

الجحش يقتحم الميدان

في صباح الأربعاء ٢ فبراير كانت استعدادات قيادات الحزب الوطني لاجتياج الشوارع بالبلطجية والمجرمين على قدم وساق بعد أن تم وضع الخطة بإحكام.

بدأت طلائع المجرمين في التجمع بميدان مصطفى محمود تحت إشراف رجل الأعمال إبراهيم كامل الصديق الصدوق لجمال مبارك الذي عرفه شعب مصر باعتباره أحد الطيور الجارحة التي غرفت من أموال المصريين في حماية أسرة الرئيس.

كان إبراهيم كامل من القوة والجنوح إلى درجة أنه تحدى كل المسؤولين الذين خططوا لإقامة مفاعل نووي بمنطقة الضبعة بالساحل الشمالي وهو الموقع المثالي طبقًا لتوصيات العلماء. تحداهم وأعلن أن الموقع سيتم أخذه بواسطة رجال الأعمال لإقامة مشروع سياحي كبير!

حتى الرئيس المخلوع الذي أعلن بعد تردد طويل أن الموقع سيقام عليه المفاعل لم يستطع أن يفتح فمه عندما تحداه إبراهيم كامل علانية وقال إن المشروع السياحي سيقام رغم أنف الجميع!

ويقول العارفون إن الدلال الذي حظي به إبراهيم كامل كان راجعًا للبيزنس الذي ربطه بالمخلوع وولديه، وعلاقات الثروة الحرام التي ولغوا فيها جميعًا.

وبطبيعة الحال لم يكن المنحرفون من رجال الصف الأول بالحزب والحكومة يعملون وحدهم، وإنما كان تحت إمرتهم مجموعة من نواب مجلس الشعب المزور، كانوا حلقة الوصل بين البلطجية وبين سادة الجريمة المنظمة، وكان على رأس هؤلاء نائبا الهرم بمجلس الأنس!

كل ما تم التخطيط له كنا لا نراه ولكن كنا نستشعره، ثم قام عليه دليل مباشر بعد أن ظهر إبراهيم كامل في محطة سكاي نيوز وأيد نزول مؤيدي مبارك إلى ميدان التحرير للاصطدام بالمتظاهرين الذين وصفهم بأنهم مخربون.. ولم ينس أن يبشر رئيسه مبارك بأن الجماهير من محبيه سيحسمون الأمر لصالحه في زمن وجيز!

في ذلك الصباح تعالت الأصوات في القنوات التليفزيونية تحذر من الصدام الوشيك الذي لاحت نذره في الأفق، وقال المعلقون إن من حق مؤيدي مبارك أن يخرجوا في مظاهرات سلمية للإعراب عن موقفهم، لكن لا يحق لهم الاقتراب من المظاهرات الاحتجاجية. ودعا هؤلاء أنصار مبارك للوقوف بميدان مصطفى محمود وعدم التحرك منه في اتجاه ميدان التحرير.

ورغم ذلك بدأت حشود أرباب السوابق والبلطجية في الوصول إلى ميدان عبد المنعم رياض، ولم يعترضهم أحد.

كان الموقف محزنًا والصورة يغلفها الغموض، ولهذا فإن

إحساسًا بالألم والحسرة كان يعتصرني، وشعرت بأن مأساة الثغرة التي واجهناها في حرب أكتوبر سوف تتكرر اليوم وأن ثغرة مماثلة لتلك التي فتحها شارون وتدفقت من خلالها دباباته إلى الضفة الغربية للقناة على وشك الحدوث.

وجدت نفسي أردد سؤال نجيب سرور الحارق: لماذا كل تضحيات المصريين بدون مرجوع؟

كان المطلوب أن تختلط جموع المحتجين بجموع المؤيدين، وأن يظهر للعالم الذي يتابع المشهد أن القوات قد حدث بينها تداخل يستدعي عمل هدنة يتبعها مباحثات لفض الاشتباك يترتب عليها خروج البلطجية من ميدان التحرير... وخروج الثوار أيضًا!

أليس هذا ما حدث كنتيجة مباشرة للثغرة التي حدثت في منتصف أكتوبر ١٩٧٣؟ ألم يأت هنري كيسنجر لإتمام فض الاشتباك بعد أن تم محاصرة الجيش الثالث وقطع إمداداته، ثم اضطررنا إلى توقيع الاتفاق الذي ترتب عليه عودة معظم القوات التي عبرت.. مقابل عودة الإسرائيليين؟

وفجأة بينما مئات الملايين من المشاهدين تتابع المشهد على الهواء من ميدان التحرير جمد الناس أمام التليفزيونات لا يصدقون ما تراه أعينهم.

مئات البلطجية وقطاع الطرق يندفعون من خلال الثغرة التي أحدثوها يدخلون الميدان محمولين على ظهور الخيل والجياد والجمال والبغال والجحوش وكل أنواع الدواب التي قد تخطر على البال، بالإضافة إلى العشرات من عربات الكارو التي يجرها

الحمير والتي انقرضت من شوارع القاهرة منذ عصور. ظهر كل هذا بشكل مفاجئ واندفع المقتحمون وهم يحملون في أيديهم السيوف والرماح.. نعم الرماح، والسكاكين والخناجر والسياط والبُلط وقطع الحديد الضخمة والعصي الغليظة، وأخذوا في اندفاعهم يطيحون بمن يقابلهم من المتظاهرين السلميين المعتصمين بالميدان ويعملون فيهم ضربًا وطعنًا بكل قسوة وبدائية وجلافة.

تزامن هذا كله وتـوازى مع اندفاع مئات المقتحمين إلى العمارات الموجودة بالميدان واعتلائهم الأسطح متسلحين بالحجارة والرخام المدبب الذي جلبوه في سيارات نقل كبيرة من منطقة شق الثعبان وحملوه معهم إلى ساحة المعركة حيث توقفت الشاحنات عند ميدان عبد المنعم رياض لتمد المهاجمين بمدد لا ينفد من الحجارة القاتلة.

ليس هذا فقط وإنما وسط الزحام والجلبة والصياح والصراخ ومشاهد الفزع التي اجتاحت الميدان تسللت مجموعة من القناصة التابعين لأجهزة وزارة الداخلية بالإضافة إلى المليشيات المسلحة من مرتزقة الحزب الوطني وبيدهم بنادق تعمل بالليزر يعرفها القتلة المحترفون وعصابات المافيا وأخذوا يطلقون النار على الرؤوس. أخذت شلالات الدماء تغرق كل جنبات الميدان بعدما سقط مئات الضحايا بين قتيل وجريح وتعالت صرخات النساء والأطفال الذين غص بهم الميدان والذين شكل وجودهم منظرًا حضاريًّا منح مصر احترامًا غاب عنها زمنًا. كان كثيرون من أفراد الشعب المصري قد باتوا يصطحبون نساءهم وبناتهم وأولادهم إلى الميدان ليُشهدوهم على مصر التي تولد من جديد، وكان الناس يشعرون بالأمان في

وجودهم بعضهم إلى جانب بعض، ولم يخطر ببالهم أن يقوم حسني مبارك بهجمته البربرية.

وعلى الرغم من أن شاشات التليفزيون قد نقلت للناس اللحظات الأولى للهجوم، فإنها غابت عن بقية الغزوة التي استمرت لثماني عشرة ساعة متصلة من الهجوم والكر والفر وإطلاق النار وشج الرؤوس وفقء العيون وبتر الأطراف. ثماني عشرة ساعة نزف فيها المصابون حتى الموت، وعجز الأطباء الموجودون على حدود الميدان رغم بسالتهم عن علاج الحالات الصعبة نتيجة غياب الأدوات وقصور الإمكانات واختفاء سيارات الإسعاف.

لم يستطع المصورون وحاملو الكاميرات أن يكملوا أداء عملهم وسط المقتلة واضطروا إلى الفرار والبحث عن أماكن أقل خطورة يتمركزون فيها، وهذه كانت بطبيعة الحال بعيدة عن بؤرة الأحداث.

هذا هو حسني مبارك إذن.. وهؤلاء هم رجاله وعشاقه وأنصاره ومحبوه.

في كل مرة أستعيد مشاهدة لقطات المقتلة أرى حسني مبارك على ظهر جمل يضرب المصريين بالسيف وأرى سوزان مبارك تمده بالذخيرة. في كل مرة يعيد التليفزيون بث مقاطع من الغزوة الوحشية يطالعني وجه جمال مبارك ووجه أخيه علاء على ظهر عربة كارو يصرخان في وجه الشهداء ويفزعونهم قبل قتلهم، كما أرى وجه زكريا عزمي يمتطي جحشًا ويلهب ظهره بالسياط بينما يسدد رمحه إلى ظهر أحد شباب مصر، وألمح وجه صفوت الشريف مبتسمًا فوق ناقة يسدد من فوقها سهامه في أعناق المتظاهرين، وأرى أحمد شفيق

يحشو البنادق بالذخيرة ويناول عمر سليمان، وابراهيم كامل فوق ظهر بعير يطعن فتاة بالخنجر وفتحي سرور يحز الرقاب بالبلطة ومفيد شهاب يشج الرؤوس، وأنس الفقي وعبد اللطيف المناوي وخيري رمضان وتامر بسيوني يتلذذون بشرب الدماء الساخنة لأبناء وبنات مصر النازفين حتى الموت.

ليلة حاسمة

بعد انقضاء يوم الأربعاء الدامي كان ميدان التحرير أقرب إلى ساحة حرب حقيقية تم استخدام الأسلحة كافة فيها من جانب بلطجية حسني مبارك وميليشياته المسلحة.

وعلى الرغم من انسحاب البلطجية وتراجعهم إلى ميدان عبد المنعم رياض عند منتصف الليل فإن الخطر ظل قائمًا.

كان شباب الثوار قد أُنهكوا تمامًا وخارت قواهم وهم يصدون بأيديهم وبما تيسر من الحجارة كل أنواع الأسلحة التي هاجمهم بها الدهماء من كل جانب. ولا يعيب الثوار أن جانبًا منهم قد أصابه الفزع من الهجمة البربرية فانسحب وهو لا يصدق أنه نجا بحياته، ولا يعيب الثوار أن جمعهم قد تشتت وهم يقومون بإخلاء الجرحى من الميدان والبحث عن أي منفذ إلى المستشفيات بعد أن حاصر البلطجية الميدان من جميع الجهات. ولا يعيبهم كذلك إحساسهم بالألم العظيم بعد أن تكاثر عليهم الأوباش وبعد أن وصلت إليهم الأنباء عن الأغذية التي تمت مصادرتها في الطريق قبل الوصول إليهم والأدوية التي منع الكُفار وصولها إلى الجرحى.

ولا يقلل من بسالتهم أنهم أصبحوا قلة بعد أن سُدت المنافذ من بعيد جدًّا في وجه تدفق الإمدادات البشرية إليهم..من بعيد لدرجة أن لجانًا كانت تقف عند شبرا الخيمة في أول الطريق الزراعي تمنع الشباب الذي أراد التوافد على الميدان لحماية الثورة من الوصول. وكانت اللجان تقف أيضًا في ميدان الأوبرا وفي ميدان رمسيس وعند شارع الأزهر وأخذت تصادر ما حاول شعب مصر أن يوصله إلى الشباب من مؤن في تلك الليلة الرهيبة.

وبالطبع لا يزيدهم إلا قربًا من القلوب دعاؤهم: يا رب إنا نشكو إليك ضعف قوتنا وقلة حيلتنا وهواننا على حسني مبارك وعصابته.

وفي الحقيقة إن قلوب المصريين وقتها كانت تدعو للأبناء أن ينجيهم الله مما يحاك لهم في الخفاء، وذلك بعد أن تسربت أخبار عن المجزرة القادمة، ولم يعد سرًّا أن المخططين لغزوة الجحش قد أعدوا لهجوم نهائي تحدد موعده عند الفجر بعد أن يسقط من الإعياء كل من كان لا يزال واقفًا على قدميه من الثوار.

وهنا لا بد من كلمة لله والوطن والتاريخ نكون آثمين إذا لم نقلها.

عندما سُدت أبواب الأمل في وجه الشباب بميدان التحرير وقد سقط كثيرون منهم بين قتيل وجريح ومنهك، وبدا أن بلطجية مبارك على وشك الانتصار عقب نجاحهم في قطع الإمدادات.. قامت جماعة الإخوان المسلمين بدفع شبابها وكوادرها لاقتحام المخاطر وتجاوز الكمائن ودهس اللجان الليلية والتدفق على الميدان طوال الليل ومن كل محافظات مصر، حتى وصل العدد عند تباشير الصباح إلى عشرات الآلاف نجحت في منع البلطجية من تنفيذ الهجوم.

ولا يمكن أن أترك الفرصة دون أن أقدم تحية من القلب إلى أولاد البلد الصنايعية والحرفيين من شباب مصر الذين كنا نظنهم لا يفهمون ولا يحفلون إلا بمباريات الكرة ومنافسات الأهلي والزمالك، فإذا بهم يشاركون في الثورة منذ اليوم الأول ومعهم شعارهم الشهير: «الجدع جدع والجبان جبان... واحنا يا جدع بايتين في الميدان» وإذا بهم في تلك الليلة الحالكة يثبتون ويقيمون المتاريس ويحرسون المداخل ويشاركون بكل قوة في حماية الثورة، ولا ننسى أنهم أيضًا هم الذين كسروا جهاز الشرطة يوم ٢٨ يناير وطاردوا مدرعات الأمن المركزي وأحرقوها وألبسوا رجال حبيب العادلي طُرحًا وفساتين!

وفي الحقيقية فإن هذا اليوم قد شكّل علامة فارقة في تاريخ الثورة بحيث يمكن التأريخ لثورة ٢٥ يناير بما قبل موقعة الجحش وما بعدها، ذلك أنه بعد تلك المعركة لم تعد هناك قوة على الأرض تستطيع منع المصريين من تحقيق أهدافهم ومن القصاص من الأنذال مع وضع رقبة حسني مبارك أسفل المقصلة.

لا قوات مبارك بأنواعها ولا حلف الناتو ولا الحكام العرب الذين عرضوا عشرات المليارات لإنقاذ الطاغية والإبقاء عليه في الحكم. لا نتانياهو ولا باراك وليبرمان وبقية العصابة الصهيونية، لا أوباما وهيلاري ولا أحمد شفيق وعمر سليمان، ولا العفاريت والجان والشياطين والمردة تستطيع أن تمنع شعب مصر من تنفيذ حكم الإعدام في القاتل حسني مبارك. هذا هو القصاص العادل وهذا هو شرع ربنا.

هو الذي حكم على نفسه بالموت وليس نحن. قبل موقعة

الجحش والجمل كان من الممكن أن يدعي البعض أن مبارك لا ذنب له في مقتلة جمعة الغضب ٢٨ يناير، وأن حبيب العادلي هو من اتخذ القرار بإطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين.

اليوم أصبح واضحًا أن من قتل وأصاب ألفًا ومائتين من أبناء مصر في ميدان التحرير هو حسني مبارك شخصيًّا وولده جمال.

لم تعد المسألة الآن هي مسألة الأموال المنهوبة أو الأرض التي تم تبويرها أو المصانع التي أغلقت والسجون والمعتقلات والتعذيب. لم تعد هي القيمة التي تلاشت والوزن الإقليمي الذي ضاع والمهابة التي انسحبت والسمعة التي تراجعت.. لا لا.. كل هذا لم تعد له أي قيمة الآن. ما بين شعب مصر ومبارك الآن هو دم الشهداء.

لقد كان مبارك يقتل المصريين في أقسام الشرطة وأقبية مباحث أمن الدولة طوال ثلاثين سنة بصورة فردية وفي الخفاء، الأمر الذي سمح بتسرب الغضب وعدم تجمعه بصورة تؤدي لتغيير دراماتيكي. أما الآن فإن الذين شاهدوا الغزوة على الهواء وعرفوا نتائجها أصبحوا على استعداد للشهادة من أجل تحقيق القصاص العادل من السفاح حسني مبارك.

لافتات وبومبوني

كان لموقعة الجحش أثر كبير على صورة مبارك أمام العالم، فقبلها لم يعدم الطاغية مؤيدين هنا أو أنصارًا هناك ممن أعمى الجهل قلوبهم أو طمس الغرض على أفئدتهم فأزال عنهم البصيرة، أو حتى أناسًا طيبين تأثروا بالإعلام وما يبثه من رسائل أغلبها مضلل.

بعد الموقعة عرف العالم كله من هو حسني مبارك، وأدرك الذين كانوا يتحدثون عنه باعتباره حكيم العرب أنهم كانوا ضحية خديعة كبرى بعدما ظهر لهم على حقيقته: جاهل غليظ بليد متوحش.

من بعدها بدا مبارك قليل الحيلة.. فلم يعد باستطاعته أن يجهز لتجريدة دموية أخرى، وفقد تمامًا أي قدرة على قمع المتظاهرين بعد أن فقد جهاز الأمن الهارب الجبان الذي روّع مصر كلها ثم ارتدى رجاله أزياء نسائية حتى يستطيعوا العودة للبيوت من دون أن يتعرف عليهم أحد! ثم فقد أيضًا كتائب البلطجية الذين وقع أغلبهم في يد الثوار فأسلموهم إلى الجيش، ومن بقي منهم لاذ بالفرار واختفى.

لم يكن من قوة باقية على الساحة إلا قوة الجيش، وهذا بالطبع ليس من ضمن أجهزة مبارك، لكنه جيش شعب مصر الباسل.

وفي الحقيقة فإن جانبًا كبيرًا من الأغلبية الصامتة التي لم تشارك يومًا في أي عمل سياسي ولم تكن تتصور أن لها قيمة قد اندفع إلى الشوارع، وأصبح الذهاب إلى ميدان التحرير وبقية ساحات الاحتجاج في المدن المصرية تقليدا جديدًا وطقسًا مبهجًا تقوم به الأسر المصرية بنسائها وأطفالها بعد أن شعروا بالثقة وأمنوا غدر مبارك وحبيب العادلي.

وعلى الرغم من أن مبارك قد ظل متشبثًا بالسلطة لمدة تسعة أيام أخرى بعد معركة الجحش، كما ظل قرينه وساعده الأيمن عمر سليمان يزيد من حنق المصريين وغضبهم كل يوم بطلعته الكريهة وتصريحاته المقيتة وآرائه المليئة بالحقد والاحتقار لشعب مصر مثل تصريحه الشهير حول شعب مصر الذي لم ينضج بعد وبالتالي لا يصلح لممارسة الديموقراطية!

وعلى الرغم من أن رجل البلوفر الشهير أحمد شفيق قد انكشف وتعرى تمامًا أمام الناس بعد أن استدعاه مبارك وعينه رئيسًا للوزراء لإنقاذ حكمه، فصار عبئًا عليه بدلًا من أن يساعده، ونال نصيبًا مستحقا من النقمة والسخرية بعد أن تحدث عن الثوار برعونة واستخفاف وأعلن في لقاء صحفي أنه سيحضر لهم البومبوني بنفسه في ميدان التحرير! ثم وهو الأهم وعد شباب الثورة في تصريح شهير بحماية مظاهراتهم وتأمينها وقام بمنحهم عهد الأمان... وبعد هذا التصريح بنصف ساعة بدأت موقعة الجحش والجمل، حتى إن البعض قد اعتبر تصريح شفيق جزءًا من الخطة وكان يهدف لتنويم الشباب وإفقادهم الحذر، والبعض الآخر اعتبره كلمة السر التي انتظرها الحرامية والبلطجية ليبدءوا هجومهم الكاسح على ميدان التحرير.

على الرغم من كل هذا فإن إحساس الشباب بأن فجرًا جديدًا قد بدأ يبزغ قد ترجم نفسه في صورة لافتات لم يحدث في تاريخ أي ثورة على وجه الأرض أو حتى في كواكب المجموعة الشمسية أن رأيناها.

كنت أعبر الميدان وأجوس بكل أنحائه جيئة وذهابًا كل يوم وسط الناس وأنا أحدق في دهشة في اللافتات التي كتبها الشباب.

بعض اللافتات كُتبت بعناية واحتراف على يد خطاطين وصاغ كلماتها كوادر سياسية متمرسة، لكن الحجم الأكبر كان لافتات عفوية تم تأليفها في التو واللحظة وكتبها صاحبها بخط يده على ما تيسر من ورق أو قماش أو قطع كارتون أو حتى على الأرض. وقد رأى الناس جميعًا على شاشات التليفزيون جانبًا من هذه الإبداعات المذهلة... واحدة كانت في يد طفل يحمله أبوه على كتفيه مكتوب عليها: «أبويا ضاع مستقبله..ارحل حتى يكون لي مستقبل»، وأخرى في يد بنت تقول: «يا مبارك يا بايخ»!.. وثالثة بيد شاب مشعث تقول: «ارحل علشان عايز أستحمى».. ورابعة فريدة من نوعها في يد كهل تقول: «الشعب يبيح تشبيح القبيح»!.. وهذه أعجبتني جدًّا رغم أني لم أعرف كيف يمكن تشبيح القبيح!

ولافتات أخرى يقول بعضها: «ارحـل أنت وشفيق وطبق البومبوني» أو: «ارحل أنت وسليمان عدو الإنسان».. أو: «ارحل علشان دراعي وجعني» أو: «امشي بقي يا عم..خللي عندك دم».. أو: «سوزان بطلة الأرقام القياسية.. كل عائلتها حرامية»... أو «يا سوزان زوجك قاتل وابنك قاتل.. وأكيد جدّك كمان قاتل».. حلوة فعلًا رغم أن جد سوزان ليس طرفًا في الموضوع!

ولا ننسى بالطبع الإفيه الذي يساوي مليون دولار والذي انطلق من ميدان التحرير عقب خلع الطاغية وفيه كتب مخترعه العبقري على لافتة قماشية كبيرة: ارجع يا ريس..احنا كنا بنهزر!!

غير أن أهم وأعجب اللافتات كانت ما كتبه الشباب على جدران الدبابات والمصفحات، ذلك أنه بعد أن اطمأن الثوار لجنود وضباط الجيش وأدركوا أن جيش مصر معهم ولا يمكن أن يكون عليهم، بدأ بعضهم ينام داخل جنازير الدبابات ويشعر بالحماية بين التروس الحديدية التي لو دارت لثانية واحدة فقط لفرمتهم.. وهو الأمر الذي لم يحدث بطبيعة الحال.

ثم أخذت الألفة تزداد بين الشباب وبين الدبابات فجعلوا من كل دبابة بالميدان سبورة يكتبون عليها رأيهم في النذل الجبان وعصابته الإرهابية.

ولم ينس الشاعر الكبير عبد الرحمن يوسف أن يخلد هذه اللقطة في قصيدة «الشهيد» التي كتبها من الميدان حين قال:

منصورة بينا يا مصر منصورة

رسمنا ثورتنا بلون العدل

وعملنا م الدبابة سبورة

نكتب عليها رأينا في النذل.

الأقوياء بالله والأقوياء بالجحش

كان العباقرة من رجال حسني مبارك قد أقنعوه بقطع الاتصالات بعد مظاهرات ٢٥ يناير على أمل أن يتوه المتظاهرون ولا يعرفوا أخبار ما يحدث في البلد.

وعليه فقد وجدتُ عندما وصلت مصر يوم ٢٧ يناير أن التليفونات المحمولة لا تعمل، كما أن شبكة الإنترنت كانت بدورها معطلة. ولا يفوتني هنا أن أشير إلى أن شركات المحمول الثلاث في مصر قد ارتكبت جريمة كبيرة في حق المشتركين الذين امتصت دمهم على مدى سنوات وراكمت من أموالهم المليارات عندما حرمتهم من الخدمة دون وجه حق، وهي في عملتها هذه لا تفترق عن ضابط الشرطة الخسيس الذي يبرر تعذيبه للناس بأنها مجرد تنفيذ للأوامر وأنه في النهاية عبد المأمور!

إن أصحاب شركات المحمول الذين يظهر بعضهم الآن بمظهر الثوار محاولين امتطاء حصان الثورة قد عملوا في خدمة مباحث أمن الدولة وقبلوا أن يسخّروا شركاتهم ومعداتهم في خدمة التجسس على المواطنين ثم قطع الخدمة عنهم عندما أتت التعليمات من المأمور المجرم في مباحث أمن الدولة.

المهم..وجدت نفسي عاجزًا عن إرسال المقالات للصحف التي أرتبط بالكتابة لها لمدة أسبوع كامل كانت فيه مصر كلها في حالة غليان.

وعندما عادت الاتصالات بعد أن عبرت الفضيحة المحيطات ووجد نظام مبارك نفسه في وضع كارثي بعد أن نزل الناس جميعًا إلى الشارع ليستطلعوا ما يحدث نتيجة عجزهم عن متابعته من خلال التليفون والإنترنت..عندما عاد النت وجدت نفسي أكتب بكل ما في نفسي من غضب ونقمة على نظام الحكم الإجرامي.

وبطبيعة الحال لم تكن كتاباتي في فترة الثورة هي بداية معارضتي للنظام، لكن هذه المعارضة شكلت الأساس الذي قام عليه منذ البداية مشروعي الأدبي وكتاباتي الصحفية، وقد أسفر هذا المنحى في السابق عن كتاب «مصر ليست أمي.. دي مرات أبويا» الذي أصدرته في ذروة حكم مبارك، ثم ألحقته بكتاب «أفتوكا لايزو» وهما كتابان سياسيان قاما بفضح العصابة الحاكمة في مصر بأكثر الأساليب تهكمًا وسخرية.. ثم صدرت بعدهما الرواية القنبلة «همام وإيزابيلا» التي رويت فيها للقراء حقيقة ما يفعله مبارك والدور الذي يقوم به في خدمة الأعداء، وكان القراء يعلمون جيدًا أن السلطان البيكيكي بطل الرواية هو نفسه حسني مبارك.

إذن معارضة النظام وفضحه لم تكن اتجاهًا جديدًا بالنسبة لي. لكن أثناء أحداث الثورة وجدت أن طاقة النار داخلي تترجم نفسها إلى كتابة مشتعلة مباشرة لم أجتهد فيها لمراعاة اللياقة والتهذيب كما كنت أفعل في السابق، فوجدت نفسي أكتب يوم ١ فبراير وهو

أول أيام عودة النت مقالًا ضد مبارك عنوانه «فلتسمع كل الدنيا» أعلنت له فيه أننا لا نخشاه لا هو ولا من يساندونه من قوى الشر في الداخل والخارج.. وفي اليوم التالي كتبت مقال «الكرتوش» وفيه تناولت كلمة مبارك التي وجهها للشعب وسخرت منه ومن كلمته وبينت للقراء أنه هو الذي أطلق النار على المتظاهرين وليس أحدًا آخر، كما حذرت الناس من شروره القادمة. وبعدها بيوم كتبت مقالًا عن وزارة الداخلية كان عنوانه: هل كل رجال الشرطة مجرمون؟... وفي داخل المقال أجبت عن السؤال وقلت: نعم كل رجال شرطة مبارك مجرمون.. وكان هذا الرأي مفاجئًا وصادمًا حيث إن كل من جرؤ على انتقاد رجال الأمن من قبل كان يبدأ عادة بالإشادة بالأغلبية الشريفة من رجال الشرطة كمقدمة ضرورية قبل أن يدخل في موضوعه عن جنوح البعض من الأقلية الفاسدة التي تلوث ثوب الأمن الناصع!... أتى مقالي ليقول للناس ما يعرفونه جيدًا من أن كل رجال الشرطة في عهد مبارك وحوش مثله وليس بينهم شرفاء على الإطلاق!

وفي اليوم التالي كتبت مقالًا بعنوان «بعد فتح مكة» أشرت فيه إلى الصورة الكوميدية للمشهد والتي بدأ فيها الجميع يفرون من سفينة الحزب الوطني الغارقة فتوالت الاستقالات منه على الهواء، وكان ممن فعلوا هذا مصطفى الفقي ربيب الحزب الفاسد وسكرتير حسني مبارك، ثم بعده عمرو موسى الذي امتطى حصانًا من قش وأطلق حنكين فارغين من أي مضمون أراد أن يسجل بهما أنه ليس ضد الثوار!.. ثم جاء في اليوم التالي المقال العنيف: معركة الجحش الأخيرة.. وفيه قلت للقراء إنه بعد انحسار غبار المعركة وبعد خروج

الإبل والبغال والخيول والحمير من ميدان التحرير فإن جحشًا واحدًا حرن ولم يرض أن يخرج وما زال يعاند شعب مصر ويأبى أن يرحل حتى يسمح لنا بتنظيف الميدان من آثاره.. وبطبيعة الحال فإن كل القراء كانوا يعلمون عن أي جحش أتحدث.

وعلى الرغم من أن رسائل كثيرة قد أتتني لائمة على هذا الأسلوب الذي رأوه غير مهذب فإنني لم أكن في حالة تسمح بترف الرد على هكذا أصوات ولم أكن أقوى على الاستماع إلى من يريدون تعليمي أصول الكتابة عن القتلة المجرمين في الوقت الذي كانت فيه دماء الضحايا تسيل مدرارًا!

في اليوم التالي وجدت نفسي أكتب رسالة إلى السيدة سوزان زوجة حسني مبارك على شكل مقال أسميته «فخامة القاتل» وسألت فيه الهانم عما إذا كانت تعلم أن سيادة الملياردير زوجها هو قاتل محترف قام بفتح النار على شباب مصر وجعل أمهات مثلها ثكالى وزوجات مثلها أرامل.

وسألتها أيضًا إذا كانت تعلم أن سيادة الملياردير نجلها الحبيب قد شارك السيد والده كل جرائمه وقد أشرف بنفسه على التأكد من وصول الرصاصات إلى الرؤوس بكل دقة وإحكام!

بعدها بيوم كتبت أحذر الثوار من أن يتراجعوا خطوة واحدة أو يستمعوا إلى أصوات الحكماء الذين طالبوهم بالعودة إلى البيوت، وقلت لهم بصراحة إن حسني مبارك إذا استرد أنفاسه واستعاد توازنه فإنه سيعلقنا -جميعًا على أعواد المشانق..كتبت ذلك كله في مقال عنوانه «الانتقام الأسود المريع».

وهنا اسمحوا لي أن أروي لكم حكاية شخصية تتعلق بي.

لقد كنت أستمع دائمًا من أولادي إلى عبارات الثناء والتشجيع على ما أكتب، وكنت ألمح لديهم شعورًا خفيًّا بالزهو يعتريهم لكونهم أبناء فلان الذي لا يخاف... لكن في هذه الأيام من عمر الثورة وبعد كل ما كتبته أنا وغيري ضد مبارك أستطيع أن أقول: إنني للمرة الأولى ألمح الخوف في عيون أبنائي من أن أتعرض للخطر على يد مبارك وعصابته،إلى حد أن طلبوا مني أن أكتفي بما كتبت ولا أتمادى أكثر من ذلك، وقالوا لي صراحة إنهم يصلّون إلى الله ويدعون للثورة بالنجاح أكثر من أي أحد آخر لأن حكم مبارك لو استمر فإن أباهم هالك لا محالة.

وفي الحقيقة كنت أنا نفسي أدرك أنني عبرت كل الخطوط واقتحمت بالنار عرين الوحش، ومن ثم أصبحت سلامتي ونجاتي مرتبطة بنجاح الثورة.

في ذلك الوقت لم يكن أحد يعلم إلام تصل الأحداث وعلام تسفر الصورة وفي أي محطة يقف قطار الثورة.

واليوم أكتب لكم هذا بعد أن قمنا بوضع حسني مبارك ونجليه وعصابته في السجن.... فيالروعة الثورة! ويا لجمال الشهداء الذين أدين لهم بما بقي من عمري!

في وجه سلطان.. حرامي

يا من لعرضي هَتَك.... فقدتَ شرعيتك

«عبد الرحمن يوسف»

كرتوش السيد الرئيس

حبيب قلبي يا قلبي عليه... ولو حتى يخاصمني

ويعجبني خضوعي إليه... وأسامحه وهو ظالمني

كلمات بيرم التونسي التي تغنت بها أم كلثوم في أغنية الحب كده.. يبدو أنها تنطبق على حال الإعلاميين وضيوفهم في القنوات التليفزيونية المصرية الخاصة التي جيشت عددًا من الأنطاع والألواح البشرية والخُشُب المسندة التي استدعوها إلى الإستديوهات على عجل لتعلق على كلمة الرئيس مبارك التي توجه بها للشعب مساء الثلاثاء.

كانت جرعات الشحتفة فوق العادة.. ولهفة القلوب الحنونة على الرئيس الأب الذي استجاب لمطالب الشعب ونزل على إرادة الجماهير الجاحدة من الشباب غلاظ القلوب الذين لا تعجبهم تضحيات الرئيس وتنازلاته، بل إنهم تندروا عليها ووصفوها بالخدعة ومحاولة الالتفاف على المطالب الشعبية!

بالتأكيد يدرك الإعلاميون وقنواتهم المخاتلة وضيوفهم السفلة أن حبيب قلوبهم مبارك بحكم صلاحياته هو المسؤول عن الأحوال

المنفلتة في البلاد وأن قرار انسحاب الشرطة من الحياة واختفاء وزارة الداخلية لا يمكن أن يكون قد تم دون موافقة الرئيس!.. ويعلمون أن أي سكرتير من سكرتارية الرئيس الذين يسمون أنفسهم وزراء لا يمكنه أن يسحب الشرطة من الشوارع رغم أنف سيادة الرئيس!. ومن المؤكد أن هؤلاء الإعلاميين وضيوفهم المتعاصين يدركون أن أبواب السجون لم تنفتح من تلقاء نفسها لأن هذه الأبواب ببساطة لا تدار بكلمة سر على غرار «افتح يا سمسم» وأن كلمة السر قد عرفها المساجين واستخدموها في فتح السجون.. لكن هذه السجون قام بفتحها من في عهدتهم مفاتيح بواباتها الفولاذية الحصينة وذلك لنشر الرعب في أرجاء البلاد.. ولا يمكن أن يكون هذا قد تم ضد إرادة مبارك وإلا لكان قد أمر بمحاكمتهم عسكريًّا وهو الأمر الذي لم يحدث.

ورغم كل هذه البديهيات فإن القنوات الخاصة واصلت استضافة الحفريات المتحجرة وبالذات الديناصور الضخم صاحب نظرية المخابئ الآمنة والذي أخذ ينتقل من قناة لقناة يبث فضلاته ونفاياته ويحاول إثارة رعب الناس وتخييرهم بين مبارك أو الخراب!

قال مبارك في كلمته إنه سيقبل بأحكام القضاء بخصوص عضوية مجلس الشعب، لكنه لم يقل لنا: لماذا أهدر آلاف الأحكام قبل ذلك؟! ولماذا انتبه الآن فقط إلى ضرورة احترام القضاء؟! قال مبارك إنه سيدعو لتعديل المادتين ٧٦ و٧٧ من الدستور ولم يقل لنا: لماذا كان يتشبث بعدم التعديل من قبل؟! وعد مبارك بمحاربة الفساد ولم يقل لنا: لماذا كان يقبل بوجود الفساد حتى الأسبوع الماضي؟! هل هي صحوة ضمير؟ هل هي عودة إلى الحق؟ لم يقل الرئيس ذلك بصراحة فلم نفهم هل هو يرى أن الثوار ضد حكمه والرافضين

لوجوده على حق في مطالبهم.. أم أنه ينحني فقط للريح ريثما تمر العاصفة وبعد ذلك يكون لكل حادث حديث!

رأى البعض أن كلمة الرئيس التي وعد الناس فيها بأنه لم يكن ينتوي الترشح مرة أخرى تشبه تمامًا الكلمة الأخيرة لزين العابدين بن على عندما وعد الناس بأنه لن يظل في السلطة إلى الأبد وبأنه قد فهمهم وبأنه سيقدم آلاف الوظائف وسيستجيب لكل ما يريدون.

لكن بن على قدم للثائرين من شعبه وعدًا فريدًا من نوعه وغير مسبوق في تاريخ الوعود، وكنا ننتظر من الرئيس مبارك سيرًا على نهج بن على أن يقطع على نفسه نفس الوعد.. فماذا قال زين العابدين؟

قال زين العابدين للناس: يزّي من الكرتوش... يزّي من الكرتوش.

عندما سمعت هذه الجملة من الرئيس زين العابدين فإنني اتصلت بأصدقائي التوانسة لأفهم معنى عبارة يزي من الكرتوش فقالوا لي إنها تساوي بالضبط بالعامية المصرية: بلاها خرطوش أي بلاها طلقات نارية.. بمعنى أن الرئيس التونسي كان سخيًّا جدًّا مع شعبه فوعدهم بأنه لن يطلق عليهم الرصاص!!

كنا نتوقع من الرئيس مبارك أن يُظهر سخاء وكرمًا من هذا النوع فيتعهد للناس بأنه لن يصدر أوامره بقتل أبنائهم، خصوصًا أن أجهزة أمنه قد أقدمت على إراقة دماء المصريين وأسقطت مئات القتلى وآلاف الجرحى..كنا نتوقع منه أن يقول للناس: يا جماعة..لقد فهمتكم..يزي من الكرتوش..يزي من الكرتوش.

لكن يبدو أن كرتوش الرئيس مبارك مرشح للانطلاق ومرشح لقتل المزيد من أبناء مصر.

هل كل رجال الشرطة مجرمون؟

لا شيء يثير غضبي ونقمتي قدر أن يظهر أحد الفلاسفة في تليفزيونات الوكسة الحكومية والخاصة في مصر متحدثًا عن رجال الشرطة بأنهم أبناؤنا وإخوتنا وأنهم جزء أصيل من شعب مصر.

ما يثير غضبي ونقمتي أن هذا الأمر كان في الغالب يحدث عقب جريمة قتل لأحد المواطنين على يد ضباط وأمناء ومخبري جهاز الشرطة في أحد أقسام الشرطـة أو أقبية أمن الدولة أو حتى في الشارع.

كلما ثار الناس على الإجرام الذي يتعرضون له على يد المجرمين في جهاز الشرطة سارع الإعلاميون الذين تم تعيينهم بواسطة الأمن إلى استضافة عدد من أسافل القوم الذين يأكلون السحت ويشربون من دموع الضحايا لاستعراض ثقافتهم الضحلة أمام العدسات في حديث ممجوج بائس شديد التهافت عن أن جهاز الشرطة هو جهاز وطني عظيم يحمي مصر وعن أن التجاوزات ـ إن حدثت ـ ليست إلا استثناء وهي مجرد بقع متناثرة في ثوب الشرطة الأبيض الناصع.

ولا يكتفي الإعلاميون الفالصو وضيوفهم من أكلة لحوم البشر

بهذا الفاصل الدعائي، وإنما يدخلون لنا من مدخل عاطفي يتحدث عن أن رجال الشرطة يقاسون ويتعبون ويتحملون العمل في ظروف صعبة، ثم يدللون على هذا قائلين: يكفي أنهم يقفون في الشارع في حر الصيف وبرد الشتاء..يكفي أنهم يتحملون عبء غياب السياسة عن الشارع المصري..يكفي أنهم يتحملون أوزار فشل وزارات ومسؤولين..يكفي أنهم يتقاضون أجورًا متواضعة لا تتناسب مع الأهوال الملقاة على عاتقهم.

أعترف لكم بأنني ورغم إقراري بصحة بعض هذه الحجج لم أشعر أبدًا بتعاطف مع رجال الشرطة ولا مع ما يبذلونه من جهد. وموقفي هذا لا يعود لقسوة قلب أو غلظة في الطبع وإنما لعكس هذا تمامًا، فأنا أحمل حبًّا غامرًا لبني وطني، وعندي أن إهانة الناس جرم لا يغتفر، لا يغتفر، لا يغتفر. إهانة الناس والبصق في وجوههم لا يمكن أن يبرر بالإرهاق والإجهاد في العمل. تعذيب الناس وضربهم بالسياط للاعتراف بجرائم ارتكبوها أو لم يرتكبوها هو أمر لا يمكن غفرانه بحجة ضعف الإمكانات وقلة أدوات البحث والتحري.

هذا فضلًا عن سبب أساسي ينسف كل دفاع عن رجال الشرطة المتعبين المرهقين المنهكين من العمل طول اليوم، وهو أن جل تعبهم وإرهاقهم وإنهاكهم لا يتم لصالحنا ولا لأجل عيوننا، وإنما كل جهدهم هدفه إرعابنا وإرهابنا وترويعنا وحماية اللصوص الذين سرقونا والكفار الذين عذبونا وشواذ الحزب الوطني الذين أهانونا! أما أمننا وسلامتنا وحياتنا فهي أمور لا تعنيهم. لهذا فقد كنت أنظر دائمًا بسخرية للحديث عن التعب والإرهاق الذي يمكنني أن أعترف به لكني لا أشعر إزاءه بأي امتنان! وكيف أنظر بامتنان إلى عمل

مجنون مثل إيقاف آلاف العساكر ووجوههم إلى الحائط في الشوارع لمدة عشر ساعات متتالية لمجرد أن شخصًا ما قد يمر!!..هذا مثال للجهد العقيم الذي يبذله رجال الشرطة من دون أن تكون له فائدة لنا.

مثال آخر يتعلق بآلاف الرجال من كل الرتب الذين يقفون في الشارع لتنظيم المرور.. هذا الأمر تجاوزه العالم منذ بدايات القرن العشرين عندما تم اختراع إشارات المرور التي تغني عن عذاب رجل الشرطة ووقوفه تحت الشمس والمطر!.. فما شأننا نحن إذا كانت قيادات الشرطة تعذب رجالها بدلًا من تشغيل إشارات المرور؟ ولا يتنطع أحد قائلًا إن المصريين لا يحترمون الإشارات المرورية،لأن المصري إذا أحس بالجدية والنزاهة والعدل فإنه أكثر مواطني العالم أدبًا والتزامًا.

وعلى الرغم من أنني لست ممن يرون في جريمة الرشوة شيئًا هينًا فإني ومن منطلق إنساني بحت كنت أشعر بالرثاء للموظفين الفقراء الذين لا يستطيعون الكف عن تقاضي الرشوة وإلا هلكوا بعد أن جوّعهم نظام حسني مبارك وسحب ثوب الستر من فوق أجسادهم.

كل الموظفين الفقراء الذين مدوا يدهم بالتسول والارتشاء حصلوا على تعاطفي..إلا رجال الشرطة المرتشين.. وحدهم لم يحصلوا على أدنى تعاطف من جانبي لسبب بسيط وهو أن تسولهم وطلبهم الرشوة كان يأتي دائمًا مشفوعًا بالتهديد، وكان رفض الانصياع لهم تتلوه عواقب يجللها الدم والكسور والرضوض والسحجات وأحيانًا إزهاق الأرواح. هذا هو الأمر الذي جعلني أفرق دائمًا بين فقير منحرف يتسول أو يطلب الرشوة ثم لا يلبث أن يذعن ويؤدي

لك المصلحة إذا ما شكوته أو رفعت صوتك عاليًا بالرفض.. وبين متسول شرس يمسك سلاحًا يهددك به ولا يترك لك خيارًا بالرفض.

لهذا كله عندما يتردد السؤال: هل كل رجال الشرطة مجرمون؟.. فإن إجابتي تكون أنه مثلما كنا نقول دائمًا في الحديث عن القضاء المستقل والقضاء التابع إن لدينا قضاة مستقلين من دون قضاء مستقل، فإنني أستطيع القول بأنه لدينا شرطيون شرفاء ولكن في وجود حاكم مجرم فإن جهاز الشرطة لا بد وأن يواكبه ويجاريه في إجرامه. لذلك يتعين بعد نجاح الثورة واستتباب الأمر إعادة تنظيم هذا الجهاز وترتيبه على أسس جديدة ومنح أفراده مرتبات تليق بالبشر وعدم تكليفه بتكليفات إجرامية لأنه ثبت لنا أن جهاز الشرطة أشبه بالحيوان الأعجم الذي لا عقل له ولا قلب، وأنه ينفذ تعليمات الرؤساء حتى لو خالفت تعاليم ربنا وخالفت تربية الأمهات والآباء.

يمكنك أن تحصل من هذا الجهاز على أداء محترم إذا أصدرت إليه أوامر محترمة وإذا أعليت من شأن من يلتزمون من أفراده بالقانون.. كما يمكنك أن تحصل منه على سفالة وانحطاط إذا أصدرت له أوامر مخالفة للقانون وأعليت من شأن الأكثر إجرامًا ووحشية من أفراده.

وهذا يؤكد على ضرورة الديموقراطية وتداول السلطة، فالديموقراطية من شأنها أن تضمن لنا أن من ننتخبهم ستصدر عنهم بالضرورة أوامر لجهاز الشرطة تتفق مع حقوق الإنسان والحيوان والنبات.

بعد فتح مكة

الثورة تشتعل في الشارع المصري والمتظاهرون يصرون على مطالبهم والنظام الساقط ما زال يتشبث بالسلطة لآخر رمق.

بينما يحدث هذا ألمح بعض الشخصيات تتسلل وتتقدم بهدوء للحصول على شرعية لا يستحقونها من خلال اعتلاء الموجة والصعود فوق طبق الفتة لهبر قطع سمينة ودسمة من لحم الوطن النازف.

أغرقت في الضحك المتواصل عندما قرأت في الشريط الإخباري لقناة الجزيرة أن السيد عمرو موسى قد نزل إلى ميدان التحرير اليوم الجمعة ٤ فبراير. لا أعلم ماذا يفعل عمرو موسى في ميدان التحرير..صحيح أن مكتبه بالجامعة العربية يقع بنفس الميدان، لكن صحيح أيضًا أنه يذهب إلى مكتبه وينصرف كل يوم من دون أن يمر بالمتظاهرين، فما الذي حدث الآن وجعله يريد أن يدخل في الكادر؟ لقد أدلى أمين عام الجامعة العربية بحديث منذ يومين للقنوات الفضائية كان فيه شديد التحفظ إزاء المظاهرات المشتعلة في طول مصر وعرضها، وتحدث بلغة دبلوماسية من تلك المعلبة البايتة التي لا تفهم منها شيئًا ولا تخرج منها بأي موقف محدد، فلم

نستطع أن نعرف هل هو مع المتظاهرين المطالبن برحيل مبارك أم أنه مع الرئيس ضد شعبه. لقد أمسك الرجل بالعصا من المنتصف كما اعتاد أن يفعل دائمًا. كل ما ركز عليه أنه على استعداد لتولي أي دور يطلب منه في المرحلة القادمة.. يا حلاوة!!.. هذه في الحقيقة رسالة مخادعة من رجل يعشق الأضواء وليس متأكدًا مما ستؤول إليه الأمور ويحاول أن يحجز لنفسه مكانًا في الفترة القادمة: إما مع الثوار الذين سيقول إنه تجاوب مع حركتهم وأبدى استعدادًا للتعاون معهم، وإما مع مبارك إذا ما حدث ـ لا قدر الله ـ أن استعاد عافيته وأمسك بالسلطة من جديد! والآن بعد أن أدرك أن الكفة قد بدأت تميل لصالح الشعب وأن الأرض أخذت تميد تحت قدمي مبارك فقد أبدى استعدادًا للترشح لرئاسة الجمهورية إذا طلب الشعب ذلك! الغريب أن عمرو موسى لم يجرؤ مرة واحدة طيلة السنوات الماضية التي كان اسمه يتردد فيها كمرشح محتمل لرئاسة الجمهورية.. لم يجرؤ على أن يعلن رغبته أو ترحيبه بذلك لأنه كان بالتأكيد لا يأمن غضب مبارك وبخاصة أنه يعلم جيدًا أن مبارك غضبه مر كطعم العلقم.

ليس عمرو موسى فقط وإنما هناك أيضًا السيد البدوي رئيس حزب الوفد الذي ما انفك ينفذ للسلطة كل طلباتها وآخرها إقدامه على شراء جريدة الدستور بهدف هدمها وتخريبها، وقد كان موقفه من التظاهر يوم ٢٥ يناير واضحًا ومعلنًا وهو الرفض التام، والآن يمتشق سيف عنترة بن شداد ويعلن انضمامه للثوار ورفضه التحاور مع السلطة التي كانت إلى أسبوع مضى قبلته ومصدر وحيه.

وكذلك رفعت السعيد رئيس حزب التجمع الذي ألحق حزبه بالحزب الوطني ووافق على أن يتعين في مجلس الشوري بمكرمة

سلطانية، كما أظهر عداء صريحًا لشباب حركة ٦ إبريل الذين أشعلوا الثورة ووصفهم قبل ذلك بأنهم «شوية عيال لاسعة». اليوم يقف في الطابور مقدمًا نفسه للنظام الساقط الذي كان دومًا من رجاله المخلصين محاولًا أن يتفاوض مع السلطة كمعارض يتحدث باسم «شوية العيال اللاسعة» وساعيًا لاعتلاء المد الثوري كما لو كان أحد صنّاعه!!

على العكس من هؤلاء، لا يسعني إلا أن أقدم تحية واجبة لرجل أثبتت الأيام نزاهته وصلابة معدنه وأكدت على أنه يمثل نوعية راقية من السياسيين النبلاء وهو أسامة الغزالي حرب رئيس حزب الجبهة الديموقراطية. هذا الرجل أشعر بأنني مدين له باعتذار لأنني انتقدته ذات يوم وكنت سليم القصد عندما تصورت أنه كعضو سابق بالحزب الوطني يحاول أن يقوم بدور زعيم معارض من دون أن يعفر حذاءه بالخروج في مظاهرة ومن دون أن يدفع أي ثمن. ولكن الحقيقة أن مرور الأيام أثبت لي أن هذا الرجل من القلة المحترمة بين الذين يعملون بالسياسة في مصر خصوصا حين أعلن رفضه التعيين بمجلس الشورى وأصر على أن يقف في صفوف الشعب.. وكان من الذين رحبوا بالمشاركة في التظاهر يوم ٢٥ يناير عندما كانت السلطة الشرسة في أوج عنفوانها.

ولا يفوتني بعد أن رأيت عمرو موسى وهو يمر بميدان التحرير إلا أن أحيي الدكتور محمد البرادعي الذي كان شديد الوضوح منذ البداية في موقفه من حكم مبارك كمعارض حقيقي ارتعدت فرائص النظام منه فشنت عليه حربًا قذرة وصلت لمحاولة الإساءة لأهل بيته. لم يمسك البرادعي العصا من المنتصف ولم يقل كلامًا ساكتًا مثل

الذي يقوله عمرو موسى حبيب شعبان عبد الرحيم. هذا على الرغم من أن تحركاته كانت بطيئة، وغيابه عن مصر كان أكثر مما ينبغي، لكنه في النهاية رجل وطني يمكن أن نختلف معه لكن لا نختلف عليه.

وبالمناسبة، هناك ظاهرة يمكن ملاحظتها الآن بوضوح وهي أن هناك من السياسيين والكتاب والصحفيين من يحاول الآن أن يتنصل ويبتعد عن مخدوميه السابقين ويهرب من مركبتهم الغارقة.. ولقد شاهدت واستمعت إلى مصطفى الفقي في لقاء مع فضائية كانت تستطلع رأيه في الأحداث الحالية، وقد قدمه المذيع قائلًا: معنا الآن الدكتور مصطفى الفقي القيادي البارز بالحزب الوطني.. فما كان من الفقي إلا أن قاطع المذيع في عصبية قائلًا: لا تقل قيادي بارز.. أنا مجرد عضو فقط!! وهنا قال له المذيع: ولكنك عضو سابق بمجلس الشعب وعضو حالي بمجلس الشورى ورئيس لجنة العلاقات الخارجية.. فاشتدت عصبية مصطفى الفقي وهو يقول للرجل:عضو معين.. لا تنس أنا عضو معين! وأظن أن المذيع كان مهذبًا مع الرجل فلم يقل له إنه حاز مقعدًا نيابيًّا لمدة خمس سنوات بمجلس الشعب في انتخابات زورتها له الدولة في دمنهور بشهادة أكثر من مائة وخمسين قاضيا!

وفي اليوم التالي أعلن مصطفى الفقي على الهواء استقالته من الحزب الوطني من دون أن يقول لنا عن السبب.. وإن كنا نعرفه!

أقول قولي هذا حتى لا تختلط الأمور على الناس ويظنوا أن من دخل الإسلام بعد فتح مكة كمن دخله عندما كان أبو جهل وأبو لهب وباقي أعضاء حزب قريش الوطني الديموقراطي في أوج بأسه وجبروته.

معركة الجحش الأخيرة

من أسوإ الأشياء التي صاحبت الأحداث الأخيرة استعانة رجال حسني مبارك بالبلطجية والهامشيين والمسحوقين تحت إغراء مائة جنيه ووجبة طعام، وذلك من أجل الاعتداء على الشباب المصري المعتصم بميدان التحرير.

في الحقيقة لم تكن جريمة نظام مبارك في هذا الشأن قاصرة على العدوان على المتظاهرين، وإنما هو ارتكب قبل ذلك جريمة أشد في حق هؤلاء البؤساء الذين اعتاد رجاله الاستعانة بهم لضرب المعارضين عندما حرمهم عمدًا من التعليم وحرمهم عمدًا من فرص الرزق الكريم وسد في وجوههم أبواب الأمل، ولم يترك لهم سوى باب وحيد للحصول على الطعام وهو عرض عضلاتهم الواهنة وحناجرهم المتحشرجة من شرب المخدرات للبيع لأي سيد من سادة الجريمة المنظمة.

هؤلاء البؤساء الذين استغلهم أعوان مبارك في أعمال إجرامية كان ينبغي على مبارك أن يرعاهم ويحميهم ويوفر لهم أسباب الحياة من تعليم محترم ومساكن آدمية وفرص عمل كريمة، لكنه لم يفعل وفضل أن يتركهم للخراب حتى يمكنه أن يجد عند الحاجة مرتزقة يستطيع

أن يدفع بهم على ظهور الخيول والجمال والبغال والجحوش إلى ساحات الوغى لدهس أبناء وبنات مصر الذين سأموا حكمه وظلمه وخرجوا يطلبون الانعتاق من أسره.

وللغرابة، فهذه الفلسفة هي نفسها التي تحكم اختيار جنود الأمن المركزي.. فالنظام يعمل بكل همة للإبقاء على عدد ضخم من أبناء الريف في الجهل والفقر ليغترف منهم عندما يحل موعد تجنيدهم ويؤمّن الأعداد التي يحتاجها لقمع احتجاجات المصريين على السرقة والنهب وبيع الوطن. وهذا لعمّري شيء بالغ القبح والشذوذ لأن هؤلاء الشباب كان ينبغي تجنيدهم للعمل بالجيش المصري الذي يحمي الوطن.. أما العمل بالشرطة فلا يجب أن يعتمد أبدًا على المجندين. وهذا الأمر غير قانوني وغير دستوري وغير إنساني أيضًا؛ لأننا في مصر تعلمنا منذ الصغر أن الجندية شرف، وعندما تحرم هؤلاء الشباب من هذا الشرف وتقدم لهم العار بديلًا بجعلهم يواجهون إخوتهم عوضًا عن مواجهة الأعداء فإنك ترتكب جريمة مزدوجة في حق هؤلاء الشباب.

حرصت على أن أستمع من الشباب المتظاهرين في ميدان التحرير حكاياتهم عن موقعة الجحش التي واجهوا فيها البلطجية ظهر الأربعاء وهم محمولون على العربات الكارو وعلى ظهور الحيوانات، فقالوا لي إن المجرمين أظهروا شراسة منقطعة النظير وكانوا يضربون بالسيوف والمطاوي بمنتهى الوحشية والقوة بهدف إحداث أكبر قدر من الخسائر في أوساط الشباب الحر لأن سادة الجريمة المنظمة الذين استأجروهم قد رهنوا دفع قيمة المقاولة بتحقيق نتائج حاسمة على الأرض تتمثل في حد أدنى من القتلى

والجرحى! ومن الواضح بعد أن انجلى الغبار عن أرض المعركة أن البلطجية قد حققوا لأسيادهم «التارجت المستهدف» عندما نجحوا في قتل أحد عشر شابًّا وجرح ألف آخرين بعضهم إصاباتهم خطيرة، وباتوا بالتالي يستحقون باقي ثمن المقاولة الدموية.

وعلى الرغم من أن فلول المجرمين قد لاذوا بالفرار على ظهور الحيوانات التي دخلوا بها ميدان التحرير ثم خرجوا خروجًا آمنًا إيثارًا للسلامة بعد أن ضيق المتظاهرون عليهم الخناق.. إلا أن جحشًا واحدًا دونًا عن بقية أصدقائه من البغال والأحصنة والجمال والحمير قد حرن متشبثًا بالأرض ورفض رفضًا قاطعًا أن ينسحب ويخرج مع الخارجين، وقد حارت الجموع في أمره لأنه بدا مختلفًا عن غيره من الحيوانات التي سارعت بالفرار، ويبدو أنه يصر إصرارًا فظيعًا على البقاء حتى آخر نفس! هذا وقد بذل المتظاهرون جهودًا حثيثة لمحاولة إخراج الجحش غير أنه ما زال مصرًّا على الرفض.

ولا أعتقد أن المتظاهرين سييأسون من الجحش الذي جلس وسطهم بالقوة وأخذ يبول ويغوط ويحدث ضجيجًا وصخبًا. ولا شك في أنهم سيظلون على محاولاتهم حتى ينجحوا في إخراج الجحش الذي أحال المكان إلى بؤرة عفنة ويرفض أن يتزحزح من مكانه ويرحل!

الانتقام الأسود المريع

ما كل هذا الضيق الرسمي بقناة الجزيرة؟ ما كل هذا الفزع والتبرم بوسيلة إعلامية تؤدي دورها، وما كل هذه الاتهامات التي ينزلونها على أم رأس القناة كلما نقلت صورة واقعية أو قدمت تقريرًا محايدًا؟. هل تمكن الزيف والخداع من العقلية الرسمية للسادة المسؤولين حتى تصوروا أن تليفزيون الوكسة في ماسبيرو هو النموذج الذي ينبغي تعميمه أو أن الفضائيات السيامي اللطيفة الخاصة المملوكة لرجال الأعمال والتي تكمل عمل ماسبيرو في استغفال الناس وقهرهم هي الوسائل الإعلامية التي تستحق التقدير والإشادة؟

كل مسؤول رسمي يظهر على الشاشة يستهل كلامه بلعن قناة الجزيرة وكأنها هي التي ظلمت المصريين ثلاثين سنة ودفعتهم للثورة أو كأنها هي التي بعثت موفديها ومراسليها على ظهور الإبل والخيل ليعملوا في الشباب ذبحًا وتقتيلًا. إن الذين يلعنون الجزيرة هم الذين أحضروا البلطجية ودفعوا لهم المال وفتحوا لهم الثغرات على تخوم ميدان التحرير لينفذوا منها ويرتكبوا جريمتهم الشائنة.

بل إنني أعتقد أن السادة المسؤولين الذين يملؤهم الحنق من الأداء الإعلامي للجزيرة كان يتعين عليهم أن يشعروا بالامتنان لهذه

المحطة التليفزيونية لو أنهم كانوا يحبون وطنهم حقًّا ويخشون على أرواح الشباب المعتصم في ميدان التحرير. إن كاميرات الجزيرة الموجهة إلى الميدان يوم الأربعاء وليلة الخميس الدامي هي التي حمت أرواح الشباب من المذبحة التي كانت تدبر لهم والتي كانت فلول الحزب الوطني وميليشيات الداخلية تعتزم تنفيذها. ولو أن أي مسؤول يهتم لأمر هؤلاء الشباب لأرسل رسالة شكر لقناة الجزيرة لقيامها بهذه المهمة.

وشيء آخر يجعل شكر قناة الجزيرة أوجب هو من أين عرف السادة المسؤولون أو سمعوا بأمر غزوة الجحش التي قام بها الرعاع المتوحشون؟ أليس من قناة الجزيرة؟ ماذا لو أنهم اعتمدوا على تليفزيون الوكسة في ماسبيرو أو قنوات الوداد والحنية الخاصة.. هل تراهم كانوا عرفوا شيئًا عن الأحداث، أو أنهم كانوا استمتعوا بصورة صفحة النيل الهادئة التي ظلت كاميرات تليفزيون الوكسة مصوبة نحوها طول الوقت كدليل على غياب المظاهرات وهدوء الأحوال؟!

وفي الحقيقة لا أدري كيف فات على الذين ينشطون هذه الأيام بشكل انتقائي في التضحية ببعض الشخصيات الذين يرون أن الناس تكرهها وتلعنها..كيف فاتهم أن يستثنوا بائع الأجندات السابق وزير التليفزيون الرسمي الذي جعل رقبة مصر في حجم السمسمة من خلال الإعلام ذي الطابع النازي المقرف الذي يقدمه للناس؟ هل ظنوا أن الناس تكره رشيد محمد رشيد وتحب أنس الفقي؟ أو أن المسألة كما يعلم الجميع هي التضحية بشخصيات حزبية وتنفيذية لم يكن أيهم في أي وقت من الأوقات يملك من أمر نفسه شيئًا وكانوا دائمًا عبيد المأمور ومن هو أحط من المأمور!

إن الإجراءات التي تتم هذه الأيام لامتصاص غضب المتظاهرين هي في الواقع لا تزيد غضبهم إلا اشتعالًا لأن الرغبة في استكراد الناس واستغفالهم من خلال هذه الإجراءات واضحة تمامًا، وهي تدل على قبضة أمنية باطشة تسعى للتشبث بالسلطة وتكريسها في الأيدي الأمنية من خلال التضحية بجزء من رتوش الصورة الفاسدة مع الحفاظ على المتن والقوام والعمود الفقري للفساد!

هل منع بعض الشخصيات محدودة القيمة من السفر بشكل مؤقت ريثما تهدأ الأمور يفيد الثوار في شيء؟

وأما عن نكتة التحفظ على أرصدتهم في البنوك فهي سخيفة لا تضحك أحدًا لأن الجنين في بطن خالته يعلم جيدًا أن الفلوس المسروقة كلها موضوعة في حسابات سرية خارج مصر وأن أرصدتهم بالبنوك المصرية لن تزيد على مدخرات موظف مصري عادي أي بالكثير بضعة آلاف!!

لا حل أمام شباب الثورة غير الاستمرار في التظاهر والإعراب السلمي عن الغضب حتى يسقط النظام الفاسد، ذلك أن الاستسلام لخدر الإجراءات الشكلية فاقدة القيمة، والتأثر بلجان الحكماء لن يترتب عليه سوى إجهاض الثورة الذي سيتلوه رفع التحفظ عن الشخصيات اللطيفة التي اختاروها ليضحوا بها أمام الناس (كده وكده) ثم عودة حبيب العادلي أيًّا كان اسمه الجديد وعودة جمال مبارك وصفوت الشريف وأحمد عز أيًّا كانت أسماؤهم الجديدة.. وعودة البلادة والقسوة والخسة والنطاعة مصحوبة بالانتقام الأسود المريع.

فخامة القاتل

أعلم جيدًا أننا شعب عاطفي، وأعلم أن من أسهل الأشياء على الإعلاميين الدهاة التأثير على مشاعر الناس باستخدام استمالات عاطفية.

لهذا فقد تطيرت وتشاءمت عندما استمعت إلى كلمة مبارك التي لا شك كتبها له شيطان لعين يدرك كيف يدق على أوتار الناس البسطاء وكيف يتلاعب بمشاعرهم عندما حمّل الكلمة باستمالات عاطفية من العيار الثقيل، مثل التركيز على التاريخ العسكري للرجل والدور الذي أداه في خدمة الوطن من دون التطرق إلى التاريخ الرئاسي الذي لا يحمل سوى الكوارث والمصائب لشعب مصر. كذلك ركز كاتب الخطاب على مسألة أن الرئيس قد عاش عمره كله في مصر، وينوي أن يموت ويدفن فيها. ولا يخفى عليكم التأثير الذي يمكن أن يحدثه كلام رجل عجوز في الثالثة والثمانين من عمره يبدو منكسرًا يقول للناس إنه ينوي نزولًا على رغبتهم أن يترك الحكم بعد أن يتم فترته الحالية ثم يتمنى لمصر الخير والسلامة في نهاية كلمته!

من الطبيعي لكلمة كهذه أن تدفع الدموع في عيون ربات البيوت وغيرهن، وأن تجعل كثيرا من الرجال يرقون لحال الرجل على الرغم

من خطاياه السياسية الواضحة وأن يقولوا للمتظاهرين كفى فالرجل قد تجرع السم وهو ينزل على طلباتكم جميعًا!

لكن يبدو أن الخطاب كان يحوي كلمة سر مثل تلك التي كانت في خطاب جمال عبد الناصر عند تأميم القناة عام ١٩٥٦ عندما ذكر كلمة «ديليسبس» وبعدها انطلق الرجال ليسيطروا على مرافق القناة ويتولوا القيادة بديلًا عن الأجانب. ويبدو أن خطاب الريس كان يحمل كلمة سر ما أن سمعها الشبّيحة والمجرمون من ميليشيات الحزب الوطني حتى اندفعوا إلى ميدان التحرير في موقعة الجحش الشهيرة حيث قتلوا وجرحوا مئات من الشباب الصامد في الميدان. وعلى أثر ذلك تم إبطال مفعول الشحنة العاطفية وانقضى تأثير حقنة البنج التي تلقاها الناس في خطاب الرئيس وبدءوا يفيقون ويدركون فداحة أن يطمئنوا إلى وعود الرئيس الذي يريد أن يشتري وقتًا إضافيًّا لترتيب الأوراق بثمن رخيص جدًّا جدًّا عند سيادته وهو دماء أبناء مصر!

عندما كان الإعلاميون يتشحتفون وينهنهون عقب خطاب الرئيس وجدت نفسي أكاد أبكي من الحنق على حال الناس الطيبين الذين ابتلعوا الطُّعم.

وعلى الرغم من أنني أحمل كثيرا من الود للمذيعة منى الشاذلي فإنها كسرت قلبي في تلك الليلة عندما جرفت مشاعر الناس في سكة تأييد الرئيس والتعاطف معه.

يوم الأحد ٦ فبراير كان يوم الشهيد بميدان التحرير وتم تأبين عدد من أقمار مصر من الشباب الأنضر من الورد البلدي الذين قتلتهم رصاصات وقنابل ومطاوي وأحجار السيد الرئيس والذين معه من أصحاب المليارات.

سألت نفسي هل شاهدَت السيدة سوزان مبارك زوجة الرئيس الملياردير وأم رجل الأعمال الملياردير وأخيه السياسي الملياردير صورة الشهيدة سالي مجدي زهران..الفتاة الأحلى من البدر في ليلة تمامه التي حلم والداها بيوم زفافها فأرسلها الأخ حبيب العادلي صبي السيد الرئيس إلى الجنة بقرار فوقي صدر له فنفذه بمهارة يحسد عليها؟!

وهل شاهدت الأم سوزان مبارك راعية الأمومة والطفولة دموع أم الشهيد رامي الذي تم اغتياله من أجل أن يظل سيادة الرئيس على الكرسي لستة أشهر أخرى؟ هل سمعت باسم الفنان الشهيد أحمد بسيوني الذي كان يحلم بالفن والخير والجمال ويرى مصر وطنًا جديرًا باحتضان مثل هذه القيم؟

هل شاهدت الأمهات بكل بيت مصري الفيديو الذي بثته الجزيرة والذي تم تصويره من إحدى البلكونات في الإسكندرية وفيه شاب أعزل يقف في مواجهة قوات الأمن المسلحين بالرشاشات يطلب منهم أن يترفقوا بمصر؟.. هل سمعت الأمهات صراخ البنات اللاتي كن يقمن بتصوير المشهد ولم يخطر ببالهن أن يطلق مجرم أثيم من ميليشيات أمن مبارك النار على الفتى فيخر صريعًا في الحال وسط صرخات البنات الهستيرية لهول المنظر؟! من يعوض أم هذا الشاب وأباه؟ من يعيد التوازن للفتيات اللواتي صورن المنظر وشهدنه بكل الرعب والفزع والذهول؟

هل شاهد أعضاء المجلس القومي للمرأة من الهوانم الملتفات حول الهانم الكبيرة في غدوها ورواحها صورة الشهيد أحمد إيهاب

الذي تزوج من شهرين فقط وصرعته رصاصات الغدر يوم ٢٥ يناير؟ هل شاهدن صورة القمر المغدور حسين طه الذي اغتاله رجال الرئيس بالاسكندرية يوم ٢٨ يناير؟ هل شاهدن الطالب الجامعي عمرو غريب الذي ظن وهو يخرج في مظاهرة سلمية أنه في حماية مبارك فمات شهيد أفكاره البريئة؟ هل شاهدت الهوانم الشهداء إسلام بكير وكريم أحمد رجب ومحمد حسام الدين ومصطفى عبد الفتاح وأيمن على وغريب السيد ومدحت طاهر وحمادة لبيب ومحمد عاطف وغريب عبد العزيز ومصطفى محمود وسليمان صابر علي ومحمد محروس ومحمد عماد حسن ومحمد راشد وكريم بنونة ومحمد عبد المنعم حسنين ومحمود سعيد هدية؟

هل سمع الوزراء وزوجاتهم من خدم الهانم اسم الشهيد سيف الله مصطفى البالغ من العمر ١٦ سنة فقط والذي تم حرمانه من سبعين سنة كانت في انتظاره بالحياة حتى يصبح في سن الرئيس لولا أن فخامة الرئيس يريد أن يجلس معنا لستة أشهر أخرى؟!

تحضرني في هذا الموقف القصيدة أو المنظومة النثرية التي كتبها الشاعر زاهي وهبي الإعلامي اللبناني المعروف بعنوان «فخامة القاتل».

كتب زاهي وهبي القصيدة عام ٢٠٠٥ للرئيس اللبناني الذي ضحي بدماء الشباب من أجل البقاء في السلطة لمدة أخرى:

«من التالي؟

من منا سوف يودع من؟

وراء نعش من سوف نسير غدًا؟

أي أم سوف تنزوي في ثياب الحداد؟

أي زوجة سوف يطفح كيل حزنها وأساها؟

أي ابنة سوف تقطف وردة لروح أبيها؟

القتلى يشيعون تباعًا والقاتل يحتفظ بابتسامته الصفراء.

المفجوعون والمقهورون والحيارى يصلّون لراحة أنفس الضحايا والقاتل يحار: أي ربطة عنق سوف يرتدي هذا النهار؟

البلاد تسبح في دموعها والقاتل يسبح في حمام الحقد والكراهية والحسد.

ينهض القاتل من نومه كل صباح ويرتدي ابتسامته كما يرتدي ربطة عنقه.

الأرض تهتز من هول الجريمة والقاتل متشبث بكرسيه الهزاز.

الإجرام ليس شكلًا. ليس تقطيب حاجبين أو تكشيرة أسنان. الإجرام ذهنية.

كل المجرمين والسفاحين والقتلة غلفوا جرائمهم بالشعارات، كلهم ادعوا العفة والطهارة.

كلهم انتهوا إلى مزابل التاريخ أو أعواد المشانق.

فيا فخامة القاتل كفى... ارحل».

والآن أود أن أسأل زاهي وهبي: هل هذه المنثورة كانت للرئيس اللبناني وحده... أو أنهم كلهم هذا النطع المتوحش؟

لا تصالح ولو منحوك البسكويت

منذ سنوات قليلة قرأنا بالصحف ذات صباح عن دعوة وجهها الرئيس مبارك لمجموعة محدودة من السادة أعضاء مجلس الشعب للإفطار معه وتبادل الرأي في شتى الأمور.

حضر هذا الإفطار بالقصر الرئاسي خليط من مختلف الأحزاب والتيارات الممثلة في مجلس الشعب. بعد الإفطار خرج أحد النواب المعارضين وكان للغرابة أحد أعضاء الهيئة البرلمانية للإخوان المسلمين إلى الصحافة وأدلى بتصريح كوميدي هزلي إلى أبعد الحدود..فماذا قال سيادته؟ قال: لقد كان لقاء رائعًا، وقد تناولنا على مائدة الرئيس أصنافًا جميلة للغاية ومن بينها حاجات محشية حاجات، غير حاجات أخرى غير محشية! وفي الحقيقة أنا متفائل بمستقبل البلد تحت قيادة السيد الرئيس وأثق بأن سيادته وحده يملك الحل لكل مشاكل مصر!!

يومها أشفقت على الناخبين الذين منحوا أصواتهم لهذا الرجل وهم يتصورونه معارضًا للرئيس وسياساته، ولا يخفى عليكم أن المقاعد التي انتزعها الإخوان في انتخابات ٢٠٠٥ قد سالت دماء كثيرة للناخبين من أجل الفوز بها! وأتذكر أنني كتبت مقالًا للتعليق

على هذه الواقعة أسميته «حاجات محشية حاجات» أوضحت فيه للقراء الأسباب المحتملة لهكذا سلوك من جانب نائب معارض، وقلت: إن الناس من طول تعرضها للظلم والقهر والمعاملة المهينة من السلطة لا يصدقون أنفسهم حين يجدون مسؤولًا حكوميًّا يعاملهم بأدب فتنهار حينئذ مناعتهم وينسون مساوئه ويغفرون له كل خطاياه لمجرد أنه ترفق بهم في القول وكان معهم ودودًا لينًا، وما بالنا إذا كان هذا المسؤول هو رئيس الجمهورية ذات نفسه!.. هنا في الغالب ستتداعي إرادة الشخص وتتهاوى مقاومته وتمسكه بعقيدته السياسية وتذوب مواقفه المعارضة وينسى كل العذاب والظلم لمجرد أن الرئيس تلطف إليه في القول ومازحه وأجرى معه حديثًا وديًّا وسط جمع من الحضور الذين كانوا يتناولون في سعادة ومرح على مائدة الرئيس حاجات محشية حاجات!

في مقالي الذي كتبته وقتها لم أذكر للقراء اسم النائب ولا ذكرت الفصيل السياسي الذي ينتمي إليه وهو جماعة الإخوان المسلمين واكتفيت بالقول إنه نائب معارض، لأنني لم أرد أن أساهم في الهجوم على الإخوان الذي كان على أشده، أو أن أمنح سقط المتاع من كتَّاب الحكومة ذخيرة إضافية يطلقونها على خصومهم الذين أسموهم الجماعة المحظورة. وعلى الرغم من أنني بعيد كل البعد عن فكر الإخوان، فإنني أحمل تقديرًا لكل من يناضل في سبيل مبادئه ويدفع الثمن، وأكره أن يكون لي موقفًا مماثلًا لذئاب وضباع السلطة!

لكنني وقتها أدركت نقطة ضعف خطيرة لدى الإخوان هي تعطشهم الحارق لنيل الاعتراف، ورغبتهم الجارفة في ألا يقال عنهم جماعة محظورة، واستعدادهم لتقديم تنازلات إذا ما حصلوا

على لقاء أو وعد بلقاء مع مسؤول أيًّا كان الرأي في هذا المسؤول.. يكفي أنه حكومي ليسيل للقائه اللعاب وتتفتح مسام القلوب.

لكل ما سبق فإنني شعرت بالخوف على ثورة شباب مصر التي رووها بدمائهم منذ يوم ٢٥يناير حتى الآن وخشيت على الشباب الأطهار الصامدين في ميدان التحرير وباقي المدن المصرية عندما أعلن السيد عمر سليمان أن الإخوان قد دُعوا للحوار مع الحكومة لكنهم مترددون! خشيت لأنني أعلم أن الإخوان قد يتلهفون على اللقاء ويفرحون بالاعتراف وقد يتراجعون عن موقفهم الحالي المؤيد والمشارك في الثورة فيسهمون في إجهاضها بعد أن ساهموا في منحها زخمًا وقوة. في البداية رفض الإخوان الحوار إلا بعد رحيل الرئيس وإن كانوا قد أبدوا سعادة لأن السيد نائب الرئيس قد اعترف بهم! بعد يومين وافقوا على حضور اللقاء. وهنا عادت إلى ذاكرتي واقعة الإفطار الذي حوى حاجات محشية حاجات بالقصر الرئاسي، وقلت في نفسي: ماذا يحدث لو أن السيد عمر سليمان قد دعاهم لتناول لقمة على ما قُسم وقدم لهم ساليزون وباتون ساليه ثم أتبعه بطبق من البونبون والشوكولاتة؟!.. إذن لهلك الشبان المرابطون على ثغور مصر بميدان التحرير!

حمدت الله على أنهم خرجوا من اللقاء وأعلنوا أنه لم يكن به ما يفيد، وأنهم ما زالوا متمسكين بمطالب شعب مصر وأولها رحيل الرئيس.

وأنا هنا أهيب بهم ألا يضحوا بدماء الشهداء من أجل الحصول على الاعتراف من سلطة أسقطها شعب مصر، وأستحلفهم بالكتب

السماوية أن ينسوا تراثهم في المواءمات والحسابات الخاطئة واللهفة على الاعتراف، ويدركوا أن السلطة لن تنسى لهم دورهم في الثورة وأنهم الذين حموا الثوار يوم أربعاء موقعة الجحش عندما ظلت طلائعهم تتدفق على الميدان طوال الليل حتى لا تترك العدد القليل من الشباب الذين بقوا يتم افتراسهم.. فهل يسمعون ويعون؟

ارجع يا محسن... إحنا كنا بنهزر!

المجرم هرب.. بن علي هرب.. المجد للتوانسة

«الشاب عبد الناصر التونسي»

آن لشعب مصر أن يمد رجليه

يروى أن الإمام الشافعي رضي الله عنه كان يجلس مع تلاميذه يتحدث إليهم في درس عن الصيام، وكان لألم في ساقيه قد جلس فاردًا رجليه للأمام أثناء إلقائه الدرس عندما دخل عليهم رجلٌ فخيم ذو مهابة كانت تبدو عليه سيماء العلم والوقار.. وهنا قام الشافعي بسحب رجليه وثنيهما رغم ما به من ألم وذلك تأدبًا في حضرة رجل تصور لمنظره المهيب أنه قد يكون أعلم منه! فلما أنهى الشافعي الدرس قام هذا الرجل وتوجه بالسؤال إلى الإمام قائلًا: يا إمام.. من أي وقت لأي وقت يكون الصيام؟ فقال الإمام رضي الله عنه: من طلوع الفجر إلى مغيب الشمس. فقال الرجل: يا إمام فإن لم تغب الشمس فماذا عسانا نفعل؟ وهنا قال الشافعي قولته المشهورة: الآن آن للشافعي أن يمد رجليه!

قام الشافعي بالعودة لمد رجليه بعدما أدرك تهافت الرجل وقلة علمه وحالته الفكرية المتدهورة بعدما كان يظن قبل أن يتحدث الرجل أنه بإزاء عالم كبير!

وهكذا يتبين أن مقولة أرسطو: «تكلم حتى أعرفك» هي مقولة

صحيحة تمامًا لأنك لا تستطيع أن تحكم على ما يتمتع به شخص من ثقافة وعلم وحكمة إلا إذا تكلم وكشف عن شخصيته.

من الجدير بالذكر أن اللواء عمر سليمان المدير السابق للمخابرات المصرية والساعد الأيمن للرئيس المخلوع حسني مبارك كان يحظى بسمعة طيبة لدى المصريين، ساعد عليها قلة ظهور الرجل والغموض الذي كان يحيط به، فضلًا عن مظهره الصارم الذي يوحي بجدية شديدة وعدم معرفة كثيرين لأي معلومات عنه، وترؤسه لجهاز عرف عنه الكفاءة والوطنية والسهر على أمن الوطن حيث يواجه الأجهزة المعادية وشبكات التجسس والتخريب بخطط وعمليات تمتلئ بالشجاعة والجسارة والدهاء.

وكما ذكرت الكاتبة والناشطة السياسية «نوارة نجم» في حديث تليفزيوني أن هذه الصورة قد ساعد على رسوخها في الأذهان أعمال درامية مثل رأفت الهجان وجمعة الشوان، وكذلك قراءة الشباب لروايات مثل رجل المستحيل وغيرها.

في الأسابيع الأخيرة وبعد ثورة المصريين التي اندلعت في الخامس والعشرين من يناير وبعد تدهور الأحوال في أعلى السلطة والتخبط الذي عالج به مبارك ثورة شعبه عليه، وفي خضم إجراءاته اليائسة التي أقدم عليها كمن يتجرع السم، قام الرئيس المخلوع بينما مصر تحترق وتتعرض للسلب والنهب على أيدي ميليشياته بتعيين عمر سليمان نائبًا لرئيس الجمهورية في حركة أحجم عن القيام بها طوال ثلاثين سنة. وهنا تساءل الناس: وهل اكتشف مبارك الآن أن منصب النائب كان شاغرًا؟

وفي الحقيقة لقد أشفق البعض على عمر سليمان الذي اعتبروه رمزًا وطنيًّا أن يزج به مبارك في أتون معركته مع شعبه وأن يحرق الرجل ويلحقه بمركبته الغارقة.. ودعا له كثيرون أن يستطيع أن يفعل شيئًا لإنقاذ الوطن..فماذا وجدوا؟

لقد تحدث عمر سليمان في الأسبوعين اللذين جلس فيهما على مقعد نائب الرئيس حوالي أربع أو خمس مرات... وفي الحقيقة لقد أجهز من خلال أحاديثه التليفزيونية إجهازًا تامًّا على الصورة التي كانت في مخيلة الناس عنه وأكد لهم أنه نسخة طبق الأصل من مبارك، ليس فقط بسبب ولائه التام البادي لرئيسه المكروه شعبيًّا وتماهيه معه في كل قراراته، وإنما لأنه أيضا بدا غير قادر على التصرف وفي انتظار التعليمات التي عاش عمره يتلقاها، ولم يدرك أن مبارك قد انتهى.. وظهر أنه بعيد كل البعد عن السياسة وأصولها فحفلت تصريحاته بالاستعلاء والاستفزاز والتهديد والوعيد مع الإحجام عن أي تصريح لين يتعاطف مع الناس ويعطي الشباب أملًا في أن رسالتهم التي لم يفهمها الرئيس قد يفهمها نائبه. وكان من أكثر تصريحاته استهجانًا واستنكارًا وجلبًا للسخرية تصريحه الذي قال فيه إن الرئيس يعدهم بعدم ملاحقتهم أو القبض عليهم بعد أن ينصرفوا!.. قال هذا في الوقت الذي كان يتعين عليه أن يطلب السماح هو ورئيسه من شعب مصر!

ثم جاء حديثه التليفزيوني مع محطة أمريكية كارثيًّا عندما قال للمذيعة إن الشعب المصري غير مؤهل للتحول الديموقراطي وإنه يحتاج إلى وقت حتى يتعلم ثقافة الديموقراطية! قال هذا في الوقت الذي كان ملايين الناس يقفون في كل المدن المصرية مواجهين

آلته القمعية وبلطجية رئيسه وإعلامه الساقط لأجل مطلب واحد هو الديموقراطية، فأثبت أنه هو الذي يحتاج إلى أن يولد من جديد حتى يتعلم ثقافة الديموقراطية! وقد أدركنا من حديثه هذا من أين كان يأتي أحمد نظيف وأحمد أبو الغيط بتصريحاتهما المعادية للإنسانية ولأماني الشعب، وفهمنا أن الثلاثة كانوا تلامذة نجباء في مدرسة المخلوع الديموقراطية!

حديث واحد من أحاديثه كان رائعًا وجميلًا ونزل على الناس بردًا فأخذوا يستعيدون كلماته مرة بعد مرة.. هو حديثه الأخير الذي أعلن فيه تخلي زعيمه عن منصبه رئيسًا للجمهورية.. وحتى في هذه الكلمة الذي حملت للناس أجمل خبر سمعوه في الثلاثين سنة الأخيرة فقد شابها لحن في الإلقاء.. واللحن هو النطق الخاطئ للكلمات وذلك عندما أنهى الخبر بقوله: والله الموفق. وقد نطق كلمة الموفِّق بفتح الفاء على الرغم من أنها يجب أن تكون مكسورة حتى يكون لها معنى! ورغم هذا فنحن نعذره لأنه كان يذيع على الناس أسوأ خبر بالنسبة له شخصيًّا.

والآن بعد أن استمعنا إلى الرجل الغامض الصارم ذي الطلعة المهيبة وهو يتحدث، فإنني أعتقد أنه قد آن لي أن أمد رجليّ على امتدادهما!

الإعلاميون النعال وضيوفهم السفلة

من هؤلاء الناس؟!

من أي كوكب هبطوا؟! وأي مجرة سماوية ألقتهم علينا؟ ألا يعي هؤلاء ما يقولون؟ ألا يدركون أن الناس لم تعد تطيقهم أو تحتمل رؤيتهم؟!

منذ اندلاع المظاهرات في ٢٥ يناير وظهورهم في كل الفضائيات لا يتوقف، وطلتهم القسرية علينا لا فكاك منها.

نفس الكلام الممجوج السخيف في كل محطة. يضيق المرء بواحدة فيحول المؤشر إلى أخرى ليجد نفس الكلام الفارغ سواء من الإعلاميين المذعورين أو من الضيوف المجرمين.

لقد سبق أن كتبت في الماضي القريب مقالًا عنوانه «الشخصيات القذرة» تناولت فيه احتياج البرامج بالفضائيات التي تزحم السماء إلى نوعية من الضيوف من ذوي السمعة السيئة، وقلت إنه كلما كان الضيف من هؤلاء أكثر إثارة للاحتقار كلما كثرت استضافته، بل ودفع مبالغ مالية له مقابل هذه الاستضافة، للاستعانة به في البرامج في مواجهة شخصيات محترمة، وذلك حتى يبدو البرنامج متوازنًا ويضم

أكثر من وجهة نظر، وكذلك من أجل تسخين البرنامج ومنحه حيوية وإثارة. وهكذا أصبحت معظم البرامج لا تعتمد على شخصيات محترمة متباينة الاتجاهات والأفكار مختلفة الرؤى والمناهج، لكن القاعدة أصبحت هي استضافة شخص محترم وآخر وسخ!

لكن لوحظ في تغطية وقائع ثورة ٢٥ يناير والتعليق عليها في القنوات المصرية الحكومية والخاصة الاختفاء شبه التام للعقلاء والوطنيين!.. ولوحظ أن الاستعانة بالساقطين كانت هي الأساس، وأن الشخصيات القذرة كانت لها الغلبة، فظلت تصول وتجول تنتقل من محطة إلى محطة ومن برنامج إلى برنامج يتقيئون غرامهم بالرئيس المخلوع ودعمهم لرجاله المجرمين الفاسدين وإدانتهم بأشد العبارات وأكثرها انحطاطًا جموع الشعب المصري الذي انتفض في كل مكان على أرض مصر. وكان ذلك فيما يبدو رغبة من القنوات ومقدمي البرامج في إظهار الولاء وتأكيد البيعة للجهات الأمنية التي تدير الإعلام وتختار المذيعين والضيوف!

ومن الملاحظ أن الشخصيات القذرة ليست كلها درجة واحدة، لكن هناك أطيافًا وألوانًا..فمنهم الجاهل الغشوم ومنهم الذكي الأريب ومنهم الثرثار الديماجوجي، لكنهم يشتركون جميعًا في الرغبة في تسويق كلام فارغ ومحاولة إقناع الناس به.

عندما سُئل السادة الضيوف عن رؤيتهم لثورة الشعب في ربوع مصر فإنهم جميعًا قد عزفوا لحنًا واحدًا من المؤكد أن النوتة الخاصة به قد كتبها مخبر أو أمين شرطة من الصنف الفاجر آكل السحت. قالوا جميعًا إن شباب الثورة عملاء مأجورون يقبضون من إسرائيل وإيران!

وبعضهم قال إنهم مجرد مجموعة من المنحرفين يمارسون الجنس ويتعاطون المخدرات في ميدان التحرير.. وبعد ذلك طلب منهم أمين الشرطة الذي يوجههم أن يركزوا على أحمد نظيف ويتهموه بأنه سبب كل المصائب ويطلبوا من الرئيس مبارك أن يتدخل بحكمته المعهودة ليخلص مصر من نظيف ورجاله الذين أثاروا غضب الناس وتسببوا في خروج المظاهرات!! كلام رخيص فاجر يليق بمروجيه والقائلين به.

إن السادة الذين سمحوا لأنفسهم بترديد هذا اللحن الرخيص كانوا يعلمون تمام العلم أن أحمد نظيف ـ على فساده ـ لم يكن يستطيع أن يرصف الشارع الذي يسكنه إلا إذا أخذ التوجيهات من السيد الرئيس! ويعلمون جميعًا أن مجلس الوزراء بأكمله لا يهش ولا ينش، وأن السبب في وجود هؤلاء الوزراء وتقاضيهم مرتبات أسطورية وحصولهم على مزايا لا أول لها ولا آخر هو أن يفعلوا شيئًا واحدًا ألا وهو احتمال اللعنات ودعاء الناس عليهم في كل صلاة بسبب القرارات والسياسات والمواقف التي يتخذها السيد الرئيس وحده والتي لا ناقة لهم فيها ولا جمل! هم إذن ليسوا أكثر من طاقم السكرتارية المطيع الذي يعرض البوستة على السيد الرئيس باعترافهم شخصيًّا.

ومع هذا فإن الإعلاميين السفلة وضيوفهم الأكثر سفالة كانوا من أجل الدفاع عن زعيمهم المفدّى وفي محاولة لجعل البائس نظيف يشيل القضية وحده يصورون الرئيس المخلوع على أنه رئيس بلا صلاحيات، أو بأنه مثل الرئيس الإسرائيلي.. مجرد رمز قديم يجلس في البلكونة يأكل أيس كريم بينما رئيس الوزراء هو الذي يدير شؤون الدولة!

لكن على أي الأحوال، فالشخصيات القذرة من الإعلاميين وضيوفهم ظلوا يخوضون معركة شرسة ضد أماني الشعب وأشواقه لخشيتهم من الحساب إذا تغير النظام.. ثم قاموا بكل جسارة بعد نجاح الثورة وهروب الوحش بامتداح الثوار وتأييد الثورة والتأكيد على فساد الرئيس الذي كانوا حتى أيام قليلة نعالًا وصنادل في قدميه! وفي هذا رأينا المذيع القميء البشع الذي ضربه المتظاهرون وطردوه من ميدان التحرير.. رأيناه يبكي أمام الكاميرا ويلعن سيده السابق وهو الذي كان يؤيده ويأكل من فضلاته هو وزوجته وأخوه الديناصور الخسيس... فياللقرف!

ثمن بسيط للحرية

ما زالت الخلايا النائمة التي سعت لإجهاض ثورة شعب مصر تواصل جهدها الدؤوب في الترويج لمقولات فاسدة تتعلق بحجم الخسائر المالية التي لحقت بالاقتصاد المصري من جراء تعطيل العمل بالمصارف والمصانع والشركات، ومن خلال وقف الحياة الطبيعية وما صاحبه من تأثير على الأسواق وحركة البيع والشراء.

يتغافل أصحاب هذا الكلام عن عمد عن أننا بإزاء ثورة شاملة قامت بعد أن أصبحت حياة الناس مستحيلة، وبعد أن أصبحت السلطة في حالة عداء تام مع أماني الشعب، وبعد أن سُدت كل أبواب الإصلاح في وجه الناس. ومن البديهي أن الثورات التي حدثت على مدار التاريخ من أجل هدم الأنظمة الفاسدة وإزاحتها وإرساء العدل والحرية لم تحدث أبدًا بينما المطاعم تمتلئ بالزبائن والعروض السينمائية تتم في مواعيدها وأوكازيونات البضائع على أشدها والناس تبيع وتشتري والطلبة في المدارس والجامعات يدرسون، والأطفال في الحدائق يلعبون وجمهور كرة القدم يملأ الملاعب!

من الطبيعي عندما تقوم الثورات أن تتوقف الخدمات وتتعطل المصالح ويضطرب دولاب العمل في الدولة، ومن الطبيعي عندما

يخرج الناس للمطالبة بحقوقهم أن يهب النظام الفاسد للدفاع عن نفسه وأن يلجأ للأساليب الخسيسة التي يتقنها فيعمل على إثارة الفوضى وترويع الناس ونشر الخراب. كل هذا متوقع وليست هناك ثورة تنجح وتغير وجه الحياة إلى الأفضل والأشرف والأكرم من دون تحمل خسائر ومن دون تعطل مصالح واضطراب أحوال مؤقت.

لكن هذا ثمن بسيط للغاية مقابل الفوائد العظيمة التي تنتظر الشعوب التي تثور على الظلم وتنفض ركام الاستبداد وتفتح لأنفسها طاقة ضوء على الحرية والكرامة.. فالثورات في حقيقتها هي استثمارات عظيمة للمستقبل ودماء الشهداء التي تروي الأرض هي السماد الذي يخصب التربة للثمار التي ستملأ ربوع الوطن.

ولا أجد بمنتهى الصراحة من اللائق أن يتحدث أحد عن صعوبة واجهها في الحصول على بعض السلع بينما هناك من بذل الدم لأجل مصر فثكلته أمه وتيتم أطفاله وترملت زوجته من أجل الدفاع عن حقنا في الحياة!

ولا أنسى محاضرة تلقائية بديعة سمعتها من رجل عجوز لا أعرفه قابلته في ميدان التحرير في ذروة أيام الغضب كان يرد بها على رجل يبدو أنه كان مبعوثًا من عند إحدى الخلايا النائمة التي كانت تسعى بين الشباب في الميدان لبث الوهن وضرب الثورة.. قال الرجل محاولًا ادعاء الحكمة وسط الشباب: يا جماعة الثورة حلوة وكلنا معها لكن البنوك مغلقة والناس لم تقبض مرتباتها والحال واقف! فرد عليه الشيخ العجوز قائلًا: هل تعلم يا أستاذ حجم الأموال التي نجت من أيدي لصوص البنوك وقناصة القروض في الأيام التي

أغلقت فيها البنوك؟.إن اليوم الواحد الذي تغلق فيه البنوك يعني نجاة مئات ملايين الجنيهات من إيداعات المصريين من أيدي اللصوص.. هل تعلم أن البنوك أثناء اشتغالها في الأيام العادية كانت تستقبل كل أنواع المجرمين تسبقهم مكالمات تليفونية وتصحبهم كروت توصية للحصول على قروض بدون ضمانات، وهو الأمر الذي ظل يحدث طوال حكم مبارك؟.. إن قرار غلق البنوك هو قرار عظيم طالما بقي رجال مبارك في السلطة!

أذهلني منطق الرجل الذي رأى في إغلاق البنوك وجهًا طيبًا لم يخطر على بالي أبدًا.. وهكذا هم أبناء مصر يملكون من صفاء القلب والعقل والاستعداد للتضحية ما يضمن نجاح الثورة في تحقيق كل أهدافها ولو كره المجرمون.

امسك حرامي!

في أحد أيام الثورة كنت أتجول بميدان التحرير وسط الناس أنتقل من هذا التجمع إلى ذاك ومن هذه الاحتفالية إلى تلك عندما وجدت شابًّا يجلس على الأرض مجتهدًا في تحسين خطه وهو يكتب لافتة ورقية كان عليها الشعار التالي: «مبارك يريد إسقاط النظام». لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك، فنظر الشاب نحوي مبتسمًا وبدا أنه يعرفني عندما حياني وقال لي: يا أستاذ فلان أنت تعرف الرئيس مبارك جيدًا وتعرف كيف يتفنن في قهرنا والكيد لنا وإزعاجنا وإغاظتنا ومحاولة دفعنا إلى الجنون! قلت: أعرف كل ذلك وأكثر منه، وأفهم كراهيته للمصريين واحتقاره لهم، كما أدرك أنه عاش سنوات حكمه الثلاثين يسعى وراء هدف واحد هو تحطيم هذا الشعب ونزع الكرامة منه وتحويله إلى قطيع من الحيوانات. قال الشاب: لهذا لا أستبعد بعد أن رفض كل الفرص التي منحناه إياها بأن يرحل بكرامة وأصر على عناد الشعب والبقاء بالإكراه.. لا أستبعد أن نجده بيننا هنا في ميدان التحرير واقفًا يهتف: يسقط يسقط حسني مبارك! واستطرد قائلًا: لهذا فقد صنعت له هذه اللافتة ليرفعها عندما يأتي إلينا قريبًا! سألت الشاب ضاحكًا من الإيفيه الطازج: هل تعتقد

أنه سيأتي حقًّا؟ فقال الشاب:إن الرجل قد يفعل هذا وأكثر منه، وقد يقف معنا يهتف بسقوط النظام ويطالب بمحاكمة السفاح واسترداد المليارات السبعين منه! ثم بعد أن يفرغ من الهتاف يركب سيارته ويرحل في حماية الحرس الجمهوري بعد أن يرسل للمتظاهرين بوسة في الهواء ويرفع يده لهم بعلامة النصر تاركًا الناس في الميدان تتلوى من الألم والغضب والهستيريا والجنون!

تركت الشاب وأنا أقهقه من روعة هذا الشباب المصري الذي يفهم نفسية رئيسه الظالم ولا يستبعد عليه أي سلوك أحمق شرير مهما بدا موغلًا في الوحشية والسفاهة!

لم أكن أدرك وأنا أترك الشاب وأنتقل لبقعة أخرى من ميدان التحرير أنني سأقرأ في صحف اليوم التالي أن العقيد معمر القذافي الذي يحكم ليبيا منذ ٤٢ سنة سيحول الإيفيه العبثي الذي أطلق ضحكاتي إلى حقيقة، وذلك عندما بلغه أن الشعب الليبي سيخرج متظاهرًا ضد نظامه فقال إنه سيخرج معهم متظاهرًا ضد ذات النظام!!

ولم أكن أدرك أيضًا أنه بعد انتصار الثورة وتنحي الطاغية ستقوم وسائل الإعلام الملوثة، حكومية وخاصة، مقروءة ومسموعة ومرئية، تلك التي كانت تعمل في خدمة عائلة مبارك..لم أكن أدرك أنها ستبيع الرجل في سوق الكانتو بثلاثة مليمات وتحول ولاءها في لحظة واحدة نحو الثورة والثوار! ولا كنت أتصور أن الإعلاميين الذين عملوا في خدمة ملف التوريث بكل جد لسنوات سيفتحون النار على جمال مبارك ويسبونه على صفحات الصحف وفي برامج التليفزيون.

لقد فعل الصحفيون والمذيعون الملوثون نفس ما تنبأ به

الشاب في ميدان التحرير من أن الرئيس قد يفعله ليقتلنا من الكمد. فالإعلامي الضخم صاحب حديث المفاجأة الشهير الذي كان مقربًا من العائلة والذي ادعى على شباب الثورة أنهم مأجورون وقال إن وجبات الكنتاكي الساخن تأتيهم مدفوعة الثمن من إيران، هو نفسه الذي رفع لافتات الثورة بعد سقوط حبيبه وسيده وأراد أن يوهم الثوار أنه واحد منهم! وهذا هو الآخر الذي ضربه الشباب بالحذاء وطردوه من ميدان التحرير والذي أذاعت قناة الجزيرة مقتطفات له وهو يتحدث عن مبارك أبيه وحاميه وراعيه الذي ليس كمثله أحد، ثم أذاعت كلامه عن نفس الرجل بعد الثورة وهو يلعن مبارك ويقول إنه عانى من فساده وقسوته وجبروته! هذا غير الصحفي الرخيص صاحب المدرسة التعبيرية والذي ظل طوال أيام الثورة يطل على الناس من خلال الشاشات يسب الثوار ويتهمهم بكل دنيء من التهم ثم كتب بعد سقوط رئيسه: انتصرنا: والمذيعة التي كانت صديقة لجمال مبارك والتي راهنت بحياتها المهنية على صعوده لمنصب الرئاسة لم تجد مشكلة في أن تهتف معنا الآن ضد الطغاة المجرمين.. واعجبْ للمذيع وصاحبته اللذين استأجرا امرأة داعرة وجعلاها تعترف على الشاشة بأنها تلقت تدريبًا وأموالًا أمريكية هي وثوار ميدان التحرير، والآن يرتديان مسوح الرهبان ويقسمان إنهما مع الثوار منذ اليوم الأول..

وغيرهم كثيرون وكثيرون من الذين عملوا بكل نشاط في خدمة الشيطان ثم أنكروه بعد أن سقط، ولم يكتفوا بهذا وإنما كل منهم يطالب الآن بمحاكمة الإعلاميين المجرمين الذين أساءوا للثورة!

وفي الواقع فإن نبوءة الشاب بميدان التحرير التي طبقها العقيد

القذافي كما عمل بها وطاويط الإعلام لم تكن في حقيقتها جديدة تمامًا، فقد عرفناها من زمان عندما كان اللص يقوم بالسرقة ثم يطلق ساقيه للريح.. وعندما يأخذ الناس في مطاردته ويجدّون في أثره وهم يصرخون: امسك حرامي... فإنه كان يدخل إحدى الحارات الجانبية ثم يخرج منها مندسًّا وسط الناس وهاتفًا معهم: امسك حرامي!

الذئب الذي لم تلدْهُ أمك

أرأيت حين أفقأ عينيك بالرصاص المطاطي والرصاص الحي وقنابل الغاز، ثم أثبت فردتي حذاء مكانهما.. هل ترى؟

أجهزة القمع التي فقأت عيون أزهار الوطن تجيب عن السؤال بنعم!.. وتحاول إقناعنا بأنك تستطيع أن ترى رغم فقء عينيك! وتريد منا أن نفتح صفحة جديدة مع رجال الشرطة بعد أن تفضل علينا وزيرها وأعاد شعار «الشرطة في خدمة الشعب» ثم اعتبر هذا تعويضًا كافيًا يتعين بعده أن نخرس وألّا نطالب السادة الباشوات بالمزيد.

ما يؤكد هذا أن فلول النظام التي ما زالت في الحكم تريد أن تطعمنا البالوظة وتظن بالناس العته فتطلق حملة علاقات عامة تليفزيونية يتم تمويلها من لحم المصريين لغسل صورة رجل الشرطة التقليدية التي عرفناها في عهد مبارك والتي تتسم بالإجرام والبذاءة، وتحاول تقديمه في صورة الرجل الحنون الذي يمسك بيد عجوز ويعبر به الشارع.. هأو وخمسمائة هأو! لن ينطلي علينا هذا النصب والاحتيال، ولن تضحك علينا برامج التوك شو التي تستضيف شباب الضباط وشيوخهم من الذين قاموا بارتكاب جرائم ضد الإنسانية ليحدثونا عن الصعوبات التي يلاقيها رجال الشرطة والمظالم الواقعة

عليهم في محاولة للإيحاء للمشاهد بأن هؤلاء الجالسين أمامه والذين يعرف أنهم يقومون آناء الليل وأطراف النهار بسب الدين لكل أبناء مصر ولعن آباء وأمهات الناس جميعًا لدى أي تعامل معهم حتى لو كان المتعامل ذاهبًا ليدفع لهم فلوس مخالفة مرورية لفقوها له!.. يحاولون الإيحاء بأنهم مظلومون مثلنا وأننا يجب أن تنعاطف مع آلامهم!!

لا يا سادة.. إن الأمر لا يمكن أن يسير على هذا النحو أبدًا لأن المظالم التي تحدث عنها السادة الضباط مثل العمل لساعات طويلة بدون راحة، والحصول على مرتبات متدنية بينما يقبض رؤساؤهم الملايين.. كل هذا الكلام لا يخصنا ولا يعنينا، لأننا لسنا المتسببين فيه، فالذين يظلمونهم هم رؤساؤهم، والمسألة كما يقال «في بيتها» وهي عبارة عن ظلمة كبار يجورون على الأشبال ويملئونهم بالحنق فيفرغ هؤلاء أحقادهم وإحباطاتهم فينا وينتقمون منا!

ولا يتصور أحد أننا يمكن أن نبكي تأثرًا على الفتى ضابط الأمن المركزي الذي ظهر على الشاشة محاولًا أن يخرط على قلوبنا كيلو بصل بحديثه عن أن ضباط وجنود الأمن المركزي يعملون ـ يا عين أمهم ـ لأيام طويلة بدون أي راحة!.. هل يتصور حضرة الفتى الأمور أننا سنخرج في مظاهرة للمطالبة بأن يعمل هو ورجاله لساعات قليلة في اليوم حتى يحتفظوا بصحتهم ولياقتهم من أجل ضربنا بالجزمة على نحو أفضل ومن أجل إطلاق الرصاص علينا بكفاءة؟! إننا في الحقيقة إذا خُيرنا فسوف نفضّل لهم أن يظلوا في حالة إعياء وتعب، فهذا أحفظ لكراماتنا ولأرواحنا لو كانوا يعقلون!

ثم ما حكاية شهداء الشرطة الذين سقطوا في ثورة ٢٥ يناير؟ ما هذا الكلام الفاسد الرخيص؟ هل الشاب الوطني الذي صرعته رصاصات الشرطة الغادرة شهيد، والشرطي الذي أطلق على رأسه النار شهيد أيضًا؟ إن هذا والله يشبه أن تقول: إن سيدنا يزيد قتل سيدنا الحسين وإن كليهما في نفس المنزلة عند الله!

يا قوم: هل تستوي يد سيفها كان لك بيد سيفها أثكلك؟ لا والله لا تستوي اليدان لا عند الله ولا عند شعب مصر. رجال الشرطة الشهداء هم الذين سقطوا في ٢٥ يناير عام ١٩٥٢ وهم يتصدون للإنجليز، أما الذين سقطوا في ٢٥ يناير ٢٠١١ بعد أن فتحوا السجون للمجرمين فأجرهم عند مبارك وليس عند الله!

يريد هؤلاء أن يدلسوا على المشاهد ويقنعوه بأن رجال شرطة مبارك هم بشر مثلنا وهذا لعمري عيب كبير، فرجال شرطة مبارك بشر حقًّا، لكنهم ليسوا مثلنا وليسوا منا وبالتأكيد ليسوا أبناءنا، لكنهم أبناء الشيطان الذي يتلقون منه الأوامر ويتعللون بأنهم غير مسؤولين عن أفعالهم بحجة أن الباشا الشيطان هو الذي يأمرهم. نحن لا نريد رجال شرطة يأتمرون بأوامر الباشا الشيطان ثم يقول النطع منهم متذللًا عند الحساب: أنا عبد المأمور! نحن لن نتصالح مع العبيد. نريد منهم أولًا أن يثبتوا أنهم رجال وأنهم أحرار قد تخلصوا من الذل والعبودية، وأنهم سيرفضون أي أوامر شيطانية تطلب منهم تعذيب الناس.

ما نريده حتى نقتنع بأن هؤلاء أصبحوا بشرًا مثلنا هو أن يعترفوا بما ارتكبه المجرمون منهم من جرائم ويمثلوا بين يدي العدالة

ويخضعوا لمحاكمات عادلة وبعدها يمكن الحديث عن المصالحة على أسسس جديدة.

لا حديث عن المصالحة قبل إلغاء قانون الطوارئ، لأن قانون الطواريء هو الذي أفرز ظاهرة الضابط البلطجي وأمين الشرطة المرتشي والمخبر القاتل. في ظل استمرار الطوارئ ستكون المعاملة الحسنة من جانب رجل الشرطة للمواطن هي منحة يمكن الانقلاب عليها وسحبها في أي وقت.. نحن لا نريد الضابط المؤدب بفعل الخوف مما حدث لزملائه في الفترة السابقة والرعب ومشاعر القرف التي شاهدوها عن قرب، وإنما نريد الضابط المحترم لأن القانون والعرف ولقمة العيش لا تسمح له بغيرذلك. مأساتنا مع رجال شرطة مبارك أن لقمة عيشهم كانت مرتبطة بالسفالة والإجرام. نريد من العهد الجديد أن يربط مرتبات هؤلاء الناس وحوافزهم بالنزاهة والاحترام.

لو كان رجال الشرطة جادين في فتح صفحة جديدة مع شعب مصر فعليهم أن يطهروا صفوفهم من المجرمين وأن يكونوا في طليعة المطالبين بإلغاء قانون الطوارئ، ذلك الذي يمنعنا من رؤية الوجه الحسن للشرفاء من رجال الشرطة.. وبعد ذلك من الممكن أن نتحدث عن أنهم إخوتنا وأولاد عمتنا وخالتنا!

لماذا يعيش مبارك بشرم الشيخ؟

اشتملت اتفاقية كامب ديفيد التي وقعها الرئيس الراحل أنور السادات مع الإسرائيليين على تقسيم سيناء إلى مناطق ثلاث:

منطقة (أ) وهي موازية لقناة السويس وعلى مقربة منها ويسمح فيها بوجود فرقة مشاة واحدة وعدد أفراد لا يزيدون على ٢٢ ألف فرد.

منطقة (ب) وتشمل معظم مساحة سيناء ولا يسمح فيها بوجود أكثر من أربع كتائب مجهزة بالأسلحة الخفيفة ولا يزيد عدد أفرادها على أربعة آلاف فرد.

منطقة (ج) وهي عبارة عن الجزء الباقي من سيناء والقريب من الحدود الدولية مع فلسطين المحتلة، وهي منطقة لا يوجد بها سوى الشرطة المدنية المصرية بالأسلحة الخفيفة.. وبطبيعة الحال لا تسمح إسرائيل للشرطة بإدخال المدرعات.. تلك المدرعات التي تستعملها الشرطة في الوادي والدلتا لدهس المصريين وقصفهم بالنار مثلما فعلت مع الشباب أثناء ثورة ٢٥ يناير!

الغرض من التذكير باتفاقية كامب ديفيد الآن والقيود التي فرضتها

على مصر هو توضيح الأسباب التي حدت بالرئيس المخلوع وأسرته إلى العيش طوال الخمس عشرة سنة الأخيرة في مدينة شرم الشيخ الواقعة بالمنطقة (ج) التي لا تسمح الاتفاقية التي وقعها السادات مع إسرائيل بوجود الجيش المصري بها على أي نحو!.. الرجل إذن يستفيد من اتفاقية جرحت سيادة مصر ويتخذ من عيوبها مزايا تحقق أمنه الشخصي!

ففي السنوات الأخيرة، وبعد أن ارتفعت الكراهية للرئيس المخلوع وأسرته إلى مستويات عالية، وبعد أن اكتشف مبارك أن الاحتقار المتبادل بينه وبين جموع المصريين لم يعد يسمح له بالعيش في وسطهم كأي حاكم في العالم، فقد اتخذ قراره بالابتعاد إلى أقصى نقطة من ربوع الوطن.. وقد كفلت له معاهدة كامب ديفيد أن يسكن في منطقة آمنة بالنسبة له لأنها تخلو من السكان، كما تخلو من وجود الجيش المصري!

أرأيتم كيف كان الرئيس المخلوع يخشى شعب مصر ويفزع من السكنى في مكان يجمعه بالمصريين؟! وكيف كان لا يثق بالجيش ولا يأمن الوجود في مكان به وجود عسكري مصري، فاختار أن يتخذ من شرم الشيخ مقرًّا لإقامته ومركزًا لحكمه بسبب أن الطيران الحربي المصري لا يسمح له بالتحليق في المنطقة طبقًا للاتفاقية؟!

أظن أن في هذا التوضيح ما يفسر لبعض الناس الذين كانوا يتساءلون في براءة عن أسباب ابتعاد مبارك عن القاهرة واختياره بقعة نائية في سيناء للعيش بها. وقد كانوا بسبب حسن نيتهم يتصورون أن السبب هو حب الرجل للترف والاستجمام وكراهيته للعمل والجهد.

وكل هذا صحيح لكنه يبتعد عن السبب الحقيقي وهو أنه كان يجد راحته وأمنه وأمانه وسط القوات الأمريكية المنتشرة في سيناء بحكم المعاهدة، وبالقرب من أصدقائه الإسرائيليين وفي حماية قواتهم الجوية التي طالما قصفت رفح المصرية وهي تطارد الفلسطينيين تحت سمعه وبصره وبرضاه ومباركته!

واليوم بعد أن خلعته الثورة وأرغمته على التنحي لم يفعل مثلما فعل بن علي طاغية تونس عندما أقلع بالطائرة وظل يلف في الجو لساعات طويلة بحثًا عن مأوى قبل أن تقبله المملكة العربية السعودية. لم يجد مبارك ما يدعوه للهرب إلى بلد آخر،ذلك أنه يعتبر شرم الشيخ بلدًا آخر، ولو أنه كان يعتبرها أرضًا مصرية ما فكر في اللجوء إليها!

وأعتقد أنه أعد مدينة شرم الشيخ منذ زمن طويل لتكون وطنه الأبدي سواء وهو في السلطة أو بعد مفارقته لها، ولهذا فقد قام بتعقيمها من المصريين الذين كان يراهم جراثيم بالضبط مثل نظرة سفاح ليبيا إلى شعبه. لكل هذا فقد عمل على فرض طابع خاص لهذه المدينة ينزع منها مصريتها ويجعلها أقرب إلى منتجع عولمي كوكبي لا ينتمي إلى مصر، وإلا فلماذا حرم سيناء وفي طليعتها شرم الشيخ من التنمية الحقيقية؟ ولماذا تركها فارغة من السكان؟ ولماذا كان يمنع المصريين من السفر إلى شرم الشيخ؟ ولماذا كانت مباحث أمن دولته تقف على طول الطريق من بعد نفق الشهيد أحمد حمدي تراجع هويات ركاب الباصات وتعيد أبناء شعب مصر ولا تسمح لهم بالوصول للمدينة؟.. هذا في الوقت الذي كان الإسرائيليون يدخلون إليها بدون تأشيرة ويتعاملون معها وكأنها بلدهم!

لهذا كله أرى ألا نسمح للرئيس المخلوع بأن يتمتع بناتج تخريبه للتنمية في سيناء بحرمانها من وجود المصريين، وأرى أن يزحف شباب مصر إلى شرم الشيخ ويعسكروا بها تمهيدًا لتعمير محيطها وسكناها وجعلها مدينة مصرية لحمًا ودمًا.. وبهذا يحرمون الديكتاتور من الأمن الذي يشعر به وسط أهله وأصحابه الإسرائيليين الذين يرونه كنزًا إستراتيجيًّا فقدوه.

نريد لسيناء أن تمتلئ بملايين المصريين، وليت أهل الصعيد الذين أحرق مبارك كل أمل لهم في الحياة يتدفقون على سيناء، وليت المجرمين الذين يحذروننا من هروب السياح أن يخرسوا، فالسياحة التي تشترط غياب المصريين عن أرضهم هي سياحة ملوثة لا نريدها ولا نحتاجها.. هي سياحة يستفيد منها زهير جرانة وشركائه ولا يستفيد منها شعب مصر. وليتنا نبدأ بشرم الشيخ وذلك اعتبارًا من اليوم.. اليوم لا غدًا.

عمو شفيق بتاع البومبوني

نفس الحالة التي كانت عليها مصر منذ أسبوعين قبل تنحية مبارك عن السلطة تتكرر الآن. إصرار شعبي من ملايين المصريين على رحيل أحمد شفيق رئيس الوزراء ومعه ثلة من رجال مبارك، يقابله إصرار على الجهة المقابلة من جانب شفيق بالبقاء والتشبث بالكرسي الذي اعتلاه في ظروف درامية صاخبة.

عدنا مرة أخرى إلى شعار الجماهير الذي أصرت عليه ولم ترض عن تنفيذه بديلًا: هو يمشي.. إحنا نمشي. والكلام هذه المرة عن شفيق وليس عن مبارك.

المشكلة أن أحدًا لا يتعلم ولا يريد أن يفهم. نفس العناد ونفس الرغبة في الكيد وقهر الجماهير وإشعارها بأن القرارات الفوقية هي قضاء وقدر يسقط على العباد، ورسالة لأهل مصر بألا يأملوا في أن يفرضوا إرادتهم ويحظوا بحكام يرضونهم مهما بلغت التضحيات ومهما سالت الدماء.

ما يثير حيرتي أنهم لا يدركون أن الإرادة الشعبية ستفرض نفسها عليهم وعلى العفاريت الزرق، وأن شعب مصر لن يقبل أن يكون

تُراثًا أو عقارًا ولن يُوَرَّث بعد اليوم لحالم بسلطة أو طامع في كرسي أو مستهين بحقوق الناس.

هي معركة محسومة وأنا أعرف نتائجها سلفًا.. وعلى الرغم من أنها حارقة للأعصاب وكاوية للمشاعر فإن فوائدها كبيرة، لأن ما يأتي بسهولة يضيع بسهولة، وأن ما يأتي بالدم لا يضيع أبدًا. وأؤكد أن شعب مصر على استعداد لتقديم مزيد من الشهداء ما بقي العناد وبقي الإصرار على التعامل مع الناس كأطفال قصّر لا يعرفون مصلحتهم وعليهم أن يحمدوا ربهم لأنه بعث لهم بمن يخافون عليهم ويختارون نيابة عنهم!

إن السيد أحمد شفيق والذين معه من رجال مبارك يقلدون زعيمهم في عناده ويرفضون أن يرحلوا بالذوق مبددين فرصة ذهبية ما زالت متاحة أمامهم في أن يذهبوا الآن تاركين للناس أثرًا طيبًا باعتبارهم فهمونا مبكرًا واحترموا إرادتنا، ومن ثم يحق أن يكون لهم رصيد يستطيعون به أن يعيشوا بيننا بعد ذلك مواطنين عاديين يمكن أن نحييهم إذا التقيناهم في الشارع أو في النادي، ويمكن أن ننسى لهم خدماتهم للدكتاتور المخلوع ونقول عفا الله عما سلف.

إنهم يرفضون هذا السيناريو الكريم ويصرون مثل زعيمهم على أن يدفعوا بنوافير الدماء الحارة إلى النافوخ الثوري المشتعل ويجعلوا طلبات الناس تتجاوز بكثير مجرد الرحيل الهادئ مأمون العواقب، ولا يدركون أن الناس عندما بدأت التظاهر يوم ٢٥ يناير كانت تريد بعض الإصلاحات السياسية، ولم يكونوا يفكرون في أبعد من ذلك.. ما جعل مطالبهم تعلو وترتفع هو العناد والبلادة وقلة الاكتراث

بالمشاعر والتعامل الجلف العنيف. فلماذا بالله عليكم تريدون تكرار السيناريو الذي سيجعل عيشكم بين المصريين في قابل الأيام ضربًا من المستحيل؟ لماذا تفعلون هذا بأبنائكم الذين هم مواطنون مصريون مثلنا لهم كل الحق في الحياة الكريمة من دون أن يشار إليهم بأنهم أبناء فلان الذي أمات المصريين كمدًا بعناده واحتقاره لهم؟ لماذا تجعلون المنفى قدرًا مكتوبًا عليهم؟

يبدو أنه «دليل عمل» يمشون عليه جميعًا ولا يفكرون في أن يفاجئونا ويخالفوا خطواته مهما تصورنا فيهم من ذكاء وحصافة وقدرة على رؤية المستقبل القريب ولا نقول البعيد.

إنني حقيقة أشعر بالحزن على رجل مثل أحمد شفيق كان يمكن في ظروف مختلفة أن يكون سياسيًّا متميزًا بما يملكه من سمات شخصية كانت تحتاج لمناخ ديموقراطي حتى تقدم للناس شيئًا نافعًا.

المصيبة أن مبارك وهو يستدعي أحمد شفيق لتشكيل الوزارة كان يسدد للرجل ضربة قاضية على أي مستقبل سياسي يمكن أن يحلم به. والمصيبة الأخرى أن التلمذة على يد شخص مثل مبارك تسحب بالضرورة من الإنسان أجمل ما فيه وتطبع التلاميذ بشيء من روح الأستاذ.. ويا لها من روح!

من الخير للسيد أحمد شفيق أن يحمل عصاه ويرحل حتى ينسى له شعب مصر أنه قد تهكم على جراحه النازفة وسخر من دماء شهدائه عندما وعد المضروبين بالرصاص في ميدان التحرير بأنه سيحول الميدان إلى هايد بارك من أجلهم وسيقدم لهم البومبوني بنفسه!

وعلى الرغم من أن هذه التصريحات قد تكون حسنة النية فإنها

جاءت غداة معركة الجحش التي أسفرت عن استشهاد ١١ وجرح ألف شاب مصري في عمر الأزهار على يد رجال الزعيم حسني مبارك من دون أن يستطيع رئيس الوزراء المسؤول أن يمنعهم من ارتكاب الجريمة أو أن يقبض عليهم بعد ارتكابها!

ارحل يا سيد شفيق وسنحضر لك نحن البومبوني.

الثورة خلّصت الجيش من مبارك

قد يظن البعض أن انحياز القوات المسلحة لأماني شعب مصر وتأييدهم لمطالب الثوار وحمايتهم من الطاغية يعد جزءًا من ضمن تضحيات الجيش التي طالما قدمها على مدى تاريخه فداءً للوطن.

لكني أختلف بكل بساطة مع هذا الطرح وأرى الأمر على نحو جد مختلف، فالجيش عندما انحاز لجموع المصريين، إنما كان يعبر عن رغبته هو نفسه في خلع حسني مبارك والخلاص منه. ليس فقط لأن أفراد الجيش هم مواطنون مصريون مثلنا اكتووا بكل سيئات النظام البائد من ظلم وجور ونشر للقيم الفاسدة وتقديم المجرمين على الشرفاء وتخريب التعليم والثقافة والصناعة والزراعة، وممارسة التدمير العمدي لصحة المواطنين ونشر الأمراض بينهم.. وإنما لسبب أكثر أهمية بالنسبة للجيش من كل ما سبق.. فمثلما كنا جميعًا نشعر بالعار لأن مبارك هو رئيس مصر فلست أشك في أن الجيش المصري العظيم كان يشعر بالعار لأن حسني مبارك هو قائده الأعلي!

وهل يشعر بالفخر جيش يرى قائده الأعلي يضرب الأمن القومي المصري في مقتل عندما يتحالف مع أعدى الأعداء ويعمل ليل نهار لتكون كلمة إسرائيل هي العليا وكلمة مصر في أسفل سافلين؟

وهل يشعر جيش بالفخر وهو يرى العدو التاريخي الذي لم تتوقف مؤامراته يومًا واحدًا وقد صار أقرب الأقرباء للرئيس المصري وصار كنزهم الإستراتيجي الذي يضحون بالغالي والنفيس من أجل بقائه حتى استكمال المشروع التاريخي لبني صهيون في المنطقة؟

وهل يشعر بالفخر جيش يرى والدموع في عينيه طائرات العدو وهي تقتحم السماء المصرية فوق رفح المصرية لتقصف بسهولة أهلنا في فلسطين بتسامح وتواطؤ من الرئيس المخلوع؟

وهل يشعر بالفخر جيش تحارب أجهزة استخباراته ليل نهار من أجل إحباط عمليات التخريب التي تقوم بها إسرائيل وهي تعلم أن الرئيس المصري يتركهم يرتعون فوق الأرض المصرية ويضربون مفاصل الدولة مقابل أن يدعموا مشروعه بتوريث الحكم للمحروس ابنه؟

لهذا كله، فأنا أعتقد أن الجيش قد وجد في ثورة شعب مصر فرصة تاريخية لا يجب أن يفلتها من أجل إعادة المجد لمصر ووضعها في مقدمة الأمم.

وأتصور أن القوات المسلحة كانت مثلنا جميعًا تكظم الغيظ وتطوي الجوانح على الألم والشعور بالغضب ولا تستطيع لفرط الوطنية والانضباط أن تنقلب على الحكم خشية الفوضى والخراب. لهذا ما أن ثار شعب مصر وكسر حاجز الخوف وواجه بصدور عارية أعتى المجرمين من أجهزة أمن مبارك المدججة بالسلاح وقدم تضحيات هائلة معمدة بالدم حتى أدرك الجيش أن هذه هي اللحظة المنتظرة التي يحتضن فيها شعب مصر.. يحميهم ويحتمي بهم.

ولي أن أتصور أن دماء الشهداء كانت عاملًا حاسمًا لميل كفة الجيش نحونا، فهو جيش يحترم الشهداء قدر لا يحترم شيئًا آخر، ولم أندهش وأنا أرى اللواء محسن الفنجري يؤدي التحية العسكرية لشهداء مصر الأبرار الذين افتدوا مصر بأرواحهم.

شيء آخر في شأن أهمية الثورة والحصول على حكم ديموقراطي نظيف ودولة عادلة بالنسبة لرجال للجيش وقادته هو أنهم كمواطنين مثلنا أرادوا لأولادهم وأحفادهم وطنًا نظيفًا يسترهم ويحميهم. فهم وإن كانوا يستطيعون حاليًا تأمين الستر والحماية لأبنائهم بفضل وضعهم الرفيع، إلا أن مستقبل الجميع غير مضمون في ظل دولة الظلم والطغيان.

لهذا فإنني أؤكد على أن الثورة كانت حلمًا للجيش مثلما كانت حلمًا لشعب مصر.. وأمامنا فرصة حقيقية للمرة الأولى في العمر أن نبني ونعمّر لأبنائنا، ليس لأبناء مبارك، وأن نزرع القمح الذي حرمنا من زراعته مبارك.. وأن نجعل «الباسبور» المصري أملًا لأي إنسان عربي يحلم بالحرية والأمان.

الثلاثة يحبونه

عندما اندلعت الثورة في الخامس والعشرين من يناير كان أنصار الرئيس المخلوع من اللصوص والمجرمين وغيرهم، علاوة على المتحمسين له من زعماء العالم الذين ربطتهم بنظامه مصالح..كانوا يهونون من شأن الاضطرابات التي بدأت في الشارع المصري، ولم يدر بخلد أحد منهم أن الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه بعد ثمانية عشر يومًا من الغضب العارم والثورة الشعبية في جميع أنحاء مصر.

في البداية صرحت وزيرة الخارجية الأمريكية بأن النظام في مصر متماسك، وفيما يبدو أنها كانت تستمد تفاؤلها من تصريح الحاج أحمد أبو الغيط وزير خارجية أسرة مبارك عندما قال إن الحديث عن ثورة في مصر على غرار ما حدث في تونس هو كلام فارغ! وكذلك كان موقف العواصم الأوروبية التي أكدت أن الوضع في القاهرة مطمئن وتحت السيطرة، وفضلًا عن ذلك فقد اندفع الحكام العرب في إدانة شعب مصر وإرسال رسائل التأييد للرئيس السابق لشد أزره وتحفيزه على سحق الثورة.

لكن مع مرور الأيام وسقوط مئات الشهداء وآلاف الجرحي، ومع تورط النظام في ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، ومع خطابات

مبارك التي حفلت بالبلادة والتناحة، ومع صمود الثوار في طول مصر وعرضها وإصرارهم على الحصول على الحرية أو الموت دونها، ومع كشف وسائل الإعلام بالصوت والصورة لسيارات ومدرعات شرطة تدهس الشباب في الشارع، ومع نقل القنوات الفضائية لغزوة الجحش على الهواء عندما اندفعت الإبل والبغال والحمير والخيول، إضافة إلى عربات كارو يقودها رجال مبارك المخلصين من شرطة وبلطجية تقتحم ميدان التحرير بالسيوف والخناجر وقنابل المولوتوف.. مع حدوث كل هذا أخذ الثوار يحوذون على إعجاب واحترام الشعوب على اتساع الكرة الأرضية.. وأخذت الحكومات والأنظمة تراجع نفسها وتدرك أنه لا يصح ولا يمكن أن تقف في وجه شعب طامح للحرية ومستعد لسداد فاتورتها كاملة.. وبدأ الجميع يتراجعون عن مواقفهم السابقة ويميلون ناحية وجوب تنحية مبارك وإفساح المجال أمام شعب مصر ليتولى حكم نفسه ويبدأ عهدًا من الطهارة والنزاهة والشفافية والعدل.

وفي الأيام الأخيرة للثورة عندما كان نظام المخلوع يترنح أصبحت كل شعوب العالم ومعظم حكوماته تؤيد الثورة تأييدًا مطلقًا لا لبس فيه.

ومع هذا فإن ثلاثة فقط عاندوا شعب مصر وظلوا على ولائهم لمبارك حتى النهاية. ثلاثة رأوا كل شيء ورفضوا أن يصدقوا أعينهم. ثلاثة غلبت مشاعرهم ومصالحهم على ضمائرهم فظلوا يؤازرون مبارك، كل بما يملكه ويستطيعه حتى النهاية.

أول هؤلاء الثلاثة هو بنيامين نتانياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي،

وموقفه مفهوم بطبيعة الحال، فمبارك كان بالنسبة لهم في إسرائيل كنزًا إستراتيجيًّا يستحق الدفاع عنه بكل قوة. ولعل تذبذب المواقف الأمريكية التي تراوحت بين: «لا بد أن يرحل مبارك الآن» وبين «ربما كان على مبارك أن يظل لنهاية فترته حتى يقود المرحلة الانتقالية».. لعل هذا التذبذب يرجع إلى المحاولات المحمومة التي بذلها نتانياهو من أجل إنقاذ صاحبه!

وثاني هذه الشخصيات التي ظلت على موقفها المؤيد لمبارك وبذلت كل الجهد لدى الإدارة الأمريكية لمساعدته هو الملك عبد الله بن عبد العزيز حاكم السعودية الذي أفزعه أن يرى شريكه وحليفه في معسكر الاعتدال (وهو الاسم الحركي لأصدقاء إسرائيل) يسقط أمام عينيه وهو الذي كان عونًا له على تبني كل المواقف المعادية لآمال الشعوب العربية والوقوف في وجه كل المقاومين الذين تصدوا لإسرائيل سواء المقاومة اللبنانية أو الفلسطينية.

أما ثالث أصدقاء مبارك المخلصين الذين فعلوا المستحيل من أجل مساندة بقائه في الحكم فهو البابا شنودة رأس الكنيسة المصرية الذي كان يرتبط بمشروع مشترك مع مبارك يقوم بمقتضاه الرئيس المخلوع بإشاعة المناخ الطائفي في ربوع الوطن وتخويف الأقباط من أشباح لا وجود لها، وذلك حتى يلوذوا بالبابا الذي لا يتردد في بسط مظلته عليهم حتى أصبح هو الحاكم الفعلي للأقباط الذي يأتمرون بأمره في جميع شأنهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني. كان هذا المشروع يكفل للبابا الزعامة السياسية التي لا يستغني عنها، ويكفل لمبارك تأييد الأقباط الذين كان البابا يضع أصواتهم في جيبه لاستخدامها على أي نحو يهوى، ويحصل مقابلها

من النظام على تنازلات قانونية وقضائية وأمنية وأخلاقية. ولعل هذا ما حدا بالبابا إلى إصدار أوامره لجموع الأقباط بعدم المشاركة في التظاهرات التي حملت أماني شعب مصر بل وتحذيرهم من مغبة المشاركة.

والآن بعد أن سقط مبارك سقوطًا مدويًا بالرغم من كل ما فعله أصدقاؤه الثلاثة، لا يسعني إلا أن أتقدم لهم بعميق الأسف لخيبة مسعاهم متمنيًا أن يعوضهم الله عنه بطاغية جديد يحبونه ويخلصون له.. لكن في مكان آخر بعيدًا عنا!

علاء الأسواني.. نبْت الأرض الطيبة

بمشاهدتي الحلقة التي استضاف فيها يسري فودة وزميلته ريم ماجد على قناة «أون تي في» السادة حمدي قنديل وعلاء الأسواني ورئيس الوزراء السابق أحمد شفيق، في حضور صاحب القناة نجيب ساويرس، أيقنت أن فجرًا جديدًا قد أشرق على مصر.

كان البرنامج الذي سبقه قد استضاف شفيق في مواجهة كمال أبو المجد وعمرو حمزاوي ومعهما أيضًا نجيب ساويرس!

وربما فتح هذا البرنامج شهية شفيق على الاستمرار وعدم مغادرة الإستوديو لمقارعة الضيفين التاليين بنفس الكيفية التي قارع بها أبو المجد وحمزاوي!

لا أنكر أن الدكتور أبو المجد كان رصينًا هادئًا وسطيًّا كعادته، وأن عمرو حمزاوي كان منطقيًّا عقلانيًّا.. وأما ساويرس فحاول القيام بدور توفيقي يرضي جميع الأطراف... لكن عاب هؤلاء جميعًا الخجل المفرط، مما سمح لشفيق أن يسحبهم إلى ملعبه ثم يقوم بهدوء بالتهامهم ومصمصة عظامهم من دون الاستعانة بأي مشهيات أو مخللات مستفيدًا من عدة مزايا توافرت له:

أولًا: منصب رئيس الوزراء الذي يكفل لشاغله حصانة ومهابة في الدول المتوحشة التي لا تعرف المساواة ولا تحترم القانون.

ثانيًا: ثقة بالنفس تعود إلى كرسي الحكم وإلى تاريخ طويل لم يسمع فيه الرجل من يعارضه وإنما استمع دائمًا من حوارييه إلى آهات الدهشة والإعجاب بالعبقرية والنبوغ!

ثالثًا: لسان طلق وقدرة على المراوغة ـ بصرف النظر عن المنطق ـ تنفع كثيرًا في الحديث إلى المرؤوسين وقد تحد من اندفاع غيرهم!

رابعًا: الأدب الجم للضيوف الذين جلسوا في مواجهته، وصبرهم على مقاطعته الدائمة لهم، واحتمالهم تفرعه إلى أمور لا علاقة لها بموضوع الحلقة، بالإضافة إلى عدم رغبتهم في حصاره أو إحراجه، وذلك من باب إعطائه الفرصة كاملة وتشجيعه على إظهار الجانب الحسن لديه.

وربما أن هذا هو ما شجع الدكتور شفيق على الاستمرار في الحلقة التالية لتسديد مزيد من اللكمات وحصد المزيد من النقاط المجانية!

كانت مشكلة شفيق أنه للمرة الأولى في حياته يواجه ويجلس مع مثقفين حقيقيين من النوع الذي لا يمكن أن ينبهر بكلماته الإنجليزية التي يرددها بدون سبب والتي يكثر منها على طريقة من عملوا زمان بالأورنس الإنجليزي!

ووضح منذ البداية أن علاء الأسواني وهو يحمل همًّا كبيرًا يتمثل في دماء الشهداء، لم يكن لديه استعداد للاستماع إلى حواديت خارج

الموضوع، ولم يكن يطيق أن يتم العبث بالقضايا الأساسية التي ثار الناس من أجلها. لهذا فقد شعر الناس بأنه يتحدث بلسانهم وهو يصر منذ البداية على إعادة شفيق إلى الموضوع وعدم السماح له باستعراض سيرته الذاتية المهنية كمسوغ لأن نجعله فوق المساءلة والحساب.

لكن أحمد شفيق ظل مركزًا على تاريخه في القوات الجوية، وبلغ به الأمر أن بدا على استعداد للتضحية بأستاذه ومعلمه حسني مبارك عندما أنكر أي أفضال للرجل عليه، بل وقال إن مبارك هو الذي استفاد من جهده هو وزملائه.. وأتصور أن شفيق كان محقًّا تمامًا في هذه النقطة، ولو أنها كانت تكون ملائمة أكثر في ندوة تتحدث عن أداء الطيران في حرب أكتوبر!

بعد ذلك لجأ شفيق إلى تكتيك رأيناه منه كثيرًا يتمثل في ادعاء البساطة ومخاطبة الناس بأسمائهم مجردة ثم تسديد اللكمات بينما هو مرتدٍ البلوفر!

لجأ الرجل إلى طريقة: «اسمح لي أنت مش فاهم ومحتاج إني أفهمك».. هذه الطريقة نجحت مع آخرين فأنصتوا باهتمام للرجل الصادق البسيط الذي لا يبغي سوى أن يُفهّمهم ويأخذ بأيديهم إلى الحقيقة! لكن مع علاء الأسواني كان هذا مستحيلًا.. لماذا؟ لأن علاء الأسواني بدا في الحلقة مذاكرًا أحمد شفيق مذاكرة تامة، وقد رأيناه وهو يعيد على مسامع شفيق أقواله لمحطات العربية وبي بي سي والحرة وسي إن إن وغيرها.. ولعل علاء الأسواني كان متمثلًا المؤتمر الصحفي الذي عقده الرجل صبيحة توليه رئاسة الوزراء

عندما أعلن في البداية استعداده للإجابة عن كل الأسئلة من دون تحفظات، وعندما وجهت له راندا أبو العزم مذيعة «العربية» سؤالًا حقيقيًّا في الصميم فإنه أعرض عنها ورفض الإجابة في كبر واضح.

لهذا ما أن سمع علاء الأسواني جملة «اسمح لي أنت مش فاهم ومحتاج إني أفهمك» والتي يبدو أنه كان ينتظرها، حتى عاجل الرجل بأدب وقوة قائلًا: «حضرتك اللي مش فاهم وأنا اللي محتاج أفهمك!».

لم يكن علاء الأسواني لديه استعداد لإضاعة الوقت في كلام سخيف أشرف منه الصمت، لذلك فقد أتت أسئلته مركزة عما ينوي رئيس الوزراء أن يفعله مع جهاز أمن الدولة، ذلك الجهاز الإرهابي الذي روع مصر لصالح أمن مبارك وعائلته. وعلى قدر ما كان الأسواني منحازًا لأنّات المصريين وعذاباتهم كان شفيق منحازًا للجهاز القمعي ومصرًّا على أن أمن الدولة موجود في كل البلاد ولسنا بدعة في ذلك!.. فلما حاول علاء أن يوضح له أن أجهزة الأمن في الخارج لا تعذب الناس ولا تنتهك أعراضهم، لم يقدم شفيق أي وعود بمحاسبة المجرمين في هذا الجهاز، لكن تجلى أنه يمثل حائط صد لهؤلاء الذين ثبت فيما بعد أنهم كانوا فعلا يحتمون به وبوزير داخليته عندما قاموا بإحراق كل شيء في اللحظة التالية لرحيل شفيق!

لقد أبكى علاء الأسواني ملايين الناس في البيوت وهو يسأل شفيق عما يمكن أن يقوله لأمهات الشهداء الذين قتلتهم رصاصات الشرطة وما الذي يؤخره عن القبض على المجرمين وتقديمهم للعدالة.

وربما رأى البعض أن علاء الأسواني كان عنيفًا في مواجهته

لأحمد شفيق، ولكن الرد على هذا أن النائحة الثكلى ليست كالنائحة المستأجرة..لقد تحدث الروائي الكبير سائلًا رئيس الوزراء عما إذا كان قد شاهد مدرعة الشرطة وهي تنطلق بأقصى سرعة تدهس المصريين.. كان الأسواني يمتلئ بالغضب لأجل الذين قدموا أرواحهم فداء لمصر وأمامه رجل يجلس منجعصًا على كرسيه مائلًا بظهره للخلف فاردًا قدميه للأمام وكأنه يعتلي شيزلونج على حمام السباحة..رجل كان مسؤولًا عن أمن مصر يوم موقعة الجمل والجحش..رجل يستطيع بإشارة من إصبعه أن يقبض على القتلة ويقدمهم للعدالة... ولا يفعل.

كان بإمكان أحمد شفيق أن يسطر لنفسه تاريخًا مجيدًا في تلك الليلة.. كان بين يديه أن يصنع من نفسه بطلًا لهذه الأمة التي تحتضن من يتبنى آلامها بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى. لقد رفع شعب مصر سعد زغلول إلى أعلى عليين وهو الذي كان معروفًا في السابق كرجل سكير مقامر.. غفروا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وتذكروا فقط شجاعته ووطنيته وحمله لمطالب المصريين.

كان بإمكان شفيق أن يقول إنه سيعلن غدًا أسماء القتلة وسيقدم القائمة بنفسه للنائب العام، وكان بإمكانه أن يعلن أن جهاز أمن الدولة هو جهاز إرهابي ثم يتعهد بأن يضع حدًّا لإجرام هذا الجهاز. لكن للأسف لم يفعل شفيق هذا وإنما فعل شيئًا آخر لم يدهش أحدًا... لقد ثار في وجه علاء الأسواني واتهمه بأنه يرتدي ثوب الوطنية وصرخ بأنه أكثر وطنية منه وبأنه فعل كذا وكذا وكذا.

عرف الناس في تلك الليلة أن لا أمل لهم في وجود شفيق على

رأس الوزارة وأدركوا أن مباحث أمن الدولة أعز عنده من دماء الشهداء.

إن الأديب الكبير علاء الأسواني الذي حقق نجاحه الأدبي بعيدًا عن المنظومة القذرة لم يكتف بالتعاطف مع أمهات وآباء الشهداء، لكنه في تلك الليلة سجّل اسمه في قائمة الضحايا وعجن نفسه بأشلاء الشهداء ومزج لحمه بلحمهم المهروس ودمه بدمائهم الطاهرة التي سالت على الأسفلت.

تحية من القلب لعلاء الأسواني الشهم الكريم، البسيط القوي.. نبت أرض مصر الطيبة.

اكتشاف مبهر

كانت الثورة تدور رحاها على كل شبر من أرض مصر، وجهاز مباحث أمن الدولة لا شأن له بما يحدث! كان يقوم بواجبه المعتاد في التآمر وتلفيق التهم وتدبير المكائد والتنصت على الناس وإعداد التقارير الكاذبة. وكان رجاله يذهبون لمكاتبهم وكأن شيئًا لا يحدث.

ثم سقط رأس النظام تحت معاول الثوار ولاذ بمملكته الأثيرة في شرم الشيخ وبدأ فجر جديد يشرق على الناس.. ولكن أمن الدولة ظل كما هو يؤدي واجبه المقدس في نشر الخراب في ربوع الوطن، ولم يتأثر أو يهتز بالضربات التي راحت تدق رؤوس المجرمين من عصابة مبارك.

أمسك المجلس العسكري بزمام الأمور ثم أوكل إلى أحمد شفيق الاستمرار في رئاسة الوزارة وأتى هذا بالدكتور يحيى الجمل في وظيفة بروتوكولية مضحكة بدون صلاحيات اسمها نائب رئيس الوزراء، وبدأ الناس يتطلعون بين اليأس والرجاء إلى خطوات الحكومة المهتزة.. وظل أمن الدولة وسط كل هذا ثابتًا على المبدإ يحرض على الثورة المضادة ويجند البلطجية للاندساس وسط الثوار وإشاعة الذعر بين الناس.

أثبت الجهاز إذن صلابة فائقة وقدرة على تجاهل ما يحدث في الملعب المصري، وبرهن على عقيدة لا تعرف الانكسار في العمل كتنظيم إرهابي مسلح، لدرجة أن الناس في الشارع أحست أن هذا الجهاز لن يتغير ولن يرحل حتى لو سقطت عليه القنابل النووية من السماء!

لكن سبحان الله!.. ما أن تمت إقالة السيد أحمد شفيق من رئاسة الوزراء واختار الشعب الدكتور عصام شرف ليحل محله حتى حدث ما لم يكن في الحسبان... كل فروع وأقسام أمن الدولة في جميع أنحاء البلاد قامت في نفس اللحظة وبإشارة من نفس المايسترو بالتحرك لإحراق وفرم وإعدام كل الوثائق والملفات الموجودة لديهم في عملية تفوق في حقارتها وخستها كل ما ارتكبوه في السابق من جرائم!

وهذا الموقف المفاجئ كان بالغ الدلالة على أن هذا الجهاز لم يشعر بالتهديد من وزارة أحمد شفيق ولا من اللواء محمود وجدي ولا من الدكتور يحيى الجمل ولا من كل لجان الحكماء، بل أخذ في كنفهم يعمل مطمئنًا إلى أنه ومع كل ممارساته الدموية سيظل بعيدًا كل البعد عن الحساب والمساءلة.

ولهذا لم يتورع رجال الشرطة في استعراض قوتهم كالمعتاد واستهانتهم بالقانون كالمعتاد، فقام ضابط شرطة مخمور في المعادي بإطلاق الرصاص على سائق سيارة أجرة، كما قام ضابط آخر بإطلاق الرصاص على مواطن بالعمرانية، والأهم من هذا قام مدير أمن سافل ومنحرف بسب المصريين وتهديدهم بأنه سيقطع يد أي «عرص» من شعب مصر يتطاول على أسياده الضباط!

كل هذا حدث بينما السيد شفيق رئيسًا للوزراء والسيد يحيى الجمل نائبًا لسيادته والسيد محمود وجدي وزيرًا للداخلية.

لكن التغيير الدراماتيكي الذي أصاب جهاز الشرطة بالهلع وفي طليعته مباحث أمن الدولة حدث بمجرد أن اختار الشعب المصري رئيس وزارة يثق به ويطمئن إليه. هنا أدرك المجرمون أن المظلة سقطت وأنهم لن يستطيعوا العمل إلا وفقًا للقانون!

إن هذه المفارقة تلقي الضوء على اكتشاف باهر مؤداه أن جهاز الشرطة يلزم حدوده ويتوقف عن الجريمة بمجرد أن يصل إلى السلطة رجل شريف من اختيار الناس وليس شخصًا مفروضًا عليهم.. يدركون في هذه الحالة أن الرجل الشريف لن يتستر على جرائمهم ولن يتواطأ على دم الشهداء الذين يقتلونهم ولن يكون سدًّا منيعًا يمنع مثولهم أمام جهات التحقيق، فلا يجدون والحال هكذا سوى أن يحرقوا الملفات التي تحوي جرائمهم ويفرموا الأوراق التي من شأنها أن تدخلهم السجن، ثم يأخذوا في الهرب من الشبابيك والأبواب الخلفية متوارين عن الأنظار بعد أن اتضح لهم أن الزمن لم يعد زمنهم.

يا ألله.. كل هذا حدث بمجرد اختيار الناس بإرادتهم الحرة لرئيس وزراء شريف؟ ماذا سيفعلون إذن عندما يختار شعب مصر رئيس جمهورية شريفًا ومجلسًا تشريعيًّا خاليًا من المجرمين؟

إن هذا لو حدث فإن أي مدير أمن «عرص» ورجاله الذين يشبهونه سيكون مكانهم الطبيعي هو السجن.. ولن يبقى معنا غير رجال الشرطة الشرفاء الذين نستحقهم ويستحقوننا.. وهذا شيء يفوق الخيال!

هات طوبة ياضْ!

«كان ياما كان... كان فيه شهيد فاكرينه ماتْ

واقف بيتفرج علينا من سكاتْ

يدخل علينا زي نور المشربية

ويزيد له شوقنا مع حديث الذكرياتْ

يمسح دموع الأمهاتْ».

هل يرضيكم أن يطل علينا الشهيد الذي كتب قصته عبد الرحمن يوسف في قصيدته البديعة التي صدرنا كلامنا بأول أبياتها ليرانا جالسين أمام تليفزيون الدولة نطالع خيري رمضان وتامر أمين بظلهما الثقيل ينافقان الثوار ويصبان غضبهما على مخدومهما السابق حسني وولده جمال وكأنهما كانا له معارضين!!

بم يمكن أن يشعر الشهيد عندئذ وهو الذي دفع حياته ليساعدنا على أن نتخلص منهما ومعهما أستاذهما ومحركهما عبد اللطيف المناوي، ذلك الذي لم يألُ جهدًا طوال أيام الثورة حتى يظل حذاء جمال مبارك فوق رقبة المصريين؟

«صوت المظاهرة يلهمهْ

طالع لجنّة ربنا على سلمهْ

والكام رصاصة الدفيانين جواه ما عادش بتؤلمهْ

أيوه ما عادش بتؤلمهْ

إلَّا أمَّا واحد صاحبه يبكي عليه ويتشحتف بكلمة زي: الله يرحمه!».

بماذا يمكن أن يشعر الشهيد وهو يرى من حرضوا على سفك دمه يجلسون في الإستوديو بابتساماتهم اللزجة يثرثرون ويشربون القهوة بينما يقومون بتحويل دمائه إلى حوالات بنكية في رصيدهم المتضخم بالبنكنوت الدموي!

«خلفتي يا مصر ومن خلف شهيد ما ماتْ

سبعتلاف عام مواكب خير بتتوالى

خلفتي فرحة وفرحة غيرنا لسه ما جاتْ

خلفتي كلمة لأمة لسه قوالة

خلفتي راجل بيهزم جيش من الأغواتْ

نعلى بأفعالنا ونفوسنا ما تتعالى

بننحسب بالغلط في لستة الأمواتْ

واحنا اللي ما عشنا فوق ضهر الوجود عالة».

احذروا.. إنهم يحاولون أن يلقوا الرعب في نفوسنا محذرين من

أن ننساق وراء شهوة الانتقام، ثم يغلفون دعوتهم بسيلوفان الحكمة القائل: نعم للمحاسبة..لا للانتقام!

يا قوم.. إن شعب مصر قد قام بالثورة حتى يبني مصر من جديد، ولكن لكي يكون البناء على أساس سليم لا بد من القصاص العادل وليس الانتقام. والفرق كبير، فالانتقام هو تطبيق العدالة على يد الأفراد، أما القصاص العادل فيتم بواسطة الدولة وبسيف القانون. ونحن نريد للدولة المصرية أن تقتص من كل من عاون رئيس العصابة التي كانت تحكم مصر وساعده على أن يحطم هذا البلد مقابل منحه المال والنفوذ.. فهل كثير علينا أن نطبق العدالة على المجرمين؟

المسامح كريم نعم.. لكنه ليس مغفلًا!..

هل يتساوى الشاعر الشامخ الموهوب عبد الرحمن يوسف الذي كتب قصيدة «الشهيد» من قلب الميدان، والذي هجر بيته ومكتبه، وبات مع الثوار في الشارع طوال أيام الثورة، وتعرض للقصف بالرصاص وقنابل الغاز..هل يتساوى مع عماد الدين أديب الذي كان يجول بمدينة الإنتاج الإعلامي وينتقل طول الليل من إستوديو إلى إستوديو محذرًا من الثورة ومحرضًا على الثوار وقائمًا بملء مدافع مبارك بالذخيرة!

«كان ياما كان

كان فيه شهيد

كانت نهايته أو بدايته لما يوم حفروا القنالْ

خلف شهيد

كانت بدايته لما يوم عبروا القنالْ

خلف شهيد عاش كالرجالْ

حربه اسمها اللقمة الحلالْ

كان فيه شهيد عايش سؤالْ

مين اللي ماسك دفة المركب وحادف ليه شمالْ؟».

ماذا بالله عليكم نقول للشهيد عندما يطل علينا بنوره ويعرف أن مصطفى الفقي سكرتير مبارك وحبيبه الذي خدم السلطة وقام بتبرير كل أفعالها مستخدمًا حيل المثقفين الذين نسب نفسه إليهم، فكافأته السلطة بمقعد مزور بمجلس الشعب في دمنهور، ثم بجائزة قيمتها أربعمائة ألف جنيه عن إنتاج فكري في العلوم الاجتماعية لا يعرفه أحد، ثم بالتعيين في مجلس الشورى؟!... أين نخبئ وجوهنا عندما يعرف الشهيد أن مصر تنوي ترشيح ذلك الرجل لمنصب أمين عام الجامعة العربية خلفًا لحبيب «شعبان عبد الرحيم» الساعي بدوره لمقعد رئيس الجمهورية؟!

«كان ياما كان

كان فيه شهيد

خلف شهيد جاور شهيد

كان جد جده كمان شهيد

صاحب شهيد ناسب شهيد

جوّز بناته الخمسة لولاد الجيران

طلعم ولاد عم الشهيد

جابم شهيد

عاشُم وما عاشُم يقاوموا القتل في الطوابيرْ

ماشيين على المساميرْ

والكل بيعظّم سلام لعصابة الخنازيرْ».

بأي وجه نقابل الشهيد بعد أن يعرف أن الممثل المغمور أشرف زكي أكثر عشاق حسني مبارك تطرفًا في غرامه وأشدهم تأييدًا لجرائمه قد أصبح رئيسًا لجهاز السينما، وهو الذي ذرف الدمع الهتون على حبيبه المخلوع وقاد المظاهرات لنصرة مبارك وعصابته على شعب مصر؟

«والظلم فاضْ

هات طوبة ياضْ

داخلين علينا البلطجية طوال عراضْ

راكبين جمال شبه القراضْ

حصّلني دوغري عند عب منعم رياض

بتقوللي عب منعم رياض؟

مش قلت لك؟

كان فيه شهيد خلف شهيد خلف شهيد

طب إيه الجديد؟!

ربك يريد!».

ماذا يقول عنا الشهيد وهو ينظر إلينا من علٍ ويرى عمرو موسى ممتطيًا حصانًا من قش وبيده السيف أبو لمبة وهو يتقدم الصفوف طالبًا القرب من كرسي رئيس الجمهورية؟ هل يستوي من عمل سكرتيرًا مطيعًا للرئيس المخلوع لمدة عشر سنوات ثم أتبعهم بعشر أُخر كسكرتير في خدمة ٢٢ طاغية يحكمون بلادنا الحلوة... هل يستوي مع محمد البرادعي الذي سار معنا على طرقات النار ووقف في وجه الوحش الأسطوري وكان يشعر مثلنا بأن الخنجر قد يأتيه من أي صوب؟

«أنت الشهيد اللي جبينك ضيْ

واخد تلات رصاصات على شومة ما قلت الأيْ

زينة ولاد الحيْ

وانتي الشهيدة عروسة مالهاش زيْ

أنت الشهيد وقصيدتي ماشية ف موكبك بتزُكْ

أنت اليقين في أمة عاشت عمرها بتشكْ

ماشي ف طريقك محترم والكل ماشي يعكْ

نزلتنا بأسلوبك انت لزحمة الميدان من زحمة الفيس بوكْ».

بالله عليكم يا أحباء الشهيد ساعدونا على أن نكون في حال لا نخجل أن يرانا عليها الشهيد عندما يفتح الطاقة السماوية ويطل.. ساعدونا على أن نتخلص من مسببات العار التي تريد لأرواح أبنائكم

أن تكون محفات ترفعهم إلى الكراسي التي فشلوا في الوثوب إليها من قبل.. واليوم يظنونها دانية!

«منصورة بينا يا مصر منصورة

رسمنا ثورتنا بلون العدلْ

وعملنا م الدبابة سبورة

نكتب عليها رأينا في الندلْ

ونجيب ولادنا لجل ياخدوا جنبها صورةْ

ماشيين بقدرة ربنا ع الحبلْ

ما يهمناش السجن ولا القتلْ

نايمين على الأسفلت شوكة ف حلق أي عصابة محشورةْ

منصورة بينا يا مصر منصورةْ».

لقد هرمنا.. هرمنا يا أولاد الجزمة!

ليس هناك أسوأ من الشجاعة المتأخرة التي يمارسها البعض على الأموات.

بعد أن مات نظام مبارك وتم دفنه رأينا كثيرين من نسانيس الإعلام وعناكبه الذين تربوا في مفارخ الرئيس المخلوع وعملوا بنظرية «اللي يتجوز أمي أقول له يا عمي» رأيناهم ينضوون تحت جناح أعمام جدد ممن تقدموا صفوف الثورة.

رأينا العناكب والنسانيس التي كانت تؤيد مبارك وتلعن الثوار تنقلب وتشتم مبارك وزوجته وابنيه وتتفنن في جمع ونشر الوثائق التي تثبت أن الرئيس المخلوع كان أكبر حرامي! حسنًا.. هذا يعني أن رجال وسيدات الإعلام من النسانيس والعناكب كانوا يعملون في خدمة الحرامي الكبير وهذا والله يدينهم ويشينهم!

نحن نتعجل التخلص من أسافل القائمين على الصحف والقنوات التليفزيونية؛ لأن هذه المؤسسات لا ينفق عليها مبارك من ماله ومال اللي خلفوه، لكن يتم الإنفاق عليها من فلوس المصريين، ونحن لا نقبل أن تصرف فلوسنا على إعلام منحط كان ينافق الحرامي الكبير والآن ينافق خصومه الذين انتصروا عليه.

وعلى الرغم من حالة الفرح التي نعيشها بعد نجاح الاستفتاء فإنه مما يجرح هذه الفرحة أن زعيم الإرهابيين واللصوص ما زال يعيش في قصره بشرم الشيخ ولم تصل إليه يد العدالة بعد، ولا ندري بصراحة ما هي المعايير التي تدفع بأحد اللصوص إلى المثول أمام جهات التحقيق، بينما تسبغ الحماية على آخر وتمنع جهات العدالة من الاقتراب منه!

الناس في بر مصر حائرون يفكرون، يتساءلون في جنون عن زكريا عزمي من يكون؟.. هل صحيح أنه يباشر عمله في قصر الحكم بعد أن استبدل بمخدومٍ آخرَ؟

ما الذي يؤخر وقوفه أمام النيابات والمحاكم وخصوصًا أن سجله متخم بالجرائم الجنائية والسياسية، ومنها التستر على القتلة وتهريبهم خارج البلاد ومنها الاستيلاء على المال العام ونهب مساحات شاسعة من الأراضي في أماكن عديدة من أرض مصر؟!

وفتحي سرور المفسد الذي وضع علمه وخبرته في خدمة القتلة واللصوص.. الرجل الذي قبل على نفسه أن يكون خادمًا لجمال مبارك ومشروعه لحكم مصر... كيف لا يجلس في القفص حتى اليوم؟ كيف يعيش حياة عادية وكأنه مواطن صالح مثل بقية الناس؟ كيف نتركه ينعم بالمال والممتلكات التي حصل عليها في الزمن البائد من دون وجه حق؟

وصفوت الشريف الرجل الخطير الذي لعب أسوأ الأدوار في قهر المصريين وإماتتهم من الغم والكمد بخططه وألاعيبه وتدابيره الشيطانية في خدمة المخلوع وابنه... ألم تجد جهات التحقيق

ما تحاسبه عليه؟ ألم تقم الجهات الرقابية بحصر ممتلكاته التي لا يستطيع الحصول عليها من مجموعهم عشرة ملايين موظف يتقاضون نفس مرتبه الحكومي؟

ومفيد شهاب الرجل الوقور الذي يوحي مظهره بأنه رجل طيب يمكنك لو صادفته في الشارع أن تقول له: ادع لنا يا مولانا... هذا الرجل الذي أسلم نفسه لمبارك يفعل به ما يشاء.. لم تهمه سمعته ولم يَعْنِه شرفه السياسي.. كل ما حرص عليه هو رضا مبارك والست مراته. ألن يجد القانون سبيلًا إليه ولو من مدخل محاسبته على ممتلكاته وهو أسهل طريق يمكن من خلاله إدخال رجال مبارك السجن؟!

وماذا عن علاء وجمال «عدي وقصي مصر».. الملياردير جمال مبارك الذي سرق من مصر ما لم يسرقه أحد قبله ولن يستطيع أحد بعده. أين فلوس مياه الشرب وإسكان الشباب ومرضى الكبد الوبائي التي استولي عليها؟.. جمال مبارك مهندس معركة الجمل والجحش.. جمال مبارك الذي نقلت الأخبار أنه كان المحرض على تفجيرات شرم الشيخ رغبة في الانتقام من شريكه حسين سالم بعد اختلافهما على العمولة في واحدة من عملياتهما لسرقة مصر!.. ألن يقف أمام القضاء العادل ليقول فيه كلمته؟

وماذا عن أخيه علاء رجل الأعمال الذي بدأ رحلته ورأسماله صفر، ثم فرض الإتاوات على كل المستثمرين وتعامل مع مصر على أنها عزبة أبيه.. ألا نستطيع أن نسترد منه أموال مشروعات الصرف الصحي واستصلاح الأراضي وأموال مرضى السرطان التي سرقها؟ وماذا عن

السيدة سوزان التي غرفت من المال العام واستولت على حساب مكتبة الإسكندرية وغيره... هل سنموت قبل أن نراها في السجن؟

وماذا عن رجال الأعمال السفلية من أصهار علاء وجمال وأقارب سوزان هانم الذين نهبوا أراضي مصر وصاروا جميعًا من أصحاب المليارات من دون أي علم أو خبرة أو مؤهلات سوى القرب من زعيم العصابة؟!

الناس تتساءل هل هناك اتفاق غير مكتوب يقضي بإمكانية التضحية برجال جمال مبارك دون جمال نفسه ودون رجال أبيه؟ هل هناك اتفاق يقضي بعدم المساس بسرور وعزمي والشريف وشهاب وعلي الدين هلال؟

نريد أن نفرح وأن نطمئن على المستقبل، ولن نستطيع طالما ظل رجال مبارك طلقاء.. إذ إن رؤيتهم يستمتعون بثمرة ما اقترفوه في حقنا من جرائم يحرمنا من الشعور بالأمان.

لقد هرمنا.. هرمنا وشاب الشعر منا، وكنا أطفالًا عندما تولى مبارك الحكم.

لقد هرمنا وأصبحت شعورنا بيضاء بينما المتحنط الأعظم يخلو رأسه من أي شعرة بيضاء.

لقد هرمنا قبل الأوان وضاع عمرنا هباء... هرمنا يا أولاد الجزمة!

كتاكيته.. بُني!

لما سألِتْني اللي جنبي

أنت مصري؟

دق قلبي

اسم زي السحر رفرف ع المكان

زي نسمة مهفهفة بصوت الأذان

أيوه مصريين لآخر كل نقطة ف دمّنا

«سيد حجاب»

حسني مبارك.. الرئيس المخلوع

الرئيس المخلوع حسني مبارك... الرئيس المخلوع حسني مبارك... الرئيس المخلوع حسني مبارك.

يا سلاااااااااام!... ما أروعها من جملة!.. عندما أسمعها تسري قشعريرة في بدني وكأنني أجلس بصحبة الأصدقاء حول النار أتدفأ من برد ديسمبر. صوت قائلها أيًا يكون هو في أذني كروان مغرد يعزف لحنًا سماويًا تنساب له دموع الفرحة.

أول مرة استمعت إليها كانت من قناة الجزيرة بعد إعلان تنحي المخلوع بخمس دقائق. أستعيدها وأطرب لها كأنها سيمفونية بيتهوفن التاسعة.. كأنها «هو صحيح الهوى غلاب» تشدو بها الست أم كلثوم في ليلة مقمرة.

لم أكن أدري أنني يمكن أن أقع أسير هوى جملة من أربع كلمات تجسد حلم أمة ما زالت غير مصدقة أنها خلعت المجرم وتخلصت منه إلى الأبد.

أقسم بالله إنني حتى الآن أستيقظ في جوف الليل مفزوعًا على حلم أن مبارك عاد إلى السلطة مرة أخرى.. وأحيانًا أرى في المنام

أنني استيقظت من حلم جميل رأيت فيه الشعب يخلع الرئيس وعدت إلى الواقع الكئيب الذي عشناه ثلاثين عامًا، ثم الفرحة العارمة عندما أستيقظ لأتيقن أن رحيل مبارك حقيقة ساطعة وأن ما ارتعبت منه كان حلمًا مفزعًا. يا ألله.. رحل الوحش وما زالت كوابيسه تطاردني في المنام!

لا أستطيع أن أصف وقع الكلمات الأربع على نفسي. إنني أشعر لدى سماعي إياها بأن نشوة هادئة تتسلل إلى نفسي وتعبرني فتسري في دمي حتى تصل إلى المخ فتمنحني هدوءًا وطمأنينة وكأنها أنعشت إفراز الإندورفين والمواد المريحة داخلي.

هل كان وجود هذا الرجل يؤلمني إلى هذا الحد؟.. إنني لا أستطيع أن أزعم أن ثأرًا شخصيًّا يربطني به، فأنا لم أتشرد مثلًا في عهده ولم أدخل السجن، ولكن المسألة ليست دائمًا على هذا النحو، فمن ذا الذي يستطيع أن يكون سعيدًا في مجتمع يمتلئ بالتعاسة والبؤس؟ من هذا الجبان الذي يستطيع أن يغض الطرف عن بلده الذي كان شامخًا مرفوع الرأس فإذا به على يديه يتحول إلى كيان مزرٍ متسول فاقد القيمة والاعتبار؟ من الذي يستطيع أن يدير وجهه لحقيقة أننا أصبحنا نشعر بكوننا جزءًا من العار الذي غلّف به حياتنا؟ كل العالم حتى الذين ربطتهم به علاقات طيبة من العرب والعجم كانوا يعرفون أنه لص! فأي خزي هذا الذي كنا نشعر به ونظرات الإشفاق تلاحقنا خارج مصر... وأحيانًا نظرات الشماتة؟ وفي بعض الأحيان كان الوسواس يصور لنا أننا نظهر للناس في صورة صبيان القواد!.. فيالتعاستنا وشقائنا برئيسنا الذي لم نختره!

هل أكرهه؟! لا أدري.. ولكن ما أدريه أنني لا أستطيع أن أحب من أمرض نصف شعبه بأمراض خطيرة وكان بإمكانه أن يجنبهم سوء المصير لو أنه كان أقل جشعًا ودناءة. لقد انتشر في عهده مرض السرطان انتشارًا وبائيًّا بين المصريين على نحو لم نعرفه أبدًا، وكان السبب هو التلوث الذي اجتاح قرى مصر وأحياءها الفقيرة.. ذلك التلوث الناشئ عن قذارة المياه وغياب الصرف الصحي وتلوث المحصولات الزراعية. ولماذا حدث كل هذا؟ ببساطة لأن الأخ سرق الأموال التي كانت مخصصة لمشروعات مياه الشرب النقية وسرق الأموال التي كانت مخصصة لمشروعات الصرف الصحي وترك الفلاحين يروون مزروعاتهم بمياه المجاري فنشر السرطان والفشل الكلوي والفيروسات التي التهمت أكباد المصريين. ليس هذا فقط وإنما أخذ الأخ ما تبقى من أموال في الميزانية العامة ووزعها على قطاعات وزارة الداخلية من أجل استيراد أدوات التعذيب والمدرعات القاذفة للقنابل المسيلة للدموع وللمياه المخلوطة بالمواد الحارقة ليكوي بها شباب مصر إذا خرج في مظاهرة سلمية.. ولتذهب الصحة والمستشفيات إلى الجحيم! وليذهب التعليم والمدارس إلى الجحيم! ولتذهب الثقافة ويذهب البحث العلمي إلى الجحيم!

لقد دهش الرجل الطيب الذي يقدم لي الشاي والقهوة في المقهى عندما قلت له: سأمنحك عشرة جنيهات في كل مرة تقترب مني وتقول لي على غير توقع: الرئيس المخلوع حسني مبارك.. دهش الرجل وسألني في ذهول: أنت بتتكلم جد؟ فأجبته: جرب بنفسك!

غير مهم أنه ظن بي الجنون، وغير مهم المائة والعشرون جنيهًا

التي أخذها الرجل! المهم أنه منحني ساعتين مملوءتين بالبهجة والسعادة الحقيقية والضحك من القلب عندما كان يبدل وينغّم ويقسّم في كل مرة ينطق فيها الجملة الساحرة المسحورة: حسني مبارك الرئيس المخلوع.

مبارك شبابه حلو... وكتاكيته بُنّي!

منذ حوالي سنتين تناثرت الأقاويل بشأن صحة حسني مبارك، وأخذت الشائعات تتضخم حول تدهور حالته، فانتابت الناس الشكوك بشأن قدرته على القيام بأعباء وظيفته رئيسا للجمهورية.

كانت الصحف تتناول الأمر على استحياء وتعتمد بالأساس على نقل تقارير أجنبية وردت في صحف بالخارج ولم تشأ أن تتمادى في هذا الموضوع كثيرًا.

ومما يذكر أن أكثر الصحف تناولًا لصحة الرئيس في ذلك الوقت كانت صحيفة الدستور، وهو الأمر الذي أثار نقمة سوزان مبارك وجعلها تجمع أركان حكمها من دلاديل السلطة وتطلب منهم أن يتصرفوا!

وبالفعل جرى فبركة قضية اتهم فيها إبراهيم عيسى بأنه يتناول أخبار صحة الرئيس بصورة تضر بالاقتصاد القومي، وأصدروا عليه حكمًا بالسجن لمدة سنة.. غير أن مبارك الأخ الكبير والأب الحنون والجد العطوف عفا عنه وأسقط الحكم!

بدا للناس في ذلك الوقت أن حرم الرئيس امرأة غلّاوية ونابها

أزرق أكثر من الرئيس نفسه، وتكشّف حجم السم الذي تستطيع هذه السيدة أن تنفثه في بخّة واحدة، وتأكد أنه يفوق ما لدى باقي أفراد الأسرة من قدرة على الأكسدة والتلويث!

لم تكتف الست سوزان بالإيعاز بالتحقيق مع رئيس تحرير الدستور بعد تلفيق قضية كيدية له، وإنما خرجت على الملأ وأعلنت في كل الصحف أن الرئيس صحته «زي الفل».

كان هذا هو نص كلمات الهانم التي نشرتها الصحف وأفاضت في التأكيد عليها، وكأن الرئيس ليس بشرًا مثلنا يصاب ويمرض ويغص ويسهل ويتقيأ ويقشعر ويرتعش ويصاب بالزكام وتتناوشه الفيروسات والجراثيم شأنه شأن سائر البشر.. بل سائر المخلوقات!

وكأن الواحد والثمانين عامًا التي كان يحملها حينئذ على كتفيه لا تجعله مرشحًا للإصابة على الأقل بأمراض الشيخوخة التي لم يفلت منها الأنبياء والرسل والقديسون.

عاد هذا كله إلى بالي وتذكرته بعد أن سيق مبارك إلى مستشفى شرم الشيخ عقب صدور أمر النائب العام بالقبض عليه وحبسه خمسة عشر يومًا على ذمة تحقيقات بشأن جرائم عديدة ارتكبها.

فبعد أن كان الرئيس المخلوع يحرص في السابق على أن يبدو أقوى من الزمن، وبعد أن كان تناول حالته الصحية ولو من بعيد يستوجب السجن والتشريد، أصبحت أخبار صحة الرئيس المخلوع مادة يومية للصحف ووسائل الإعلام.

ولم يكن تناول صحة مبارك تطفلًا على الرجل أو اجتراء على

رئيس فقد سلطاته، وإنما المفاجأة أنه هو بنفسه الذي تمارض واستموت وأمسك قلبه ومعدته وفشته وبنكرياسه وطلب المكوث بالمستشفى! وكلما استشعر أنهم ينوون نقله إلى القاهرة حرن ورفّس في الأرض وطلب استدعاء الأطباء ليقيسوا له الحرارة والضغط وكفاءة الطحال وقوة الأذين والبطين والرئتين والكليتين!

سبحان الله!... من كان يُدخل الناس السجن إذا ذكروا أنه مريض أصبح هو من يكاد يحلف أنه مريض! وبعد أن كان ينفي وتنفي أجهزته أنه يعاني من أي شيء مما يطول الناس جميعًا، أصبح الآن يتمسكن ويدعي الوهن ويحاول إقناعنا إنْ كنا نسينا أنه شيخ هرم في الثالثة والثمانين من العمر، رغم أنه هو نفسه من كان يستعين بالألوان والأصباغ والحقن والكريمات لينسينا حقيقة سنه وليقنعنا بأنه ما زال في عز شبابه وعنفوانه.

والغريب أن تقارير الأطباء الذين كشفوا عليه أكدت أنه أقوى من الجن الأحمر بدليل أن قلبه يعمل بكفاءة عالية وسائر أعضاء جسده ليس بها ما يسوء رغم كبر سنه!.. كما نفت تلك التقارير أنه يعالج من مرض السرطان أو أي مرض آخر!

ورغم هذا فإن حسني مبارك ما زال يعافر ويوظف كل قدرته على التمثيل والمسكنة من أجل البقاء بشرم الشيخ بداعي المرض!

وهذا لعمري يذكرني بمسرحية قديمة عرضها التليفزيون عشرات المرات كان فيها الفنان الراحل إبراهيم سعفان يمثل دور عجوز يقيم بالمستشفي ولا يريد ـ رغم شفائه ـ أن يغادرها بعد أن استراح إلى ممرضات المستشفى وطاب له المقام بينهن، ومنهن واحدة كان

يحب أن يستند إليها ويلصق رأسه في صدرها ويقول في مكر: أنا مبسوط كده.. أنا مرتاح كده!

ويبدو أن مبارك أيضًا مبسوط كده ومرتاح كده، رغم أنه لا يعاني من أي مرض، ورغم أن صحته زي الفل طبقًا لكلام السيدة زوجته، وأن قلبه أقوى من قلب شاب في الثلاثين طبقًا لما أعلنه الأطباء بمستشفي شرم الشيخ.

وإذا كان لي أن أدلي برأيي الشخصي في الموضوع فأنا أظن أن الرجل شديد البأس والعنفوان، وأعتقد أن البلادة الفطرية وطول البعد عن سماع الأخبار السيئة ربما جنبته كثيرًا من الأمراض التي تعصف بغيره ممن يتأثرون وينفعلون ويأخذون الأمور بجدية، وأتصور أنه يصدق عليه قول الفنانة زينات صدقي في حالة مماثلة عندما وصفت صاحبها بأن شبابه حلو!

لا أعتقد فقط أن مبارك شبابه حلو، بل أكاد أجزم أيضًا أن كتاكيته بني... أو معظمها على الأقل!

المجرم للمجرم كالبنيان المرصوص

هل يستغرب أحد الجهد الرهيب الذي بذله نتانياهو لدى الأمريكان طلبًا لتدخلهم العاجل من أجل منع سقوط حسني مبارك بعدما ثار عليه شعبه وطالبه بالرحيل؟

وهل يستغرب أحد حالة اللوعة الممزوجة بالهلع، والتحرك المحموم الذي قام به زعماء عرب يشبهون مبارك من أجل إيواء المخلوع عندهم وليس عند سواهم، وذلك لإبعاده عن قبضة شعبه ومنعهم من تقديمه للمحاكمة؟.. وكذلك العروض المالية السخية التي تناثرت أخبارها، والمليارات المرصودة من أجل دهس العدالة بالأحذية ومنع سيف القانون من أن يصل إلى حبيبهم الطاغية المجرم؟

لا أظن أحدًا يستغرب من هكذا سلوك وهكذا مشاعر، فلقد كان ذلك على الدوام هو سلوك كبار رجال العصابات سواء المحليون منهم أو الدوليون عندما يسقط أحد الصبيان.

إنهم لم يكونوا يتخلون أبدًا عن الصبي الذي طالما عمل في خدمتهم وأدى لهم أقذر الأدوار. وهذه بالطبع ليست نبالة سلوك بقدر ما هي تحرك غريزي للدفاع عن النفس، ورغبة في أن يكون

سلوكهم مثالًا ورسالة موجهة للصبيان الآخرين، وحتى يعلم جميع أفراد العصابة أنهم يمثلون عائلة واحدة متماسكة قد اجتمعت على الضلال، وربط الإجرام والوساخة بين أفرادها برباط أقوى من روابط الدم! وأيضًا حتى يكون الأمر واضحًا بأن أفراد العصابة سيظلون في حدقات العيون وفي بؤرة الاهتمام مهما حدث، وأن بيوتهم وزوجاتهم وأبناءهم سوف تكون تحت رعاية المعلم حتى يفك الله زنقة الصبي الأزعر!

وربما أن هذا ما يفسر أيضًا حالة الهستيريا التي تجتاح وزارة الداخلية بمصر حتى بعد الثورة وبعد سقوط النظام كلما حل موعد محاكمة أحد حيوانات شرطة مبارك المفترسة... فمرة يتهرب رجال الشرطة من تأمين مكان المحاكمة ويتركون المحكمة بدون شرطة حتى يجد القاضي نفسه مضطرًّا للتأجيل، وبهذا تكون الفرصة أكبر في مساعدة المتهمين على الإفلات من العقاب سواء عن طريق ترتيب وتستيف الأوراق التي تهدر القضية أو بالنجاح في تهريبهم خارج البلاد... ومرة يفرضون كردونًا من الأمن المركزي حول قفص الاتهام لإخفاء زملائهم عن العيون وحمايتهم من نظرات الضحايا!... ومرة ثالثة بالسماح للمتهمين من رجال الشرطة المحبوسين بالحضور للمحاكمة مرتدين ملابسهم الرسمية التي كانوا يرتدونها وقت أن كانوا في الخدمة يرتكبون ما شاءوا من جرائم.. مع أن لبس السجن الأبيض الخاص بالمحبوسين احتياطيًّا هو ما يتعين ارتداؤه بنص القانون!

وفي نفس هذا الإطار يمكننا أن نتحدث عن المعاملة التي لقيها أفراد عصابة مبارك المحبوسين بسجن طرة، فلقد رأينا أعضاء

التشكيل العصابي من الوزراء والمسؤولين واحدًا واحدًا وهم يركبون سيارات الترحيلات التي حملتهم إلى سجن طرة، ورأينا صور بعضهم بملابس السجن البيضاء مثل أحمد عز وزهير جرانة وأحمد المغربي وهم داخل القفص، ولمحنا حراس صفوت الشريف وهم يحاولون تغطيته وفرد جاكت أمام وجهه وهو خارج من غرفة التحقيق حتى لا يراه شعب مصر، لكننا رأيناه رغم ذلك وعلامات الذل والحسرة ترتسم على وجهه. وكذلك فتحي سرور وأحمد نظيف اللذان تابعتهما الكاميرات ونقلت لنا انكسارهما وسوء مآلهما.

إلا واحد فقط.... واحد فقط من العصابة لم نره أبدًا ولم تتسرب بشأنه أي صورة سواء من مكان التحقيق بمقر النيابة أو بجهاز الكسب غير المشروع أو بسجن طرة.

واحد فقط حرصت الأجهزة الأمنية على أن تحفظه من عيون الشامتين وتفرض عليه حماية لا يستحقها أمثاله من القتلة اللصوص.

واحد فقط كان استثناء من بين جميع أفراد شلة مبارك الأب ومبارك الابن اجتهدت وزارة الداخلية في منحه دلالًا زائدًا ووضعًا مميزًا وتكريمًا لا يستحقه.. ذلك هو السيد حبيب العادلي وزير داخلية مبارك الذي يضم ملفه ارتكاب جرائم ضد الإنسانية كالقتل الجماعي والتعذيب، بخلاف السرقة والتربح والاختلاس ونهب المال العام.

والواقع أن كل ما سبق لا يفسره إلا حقيقة واضحة ساطعة كالشمس تؤكد أنه مثلما أن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا... فكذلك المجرم للمجرم!

إعلام على مقاس الزعيم

من المعروف في واقعنا العربي أن الإعلام الرسمي سواء المرئي أو المسموع والمقروء هو مصنوع خصيصًا لأجل شخص واحد فقط هو القارئ والمشاهد والمستمع الوحيد الذي يرجى رضاه وترجى شفاعته وعطاياه.

ولهذا فإن ذوق هذا القارئ الوحيد والمشاهد الأوحد يتحكم فيما يشاهده ويقرؤه الملايين من أبناء بلده التعساء!

ولتطبيق هذا الرأي على الحالة المصرية نجد أنه في عهد الرئيس جمال عبد الناصر كانت الصحافة والإذاعة والتليفزيون جميعًا تعزف اللحن الذي يطرب الرئيس وليس أحدًا سواه، وكانت البرامج والأغاني والدراما تدور كلها في المحور الذي يتفق ومزاج الزعيم ويبلور فكره ورؤاه وأحلامه.

وربما كان من نصيب الجمهور في ذلك الوقت أن الرئيس عبد الناصر كان وطني النزعة يميل إلى الجدية ويجنح نحو العدل الاجتماعي ومراعاة صالح الفقراء، فانعكس هذا على وسائل إعلامه التي تبنت الأفكار الاشتراكية التي يؤمن بها الرئيس.. كما حفلت

الصحافة بتيارات جادة تمثل مدارس فكرية مختلفة، وكتَّاب متنوعين امتازوا بالعمق وسعة الأفق كان لهم أعمدة ثابتة بالأهرام وغيرها من الصحف، ومن هؤلاء توفيق الحكيم وزكي نجيب محمود ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ويوسف جوهر ومحمد مندور ولويس عوض وخالد محمد خالد وغيرهم. كما ظهر بالتليفزيون إعلاميون يمثلون وجه الثورة مثل صلاح زكي وحمدي قنديل وسميرة الكيلاني وسلوى حجازي وأماني ناشد وقد تميزوا جميعًا بالثقافة والوطنية، كما ردد الشعب وراء عبد الحليم حافظ وغيره ما كتبه صلاح جاهين والأبنودي ولحنه كمال الطويل والموجي وبليغ.

أما في فترة حكم السادات فالاختيارات كانت كالعادة محكومة بما يحب الزعيم، فتم إقصاء كل الذين عملوا بالإذاعة والتليفزيون في الفترة الناصرية وحل محلهم أصناف جديدة تمثل الفكر الجديد. وأخذت وسائل الإعلام في سعيها لإرضاء المتلقي الأوحد الذي تعمل لحسابه تضبط نفسها على موجة الزعيم، وفي حالة السادات فإنها جاءت خفيفة نزقة متحيزة لثقافة القشور، ثم بدأت تعلي من قيمة الخطاب الديني الزاعق الزائف المعبأ بالخزعبلات والذي يحض الناس على الخضوع والرضا بالمقسوم وانتظار العدل في الآخرة! وكانت كل هذه الأفكار آتية من المملكة العربية السعودية التي لديها من المال الشيء الكثير لكن رصيدها من الثقافة صفر!... وقد استورد السادات هذا الصفر وقام بتوزيعه من خلال وسائل إعلامه على كل بيت في مصر! حتى الأغاني الوطنية على عهد السادات كانت سخيفة بلا روح وافتقد كتابها وملحنوها للصدق والتلقائية.

لهذا جاءت الرسالة الإعلامية في ذلك الوقت مستخفة بالمشاعر

الوطنية ومعادية لأفكار العروبة والوحدة والتحرر والعدالة الاجتماعية.. وترتب على هذا أن الأغاني الوطنية كانت سخيفة بلا روح، وافتقد كتابها وملحنوها للصدق والتلقائية. ولجأت وسائل الإعلام في تنفيذ الخطة الإعلامية للاستعانة بشيوخ من فصيلة «راسبوتين» وصحفيين ومذيعين أرزقية من ذوي الأفق المحدود من الذين أخذوا يبشرون بالعهد السعودي الإسرائيلي، وكان هؤلاء لا يؤمنون بما ينطقون به على العكس من صحفيي وكتاب وشعراء الستينيات، لكنهم أدوا المطلوب على حسب طلب الزبون الذي يأمر والثري الذي يدفع، وكان الزبون هو السادات، والممول الذي يدفع الفاتورة هو المملكة!

أما في المرحلة المباركية فإن الأمر كان أسوأ بكثير، إذ إن مزاج حسني مبارك كان محيرًا أشد الحيرة.. ولتوضيح الأمر فإننا نذكر أن الرئيس عبد الناصر كان محبًّا للسينما وكان يجد راحته في متابعة فيلم في المساء بعد أن يفرغ من مسؤولياته، كما أن السادات عرف بحبه للغناء والتمثيل واستملاحه للطرب، وكانت هذه مؤشرات تساعد الإعلاميين في تقديم ما يحبه الزعيم وفرضه على بقية المشاهدين.

لكن حالة مبارك كانت أكثر تعقيدًا حيث لم يعرف عنه أي ميل للفنون بكل أنواعها، فلا هو محب للسينما والمسرح أو الفن التشكيلي، ولا هو عاشق للغناء أو قارئ للشعر، ولا هو متابع للأدب أو مطلع على التاريخ، كما أنه لم يُعرف عنه في يوم من الأيام أي ميل للسياسة أو فهم للاقتصاد أو اهتمام بالعلوم والمخترعات، ولا كان للرجل تاريخ نضالي من أي نوع، فلا التحق بحزب أو انتمى لجماعة أو خرج في مظاهرة أو آمن بمبدإ أو اعتنق فكرة أو تبنى موقفًا.

لقد كان عبد الناصر مفتونًا بالاشتراكية كطريق لتحقيق العدالة الاجتماعية وتذويب الفوارق بين الطبقات، وكان السادات محبًّا للأبهة والبهرجة والبذخ ويرى في الرأسمالية وتشجيع المشروع الخاص سبيلًا للنهوض وفتح أبواب الرزق أمام المواطنين...أما حسني مبارك فلا كان يعرف ما الاشتراكية ولا يعي ما الرأسمالية ولا يدرك أي سبيل لتحقيق أماني الناس.

كان كل ما عرفه القائمون عن الإعلام الذين يودون ضبط بوصلته على موجة الزعيم أن الرجل يمتلك شهية قوية للطعام وأنه يأكل جيدًا واهتماماته الغذائية تفوق ما عداها من اهتمامات، كما أنه يمارس التمارين الرياضية ويحظى بصحة ممتازة، كما عرفوا أنه يتابع مباريات الدوري ويحب فوازير شريهان!

ولنا أن نتصور نوع الصحافة التي تقدم لإرضاء رجل من هذا النوع، فضلًا عن الإعلام المرئي والمسموع الذي يقدم من أجل رجل ليست له اهتمامات سياسية أو أدبية أو فكرية أو فنية أو اجتماعية أو إنسانية، وعالمه يتمحور حول دنيا الغرائز البدائية التي لا تفترق كثيرًا عن دنيا القوارض!

ولهذا فإن ثلاثين عامًا من حكم مبارك كانت وبالًا على الإعلام بكل أنواعه، إذ إنه في الوقت الذي كان فيه يعبر عن مرحلة عبد الناصر أسماء جادة مثل هيكل وأحمد بهاء الدين، وفي الوقت الذي تصدر الواجهة الإعلامية في عصر السادات رجال مرحون رواة للنكتة مثل أنيس منصور ورجال محبون لإسرائيل مثل إبراهيم سعدة ومثقفون من نوعية رشاد رشدي وسيدات طيبات مثل همت مصطفى، فإن

عصر مبارك قد تقلب عليه طوال ثلاثين سنة نماذج إعلامية عجيبة كانت مناسبة تمامًا للزعيم وتشبهه في الكثير. وكلنا نعلم أن مبارك كان يحب مقالات سمير رجب ويطرب لها ويعتبرها نموذجًا لفن المقال الصحفي، وكان ينظر لمحمد على إبراهيم على أنه مفكر الجيل ولممتاز القط على أنه إعلامي من طراز نادر ولأسامة سرايا بحسبانه موهبة صحفية عملاقة.. كما أنه كان يرى شبابه في عبد الله كمال ويرى أنه لا يشبهه فقط في الشكل والهيئة وإنما يشاركه أيضًا نفس الروح والصفات، ناهيك عن نظرته لأنس الفقي وعبد اللطيف المناوي وخيري رمضان وتامر أمين الذين من فرط إعجابه بهم يقال إنه كان يترك التليفزيون مفتوحًا وهو نائم حتى لا يغيبوا عنه لحظة!

نتمنى في العهد الجديد ألا يكون لنا زعماء بعد الآن وأن يكون رئيسنا مجرد موظف نستأجره بمعروف ونسرحه بإحسان، وأن تكون وسائل الإعلام المملوكة لشعب مصر مضبوطة على موجة الشعب وليس على موجة أي شخص سواء كان جادًّا كعبد الناصر أو هازلًا كالسادات أو خنفشاريًّا بعكوكيًّا كحسني مبارك!

الجسد الإنساني المستباح

كلما شاهدت الفظائع التي يرتكبها الجيش السوري بحق أبناء سوريا والقتلى يتساقطون برصاص العسكر في درعا وبانياس ودمشق، وكلما رأيت ما يفعله القذافي وميليشياته بحق أبناء الشعب الليبي العزل هتفت من قلبي: عمار يا مصر.

لم ينجح الأشكيف بعد ثلاثين سنة من الخيانة وموالاة الأعداء في أن يحرف جيش مصر قيد أنملة عن عقيدته الثابتة ووظيفته الأزلية في حماية تراب الوطن والدفاع عن أرض مصر ضد أي عدوان.

ولا يظنن أحد أن محاولات فلول الحزب الوطني وبقايا مباحث أمن مبارك في إحداث الوقيعة بين شعب مصر وجيشها سيكتب لها النجاح.

وعلى الرغم من هذا فإن هناك مسألة شغلتني أكثر من غيرها في التطورات والتفاعلات التي تمور بها أرض مصر هذه الأيام.

أصبت بدهشة مثل غيري من المرات القليلة التي رأيت فيها تعاملًا خشنًا من بعض أفراد الشرطة العسكرية وهم يحاولون إخلاء ميدان التحرير من المعتصمين بعد انتهاء التظاهرات.

صحيح أن هذه الاعتصامات التي ضمت أعدادًا قليلة تشبثت بالبقاء في الميدان بعضهم من باب الحنين لأجمل أيام العمر التي عاشوها حتى نجحوا في خلع الأشكيف، وبعضهم من ذوي الروائح الجملي (نسبة لموقعة الجمل، وكذلك للجمل الجالس على حجر الثورة وهو من أعدائها).. صحيح أن السماح لها بالبقاء كان غير مقبول، لكن ما هالني هو التعامل الفظ مع الشباب على نحو كان صادمًا.

فما السبب يا ترى في هذا التصرف من قبل أناس نثق تمامًا في تصريحات قياداتهم ونصدق كل كلمة يقولونها، كما ندرك أن إخلاصهم وولاءهم للوطن ولشعب مصر فوق أي تشكيك؟

في اعتقادي أن التعامل الخشن لأي ذي سلطة في مصر هو أمر موجود في الجينات وقابع في تلافيف الجمجمة ولا يحتاج إلى أوامر أو تعليمات من الرؤساء، وإليه يعزى إلى جانب أشياء أخرى السلوك الوحشي لرجال الشرطة في زمن مبارك وكل ما سبقه من أزمان!

نحن نردد كالببغاوات أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته ومع هذا فإننا لا نمانع في أن يتم ضرب هذا المتهم البريء أثناء القبض عليه وبعد القبض عليه وطوال مدة تشريفه في قبضة السلطة! هذا فيما يخص المتهم البريء، فما بالنا بالأمر إذا تعلق بمن تم الحكم عليه وإدانته وقبع بالسجن لقضاء فترة العقوبة... هذا يتعامل معه الجميع باعتباره أقل من كلب فلا يأسى أحد على حاله ولا يجزع أحد من تعذيبه وذلك لأنه مجرم!

ويمكنني أن أعطي مثلًا بسيطًا يوضح فكرتي وهو أنك أنت

شخصيًّا إذا قمت بالاستجابة لنداء سيدة في الشارع تصرخ قائلة: حرامي! وقمت مع غيرك من الناس بمطاردة اللص.. هل تراك تشعر بأي غرابة عندما تجد الناس بعد الإمساك بالحرامي يوسعونه صفعًا ولكمًا وركلًا وبصقًا؟

هل تجد في نفسك رغبة في الدفاع عنه وحمايته من الأذى؟... بل هل كنت تستطيع السيطرة عليه والإمساك به دون التورط في إيذائه بدنيًّا؟ أغلب الظن أنك لا تستطيع.. وكذلك رجال الشرطة لا يستطيعون الإمساك بحرامي من دون أن يتعرض على أيديهم للإصابة حتى لو كان مسالمًا ولم يقاوم! والسبب هو إيمانهم مثل المواطن العادي بأن المتهم مستباح فلماذا إذن بذل الجهد في التدريب على وسائل تحفظ له آدميته عند القبض عليه؟ لماذا ما دام المجتمع يتسامح مع مثل هذا السلوك ولا يراه معيبًا؟ ولا تفترق في هذا الأمر شرطة مدنية عن شرطة عسكرية عن مواطن صالح... كل هؤلاء لا يعرفون للمتهم حرمة ولا يحملون للجسم الإنساني أي احترام.

ولعل هذه هي البذرة التي أثمرت شجرة العلقم وجعلت رجال الشرطة يتمادون فيصيبون الجميع بجهالة، وتصبح إهانة الناس هي الأصل، واحترامهم أمر غير موجود في دليل العمل الشرطي!

الموضوع كبير والمشوار طويل وأول خطوة فيه أن يحترم المواطن المدني أخاه المواطن ثم تنتقل هذه الروح بالتدريج إلى رجال الشرطة بكل أنواعها.

المناوري.. كبير الشبّيحة الشرعيين

شاهدت يسري فودة في برنامجه على قناة أون تي في. كانت الحلقة في منتصفها فلم أعرف الرجل ذا الشوارب الضخمة الذي كان يجلس أمامه، لكني لاحظت أن يسري يتحدث إلى الرجل في حنق ويقول له: وبعدين يا سباعي!

ولاحظت أن سباعي يتلكأ في الإجابات ويراوغ ويكذب ويختلق قصصًا وأفلامًا ويردد كلامًا لا يقنع أحدًا وينتقل من كذبة إلى كذبة بسهولة ويسر، الأمر الذي جعل المذيع يلجأ إلى الله يستعيذ به من شرور الرجل، وجعله يردد طول الوقت في مواجهة الضيف كلمات لا يستخدمها المذيعون عادة في مواجهة ضيوفهم مثل: لا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله العظيم، ولا إله إلا الله!

عصرت مخي لأتذكر أين رأيت هذا الشخص ذا السحنة الصخرية والملامح القاسية، ثم ما لبثت أن تذكرته.. هذا هو المناوري... المناوري شيخ المنسر الذي دوخ رجال الشرطة وفاقت جرائمه كل ما فعله خط الصعيد بمراحل. المناوري الذي قام بتشكيل عصابة ضم إليها المشاهير من الأشقياء وأولاد الليل مثل حباحة وكبالي والأوح!

ولكن أين عثر عليه يسري فودة؟ ولماذا يا ترى يناديه قائلًا: يا سباعي؟ هل هي حالة تنكر اضطر إليها المجرم العتيد حتى لا يتعرف عليه أحد؟

كان الكلام مع المناوري يدور حول الجثث. لم أفهم كل ما قاله لكني أدركت أنه يتحدث عن الضحايا الذين قتلهم ثم مثل بجثثهم وقام بتقطيعها.

بدا لي المناوري من النوع الذي يمكن أن يأكل لحم ضحاياه ورأيته قادرًا على أن يلتهم الجثة بكاملها لو طلب منه أسياده أن يفعل!.. مر بخيالي الفيلم الكوميدي الذي كان فيه إسماعيل يس يعمل حانوتيًّا عاد إلى الدكان ليجد الجثة غير موجودة فتصور أن صبيه قد أكل الميت وبخاصة أن بقايا الطعام كانت عالقة بشفتيه... لكن الصبي دافع عن نفسه نافيًا أن يكون قد أكل الجثة وقال قولته الشهيرة: دي منبّى يا معلمي.. منبّى.. (يقصد مربّى).

لكن فم المناوري الذي كان فودة ما زال يسميه سباعي كانت تتساقط منه قطع اللحم البشري التي تنز دمًا، ولم يكن يستطيع أن يزعم أن ما يلوكه ويمضغه هو مربى!

وأعتقد أن المناوري الذي عمل كثيرًا في خدمة الأجهزة الإرهابية التي روعت شعب مصر والتي كانت تسمى زورًا وبهتانًا بأجهزة الأمن كان من الممكن أن يأكل أي جثة بغرض إخفائها لو صدرت إليه الأوامر من أي مخبر خسيس أو أمين شرطة حرامي أو ضابط بلطجي!

لا أدري لماذا تصورت أن الإعلامي يسري فودة قد يفاجئ المشاهدين ويقدم لهم المناوري في جلسة اعتراف يتطهر فيها من

الآثام التي علقت به على مدى عمره نتيجة عمله في خدمة عصابات المافيا وسادة الجريمة المنظمة ومباحث أمن مبارك.. وظننت أنه قد يروي لنا كيف خان الثوار في ٢٥ يناير وكيف غدر بالشهداء.. كذلك شطح بي الخيال إلى حد تصور أنه سيحكي كيف شارك في قتل القمر المغدور خالد سعيد وكيف مثل بجثته بعد أن أزهق روحه.. واعتقدت على الرغم من أشعة الغدر الخارجة من عينيه أنه سيخبرنا من أين جلب لفافة البانجو التي حشرها بيديه المدنستين في فم خالد.. وهل هي من مزارع البانجو التي يزرعها بنفسه، أو أن البيه الضابط هو الذي أعطاها له وطلب منه أن يحشرها في فم الشهيد؟

قال يسري فودة يستحثه على الصدق: وبعدين معاك..قول الحقيقة يا سباعي!

لكن سباعي أو المناوري أصر على الكذب وقال إن خالد سعيد ابتلع لفافة بانجو ومات!

عند هذا الحد تصورت أن مقدم البرنامج سيخرج عن الاتفاق المعقود مع المجرم وسيصارح المشاهدين بأن الرجل الذي معهم في الإستوديو ليس سباعيًّا بحال وإنما هو المناوري المجرم المعروف طريد العدالة الهارب إلى الجبال والذي لا تبحث عنه الشرطة لأنه لشدة الغرابة يعمل في خدمتها!!

لكن يسري استحى أن يفضح الرجل ومنعته أخلاقه والتزامه بميثاق الشرف الإعلامي من أن يبوح بما يعرف عن المجرم العتيد، وترك الأمر لفطنة المشاهد.

لكن سبحان الله.. لقد أبى الرجل إلا أن يفضح نفسه بنفسه في

نهاية الحلقة من حيث أراد أن يمتدحها عندما أعلن بكل صراحة أن كل من أتوا قبله كانوا يأتون بالأقدمية، لكنه هو الوحيد الذي أتى بالاختيار... قالها المناوري في سعادة كشفت عنها فشخة الضب المصاحبة لابتسامته المخيفة.

سأله يسري: من بالضبط الذي اختارك؟

أجاب المناوري: جهات عديدة. فواجهه يسري بسؤال صريح: هل مباحث أمن الدولة هي التي اختارتك؟ فأجاب في زهو: ليست مباحث أمن الدولة فقط، وإنما اشترك في الاختيار جهات عدة منها الريس حباحة الهجّام ومساعده أوح البلطجي، ومنها الذين خططوا لموقعة الجحش بميدان التحرير والقناصة الذين قتلوا شباب الثورة، ومنها جهاز الشاباك والشين بيت و... كذلك كتيبة خميس القذافي!

لا عجب أن هؤلاء هم من قاموا باختيار المناوري كبير الشبيّحة الشرعيين!

آه.. قلبي!.. قلبي!

جلبي عَ يفط مني يا ولدي!

«أمين الهنيدي»

ضبط وإحضار العفريت!

منذ أيام صدر قرار بحبس سوزان مبارك خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق في قضية كسب غير مشروع وثروة تراكمت وتضخمت بدون مناسبة!

بعدها قالت سوزان كما هو متوقع: آه قلبي! قلبي!... فتم التحفظ عليها بالمستشفى في شرم الشيخ مدينة آل مبارك الأثيرة ولم تذهب إلى السجن.

بعد يومين قامت سوزان بالتنازل عن بعض الفكة التي كانت تستخدمها في شراء بِنَسْ للشعر وشيبسي وطوفي ولبان (علكة).

على أثر ذلك تم إخلاء سبيلها نتيجة قرارها الوطني العظيم بالتنازل عن فلوس الشيبسي والبيبسي وتفضيلها مصالح الوطن العليا على مصالحها الضيقة.

لكن بعض المغرضين لم يعجبهم القرار ولم يستسيغوا ما أعلن من أن مشكلات شعب مصر مع الهانم قد انتفت ولم يعد الشعب يريد منها أي شيء بعد أن تنازلت عن الفكة.

قال المغرضون: كيف نترك السيدة التي قامت بتخريب مصر

بالكامل ولم تتورع عن ارتكاب جرائم من كل نوع في حق الشعب المصري أقلها جرائم سرقة الفلوس والاستيلاء على المال العام؟!

لم يفهم المساكين أن سوزان بريئة من كل هذه التهم براءة السباعي من دم خالد سعيد!

ولم يسمح لهم فهمهم القاصر وتسرعهم في الحكم بأن يعرفوا أن التهم التي وجهت إلى سوزان تلخصت في تهمة أساسية مؤداها أن ثروتها قد تضخمت من دون أن يكون لسيادتها مصادر معلومة للدخل... لاحظوا اسم التهمة.. ثروتها تضخمت.. الجريمة مبنية للمجهول ولا تحدد فاعلًا بعينه.. لكنها تسبح في الفضاء حتى تستقر على فاعل!

يعني لم يقل أحد أبدًا إن سوزان حرامية والعياذ بالله، ولم يقل إنها سرقت أموالا لا تخصها، ولم يقل إنها استولت على حساب مكتبة الإسكندرية وبه كل التبرعات التي وردت للمكتبة من الداعمين للدور الثقافي لمصر وبه ما يقرب من مليار جنيه مصري.

وكيف يستطيع أحد أن يتهمها في ذمتها المالية إذا كانت لم تفعل شيئًا يشكل جريمة؟!... إذ ما ذنبها في أن ثروتها الشقية العفريتة قد غافلتها وتضخمت؟!

لا بد أن أحد أعداء النجاح هو الذي اتصل بثروتها من خلف ظهرها وحقنها بالهرمونات فتضخمت، وقد يكون حقنها بالكورتيزون فانتفخت وصارت هائلة من دون أن تدري سيدة مصر الأولى.

وأنا أرجح أن الذي أغوى ثروتها وسقاها «حاجة أصفرة» وجعلها

حاملا، ثم قام برعاية الثروة حتى وضعت حملها وأنجبت سبعة توائم.. لا بد أنه واحد من الأشرار الذين قاموا بالثورة فيما بعد، وهو على الأرجح أحد أتباع البرادعي أو أحد أعضاء الإخوان المسلمين الذين طالما أضمروا السوء لمبارك وآل مبارك الأتقياء الأنقياء!

ويمكن بالطبع للسيدة سوزان ثابت أن تنفي عن نفسها ارتكاب أي جريمة بأن تكشف لهم عن الشخص الذي فعل كل هذا بالثروة من وراء ظهرها، وحتى إذا فشلت في معرفة الشخص فلا جناح عليها.

وأنا شخصيًّا أعتقد ببراءة سوزان مبارك من أي اتهامات تتعلق بالسرقة والاستيلاء على الأموال لأني أعرف الفاعل الحقيقي الذي قام بتخصيب الثروة وجعلها تحمل وتلد داخل البنوك من دون علم الهانم. هذا الفاعل المجهول يا سادة هو... العفريت!!

نعم العفريت ذات نفسه وليس أحدًا سواه.. العفريت هو الذي أخذ على عاتقه مهمة تضخيم ثروة الست حتى يورطها ويشوه صورتها.. أما هي فليس لها أي دور في هذا الشأن.

فكيف إذن يترك الناس الجاني الحقيقي (العفريت) ويمسكون بالضحية مطالبين بمحاكمتها على جريمة لم ترتكبها؟

لو أن التهمة كانت السرقة لجاز محاكمة سوزان عليها.. ولو أن التهمة هي الاستيلاء على المال العام لأمكن أن نضعها بسجن القناطر مع اللصوص والمجرمين... أما أن ثروتها قد تضخمت فتلك تهمة لا يجب أن تُسأل عنها الست، بل يجب أن يصدر قرار فوري بضبط وإحضار العفريت الحرامي.. المجرم!

ذكاء حسني مبارك

منذ سقوط الطاغية على يد ثورة ٢٥ يناير والسؤال لا يفارق خيالي:

كيف استطاع حسني مبارك، وهو رجل منخفض الذكاء متواضع المدارك محدود القدرات الذهنية، أن يفعل بمصر كل ما فعل؟

كيف أمكنه أن يلحق بمصر كل هذا القدر من الدمار؟ وما الوسائل التي استخدمها ليحول دولة كبيرة منيعة بحجم مصر إلى عالة على العالم.. تتسول طعامها من الأوباش؟ وكيف تأتى له أن ينشر القيم السلبية بين جموع المصريين لدرجة الاقتتال الطائفي؟

الذي جعل هذه الأسئلة تلح عليّ بشدة هو معرفتي أن مبارك الذي تخرج في الكلية الجوية عام ١٩٥٠ كان ترتيبه الأخير على دفعته!... أي أنه كان أقل الطلاب جميعًا تحصيلًا، وأدناهم في المهارات العملية والذكاء... ومع ذلك فقد مرت به الأيام ووجد نفسه يحكم دولة إقليمية كبرى تتزعم العالم العربي، لديها مخزون حضاري عمقه آلاف السنين اسمها... مصر.

البعض يفسر حظوظه الكبيرة التي لا تتناسب مع إمكاناته العلمية والنفسية ببيت الشعر العربي القائل:

ولو كانت الأرزاق تجري على الحِجَا

إذن لهلكــت مــن جهلهــن البهائــم

نعود إلى السؤال: كيف استطاع أن يفعل هذا بوطن الثوار والأحرار، منبع العلم والعلماء، مقر الفكر والأدباء ومستقر الشيوخ الأجلاء؟

في اعتقادي أن الإجابة تكمن في أننا لم يكن من الممكن أن نتصور أن رئيسنا الذي لم ير من هذا الوطن سوى الخير يمكن أن يكون عدوًّا لنا، ولهذا فإننا لم نأخذ حذرنا منه واستأمناه بكل بساطة على أموالنا ومؤسساتنا ومصائرنا كما فعلنا مع عبد الناصر والسادات، وتركنا له إدارة أمرنا ونحن نتصور أن نصيبه من النجاح قد يكبر أو يصغر، لكن لم يَدُرْ بخاطرنا أنه يحمل ضدنا حقدًا دفينًا وشعورًا عدائيًّا، ولم نتصوره بكل هذه الشراسة وهذا النهم إلى المال مع الرغبة في تحطيم مصر!

لو أن حسني مبارك قد أتى إلينا غازيًا على رأس جيش أجنبي واستولى على حكم مصر، لكنا قد تصدينا له وقاومناه وهزمناه مثلما فعلنا مع كل الغزاة. لكن المشكلة أننا تصورناه واحدًا منا، فكنا نغفر له ونفسر كل جرائمه التي تتالت في حقنا على أنها قرارات عميقة لا نملك القدرة على فهمها في الحال لكننا سنرى أثرها فيما بعد!

على سبيل المثال: كان جهاز المخابرات قد قبض على جاسوس

صهيوني اسمه «مصراتي» مع ابنته وكان اسمها فايقة وهما من يهود ليبيا..حدث هذا في نهاية الثمانينيات وتم تقديم الجاسوسين للمحاكمة. كان الجاسوس شديد الجسارة والإجرام فتطاول على هيئة المحاكمة وأتى فعلا غريبًا عندما تبوّل داخل القفص في استهانة مقصودة بهيئة المحكمة، الأمر الذي حدا بالقاضي إلى الحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات في هذه الواقعة.. واستمرت محاكمته في القضية الأساسية.

وفجأة نقرأ ونشاهد في نشرات الأخبار خبر الإفـراج عن الجاسوس مصراتي وذهابه إلى إسرائيل واستقبال رئيس الوزراء الإسرائيلي له، وعقده مؤتمرًا صحفيًّا بمطار بن جوريون شتم فيه مصر وشعبها وأشاد بدولته العظيمة التي تدافع عن أبنائها!

لم يصدق الناس ما فعله مبارك بتسليمه الجاسوس للإسرائيليين من دون استكمال محاكمته، ولم يصدقوا أن يتركه يفلت بعد واقعة «الطرطرة» في المحكمة، ولم يتصوروا أن يحبط مبارك رجال المخابرات الذين تتبعوا الشبكة وأوقعوها فيهدر جهود أفرادها ويسلم الجاسوس للأعداء.

ومع هذا فإن شعب مصر الطيب قد فسّر ما حدث بأن وراءه لا شك مصلحة قومية كبرى قد تحققت لنا بالمقابل، وأن الاطلاع على هذه المصلحة قد لا يكون ممكنًا لدواعي السرية!

مرت سنوات قبل أن نعرف أنه لا مصالح وطنية ولا يحزنون وأن الأمر لا يعدو عمالة صريحة للعدو وخطة يتم تنفيذها، كان له فيها دور محوري على طريق بناء دولة إسرائيل الكبرى!

ما حدث لنا في ثلاثين سنة هو نفس ما حدث للضفدع الذي وضعوه في إنا به ماء دافيء ثم وضعوا شمعة صغيرة تحت الإناء، فظلت درجات الحرارة ترتفع ببطء شديد لم يشعر معه الضفدع بأي خطر ولا وجد داعيًا لأن يقفز من الإناء، ولم يدرك ما حدث له إلا بعد أن وجد نفسه مسلوقًا!

لكن رغم هذا يمكن القول إن مستوى ذكاء مبارك قد ساعدنا كثيرًا بعد أن اتضحت لنا الصورة وأدركنا أن مبارك عدو لمصر، فقررنا أن ننفض الركام وننهض لنواجهه فكانت الثورة المصرية التي استعملنا فيها قوتنا وذكاءنا في مقابل قوة مبارك وذكائه... المحدود.

الشيطان وزبانيته

قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

عندما أقرأ هذه الآية من سورة إبراهيم وأنظر إلى حسني مبارك وصبيانه الزعران وهم في القفص أجد أن هذه الآية تنطبق عليهم بشكل تام.

سامح فهمي وزير البترول يحققون معه بتهمة بيع الغاز لإسرائيل بسعر متدن وتحصيل عمولات نظير الصفقة الملوثة، فيرد بأنه بريء لأن حسني مبارك هو صاحب الحفلة وراعيها الرسمي، وهو الذي أصدر قرار البيع للعدو بأسعار رخيصة، وولداه هما اللذان قبضا العمولات بالإضافة إلى صديقه حسين سالم.

يتصور سامح فهمي وهو يدلي بهذا الدفاع أن مبارك سيحميه ويدافع عنه ويؤمّن على كلامه ويقول للمحققين: نعم أنا الذي فعلت كل هذا

وأنا الذي وسوست لسامح فهمي وزينت له مخالفة ضميره والتوقيع على أوراق العار وأنا الذي حرضته على المضي في سكة الحرام التي أفقدت مصر ثروتها ودعمت العدو الصهيوني بالوقود الرخيص.

يحلم سامح فهمي بأنه لن يكون وحده يوم الحساب وأن الشيطان الذي أغواه سيتحمل مسؤوليته بكل رجولة وشرف!

نفس هذا الموقف يعيشه حبيب العادلي الذي طاوع الشيطان وفتح النار على المتظاهرين المسالمين فقتل ٨٤٦ شابا وفتاة في عمر الأزهار وجرح وأعطب ٦٥٠٠ آخرين.

يظن العادلي أيضًا أنه لن يكون وحده أمام القاضي وإنما سيجد الشيطان الجدع الذي لا يتخلى عن أعوانه يقف إلى جانبه ويتحمل المسؤولية ويدفع عنه حبل المشنقة بكل رجولة وشرف!

لا أعرف على وجه الدقة أي أفكار اعتنقوها وأي أسفار أو مزامير قرءوها أوحت إليهم بأن الشيطان يتمتع بالنزاهة والشرف لدرجة أن يصد عن أتباعه التهم يوم العرض على القاضي؟ كيف تصوروا هذا مع أنه من البديهي أنهم في هذا اليوم سيكونون جميعًا في الهوا سوا، وسيكون الشيطان نفسه في حالة يرثى لها وسيأخذ في البحث يائسًا عن محام يساعده على الإفلات والنجاة برقبته ولو ترك رعيته يذهبون إلى الجحيم.

إن حسني مبارك عندما سألوه إذا كان قد أعطى الأوامر لحبيب العادلي بقتل المتظاهرين أنكر تمامًا ونفى نفيًا قاطعًا أن يكون قد أصدر أوامر من هذا النوع.. ومعنى هذا أنه ترك حبيبه العادلي يستعد لأخذ مقاسات البدلة الحمراء وحده.

كذلك عندما سألوه إذا كان قد أمر سامح فهمي وزير البترول ببيع الغاز لإسرائيل بسعر رخيص فإنه أنكر معرفته بهذا الأمر وقال إن هذا عمل المختصين بوزارة البترول، وإنه كرئيس للجمهورية لم يكن يتدخل في هذه الأمور التفصيلية الخاصة بالوزارات المختلفة، وكأن وزير البترول كان يملك أن يتطوع من نفسه بإهداء غاز مصر للإسرائيليين من دون علم مبارك!.. وكأن الشرفاء من أبناء مصر الذين أثاروا الأمر على صفحات الجرائد وأخذوا يصرخون طوال السنوات السابقة كانوا يصرخون على كوكب المريخ!.. وكأن مبارك لم يسمع بالحكم القضائي الذي صدر بإبطال اتفاق تصدير الغاز لإسرائيل، وكأن أحدًا غيره هو الذي أعطى أوامره بتجاهل الحكم وعدم تنفيذه!

لقد قال مبارك لتلامذته وصبيانه الذين أطاعوه نفس الذي قال جل وعلا إن الشيطان سيقوله لأتباعه يوم القيامة عندما يسألونه عن وعوده لهم بحماياتهم. قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾.

حقًّا يا كل مجرم وكل لص وكل وغد زنيم ممن أطاعوا مبارك فغووا: ما مبارك بمغيثكم وما أنتم بمغيثيه، لكنكم كلكم سوف تضرَبون بالنعال في الدنيا... ولكم في الآخرة عذاب عظيم.

حضرة الضابط

ظل جهاز الشرطة بمصر على زمن حسني مبارك يمارس في حق المصريين كل أنواع الجرائم، وخرج أفراده خروجًا سافرًا على مقتضيات الوظيفة المعنية بحفظ الأمن وصيانة الأعراض والأموال إلى الترويع وانتهاك الأعراض وسرقة المال بوسائل البلطجة والسرقة بالإكراه وفرض الإتاوات.

وبعد أن قامت ثورة ٢٥ يناير وخرج فريق من المقهورين يشعلون النار في أقسام الشرطة التي مثلت بالنسبة لهم سلخانات ومجازر، حاولنا أن نعيد جهاز الشرطة إلى جادة الطريق وأن نشجع أفراده على الاندماج في حياة المصريين والعيش بشرف، لكن هذه المحاولات ما زالت متعثرة ويبدو أن المسألة أخطر وأعقد مما نظن بكثير.

لا أعتقد أن الأمر يقتصر على جهاز شرطة فقد الثقة بنفسه وأصبح أفراده يخافون من أداء واجبهم خشية الاصطدام بالجماهير المستنفرة ضدهم والكارهة لهم.

ولا أعتقد أن الأمر يقتصر على رجال شرطة ناقمين يريدون أن يردوا الصفعة للمجتمع وذلك عن طريق الوقوف متفرجين على

الوطن وهو يحترق مع النظر إلى الحريق بسعادة حتى يعرف الناس قيمة الشرطة ويأتوا إليها صاغرين يبوسون القدم ويبدون الندم على غلطتهم في حق الوحوش الآدمية.

أظن أن الموضوع يتجاوز هذا إلى شيء آخر هو موضوع جرحى الثورة..إذ إن لكل ثورة جرحى وضحايا ممن تدوسهم الأقدام من دون قصد. فبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وما تلاها من إقصاء السياسيين عن المشهد ومحاكمتهم ثم تأميم المصانع والشركات وفرض الحراسة..كل هذا أسعد شعب مصر وأنصف الغالبية العظمى من أفراده لكنه في الوقت نفسه خلّف جروحًا لدى من أضيروا وبخاصة أن من بينهم من تعرضوا للظلم ولم يكونوا من الفسدة الذين يستحقون تطهير المجتمع منهم.

شيء مماثل أراه الآن بين أفراد الشرطة.. الفاسدون منهم وهم الأغلبية يشعرون بالنقمة على المُلك الذي زال والعز الذي ضاع والجاه الذي راح في الوبا.. والشرفاء منهم يشعرون بالعار ويحسون بأن هذه الوظيفة التي كانت كفيلة بأن تضع أسماءهم في قائمة الشرف قد لطختهم بالعار وجعلت الناس إزاءهم ينقسمون إلى قسمين: قسم يعتدي عليهم وقسم آخر يشاهد ما يحدث بسعادة وتشف.

ويكفي للتدليل على حجم الصدمة أن نتذكر أن ثورة ١٩٥٢ عندما قامت بإلغاء الألقاب فإنها قد حرمت الآلاف ممن كانوا يحوزون لقب بك وباشا من أجمل مظاهر العز والجاه.

الأمر نفسه حدث بعد ثورة ٢٥ يناير إذ إن روح الثورة المشبعة بالحرية والكرامة لم تعد تسمح لضابط الشرطة أن يستمتع بالناس تناديه تحت وطأة الذلة والانكسار بـ«يا بك ويا باشا».. وهذا في

ظني أهم لدى رجال الشرطة بكثير من الأموال الحرام والإتاوات التي اعتادوا جمعها من الناس في عهد مبارك.

شيء آخر أعتقد أنه يمثل هاجسًا لدى رجال الشرطة وهو الحياة المجانية التي اعتاد معظم أفرادها أن يعيشوها.. إذ إنه ليس سرًّا أن السادة الباشوات لم يعرف عن معظمهم القيام بدفع الحساب لميكانيكي بعد إصلاح السيارة عنده أو دفع الأجرة لسباك أو نقاش أو نجار أو منجد أو مبلط..كما أنهم اعتادوا الحصول على أسعار خاصة عند تعاملهم مع الجزار والخضري والفاكهي.

كل هذا سقط فجأة.. أسقطته ثورة ٢٥ يناير المجيدة التي استولدت للمصريين الحرية والكرامة من أضلع المستحيل.

لهذا لا أظنني أقول جديدًا عندما أطالب بمنح رجال الشرطة رواتب إنسانية تليق بالبشر وتحفظ عليهم كبرياءهم فتشجع الشريف منهم على المضي في طريق الشرف ولا تدع للمنحرف منهم حجة للانحراف. هذا هو الإجراء العاجل الذي يجب أن يسبق أي إجراء آخر ولو أدى الأمر إلى الاقتراض والاستدانة.

وأكثر من هذا ليس لهم ديْن عندنا..إذ إننا لن نعتذر لهم عن رفضنا الذل والهوان على أيديهم.

وعلى وزارة الداخلية أن تتخلص سريعًا من أولئك الذين يحنون لأيام العيش بالمجان على قفا الناس ويريدون أن يكونوا باشوات وبكوات، ويتملكهم رفض نفسي عنيف لفكرة أن يكونوا موظفين محترمين يعملون في خدمة شعب مصر، ذلك أننا لا نعدهم بأن نعيد إليهم ألقابهم الفالصو التي سحبناها منهم لنحل محلها لقبًا شريفًا محببًا إلينا كريهًا على مسامع البعض منهم هو: حضرة الضابط!

شرفاء وخونة

القائمون على الأمر بمصر الآن يضعون الشعب المصري في حرج عظيم.. كيف؟.. أقول لكم:

لو أنك صادفت أثناء سيرك بالشارع مواطنًا مصريًّا يعتدي بالضرب على ضابط شرطة فماذا يكون موقفك؟ وكيف يكون شعورك؟

لو أن أحدًا سألني هذا السؤال قبل ٢٥ يناير لأجبت بلا تردد بأنني سأكون في غاية السعادة وأنا أشاهد رمزًا من رموز القهر والإجرام وهو يتلقى العقاب بصرف النظر عن موضوع الخلاف!

وهنا قد يثور سؤال: وهل كل رجال الشرطة قبل الثورة كانوا غير شرفاء حتى يستحقوا منك كل هذا الفرح والشماتة؟ والإجابة هي أنهم في غالبيتهم كانوا عبيدًا للمأمور القاتل الحرامي، ولم يكن من بينهم تقريبًا من يتعامل مع الناس بالقانون أو بالأدب.

وماذا عن الموقف الآن من رجال الشرطة؟.. هل نستمر في الشماتة بهم إذا رأينا من يؤذيهم ويتعرض لهم بسوء.. أم نبادر بمد يد العون ونتصدى لمن يمسهم ونجعل من أنفسنا سياجًا يحميهم؟

هنا نأتي إلى الحرج الذي تحدثت عنه والذي يشعر به المواطن المصري الآن.

رجال الشرطة اليوم ينقسمون إلى نوعين: نوع أسعدته الثورة لأنه رأى فيها خلاصًا له هو نفسه من الذل والعبودية وتنفيذ الأوامر الشريرة.. وهذا النوع أبدى استعدادًا للالتحام بالناس والعمل في خدمتهم وتمثيل مصالحهم في جهاز الأمن. والنوع الآخر هو رجال الشرطة الذين عاشوا عمرهم منغمسين في الرذيلة وتمتعوا طوال خدمتهم بالفلوس الحرام والنفوذ الحرام.. وهؤلاء لا يتصورون أنفسهم مواطنين عاديين وموظفين عموميين مثل غيرهم من أبناء الوطن، ولا يستطيع الواحد منهم أن يرى نفسه إلا باشا أو صاحب المعالي يأمر فيطاع ويطلب الإتاوات فتأتي له صاغرة ويتخذ من القسوة والتعذيب أسلوبًا في العمل.

هذا النوع الثاني هو الذي يجعلنا نشعر بغياب الأمن عن الشارع المصري، وأفراده هم الذين يعقدون في الخفاء الاتفاقات مع البلطجية والشبيحة وأصحاب السوابق لإحداث الانفلات الأمني من خلال ترويع الناس والاعتداء على المنشآت وتهريب المساجين.

ويريد هذا النوع من رجال الشرطة لنا أن نحس بالرعب ونهرول نحوهم راكعين ومعتذرين نطلب منهم الصفح والغفران حتى يتكرموا علينا ويلجموا الكلاب المسعورة التي أطلقوها علينا!

هؤلاء يريدون لنا أن نقتنع بأن الثورة لم تحمل لنا الخير وإنما جاءت لنا بالخوف والفوضى، وذلك حتى يستعيدوا نفوذهم وامتيازاتهم ومكانتهم التي أطاحت بها الثورة.

والمشكلة في هؤلاء ليست فقط في طباعهم الغليظة وقسوتهم المفرطة، إنما المشكلة تكمن في أنهم فاشلون أمنيًّا ولم يحدث أن قاموا بحل لغز أمني أو توصلوا إلى الفاعلين في أي جريمة إرهابية.. فعلى سبيل المثال لم يتم القبض حتى الآن على من ارتكبوا جريمة القتل أمام فندق أوروبا بالهرم منذ سنوات ولم يُعرف حتى الآن شيء عن مذبحة الأقصر ولا التفجيرات في الحسين.. وغير ذلك كثير. أي أن السادة الباشوات الذين يريدون لنا أن نعتذر لهم هم بالمعايير الأمنية صفر كبير ووجودهم يشين أي جهاز أمني!

المصيبة الكبرى أن القائمين على الأمر في هذا البلد لا يرون الصورة على هذا النحو الذي قدمته لكم ويتصورون أن الشرطة برجالها الصالحين وأفرادها المجرمين معًا يمكن أن يشكلوا جهازًا يحفظ الأمن ويصون الممتلكات والأعراض، وهذا لعمري من المضحكات المبكيات!

إن الحرج الذي حدثتكم عنه يأتي من أنني لا أدري هل رجل الشرطة الذي يتعرض للاعتداء هو واحد من أبنائنا الشرفاء فيتعين أن نهب لنجدته لأن في نصرته نصرة لأنفسنا... أو أنه واحد من السفلة الذين ما زال الجهاز يعج بهم فأقف متفرجًا شامتًا وأنا أرى الأهالي يؤدبونه!

هذا هو الإشكال الذي يجب حله، والحل ليس صعبًا على الإطلاق.. وقد تم طرح مئات الأفكار في هذا الشأن، لكن أهم هذه الأفكار هي وجوب التخلص من كل العناصر الفاسدة بالشرطة مهما بلغ عِددهم، فهذا هو السبيل الوحيد لاستعادة الأمن.

لو أن الساحة تخلو تمامًا من رجال الشرطة مثلما كان الحال عليه أيام الثورة بعد هروب الخونة، لقمنا بحماية أنفسنا من خلال اللجان الشعبية التي ابتدعناها. أما أن يقنعونا بعودة الشرطة ويطلبوا منا التعاون مع أفرادها، ثم يتركوا رجالها المجرمين يمارسون الامتناع عن العمل وتعبئة البلطجية وإطلاقهم علينا، فهذا ما لا يمكن استمراره أبدًا.

أيها القائمون على الأمر لا تضحكوا على أنفسكم وعلينا.. تخلصوا من عناصر الشرطة الفاسدة في الحال حتى ترفعوا عنا الحرج وحتى لا نتردد في نصرة رجل الشرطة إذا ما فكر أحد في المساس به.

٢٤ قيراط عذاب

التقيت الأسبوع الماضي صديقًا سوريًّا يعمل بالإعلام وكنا لم نلتق منذ مدة.

حياني وهنأني بالثورة المصرية، فقلت له إنني كنت بدوري أود أن أهنئه بنجاح ثورة الشعب السوري لولا أن هذا لم يحدث بعد لأسباب يطول شرحها.

صارحني الصديق بأمر بعث في داخلي دهشة شديدة..قال: رغم رؤيتي للسعادة في أعينكم معشر المصريين بالثورة التي تخلصتم فيها من حسني مبارك، فإني لا أكتمك أنني أشعر بأنكم غامرتم وخضتم صراعًا داميًا لم تكن عواقبه مضمونة ضد قوات أمن شرسة، في حين أن الأوضاع عندكم لم تكن بالغة السوء على النحو الذي يجعل من القيام بالثورة أمرًا لا مناص منه! قلت له: لا أفهمك.. ماذا تقصد؟

قال: لو أنك رأيت أجهزة الأمن السورية لعرفت النعمة التي كنتم فيها، ولو طالعت وحشية الجيش السوري في إخماده المظاهرات الوطنية لحمدت الله على جيشكم الوطني النبيل، ولو تابعت حالة الإعلام السوري المقيت الذي يشبه إعلام أوروبا الشرقية في أثناء

الحرب الباردة لأدركت أنكم عشتم في حرية كبيرة في ظل مبارك... لقد كنت أطالع ما تكتبونه في مصر، وأنت بالذات.. لقد قرأت كتبك ومقالاتك وكلها ضد النظام بشكل مباشر ومع ذلك في حدود علمي لم ينلك سوء من مبارك وأجهزته.

قلت له: من ناحية شكر الله على الجيش الوطني الذي رفض أن يفتح النار على شعب مصر فأنا أؤيدك تمامًا، أما في باقي الأشياء التي ذكرتها فاسمح لي أن أختلف معك اختلافًا تامًّا.. يا صديقي، الطغاة العرب لا يختلفون بعضهم عن بعض لا في النوع ولا حتى في الدرجة..كلهم ذلك الرجل.. ولكي أوضح ما أقصد سأضرب لك مثلًا.. لقد زرت دمشق مرارًا ورأيت رغيف الخبز الجميل الشهي الذي تأكلونه..لو أن رغيف الخبز الذي كان الحزب الوطني يصنعه بمصر كان بهذه الروعة لربما تردد قطاع ممن قاموا بالثورة في الخروج على مبارك وإسقاطه..يا صديقي إنني لا أنكر هامش حرية التعبير الذي كان موجودًا، لكن لا بد أن تعلم أن هذا الهامش لم يكن مستقرًّا بل كان يتسع ويضيق حسب مزاج الحاكم، فضلًا عن أن ما دعا إليه ليس أريحية مبارك وحنان قلبه، ولكن لأن مستوى السرقة والنهب وغرْف الأموال الذي قام به مبارك وعائلته وأصدقاؤه ونسانيسه وعناكبه كان غير مسبوق بحيث إنه حرم الرضيع من الحليب وحرم الخريج من العمل وحرم الفتاة من الزواج والمريض من الدواء وقطع طريق الأمل على الناس جميعًا لدرجة أنْ جعل كثيرين يتمنون الموت..لأن مبارك فعل ذلك كله، فإنه لم يكن بإمكانه أن يحرم الناس من حرية الصراخ والنباح. كان يجعلهم يكتبون ويتكلمون حتى تتشقق حناجرهم دون سميع أو مجيب..حرية التعبير النسبية

كانت ضرورية بسبب بشاعة السرقة وقسوة النهب وغلظة القبضة الأمنية. أما أنتم فإنكم تعيشون مع نظام أكثر بربرية من ناحية القبضة الأمنية الغليظة، وسبب ذلك أنكم ما زلتم تأكلون وما زال أغلبيتكم يجدون أسقفا تأويهم، لذلك لا يمكن أن تحلموا بقدر من المعارضة مثل التي كانت موجودة لدينا.

إن كل واحد من الطغاة منح شعبه ٢٤ قيراط عذاب.. منهم من اهتم بالتجويع أكثر، ومنهم من وجد سعادة أكبر في ضرب الناس بالسياط.. منهم من قدم خلطة متوازنة بها الإفقار والذل والمبيت على الطوى، ومنهم من استمتع بوشي الأخ بأخيه وخيانة الزوجة لزوجها.. أنتم في سوريا كان لديكم خبز جيد، لذلك كان لا بد للحاكم أن يكمل القراريط الأربع والعشرين صفعات على الوجه وركلات في البطن وضرب بكعوب البنادق.. أما نحن في مصر فإن مبارك كان يستورد لنا قمحًا فاسدًا لا يصلح علفًا للحيوانات ويصنع منه خبزًا لا يؤكل، لهذا كان يكفينا الجوع الكافر والرعب من أجهزة الأمن والموت على الرصيف.. لذلك لا تحسُدْنا على حرية الصراخ التي تمتعنا بها فقد نلنا نصيبنا مثلكم تمامًا وحصلنا من حاكمنا المجرم على نفس ال ٢٤ قيراط عذاب!

الزعيم... نياهاهاهاهاههههه!

عجبتُ لقوم ينتقدون ولاية الفقيه

ثم لا يجدون حرجًا في التهليل لولاية الجحش!

«عطية بقسماط»

الزعيم... هههههههههه!

القراءة عن دنيا المخابرات مثيرة للغاية وتمتلئ بحكايات لا يصدقها العقل عما يحدث في الكواليس الخلفية للكرة الأرضية. وقد طالعت أخيرًا كتابًا شديد الإمتاع يروي عن أشهر الجواسيس في التاريخ، وفي فصل منه يتطرق إلى الصفقة التي تم بمقتضاها منح كثير من دول العالم الثالث استقلالًا صوريًّا بعد أن تم تجنيد الزعيم الملهم بكل منها ليصير هو رجلهم في حكم الدولة والذي صارت مهمته أن يبلغهم بكل كبيرة وصغيرة تحدث في بلده حتى لا يتركوا شيئًا للظروف. ومن المعروف في دنيا الجاسوسية أن لكل جاسوس ضابطا مسؤولا عنه يتابع نشاطه ويتلقى منه التقارير ويعهد إليه بالمهام..

لكن الطريف في الكتاب أنه يقرر أن الزعماء الأشاوس الذين تم تجنيدهم والذين يهز كل منهم بلده ويزلزلها إذا تبختر.. لكل منهم ضابط اتصال يتعمدون أن يكون صغيرًا في السن، نزقًا، سليط اللسان من أجل إذلال السادة الحكام وحتى لا يصدق أحد منهم الفيلم الذي يعيشه والذي قد يدفعه إذا ارتفعت الطراوة وبخار الماء في نافوخه إلى نسيان الحقيقة وتخيل أنه زعيم بحق وحقيق.

ويمضي الكتاب متحدثًا عن اللغة المتدنية التي يتم بها مخاطبة

الزعماء الأشاوس من قبل ضابط الاتصال، والإهانات التي يتلقونها طوال الوقت والتي تصل إلى الشتيمة بالأم والأب من عيل صغير يستطيع أن يوقظ المسؤول الفخيم في أي لحظة في الليل.. أحيانًا بغرض الشغل وأحيانًا أخرى بغرض التنغيص والإهانة.

وهذا يدفعنا إلى تصور المفارقة العجيبة التي تحدث على مستويين متباينين عندما يزور الزعيم الضرورة دولة الاحتلال ويتم استقباله هناك استقبالًا بروتوكوليًّا عالي المستوى حيث تمد أمامه البسط الحمراء وتعزف الموسيقى السلامين الوطنيين وتتقدم منه طفلة حلوة وبيديها باقة ورد تقدمها لجلالته أو فخامته أو سموه ويتم فتح أحد القصور لإقامته، كما يتم التقاط الصور التي توحي بأهمية الاجتماعات واللقاءات السياسية التي يعقدها الزعيم..هذا هو المستوى المعلن، لكن هناك مستوى آخر خفيا هو الحقيقي والأصلي حيث يجد الزعيم كفيله القاسي الصغير في انتظاره يقف من بعيد ويتعمد أن يريه نفسه حتى يعمق إحساسه بالمهانة ويفسد عليه بهجة الكرنفال الوهمي.

عندما قرأت الكتاب لم أعرف هل أصدق ما جاء به أم أتعامل معه باعتباره كتابًا مسليًا، لكني في كل الأحوال أحسست بعدم غرابة هذا الطرح على جنوحه الشديد، ووجدتني أبتسم وأنا أتخيل بعض غضنفرات العالم الثالث والشتائم تنهال عليهم من رؤسائهم الصغار وهم يتمتمون في ذعر: حاضر يا أفندم.. تمام يا أفندم، وتذكرت عبد الرحمن الأبنودي في قصيدته الشهيرة التي ذكر فيها واحدًا من هؤلاء قائلًا في وصف سيادته:

«اللي كان بيدّي الكدب من قدام...كان بياخد من ورا».

سنة حلوة يا سفّاح

أوردت الإذاعة الإسرائيلية خبرًا كاذبًا عن تهنئة مزعومة قام بتقديمها الرئيس حسني مبارك إلى بنيامين بن أليعازر وزير التجارة والصناعة الإسرائيلي بمناسبة عيد ميلاده الـ٧٤.

ومن المعروف أن للميديا الإسرائيلية تاريخًا طويلا في التلفيق ونشر الأخبار الكاذبة بهدف التأثير على معنويات العرب وإشاعة اليأس والوهن في نفوسهم وزعزعة ثقتهم بقياداتهم. ومما يؤكد كذب الخبر وعدم معقوليته التقارير المعلنة التي يعرفها الكافة بشأن مذكرات اعتقال موجهة لمحكمة الجنايات الدولية ضد عدة شخصيات إسرائيلية من بينهم بن أليعازر لارتكابهم جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، كذلك سمعة بن أليعازر المدوية كسفاح ولغ في دماء العرب ولم يتردد عندما كان وزيرًا للدفاع في اعتماد سياسة الاغتيالات والعقاب الجماعي وإطلاق النار تجاه مناطق مأهولة بالسكان في الضفة وغزة، وكان أول وزير دفاع إسرائيلي يستخدم طائرات إف ١٦ في ضرب المدن الفلسطينية. وبسبب دمويته هذه أوكلت إليه مهمة إخماد الانتفاضة في عام ٢٠٠١، وكانت حصيلة الشهداء في الفترة من مارس حتى ديسمبر ذلك العام ٦٠٠ شهيد وقرابة ٢٠ ألف جريح.

ومن المعروف أن الشهرة المدوية للوزير الإسرائيلي كمجرم حرب مطلوب للعدالة قد نشأت بعد إذاعة فيلم روح شاكيد الذي أذاعه التليفزيون الإسرائيلي عام ٢٠٠٧ وفيه يظهر قتل ٢٥٠ أسيرًا مصريًا في نهاية حرب ١٩٦٧ بأوامر من بن أليعازر الذي كان يرأس ما يسمى بوحدة شاكيد. وتظهر شهادات جنود إسرائيليين ومصريين أن الوزير الإسرائيلي أمر بقتل الأسرى عن طريق استخدام المروحيات التي حامت بشكل منخفض فوق رمال سيناء واصطادت الجنود الذين لم يكن من بينهم من يحمل السلاح، كما يتبين من عدة شهادات أن بن أليعازر نفسه قد أطلق النار وقتل أسرى حرب عزلًا من السلاح.

وتشير نشأة بن أليعازر الذي ولد في العراق عام ١٩٣٦ إلى أنه هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٤٩ والتحق بكلية القادة والأركان ثم استكمل دراساته العليا في كلية الأمن القومي بتل أبيب وتدرج في المناصب العسكرية حتى خرج من الجيش عام ١٩٨٤.

هذا، وقد قامت نقابة المحامين المصريين في أغسطس عام ٢٠٠٧ بإقامة محاكمة شعبية لقاتل الأسرى المصريين حضرها رموز قانونيون من بلدان العالم وتم توجيه الاتهام إليه بالاشتراك في قتل وتعذيب أسرى مصريين في مناطق مختلفة بسيناء وإخفاء جثث الشهداء من المدنيين والعسكريين ودفنها مخالفًا القانون، إضافة إلى ارتكاب مخالفات للمادتين ١٣ و٤٢٠ من اتفاقية جنيف والمادة ٤٧ من اتفاقية حماية المدنيين.. وانتهت المحاكمة إلى صدور الحكم بإعدامه مع تعويض مليون دولار لعائلة كل شهيد. هذا وقد شهد المحاكمة وأدلى بشهادته فيها خمسة من الأسرى المصريين في

حرب ١٩٦٧، وكذلك أهالي الشهداء الذين قتلهم ودفنهم بنيامين بن أليعازر.

وبعد كل هذا تأتي الإذاعة الإسرائيلية وتزعم بكل صفاقة أن الرئيس مبارك اتصل به وهنأه بعيد ميلاده.. وكان ناقصا أن تقول إنه أرسل إليه دستتين جاتوه مع شريط أغنية سنة حلوة يا جميل!

القلب وما يريد

يضايقني إلى حد الحنق من يتعرضون بالنقد للرئيس مبارك نتيجة استقباله للوحش الآدمي بنيامين نتانياهو، ويثير حفيظتي كل من يتساءل عن سبب تهنئة الرئيس للكيان الصهيوني بمناسبة ذكري احتلالهم لأرضنا وحرقهم لقرانا وبقرهم لبطون نسائنا وطردهم لأهلنا وبناء دولتهم فوق الأرض التي احتلوها في مايو ١٩٤٨. ويدهشني من يتطاول فيتساءل عن سر صداقة سيادة الرئيس بالسيد بنيامين أليعازر قاتل الأسرى المصريين وتهنئته له في عيد ميلاده واستقباله مرات عديدة، وكذلك صداقته بشيمون بيريز قاتل الأطفال في قانا وعلاقة الود مع أولمرت الدموي وليفني التي لا تستطيع زيارة لندن خشية اعتقالها على خلفية ارتكابها جرائم حرب في غزة هي وأصدقائها الصهاينة!

ما يغيظني في الموضوع أن هؤلاء لا يدركون أن الرئيس في النهاية هو مواطن مصري مثلنا من حقه أن ينعم بكل الحريات التي ننعم بها وأن يمارس حرية الاختيار كما نمارسها، وأن يرفل في النعيم الذي نرفل فيه، ولا يجب أن نجعله يقاسي بالقيود الرئاسية فلا يصادق من يحب بل يصادق فقط من نحب نحن له أن يصادق! وكأنه لا تكفيه

أعباء الحكم التي تنوء بحملها الجبال ويحملها سعادته منذ الأزل من دون أن يشكو أو يطلب المساعدة!

أرأيتم إلى أي مدى يصل التجبر والافتراء بالبعض؟ إنه يصل لدرجة أنهم يريدون لرأس الدولة أن يتقيد بمواقفهم الرعناء في اختياره لأصدقائه ويريدون أن يحددوا له من هم أصدقاء السوء ومن هم الأصدقاء الطيبون كما لو كان سيادته في حاجة إلى نصحهم أو كما لو كان لا يعلم حقيقة أصدقائه! ولو أنصف هؤلاء الناس لسمحوا لسيادته باختيار أصدقائه من السلة التي تعجبه دون التقيد بالمعايير السخيفة المتعلقة بمن معنا ومن ضدنا، من يساعدنا ومن يضرنا، من يحترمنا ومن يهيننا وكل هذه الأشياء التي لا تهدف إلا إلى البلبلة والفوضى وتأليب الطبقات وتعكير السلم الاجتماعي وتكدير النظام الاشتراكي وضرب التنمية تحت الحزام ولطّ الاستقرار من تحت. ولا يجب أن ننسى أن لكل منا أصدقاء يأنس إليهم ويجد في صحبتهم الراحة والسلوى حتى لو كان بعضهم لا مؤاخذة! أنا شخصيًّا أحب حباحة اللومانجي وصديقه المناوري مع أنهما سوابق ولمامة وقضيا من عمريهما داخل سجون الوطن أكثر مما عاشا خارجها، ومع هذا لا أجد حرجًا في استقبالهما، ولا أجد ما يمنع من أن ألقاهما هاشًّا باشًا بكل الود والترحاب، ولم أسمح لنفسي أبدًا بأن أتقيد بموقف القانون منهما لأن هناك قانونًا أعلى اسمه «القلب وما يريد».

لذلك أرجو من كل واحد يريد أن يلقي مواعظ ويضرب أحناكا في الهواء أن يرحمنا من كلامه الفارغ وأن يهدّئ أعضاءه ويلزم حدوده ويحترم حرية الآخرين كما يريد لهم أن يحترموا حريته.

ادفع بالتي هي أحسن

يتساءل البعض: كيف يمكن أن يكون الشعب المصري كارهًا للإسرائيليين الوحوش قتلة الأطفال، رافضًا لهم كل هذا الرفض، وفي الوقت نفسه يكون الرئيس مبارك مرتبطًا بعلاقات طيبة ودودة مع زعماء إسرائيل تجعلهم يأتون إليه ويترددون عليه طول الوقت وكأن البيت بيتهم؟ ويمضون في تساؤلاتهم: ألا يجب أن تكون مواقف الرئيس متماشية مع أماني شعبه ومعبرة عنه فيحب من يحبه المصريون ويجافي من يرفضه شعب مصر؟

في تقديري أن مثل هذه الأسئلة تعبر عن سذاجة مفرطة لأنها تفترض أن الزعماء هم أشخاص عاديون مثلنا يحكمهم ما يحكمنا من أطر في التفكير ويتناوشهم ما يعترينا من مشاعر حب وسخط وقرف وخلافه... لكن الحقيقة أنهم رسل تنوير يتسامون فوق مشاعرهم من أجل مصلحة الأوطان ويتخذون من المواقف ما قد يستهجنه العامة بسبب جهلهم وعدم اطلاعهم على حقيقة المواقف.. وقد بعثتهم الأقدار في لحظات مقدرة ومحسوبة بالشعرة لكي يضيئوا علينا بحكمتهم التي لن ندركها كالعادة إلا بعد فوات الأوان!

من الممكن أن يكون الرئيس مشمئزًّا من نتانياهو وكارهًا

لأولمرت ومستبشعًا إيهود باراك مثل كل البشر في العالم، لكن الرؤية البانورامية للصورة تجعله يتنكر لمشاعره ويتعاون معهم بما يحقق المصلحة، ولا تسألني: مصلحة من؟! لأن السؤال يعبر عن تشكيك غير مقبول، فالحديث هو عن مصلحة مصر.

هذا علاوة على أن للمسألة وجها آخر يفهمه أهل السياسة المحترفون أكثر من غيرهم يتعلق بلعبة توزيع الأدوار التي يقوم بها الساسة من أجل تحقيق أقصى منفعة عند التفاوض والتعاطي مع الدول الأخرى، وهو ما يسمونه لعبة الحمائم والصقور. وفي إسرائيل يجيدون هذه اللعبة ببراعة فيتركون على سبيل المثال ليبرمان الوقح المتهور يسب ويشتم زعماءنا ويهدد ويتوعد في كل اتجاه، وفي الوقت نفسه يبعثون الحمامة بيريز واليمامة باراك ليقوما بدهن الواوا مرهما عند كل من انجرحت مشاعره بعدما هدده ليبرمان بإرساله للجحيم أو بتدمير سده العالي!

هذا الدور الذي يجيده الإسرائيليين أصبحنا نحن أيضًا نؤديه ببراعة، فالشعب المصري يقوم بدور الصقر النهاش الذي يصب غضبه على الإسرائيليين ويهددهم بقطع العلاقات وفسخ اتفاقية كامب ديفيد وطرد السفير وكل هذا الكلام، في الوقت الذي يعادل الرئيس الكفة حتى لا تميل فيتعاون أمنيًّا مع الإسرائيليين ويستخدم معبر رفح على النحو الذي تشاؤه إسرائيل ويعطيهم الغاز المصري بسعر رمزي.. وذلك في أداء ماهر للعبة الحمائم والصقور.

ومن تجليات النجاح الباهر في أداء اللعبة الرسالة التي تناقلت الأنباء نصها والتي بعث بها الحاخام عوفاديا يوسف مع بنيامين

نتانياهو إلى الرئيس مبارك هذا الأسبوع. ومن المعروف أن الحاخام عوفاديا يوسف هو زعيم حزب شاس العنيف المتطرف وله خطاب شهير أدلى به على الهواء أمام كل الكاميرات دعا الله فيه أن ينتقم من العرب ويبيد ذريتهم ويسحقهم ويمحوهم من على ظهر الأرض، وأوصى قومه «ممنوع الإشفاق على العرب، يجب قصفهم بالصواريخ بكثافة وإبادتهم لأنهم شريرون!».

بعث الحاخام مع رئيس الوزراء الإسرائيلي برسالة للرئيس مبارك كتب فيها: «نصلي لخالق الكون أن يمن عليكم بالشفاء الكامل والسريع!». وأضاف: «دام مجدكم صاحب السمو رئيس مصر محمد حسني مبارك، وعسى أن تستمروا في قيادة مواطنيكم بجلالة وشجاعة وقوة لمدى الحياة وبسلام، وعسى أن تنجحوا في كل أعمالكم بما يمليه عليكم قلبكم». ثم ختم الرسالة بتحيات حارة قائلًا: «تفضلوا بقبول فائق الاحترام بعظمة فضيلتكم».

مَن بالله عليكم من الزعماء والحكام قام بترويض أعدائه المتطرفين وتبادل معهم الهوى والغرام وأرغم أشدهم فحشًا وإجرامًا على أن يرسل له رسالة رقيقة مثل هذه؟!

لماذا يسقطون في يد إسرائيل؟

قامت الأجهزة الأمنية في مصر بالقبض على شخص يعمل ضمن شبكة جاسوسية أنشأها جهاز الموساد الإسرائيلي وجعل لها فروعًا في المنطقة العربية.

كشفت التحقيقات المنشورة مع طارق عبد الرازق المواطن المصري المتهم بالجاسوسية عن نجاحه في تجنيد شخص نافذ في المخابرات السورية، وعن طريقه أمكن لإسرائيل معرفة كل شيء عما قيل إنه مفاعل نووي أقامته سوريا في دير الزور، ومن ثم تمكنت إسرائيل من قصفه وتدميره عام ٢٠٠٧.

منذ الإعلان عن كشف الجاسوس والقبض عليه نشطت وسائل الإعلام في عمل التحقيقات والاستطلاعات عن القضية وملابساتها، وقامت المحطات التليفزيونية باستضافة الكتّاب والصحفيين والمهتمين بالشأن العام، فضلًا عمن قيل إنهم خبراء في الموضوع، وخرجت علينا بتنظيرات وتحليلات تفسر وتوضح ظاهرة نجاح المخابرات الإسرائيلية في تجنيد بعض الشباب، والسهولة النسبية لوقوعهم في فخ الجاسوسية.

أرجع بعض من أفتوا في الموضوع المسألة إلى غياب الانتماء وهوان شأن الوطن على الناس.. وعزاها بعضهم الآخر إلى الضائقة الاقتصادية التي ترتب عليها سهولة الانسياق إلى إغراء المال.. وتحدث نفر منهم عن غياب المشروع العام والحلم المشترك الذي من شأنه أن يجمع الشباب ويحشد طاقاتهم لتحقيقه.

ولكن مع كل الاحترام الواجب للآراء السابقة ولمن أطلقوها فإنها في رأيي لم ترق إلى أن تفسر الأمر ولم تستطع أن تلامس السبب الحقيقي.. فمسألة غياب الانتماء هذه قد تفسر ظاهرة تكاسل الموظفين وتقاعسهم عن أداء أعمالهم، وقد توضح أيضًا لماذا تمتلئ الشوارع بالزبالة. كما أن حكاية الضائقة الاقتصادية قد تصلح سببًا لتبرير الرشوة التي أصبح يتقاضاها الجميع من الجميع، وقد تصلح سببًا لتفسير جرائم السرقة والاجتراء على المال العام.. أما غياب المشروع العام والحلم القومي فقد يكون تفسيرًا لظاهرة الهجرة والفرار من وطن ضاق بأحلام سكانه.

لكن كل هذا لا يفسر أسباب إقبال مواطن على التعاون مع إسرائيل ومدها بالمعلومات التي تطلبها عن وطنه وأهله وناسه وأجهزته ومنشآته. فما السبب الحقيقي يا ترى لحدوث مثل هذا الأمر؟

بداية يتعين توضيح أن المنحرفين والخونة كانوا موجودين طول الوقت حتى في ذروة حالة الحرب التي كانت قائمة بيننا وبين إسرائيل، ولم تخل وسائل الإعلام وقت حرب الاستنزاف مثلًا من أخبار بين الحين والآخر عن جاسوس سقط أو شبكة جاسوسية وقعت في أيدي رجال مخابراتنا.

وقتها كان الحلم المشترك والمشروع القومي الذي هو الثأر من العدو حاضرًا بمنتهى القوة، وكانت أحوال الناس الاقتصادية أفضل بمائة مرة مما هي عليه الآن!.. وكان الانتماء للوطن والرغبة في بذل الدم والشوق إلى الشهادة في أعلى مستوياتها عند كل مصري. ورغم هذا فلم يحل ذلك كله دون وجود قلة من الخونة كان دافعهم للخيانة هو خسة في الطبع ودناءة في المنبت وسمات شخصية حقيرة جعلتهم أقرب للحشرات منهم إلى البشر، وكان هؤلاء الناس يعلمون عن أنفسهم كل هذا ويفهمون أن ما يؤدونه هو الخيانة العظمى في أوضح صورها. أما الآن فإني أتصور أن من يستجيبون للغواية ليسوا على هذه الدرجة من السوء، بل أراهم أقرب إلى أن يكونوا أناسًا عاديين استجابوا لعمل رأوه يملأ الأفق وشاهدوا أناسًا أكبر منهم بكثير يفعلونه علانية من دون حساب أو معقب!

ومن يعترض على هذا الكلام عليه أن يوضح لنا: ما تأثير عمل مثل تزويد إسرائيل بالبترول والغاز المصري بأسعار تفضيلية هي أقرب إلى منحه لها بالمجان منه إلى عملية بيع وشراء طبيعية؟.. وعليه أن يوضح لنا: ما تأثير رؤية الناس لحكومتهم وهي تؤيد العدوان الإسرائيلي ضد غزة وتحرق أطفالها بالأسلحة الكيمياوية؟ وما تأثير رؤيتهم لحكامهم يدينون المقاومة اللبنانية ويسعون لإلحاق الهزيمة بها ومساندة القوى المتعاونة مع إسرائيل في الساحة اللبنانية؟ وما تأثير رؤيتهم للسياسة الخارجية لبلدهم وهي تعادي بلدًا مثل إيران لم يؤذنا أبدًا وتربطنا به وشائج الدين والمودة لمجرد أنها على خلاف مع إسرائيل؟ وما الموقف وساستنا يعترضون على البرنامج النووي السلمي لإيران ويغضون الطرف عن قنابل إسرائيل النووية؟ وبماذا

يشعر المواطن المصري وهو يرى وسائل إعلامه القومية تتهكم على تركيا وتسخر من أردوجان لمجرد أنه وقف مع المستضعفين من أهلنا في فلسطين وواجه غطرسة إسرائيل بشجاعة؟ وماذا يفعل المواطن في مصر وهو يرى نجوم البيزنس ورموز الفكر الجديد وهم يتعاملون مع إسرائيل بالبيع والشراء والكويز والمشروعات المشتركة؟ وماذا يفعلون وهم يرون أصحاب الصحف الخاصة والمحطات التليفزيونية التي تقوم بتشكيل وعيهم وهم غارقون في حب إسرائيل أكثر من حبهم لأمهاتهم وآبائهم؟!

كل الأمثلة السابقة قصدت بها أن أوضح أن الرسائل التي تصل إلى المواطن المصري عبر مواقف مسؤوليه ووسائل إعلامه الحكومية والخاصة كلها رسائل تؤكد للمواطن المصري أن إسرائيل لا يمكن أن تكون عدوًّا بأي حال من الأحوال!.. وهل لو كانت إسرائيل عدوًّا كان يمكننا أن نشارك في حصار الفلسطينيين من أجلها ونفتح معبر رفح ونغلقه تبعًا لمشيئتها؟ هل لو كانت إسرائيل تمثل دولة أعداء كنا نمنحها الغاز المصري بالمجان تقريبًا في الوقت الذي نحرم منه المواطن المصري؟ إن سلوكًا كهذا خليق بأن يلقي في روع الإنسان المصري العادي أن إسرائيل ليست فقط دولة صديقة لكنها أيضا بالتأكيد دولة شقيقة ولهذا فإننا نؤثرها على أنفسنا رغم ما بنا من خصاصة.. وإن سلوكًا كهذا يبعث برسالة واضحة مؤداها أن ما يحقق مصالح إسرائيل الأمنية هو بالنسبة لنا أمر طيب، وأن ما يحقق مصالحها الاقتصادية هو هدفنا الذي لا نحيد عنه.

ومن يتابع الصحف لدينا ويقرأ أن إسرائيل لا بد وأن يكون لها دور في اختيار رئيسنا القادم كما صرح بهذا مصطفى الفقي قبل فترة،

لا بد وأن يدرك أن العُرَى التي تربطنا بدولة بني صهيون هي عرى لا تنفصم وأننا تقريبًا كيان واحد من دون إعلان!

فكيف بعد كل هذا ندعي أننا فوجئنا بأن هناك من آمن بهذا النهج وقرر أن يمنح هو الآخر إسرائيل حبه وانتماءه ومعلوماته؟ وكيف نتظاهر بأننا نستشعر خطورة قضية الجاسوس في الوقت الذي يقوم أصحاب السلطة ببذل أقصى الجهد من أجل راحة إسرائيل وضمان أمن ورفاهية المواطن الإسرائيلي؟

هذا هو السبب يا من تريدون أن تعرفوا سبب سهولة وقوع الشباب في يد المخابرات الإسرائيلية.. هذا هو السبب الذي يلقي عبئًا كبيرًا على جهاز المخابرات المصري الذي يسهر من أجل أمن الوطن في الوقت الذي يقوم غيرهم بالسهر على أمن إسرائيل!

وعلى السادة المحللين الذين ملئوا دماغنا بتحليلاتهم الفارغة أن يقوموا بتحليل «بول»، فهذا خير لهم من مساهمتهم في حرف وعي الناس المنحرف أصلًا!

منع الحمل: منع حمل السلاح!

بعض المجرمين في حق مصر يفعلون ذلك مع سبق الإصرار والترصد. يفعلونه وهم واعون ومدركون لخطورة وتأثير كل خطوة يخطونها، لكن البعض الآخر منهم يتصور أنه وهو يحقق لنفسه ثروة فإن بعض الأثر الضار قد يقع على المجتمع، مع تصوره بأن هذا الأثر الضار يمكن في جميع الأحوال احتماله واعتباره من قبيل النيران الصديقة! النوع الأول سيكوباتي ومنحرف، والنوع الثاني مجرم على خفيف لا يبغي بوطنه شرًّا لكنه لا يقاوم الشر ولا يمانع في أن ينال نصيبًا من الكعكة على حساب الآخرين مستندًا إلى أن الله لا يساوي بين الناس في الرزق!!

المصيبة الكبيرة المترتبة على سلوك المجرمين العتاولة والمجرمين الأشبال أن أبناء هذا البلد قد فقدوا الشعور الوطني الذي يدفع المواطنين للدفاع عن الأرض ضد أي عدوان، وأصبح من يتحدث عن إسرائيل باعتبارها عدوًّا ينال من السخرية نصيبًا موفورًا.. فالأقباط على سبيل المثال أو قطاع كبير منهم لا يمانعون في أن يتقدم شارون على حصانه ويدخل القاهرة ليخلصهم من الغزاة المسلمين! والمسلمون لا يعتقدون أن شارون قد يفعل بهم أسوأ مما يعيشون

فيه، كما لا يتصورون أن كمائن شارون الليلية إذا ما احتل بلادهم قد تكون أكثر فظاعة مما يتعرضون له على أيدي الأمن المصري عندما يستوقف الآمنين في الليل أو في النهار ويهينهم بدون سبب!

وسؤالي الذي أرجو أن نمعن التفكير فيه وأرجو أن يراجعني من يرى أنني مخطئ هو: إذا وقع عدوان مسلح على أرض مصر.. هل يهب المصريون للدفاع عن الأرض؟ طبعًا من البديهي أن الجيش سوف يتصدى للعدوان فهذه وظيفته وعقيدته ودوره، لكنني أتحدث عن المواطن المدني..هل يجد لديه رغبة حقيقية في الدفاع عن الأرض بعدما أصبحت الأرض مملوكة للخالات وأولاد الخالات ولم تعد مملوكة للمصريين؟ هل يجد حافزًا حقيقيًّا يدعوه لحمل السلاح بعد أن ظلت السلطة تعطيه على مدى عقود حبوب منع الحمل بانتظام.. منع حمل السلاح! وقد اتخذت هذه الحبوب شكل كل أنواع المظالم التي تعرض لها المصري حتى كره نفسه وكره حياته وهان عليه وطنه الذي لم يعد وطنه؟!

هل يحمل السلاح دفاعًا عن أرض مدينتي التي قضى الحكم العادل بإعادتها لشعب مصر فاجتمعت السلطة في مجلس حرب جمع خبراء وجنرالات البيزنس من أجل التحايل على حكم القضاء وإعادة الأرض لقاتل المغنية؟ أو يحمل السلاح دفاعًا عن المنتجعات وملاعب الجولف وبورتو السخنة والشايطة والمحرّقة والملتهبة والتي توشك على بلوغ الأورجازم؟!

هل من الممكن أن يرسل الواحد منا أبناءه للحرب وهو يعلم أن مصر ليست طرفًا في الحدوتة وإنما الذاهبون للحرب سيكونون في

مهمة للدفاع عن ثروة عز وأراضي المغربي ومصانع رشيد وشركات منصور؟ ولو ترك الناس الأعداء يدخلون ويحتلون البلد.. هل يا ترى سيخسر الشعب شيئًا عندما يستولي الإسرائيليون على الممتلكات التي نهبها رجال الأعمال من مصانع ومزارع وأراض وشركات وبنوك وأصول عقارية ومالية كانت مملوكة لشعب مصر فاستولى عليها الانكشاريون وسجلوها في الشهر العقاري بأسمائهم.. هذا الشهر العقاري الذي أصبح رغمًا عن موظفيه الشرفاء يقوم بدور القَواد الذي يقنن الزنا؟!

ترى هل يضير شعب مصر أن يأتي محتلون جدد فيزيحوا المحتلين القُدامي ويستولوا على خير مصر؟ هل يجد أحد في نفسه رغبة في أن يموت دفاعًا عن كرسي فتحي سرور وشلتة مفيد شهاب؟ هل تبعث أولادك للموت من أجل أن يظل محمد ابراهيم سليمان بعيدًا عن يد العدالة ولتظل حظيرة الوزير الفنان مفتوحة تستقبل المزيد من المثقفين؟

هذا هو الخطر الكبير الذي أوقعوه بالبلد وأهله. لقد استولوا على كل شيء حتى لم يعد للمواطن شيء يدافع عنه ويرغب في حمايته بعد أن صار منتهى المنى هو الفرار بغير عودة من هذا المسلخ البشري ولو على ظهر مركب متهالك قد لا يصل أبدًا لأي بر!

شرفنطح

الدكتور أحمد نظيف طوله متران ومع هذا فإنه في غاية الذكاء والفطنة. وهو يحب أن يمزج في قراراته الدهاء بالكوميديا حتى يدخل السرور إلى نفوس المصريين الملتاعة.

ولست ضد الكوميديا في الأداء السياسي بأي حال، والساحة السياسية العربية والحمد لله تعج بعشرات المضحكين من كل صنف.. فمنهم من يرتدي ملابس مزركشة كالبلياتشو أثناء أداء الفقرات، ومنهم من يضحكنا وهو لابس أفندي. وقد تغيرشكل السياسيين في الآونة الأخيرة.. فبعد أن كانوا يجنحون إلى التجهم كسبيل لإثبات الجدية أدركوا أخيرًا أن الجدية لا لزوم لها مع شعب لا يهتم، فقرروا أن يسفروا عن وجوههم الحقيقية كشخصيات طريفة لطيفة تبعث البهجة وتنشر الأنس والسرور، فأخذ بعضهم يقزقز اللب والفول السوداني في مجلس الشعب، وأخذ بعضهم يلعب الأتاري على الموبايل أثناء الجلسات. ثم قرأنا منذ أيام على لسان رئيس الوزراء أنه أرسل إلى شركة مرسيدس الألمانية خطابًا يطلب فيه اسم المسؤول المصري الحرامي، شريكهم في الجريمة الذي تقاضى منهم رشوة تقدر بالملايين مقابل تمرير الصفقات التجارية معهم.

المراقبون الذين يدّعون الحكمة نظروا للموضوع من زاوية جادة فساءهم أن يقوم الدكتور نظيف بمخاطبة الشركة المتهمة بارتكاب الجريمة ويطلب منهم الاعتراف بجريمتهم والإفصاح عن اسم الشريك المصري الذي تقاضى منهم الرشوة! ويزعم هؤلاء المراقبون أن شركة مرسيدس ليست بأي حال الجهة التي كان يتعين مخاطبتها في هذا الشأن لأنها لو اعترفت على نفسها بالجريمة لوجب على السلطات المصرية مقاضاتها في مصر وفي ألمانيا مع إنهاء التعاقدات المستقبلية كافة معها. ولو اعترفت على شريكها اللص لأفزعت كل اللصوص الآخرين الذين يأخذون الرشا وهم مطمئنون إلى سياسة السرية والكتمان التي تعتمدها الشركة مع المسؤولين الحرامية!

يزعم المراقبون أيضًا أن الشركة الألمانية لم تبح بالمعلومات التي نشرتها الميديا الأمريكية إلا تحت ضغط القضاء الأمريكي الذي أرغمها على كشف المستور، ولو أراد الدكتور نظيف حقًّا معرفة اسم المرتشي لقام بتحويل الأمر إلى النائب العام لمخاطبة الجهات القضائية الأمريكية التي تنتظر هذه الخطوة لتقدم لنا ملفًّا كاملًا عن الجريمة. يزعم أيضًا المراقبون أن رسالة الدكتور نظيف لشركة مرسيدس ما هي إلا ضحك على الذقون لإلهاء الشعب وجعله ينتظر رد الشركة الألمانية متصورًا أن حكومته عملت ما عليها من أجل معرفة المرتشي ومعاقبته، في حين أن الأمر لا يعدو محاولة لشراء الوقت حتى ينسى الناس الحكاية! لكن ليسمح لي هؤلاء المراقبون الذين يزعمون الاطلاع والمعرفة أن أختلف بشدة مع هذا الطرح، وذلك لأكثر من سبب..أولًا لأن الدكتور نظيف لا يفكر أبدًا

في إلهاء الناس لأنه يعلم جيدًا أنهم وهم في قمة يقظتهم وانتباههم لا يقدرون على فعل أي شيء يضايق حكومته.. فما جدوى إلهائهم؟ وثانيًا لأن الحرامي الذي سرق سبعة ملايين جنيه هو حرامي تافه في دولة واعدة تشجع الجميع على الانحراف، وإمكانات السرقة بها تفوق الخيال. وثالثًا لأنهم لم يدركوا أن موضوع الرسالة ما هو إلا فقرة مسلية في عرض كوميدي يقدمونه للترفيه عن الشعب، وقد افتتحت به الحكومة الموسم الصيفي كما كان يفعل علي الكسار وفؤاد الجزايرلي.. وشرفنطح.

الريّس حباحة

إني أرى فلوسًا قد أينعت وحانَ قطافها

ياللا نسرق يا رجالة!

«حسني حباحة»

حباحة.. وقافلة شريان الحياة

يتفق الموقف المصري من قافلة شريان الحياة مع المعايير التي وضعها الريس حباحة اللومانجي للتعامل مع المواقف المماثلة.

عندما توجه المحقق لحباحة بالسؤال: لماذا سفحت دم الرجل وهشمت عظامه؟ فإنه رد قائلًا: يا سعادة البيه.. هو الذي استفزني.. عندما ضربته بالدماغ كان يستطيع أن يمضي لحال سبيله وينسى الأمر برمته، لكنه استفزني وأثار أعصابي عندما قال «أيْ» وأنا موتي وسمي يا باشا اللي يقول أيْ!

قال المحقق في دهشة: وهل تريد أن تضربه ثم تستكثر عليه أن يتأوه؟

قال حباحة: قلت لسعادتك أنا موتي وسمي اللي يقول أي.

تساءل المحقق مستنكرًا: وما الذي يضايقك إلى هذا الحد عندما يقول أي أحد أي؟

رد حباحة: باضرّس يا باشا.. عندما أضرب أحدًا ويقول أي فإنني أضرس وكأنك حشوت فمي بكيلو عنب حصرم شديد المرارة.. كان عليه أن يراعي ظروفي يا باشا ويأخد الروسية من سكات ولا يستفزني ويقول أي!

ومن الواضح أن موقف مصر الرسمي من قافلة شريان الحياة التي اعتزمت أن تنقل الأغذية والمعونات الطبية لشعب غزة المحاصر والتي يقودها النائب البريطاني جورج جالاوي وتضم عددًا كبيرًا من الناشطين الأوروبيين من ذوي الضمائر الحية الذين هالهم الموت البطيء الذي يتعرض له أهلنا في غزة جراء الحصار المصري الإسرائيلي لأهل القطاع.. من الواضح أن موقف مصر يشبه موقف الريس حباحة اللومانجي.. فعندما وصلت القافلة إلى ميناء العقبة الأردني قادمة من سوريا وأصبحت على بعد كيلومترات بسيطة من ميناء نويبع المصري على البحر الأحمر واقترب الناشطون الأوروبيون من تحقيق هدفهم النبيل بإيصال المساعدات التي تحملها مائتان وخمسون شاحنة محملة بالغذاء والدواء وحليب الأطفال إلى الغزاويين المنكوبين فإن الجانب المصري طلب عودة القافلة أدراجها لتدخل عن طريق ميناء العريش على البحر المتوسط!

ومن الواضح أن السيد جورج جالاوي النائب البريطاني الإنسان قد نسي في غمرة إنسانيته وتعاطفه مع شعب غزة أن لمصر خصوصية يتعين مراعاتها إذا أراد لمساعداته أن تصل لهدفها، وأنه كان يتعين عليه قبل أن يقود قافلة شريان الحياة أن يعرف أن حكومة مصر «تضرس» بشدة ممن يجلب مساعدات دوائية وغذائية عن طريق نويبع، وأن يعرف أن مصر في عهد مبارك مثل حباحة بالضبط.. موتها وسمها من يقول أيْ.. خصوصا لو كان شقيقًا!

جائزة حباحة.. في القباحة

الريس حباحة هو أسعد الناس هذه الأيام.. فعلى الرغم من كونه صاحب مدرسة لها أتباع ينتشرون في أنحاء البلاد، وعلى الرغم من أن مدرسته التي خرّجت أكابر المجرمين هي الامتداد الطبيعي لكلية الشنتوري التي تخرج منها فريد شوقي في «جعلوني مجرمًا»، فإن الرجل كان يؤرقه المستوى الضعيف والأداء المتدني للطلاب الذين لم يعودوا كما السابق يمتلكون الجسارة والثقة بالنفس والسفالة منقطعة النظير.

وكان حباحة يفكر هذا العام في إلغاء الجائزة التي يرصدها كل عام للنوابغ من رجاله في الترخص والقول الفاحش.

«جائزة حباحة في القباحة» كانت على وشك أن يتم حجبها لولا حدثان ختمت بهما ٢٠٠٩ أيامها.

تابع الريس حباحة المناقشات التي جرت في مجلس الشعب حول المساكن المخالفة في عزبة الهجانة التي تم بناؤها تحت سمع وبصر المسؤولين الحرامية الذين قبضوا من المُلاك المخالفين وتركوهم يحققون الملايين، وتابع موقف أبو العز وموقف يوسف بطرس من الموضوع، وأصابه الملل من الكلام الفارغ الذي طحنوه

في جلستهم السخيفة. لكن على غير توقع اندفعت الرياح في أشرعة الريس حباحة وتدفق الدم في شرايينه وشعر بالحماس نفسه الذي يعرفه قبل إقدامه على ارتكاب جريمة، وذلك عندما استمع إلى يوسف بطرس وهو يطلق اثنين إسكندراني بشكل مفاجئ ثم يهدد من يخالف بأنه ح يطلع دينِ اللي خلفوه!!

لم تكن سعادة حباحة تعود إلى الكلام الأبيح الذي تفوه به بطرس تحت القبة فالناس كلها تعرف ماذا يوجد تحت القبة، ولكن لأنه أحس بأن يوسف بطرس إنسان مختلف له «ستايل» وأسلوب مغاير لكل من عاشرهم حباحة وتبادل معهم السباب، وتمنى حباحة أن يجلس مع يوسف في جلسة مودة يسبان فيها الدين والملة أحدهما للآخر ويستعرضان ما لديهما من كلام بذيء. واعتزم حباحة أن يحافظ على سرية الجلسة ونوى أن يقول ليوسف في نهايتها: كل كلمة فحش حلوة قلتها لي..ستظل سرًّا بيننا. وشعر حباحة بالإثارة لأن يوسف قد يفتح آفاقًا جديدة لمدرسة حباحة وينقذها من الإفلاس الذي تعانيه. ومما شجع حباحة على أن يتقدم بطلب للقاء يوسف ما أعلنه أبو العز من أن يوسف ليس مجرد وزير فقط، لكنه كذلك «نائب شوارع» أي ينتمي للناس ويخلص لتراثهم الأبيح ويعتز بكل الأصوات التي تصدر عنهم من الفم والحنجرة.

غير أن عام ٢٠٠٩ في آخر أيامه حمل لحباحة بشارة أخرى جديدة تمثلت في نائب صرخ في زملائه متوعدًا بأن الجدار الفولاذي على الحدود سيتم بناؤه ومن يعترض «ح اطلّع دين أمه».

الآن يقف حباحة محتارًا لمن يمنح الجائزة..للوزير الأبيح أم للنائب السافل!

حباحة والوسام

«أي اعتداء على سولي سأعتبره اعتداء عليَ أنا شخصيًّا وسيتم التعامل معه بمنتهى القسوة»..

هكذا تحدث حباحة اللومانجي في جمع من البلطجية بعد أن بلغته الأنباء السيئة التي أشارت إلى أن الوزير السابق في طريقه إلى التحقيق الذي سيفضي به حتمًا إلى «الكلوب» نتيجة ارتكابه جرائم مهولة في حق المصريين.

هذه هي المرة الأولى التي يتم التلويح فيها بتقديم وزير فاسد إلى المحاكمة خصوصًا أن الجميع يعلم مدى قربه من أصحاب العزبة والرعاية التي أسبغوها عليه لدرجة تكريمه ومنحه وسامًا بينما كان شعب مصر يدعو عليه من فوق كل منبر أن يقبره الله ويضعه في الجحيم مع الأبالسة والشياطين.. تلك الرعاية التي منعت الشرطة والنيابة والقضاء من الاقتراب منه على مدى سنوات، فما الذي حدث الآن وجعل الغطاء يرفع عنه؟!

أصيب حباحة بما يشبه الهلع لأنه كان يترسم خطى زعيمه الروحي «سولي» ويراه أجدر منه بلقب «حباحة» ويحلم بأن ينال

وسامًا كالذي حصل عليه، فإذا بالأنباء تتواتر بأن الرجل سترفع عنه الحصانة وسيقدم إلى المحاكمة على ما اقترفت يداه.

«إن مصر تأكل أبناءها».. هكذا مضى حباحة في مرافعته دفاعًا عن سولي الرجل العصامي الذي بني نفسه بنفسه وكون ثروته بكده واجتهاده منذ أن خرج من حارة «كوع القرد» وليس في جيبه مليم واحد حتى أصبح وزيرًا يشار إليه بالبنان وبإصبع آخر مجاور!

كان حباحة يهذي وهو يتوسل إلى القوم: تكلموا عن أي أحد إلا حبيبي سولي.. قولوا عن يوسف بطرس، يوسف والي، يوسف وهبي.. لكن إلا سولي.. كفى تشكيكًا في الرموز.. لقد نال الرجل وسامًا من الرئيس شخصيًّا، وأنا متأكد أن هذا الوسام سيحميه من كل شانئيه وسيمنحه الحصانة اللازمة حتى لو رفعوا عنه الحصانة النيابية.

ما الذي يريده رجال الرقابة؟ هل يريدون تطفيش المستثمرين عندما يعرفون أن مصر تحاكم رجالها الحاصلين على الأوسمة؟ وإذا أحجم المستثمرون عن المجيء فمن الذي سيأخذ أموال البنوك بدون ضمانات؟ هل نتركها تتعفن في الخزائن... لقد منح سولي الأمل للناس بعد أن كادوا ييأسون من كل شيء..لقد قدم لهم نموذجًا في كيف يمكن الصعود من تحت الصفر بدون مناسبة! وكيف يمكن أن يفلت الإنسان من المساءلة والمحاسبة.. لقد كان سولي بالنسبة للناس مثل مسابقات ٠٩٠٠ فبعد أن سدت في وجوههم سبل الكسب الشريف عن طريق العمل والاجتهاد قدم لهم سولي البرهان على أن مصر تمنح كل شيء لمن يعرف من أين تؤكل الكتف والرقبة والموزة.. ولقد عرف سولي طريقه من خلال حاسة الشم فتبع أنفه

ومضى وراء الرائحة حتى وصل إلى المغارة، وهناك التقى نخبة من أروع الأصدقاء الذين وصلوا قبله، وهناك تعاهدوا وأقسموا على كتاب الموتى أن يمنحوا مصر ما لديهم من أفكار وأن ينهشوها في المقابل، وقد منحوا مصر تجربة ثرية ستظل تئن منها طوال العقود القادمة، فكيف بعد هذا يحاولون محاكمته؟.. من المؤكد أنه سيعرف كيف يتصرف ويفلت كما فعل دائمًا، وأتصور أنه في القفص سيمد يده إلى سرواله ويخرجه لهم، نعم سيخرجه لهم... الوسام طبعًا!

أجاثا كريستي.. وسولي

هناك فيلم بديع لا أمل من مشاهدته أبدًا مأخوذ عن رواية شهيرة لأجاثا كريستي عنوانها «شاهد الادعاء». قام بتمثيل الفيلم تيرون باور ومارلين ديتريتش ومعهما الممثل العظيم تشارلز لوتون في آخر أفلامه عام ١٩٥٧ . شاهدته للمرة الأولى في برنامج نادي السينما الذي أتحفتنا من خلاله درية شرف الدين بروائع الأفلام، ثم اشتريته بعد ذلك واحتفظت به في مكتبتي.

يروي الفيلم حكاية رجل ارتكب جريمة قتل لامرأة ثرية واقعة في غرامه من أجل الفوز بأموالها التي كتبتها له في الوصية. تشير كل الأدلة والقرائن والملابسات إلى أن هذا الرجل هو القاتل، وتمضي المحاكمة العادية في سكة إدانته ووضع حبل المشنقة حول رقبته.. ومما يزيد من حرج موقفه أن تتقدم زوجته في مفاجأة مدوية بالشهادة ضده وتقر أمام المحكمة بأنها شاهدته يرتكب الجريمة. هنا تأخذ المحاكمة منحى جديدًا ويتم وضع كل الأدلة والقرائن جانبًا والإمساك بشهادة الزوجة التي جعلت الحكم بإعدامه أمرًا حتميًّا. وعندما تبدأ الجلسة الأخيرة التي سيتم في نهايتها النطق بالحكم تحدث معجزة تنقذ الرجل من الموت عندما تتقدم امرأة

أخرى للشهادة مقدمة دليلًا يقينيًّا على كذب شهادة الزوجة، وتقوم المرأة المجهولة بهلهلة شهادة الزوجة وتفنيدها وبيان كذبها..تلك الشهادة التي انبنت عليها القضية من الأساس. وهنا لا يجد القاضي مفرًّا من الحكم ببراءة المتهم على ضوء شهادة المرأة التي ظهرت من العدم من أجل مهمة مصيرية هي إنقاذ المتهم. بعد ذلك تفاجئنا أجاثا كريستي بأن المرأة التي قامت بالشهادة التي أنقذت الرجل لم تكن سوى الزوجة نفسها التي استخدمت تكتيكًا شيطانيًّا فريدًا من نوعه لهدم القضية من الأساس فشهدت ضد زوجها في البداية وبهذا جعلت القضية تقوم على تلك الشهادة، ثم قامت بالتنكر كممثلة قديمة في شكل امرأة أخرى وأدت أمام المحكمة دورًا مسحت فيه شهادة الزوجة وفندتها وبهذا نجحت في إنقاذ زوجها القاتل.

ما حدث بعد ذلك من مفاجآت في نهاية الفيلم لا أهمية له الآن في الحديث الذي أهدف إليه من الحدوتة السالفة.

ما رأيكم في أن أحداث الفيلم تقريبًا تحدث أمامنا في المسلسل الذي نتابع فصوله مع سولي! في حدوتة سولي يقوم أقرب الناس إليه من الذين آووه واحتضنوه وسكتوا عن أفاعيله بتقديم شوال من الوثائق والمستندات التي تثبت تورطه في شتى أنواع الفساد مشفوعة بكبشة من التهم ضده كفيلة بتسكينه اللومان طوال ربع القرن القادم وذلك في مفارقة لا يصدقها العقل.. وهذا بالضبط ما فعلته الزوجة في الفيلم!.. وهنا يعتقد الجمهور الطيب بأن سولي قد وقع أخيرًا وأنه سوف يلقى جزاءه.. لكن العارفين بالأمور يدركون أنه من المتوقع أن يقوم جناح آخر من أصدقائه المحبين (يفعلون ما فعلته الزوجة المتنكرة) بتستيف وتدبيج وإعداد الحجج والدلائل القاطعة

التي تنسف المستندات السابقة من أساسها، وبعدها يتأكد جمهور المشاهدين من طهارة ذيله من كل ما حاول الأشرار أن يرموه به، وبهذا يخرج من الموضوع شهيدًا مرفوع الرأس موفور الإباء وقد يطالب الدنيا بالاعتذار له وربما يرفع عليها قضية ويطالب بالتعويض!

فيالعبقرية أجاثا كريستي التي ماتت منذ سنوات طوال ومع ذلك ما زالت أعمالها تلهم اللصوص وأصدقاءهم.. اللصوص!

تخليص حق

لا أدري ما لهم وما للرجل الطيب الوليد بن طلال، وما بالهم لا يتركونه في حاله وهو الذي كان يجلس لا به ولا عليه فإذا بالقوم يبلغونه بأنهم قرروا منحه مائة ألف فدان من أراضي المصريين بالمجان، ومع هذه الأرض الشاسعة مياه وفيرة للري بالمجان، ومع المياه الوفيرة كهرباء لا تنقطع بالمجان أيضًا وطرق ومواصلات وبنية أساسية وبذور وسماد وسوق لتصريف المنتجات.. كل ما على الرجل هو أن يتثاءب ويتمطى بصلبه ويردف أعجازًا دون أن ينوء بكلكلٍ ويقول لهم: لقد قبلت. وقد فعلها ووافق على أن يأخذ الأرض التي فرضوها عليه من دون أن يسعى إليها أو يطلبها ومن دون أن يخدعهم ويدعي أن له سابق خبرة في استصلاح الأراضي!

فما ذنبه إذن حتى تهاجمه الصحف كل يوم وتوجه إليه سهامها منتقدة الدلال والخفة اللتين يتعامل بهما مع الأرض التي آلت إليه من خلال مكرمة سلطانية؟ وما جريرته التي ارتكبها حتى نضع في عنقه ذنب مئات الآلاف من الشباب المصريين الذين كانوا قادرين على إحالة منطقة توشكي إلى جنة وارفة الظلال وأن يقيموا في ظلالها مجتمعات وحضارة وأن ينبتوا أزهارًا وأطفالًا ومستقبلًا بديعًا؟ ما

ذنب الرجل الطيب الوليد بن طلال الذي يبدو من جسارته الشديدة في إهمال الأرض والتقاعس عن إصلاحها أنه أخذها على مضض ولم يكن يريدها، لولا أنهم رجوه وألحفوا في الرجاء حتى شعر بالخجل من توسلاتهم فوافق على أن يأخذها حتى لا يهينهم أكثر من ذلك إذا أصر على الرفض!

لماذا لا نكون منصفين ونبتعد عن لوم الرجل ونبحث عمن أعطاه الأرض من دون رغبة منه..وزير الري قال: لست أنا، وكذلك فعل وزير الزراعة. ليس علينا إذن إلا أن ننتظر عودة وزير الصحة من السفر فلعله يكون هو من منح الرجل الأرض. وهذا يذكرني بنكتة السيدة التي عادت إلى طبيب أمراض النساء باحثة عن سروالها الذي شكّت أن تكون نسيته في عيادته، فلما أخبرها بعدم وجوده قالت: سأبحث إذن عند دكتور الأسنان!

وبرغم أن وزير الزراعة قد طمأننا بأن الوليد رغم امتلاكه للأرض فإن حنفية المياه موجودة عند الوزير ويستطيع أن يغلقها ويقطع عنه الماء في أي وقت. إلا أننا لم نعد قادرين على الضحك على نُكت من هذا النوع، لأنها تشبه نكتة سرقوا الصندوق يا محمد لكن مفتاحه معايا! ذلك أن قطع المياه هو إجراء يخيف فقط من لديه نية الزراعة واستصلاح الأرض، أما من أخذ الأرض غصبا عنه ولا يريد زراعتها فكيف تخيفه يا عم الوزير بقطع الماء عنه!

ما زلت أكرر أن الوليد بن طلال لم يفعل ما يسيء إلينا. هو يسوق الدلال في حدود ممتلكاته، ولو أراد أن أن يعطي الأرض لأصدقائه

الإسرائيليين ما كان في هذا خروج على قانون سكسونيا الذي في إطاره حصل على مائة ألف فدان من أرض مصر.

غير أن ما يثير حيرتي في الموضوع هو إدراكي أنّ لا شيء في هذا الكون بالمجان، فكل شيء له ثمن.. الغاز الذي تحصل عليه إسرائيل ونظنه ببلاش له ثمن، والأرض التي أخذها الوليد ببلاش لها ثمن.. ولا شك في أن إسرائيل تدفع هذا الثمن بصورة ما، ولا شك في أن الوليد أيضًا قد دفع هذا الثمن قبل أن يحصل على الأرض.. فما هو يا ترى الثمن الذي دفعه الوليد ودفعه لمن؟ وهل كانت الصفقة مجحفة إلى هذا الحد فترتب عليها سخط الوليد وكرهه للأرض التي يبدو أنه أخذها على غير إرادته وكانت بالنسبة له مجرد.. تخليص حق؟

جائزة لبطرس أفندي

خرجت الصحف منذ أيام على الناس بالخبر السخيف التالي: غالي يفوز بجائزة «ذا بانكر» كأفضل وزير مالية في الشرق الأوسط.

مصدر سخافة الخبر أن المجلة غير محايدة والفائز أيضًا غير محايد، والأهم أنهم لم يمنحوه الجائزة كأفضل وزير مالية في العالم وإنما في الشرق الأوسط فقط.

ومن المعروف أن الحكومات في هذه المنطقة من العالم تتبارى في الإنفاق السفيه ثم تعتصر الناس وتستخرج من لحمهم مصادر جديدة لتمويل الإنفاق السفيه من جديد.. ولعل يوسف بطرس قد فاز لأنه نجح في هذه المهمة بشكل أكثر نجاعة من أقرانه.

ومشكلتي بوصفي رجلا عاش في الغرب واعتاد قراءة مثل هذه المطبوعات أنني لم أعد تنطلي عليّ الحيل الغربية المصنوعة داخل أقبية أجهزة الاستخبارات والممثَّلة في الضحك على أبناء الجنوب بمنحهم جوائز تشبه الخرز الملون الذي كان المستعمرون يقدمونه للسكان الأفارقة بعد غزو أراضيهم مقابل الاستيلاء على الأراضي والمحصولات والمعادن.

لقد أدركت المؤسسات الغربية مدى لهفة الناس في المنطقة العربية

على الفوز بالجوائز الممهورة بأختام هيآت ومؤسسات أجنبية، فشرعوا يستخدمون هذا السلاح المجاني وسيلة للضغط والابتزاز ومكافأة الأنصار وإغراء المترددين وتليين المناوئين وتسويق أشد الأفكار تطرفًا وبعدًا عما ينفع الناس. وبهذا فقد أصبحت هذه الجوائز إحدى أدوات ووسائل العولمة التي أثبتت كفاءة كبيرة في تلبيس الناس السلطانية وتبليعهم الأطعمة الفاسدة بعد حشوها بالتوابل! ولهذا فليس من المستغرب مكافأة هذه الهيئات للأصدقاء المخلصين ولا مستغرب أيضًا ما نقرؤه كل يوم عن أن مؤسسة كذا الإنمائية قد قامت بمنح الرئيس بتنجان أو الأمير شخرمان أو الشيخ حب الرمان درجة الدكتوراه الفخرية في الاهتمام بالبيئة.. وغالبًا ما تمنح جوائز البيئة لمن يقبلون بدفن نفايات الغرب النووية في أراضيهم!!

هذا وقد فطن النصابون الذين لا يلعبون هذه اللعبة لصالح دول بذاتها وإنما لصالح أنفسهم، وأدركوا ولع الأفراد والمؤسسات في بلادنا وهوسهم بالحصول على جوائز واستعدادهم لدفع مئات الألوف بل وملايين الدولارات مقابل الحصول عليها فقاموا بتأسيس شركات وهمية لبيع الهواء وأخذوا يعقدون الصفقات مع الأفراد والهيئات والشركات في البلاد العربية، والاتفاق على تصنيع قطعة من الكريستال عليها اسم الجائزة واسم الشخص أو الهيئة الفائزة، كذلك اسم وشعار المؤسسة المانحة بشرط أن يكون اسمًا أجنبيًّا يوحي بالفخامة.. وفي احتفال مهيب يقوم النصاب بتسليم الفائز جائزته المتفق عليها أمام الكاميرات بعد أن يكون قد لهف بضعة ملايين مقابل إخراجه للفيلم العبثي، وفي الصباح تقوم الصحف بزف الخبر ومعه الصورة إلى الناس ويفرح الجميع ويعيشون في تبات ونبات.

تقاسيم

فرحة لقاك أعياد.... وليه ما بافرحشي

قالوا القمر لو زاد.... أكيد واكل محشي

«أبو عزة»

ما أحلاها عيشة الفلاح

منذ سنوات دعاني صديق من ريف مصر إلى زيارته وأصر على أن ألبي دعوته وأتغدى معه في بيته. سعدت بالدعوة ورحبت بتلبيتها وتوجهت بالسيارة إلى القرية التي تقع في زمام أحد مراكز محافظة بني سويف. كان الوقت صيفًا واللهيب يغلف الجو، وزاد عليه التراب والعواصف. لم أكن قد جربت هذا الطريق من قبل فمضيت أسأل المارة كل عدة كيلومترات وفي كل مرة أجد من يضللني ويبعث بي في اتجاه خاطئ.. أجمل ما في هؤلاء الناس الطيبين أنهم يجدون حرجًا بالغًا في قول «لا أعرف» فيصفون لك بمنتهى الدقة والحماسة الطريق الغلط!

بعد الخروج عن الطريق الرئيسي بدأت السكة تضيق وتتعرج ثم أصبحت غير مناسبة للسيارة وغير مناسبة أيضًا لقوافل الجمال إذا ما فكرت في القدوم مرة أخرى على ظهر بعير. كنت أدرك أنني قريب جدًّا من قرية صديقي لكني لم أعرف كيف الوصول إليها.. وظللت لمدة ثلاث ساعات أدور حول المكان وكل طريق أدخله أجد آخره مسدودًا أو في نهايته ممرًّا مائيًّا فكنت أعود من جديد، وكدت أفقد عقلي من كثرة من سألت من الناس.. ولم تكن التليفونات المحمولة

قد اخترعت فأتصل بصديقي ليأتي ويأخذني.. وأخيرًا قررت أن أصطحب صبيًّا معي داخل السيارة ليريني بنفسه ولا يكتفي بالوصف المضلل!

جلس الصبي إلى يميني وأخذ يحكي لي حكايات عن براعته في صيد الدبابير وكيف يربط الدبور ويقيده من قدميه بالخيط. روى لي أيضًا كيف يرشق المسمار ذا الورقة في ظهر الخنفسة ويستمتع برؤيتها تسير مطعونة فيعتقد البُلهاء أن الورقة تتحرك وحدها!

ويبدو أن الفتى، وقد لمح تبرمي من حكاياته ولم يلمس مني الحماسة المتوقعة لحواديته عن الدبور والخنفسة، قرر أن يواجهني بصراحة.

فوجئت به على حين غرة ينظر نحوي ثم يقذفني بجملة لم يسبق لي أن سمعتها من قبل.. قال لي: أنت باين عليك عبيط!

أوقفت السيارة ونظرتُ إليه مصعوقًا وقلت:أنا عبيط؟!

فأجاب بضحكة مجلجلة وهو يمسح نعله الموحل في أرضية السيارة قائلًا: عبيط وغشيم أيضًا لأنك لم تضحك على حكاية الخنفسة والورقة التي أضحكت كل من رويتها له!

توقفت بالسيارة وكان التعب قد نال مني ولم أكن قد أكلت أو شربت شيئًا طوال اليوم، وقلت للصبي الذي عرف أنني عبيط من أول نظرة: انزل يا بن الجزمة.. انزل!

ابتعدت بالسيارة وكانت الشمس تؤذن بالمغيب وقررت أن أصرف النظر عن الزيارة وأخذت في البحث عن مكان أستطيع أن

أشتري منه طعامًا وشرابًا.. ثم لمحت دكان بقال عند المفارق المؤدية للطريق الرئيسي. سألت الرجل إذا كان لديه ما يؤكل، فاقترح أن يعمل لي سندوتش بسطرمة وآخر جبنة رومي. تناولت من الثلاجة مشروبًا غازيًّا أدهشني أنه من ماركة غريبة وأدركت أنهم يعبئونه بأنفسهم في القرية! سألني الرجل إذا كنت أرغب في وضع زيتون أسود بالسندوتشين، فلما أومأت بالإيجاب بدأ الرجل يمسك الزيتونة ثم يستخدم أسنانه في فصل النواة ويضعها في السندوتش، ثم يمسك بزيتونة جديدة ويقوم بتفصيصها بفمه ويضعها جنب أختها!

كان الرجل يفعل هذا بهدوء وبثقة من يؤدي عمله لخدمة الزبون. نظرت حولي لأرى إذا كان هناك من زبائن المحل من يشاهد ما أراه فرأيتهم يتبادلون الحديث الودود مع الرجل، ولم يبد على أحد منهم أي دهشة! نظرت إلى السماء وتساءلت: ما هذا الذي يحدث لي اليوم؟! هل أنا في حلم؟.. ثم فركت عينيّ لأتأكد من حقيقة ما يحدث وسألت البقال: هل تقوم بفصل نواة الزيتون بفمك؟ فأجابني في سعادة ممزوجة بالخجل: خدمة سبيشيال يا باشا! نظرت للزبائن وقلت لهم: يا جماعة إنه يفصص الزيتون بفمه ثم يضعه لي في السندوتش.

هنا انبرت لي امرأة ممتلئة وقالت في حدة: مالك يا أستاذ؟! ما حكايتك؟ ما المشكلة فيما يفعله؟ هل فمه نجس مثل فم الكلب، أو ماذا؟

خرجت من الدكان وأنا ذاهل.. وسرعان ما تحول الذهول إلى نوبة ضحك هستيري وأنا أشق طريقي عائدًا إلى القاهرة.. صحيح.. ما المشكلة؟!.. هل فم الرجل نجس حتى أغضب كل هذا الغضب؟

قد يهونُ العمرُ إلا ساعةً

قال أحمد شوقي أمير الشعراء في قصيدة «جبل التوباد» يصف ملاعب الصبا التي تفتحت فيها مسام الحب في قلب قيس لمعشوقته ليلي:

جبل التوباد حياك الحيا وسقى الله صبانا ورعـا
فيك ناغينا الهوى في مهده ورضعناه فكنت المرضعا
هـذه الـربـوة كانت ملعبًا لشبابينا وكـانـت مرتعا
مـا لأحـجـارك صمًّا كلما هاج بي الشوق أبت أن تسمعا
قد يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا

كلما مررت بهذه القصيدة أو سمعتها مغناة بصوت محمد عبد الوهاب توقفت عند مقطع: «قد يهون العمر إلا ساعة» وأخذني التفكير في ماهية تلك الساعة التي تهون كل ساعات العمر وهي أبدًا لا تهون.. هي وحدها العزيزة الغالية.. هل هي ساعة لقاء الحبيب؟ أظن أن قيسًا كان يعني ذلك.

ومع إدراكي لغلاوة ساعة لقاء الأحبة فإنني عشت عمري كله وأنا أستيقظ من النوم كل صباح على صوت جرس المنبه على الطاولة

الملاصقة للسرير وهو يعوي في أذني بكل غباوة مذكرًا إياي بأن أوان النوم اللذيذ قد انقضى وأن ساعة الاستيقاظ قد حانت. من مزايا هذا المنبه أنه يظل يرسل أجراسه لمدة نصف دقيقة متصلة ثم يخرس، وبعد عشر دقائق يعاود الصراخ لمدة نصف دقيقة أخرى ثم يخمد صوته.. ويظل يعمل هكذا على مدى ساعة كاملة يعاود فيها التنبيه كل عشر دقائق.. بعدها يكون قد وصل إلى محطته الأخيرة وقدَّم أقصى ما لديه، ثم يدخل في غيبوبة ويصمت حتى صباح اليوم التالي.

عندما يرن جرس المنبه للمرة الأولى فإنني أتحرك في الفراش متململا وأنا أسمعه يعلن أن الساعة الآن السابعة..أقول لنفسي: حسنًا سأنام خمس دقائق أخرى أو قل عشر دقائق، وعندما يرن مرة أخرى سأقوم على الفور!.. عجيب أمر ابن آدم.. أمامه الليل بطوله لينام لكنه يتعلق بعشر دقائق في الصباح وكأنها هي التي ستحييه.بعدها يدق الجرس معلنًا انقضاء الدقائق العشر وأن الساعة قد أصبحت السابعة وعشر دقائق.. ما هذا؟ لا بد أن الزمن يتواطأ مع المنبه.. إن خمس ثوان فقط هي التي انقضت منذ سمعت الجرس الأول. ما العمل؟ هل أستسلم وأقوم؟ نعم سأقوم ولكن لا بأس لو نعمت بدقائق أخرى أكون فيها قد فردت جسمي وأعددت نفسي للانتقال من حالة الرقود والاستغراق في النوم إلى حالة اليقظة.

ولكن سرعان ما تمر الدقائق العشر الأخرى في ثانيتين وينطلق المنبه غاضبًا وكأنه يؤنبني على التكاسل ويعلن أن الساعة الآن السابعة والعشرون دقيقة. يا ألله.. ماذا أفعل؟.. إن الدقائق التي اقتنصتها لم تفلح في طرد النعاس من أجفاني ولم تجهزني لأقوم نشيطًا مستبشرًا. لكن ماذا سيحدث للكون لو مددت الوقت المستقطع لعشر دقائق

إضافية تكون خلايا المخ فيها قد تنبهت وأرسلت إشارات للجسد المتعب أن يكف عن التلكؤ ويبدأ في التصرف على نحو محترم. العجيب أنني في هذا الوقت أسمع صوت الشخير وكأنه صادر عن شخص آخر وأتعجب من هذا الكائن البخاري الذي يصدر هذا الصوت المزعج! ثم يشق المشهد صوت المنبه: الساعة الآن السابعة والنصف.

في هذه اللحظة عادة تبدأ الأسئلة الفلسفية في الدوران مثل: ما جدوى العمل والكدح؟ كم من عام وأنا على هذه الحال، فماذا حققت؟ وإذا كنت قد جنيت مالًا فلماذا لا أكف عن اللهاث وأستريح؟ أم ترى أنه الإحساس بالواجب نحو الوطن والآخرين؟ لكن أتراني حققت شيئًا مما حلمت به للوطن وأهله.. إنّ هذا الوطن يتعين عليه أن يترفق بي وأن يصبر عليّ وينتظرني لعشر دقائق جديدة، وهذا أقل ما يدين به الوطن لرجل مثلي! ولكن يا إلهي ما هذا الذي يحدث؟!.. لقد انعدمت البركة حتى في الزمن ولم يعد فضفاضًا كما كان أيام زمان.. ولكن لماذا ستظل بركة الزمن على حالها؟ ألم يتغير المناخ ويصبح بهذا الشكل المريع.. لقد كنا فيما مضى ننعم بالفصول الأربعة واضحة قاطعة، أما الآن فليس سوى صيف طويل خانق لعشرة شهور ثم شتاء خجول مخنث في ديسمبر ويناير فقط.

الساعة الآن السابعة وأربعون دقيقة. أنظر للمنبه في حقد فيعلو صوته وكأنه يبادلني كراهية بكراهية، ثم أقلب نفسي على السرير وأدفن وجهي في الفراش فاردًا ذراعيّ في وضع الطائرة الجامبو مستعدًّا للتحليق والاندفاع نحو الحمام ثم أنظر للنعل بجوار السرير وأحس أنه شامت فأستمهله مؤكدًا أنني لن أتأخر عليه.. عشر دقائق

فقط أيها الشبشب اللطيف وستجدني أنتعلك مثل الباشا وأمضي بك للحمام.

الساعة الآن السابعة وخمسون دقيقة. لا لا لا.. لا يمكن أن تكون الحياة بكل هذه القسوة..سأقوم الآن لكن لغرض واحد فقط..سأقدم استقالتي وسأعود لأنام ملء جفوني وسوف أثبت للجهلاء الذين يشكون من الفراغ والملل بعد التقاعد أن التقاعد هو أجمل نعمة أنعم الله بها على عباده الصالحين.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون!

قد يهـون العمـر إلا ساعـة   وتهون الأرض إلا موضعًا

هذه هي الساعة التي تعد أغلى من العمر كله..بين السابعة والثامنة كل صباح.

أما ساعة الموْكوس «قيس» فلا أقلل من أهميتها، لكنها لا تعدل الساعة التي حدثتكم عنها.

وبالنسبة للموضع الذي لا يهون من الأرض.. فلنؤجل الحديث عنه لمرة أخرى.

أمنية لم تتحقق

حضرت في حياتي اجتماعات ولقاءات ومؤتمرات وورش عمل وجلسات عصف ذهني وأشياء كثيرة تندرج تحت هذه المسميات، وكلها من تجليات العولمة الهادفة إلى نشر الأنس والسرور من دون أن يكون لها بالضرورة فائدة، أو يرجى من ورائها خير. وفي العادة فإن هذه الاجتماعات تعقد بالفنادق الفاخرة داخل قاعات كبيرة ويتم تنظيمها في العواصم والمدن الكبرى بالعالم.

في هذه الاجتماعات يتحلق الحضور حول طاولة كبيرة قد رصت فوقها زجاجات الماء والأوراق والدفاتر والأقلام، وعادة ما تكون بالقاعة مائدة خلفية عليها الشاي والقهوة وغلاية الماء إلى جانب المأكولات الخفيفة.

دائمًا ما كنت أسرح أثناء هذه الاجتماعات وأطلق العنان لأفكاري ويأخذني الخيال شرقًا وغربًا.. وأحيانًا كنت أسحب ورقة وأقوم بكتابة قصة قصيرة أو أبيات من الشعر بينما الجلسة على أشدها والحضور يلوكون كلامًا يبدو كأنه مهم ويأخذون في الانتقال بين بنود أجندة الاجتماع من بند إلى آخر. ولكن أغرب ما كان يحدث لي أثناء هذه الاجتماعات هي حالة النعاس التي كانت تنتابني والرغبة

الشديدة في النوم وكأنني وقعت تحت تأثير مخدر. في هذه اللحظات كنت مستعدًّا دائمًا للتنازل عن بدل السفر وأن أدفع فوقه كل ما أملك مقابل أن يتركوني أنام. حقيقة لا أدري لماذا في هذه الاجتماعات بالذات كانت هذه الرغبة الحارقة في النوم تأتيني وذلك على الرغم من أنني في الظروف العادية قد أظل بالسرير لساعات قبل أن يتعطف النوم ويزورني.. هل يا ترى هي الأحاديث المتكلفة الخالية من المعنى هي التي تدفعني للهرب واللجوء للنوم؟ لا أدري، ولكني أدري أن أجمل الأمنيات التي كانت تطوف بخيالي وقتها هي أن أصعد على طاولة الاجتماعات وأزيح الأوراق والميكروفونات وزجاجات الماء وأن أفرد نفسي على الطاولة وأتوسد ذراعيّ ثم أنظر إلى الحضور وأوزع عليهم ما تيسر من الابتسامات ثم أتركهم وأروح في النوم غير عابئ بأي شيء في الوجود.

كانت هذه الفكرة قوية وضاغطة لدرجة أنني كنت أحيانًا أسأل نفسي بجدية: ما الذي يمكن أن يحدث لو أنني نفذت هذه الرغبة في الحقيقة؟ هل يعتبرونني مجنونًا ويحرمونني من الحضور مرة أخرى؟ وهل تكون ردة فعلهم مختلفة لو أنني نفذت فكرتي بعد أن أستأذنهم وأناشد فيهم الأخوة والزمالة وأترجاهم بكل الصدق أن يقبلوا أن أصعد إلى الطاولة وأنام، وأن يعتبروني غير موجود ويكملوا موضوعاتهم المهمة مع وعد بأن أمنح كل ما يتوصلون إليه في الاجتماع موافقتي وبركاتي! وكثيرًا ما تساءلت في إحباط إذا كانت ظروف الحياة ستسمح لي يومًا بأن أركل التعقل وأن أحقق هذه الأمنية؟ من المؤكد أنني يومها سأتوج نفسي ملكًا استطاع أن يستغني عن هؤلاء الناس واستطاع ألا يحفل برأيهم فيه. لكني عند هذه النقطة

كنت أخاف لو أن فعلتي هذه أشعرتهم بالإهانة فمن السهل عندئذ أن يطلبوا لي مستشفى المجانين وأن يشهدوا جميعًا ضدي! وهنا كنت أحتار: ترى هل أنا وحدي الذي يتمنى هذه الأمنية أم أنهم جميعًا يرغبون في اعتلاء الطاولة والنوم، أم أن كلًّا منهم لديه أحلامه وأمنياته الخاصة التي تتفجر في رأسه أثناء الاجتماع؟

على أي الأحوال فإن الرئيس الفرنسي السابق جيسكار ديستان كتب في مذكراته أنه بينما كان يرأس اجتماعات مجلس الوزراء التي كانت تضم أركان الدولة كانت تنتابه هواجس ورغبات جنسية ويشعر باهتياج شديد أثناء مناقشة أمور إستراتيجية في غاية الأهمية.

ترى هل هناك ممن كانوا يحضرون معي هذه الاجتماعات من كان يشبه الرئيس الفرنسي؟ وهل هذه الأفكار المجنونة خاصة بالرجال فقط أو أن النساء أيضًا لهن فيها نصيب؟ أسئلة أتمنى لو حظيت بإجابات عنها.

ونفسٍ وما سوّاها

أثناء الدراسة الجامعية كان لنا أستاذ يدرّسنا الشعر والتذوق الأدبي، وكان المدرج في محاضرته يمتلئ عن آخره حيث امتلك الرجل أدوات المحاضر المتمكن، وكانت له موهبة ملحوظة في التدريس وتأليف قلوب الطلبة من حوله. لم أكن أختلف عن غيري من حيث حبي لهذا الأستاذ وشغفي بحضور دروسه والاستماع إليه.

ذات محاضرة كان يتحدث إلينا عن أغراض الشعر العربي القديم، وعندما وصل إلى الحديث عن الرثاء أنشد لنا نماذج مؤثرة من الأشعار التي تعد من عيون الشعر العربي، ثم أخبرنا بأن الشاعر العربي القديم رثى أمه وأباه وأخته وأخاه وابنه وابنته.. لكنه لم يسمح لنفسه أبدًا أن يرثي زوجته! وأضاف أن العربي كان إذا ماتت زوجته أحل أخرى محلها على الفور قائلًا: بدّلتُ فرشي. سأله أحد الطلاب: هل هذا معقول؟!.. أليس هناك من الشعراء العرب الجاحدين من رثى زوجة كان يحبها؟ نفي الأستاذ الأمر نفيًا قاطعًا وقال إنه يتحدى أن يعثر أحدنا على شيء من هذا!

كنت أعرف بسبب اهتمامي بالشعر أن رثاء الزوجات ليس أمرًا متكررًا عند الشاعر العربي القديم، لكني كنت أعرف أيضًا أن النفي

القاطع الذي جزم به الأستاذ غير صحيح.. فرفعت يدي مستأذنا في الكلام، فلما أذن لي الأستاذ قلت: إن هناك قصيدة رائعة قرأتها للشاعر جرير رثى فيها زوجته بأبيات من أنقى وأرق ما قيل في الرثاء. وهنا تحول وجه الأستاذ إلى اللون الأحمر وبدا عليه أنه تفاجأ ثم سألني في تهكم: هل تريد أن تقول إنك تعرف أكثر مني في هذا الأمر؟!

أدهشني الرد من الأستاذ ألذي أحبه وأحترمه وأشعرني بالارتباك، لكن غُدّة التحدي التي تفرز في مثل هذه الأحوال ساعدتني على أن أقول له: عفوًا أستاذي أنا لا أطاولك في هذا الأمر وبالرغم من هذا فإن الشاعر جرير قد قال في رثاء زوجته:

لولا الحياء لهاجني استعبارُ

ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولّهت قلبي إذ علتني كبرةٌ

وذوو التمائم من بنيك صغار

صلى الملائكة الذين تُخيروا

والطيبون عليك والأبرار

لا يلبث القرناءُ أن يتفرقوا

ليل يكر عليهمُ ونهار.

ما كدت أنتهي من أبيات جرير حتى صاح الأستاذ وهو يرمي شرره تجاهي: طيب يا فالح.. اقعد. ثم أنهى المحاضرة في عصبية وانصرف!

لم أفهم سر غضبه وعصبيته فأنا لم أغلط في شيء.. هو الذي أخذته العزة بالإثم مع أنه لا يقلل من قدره خفاء هذا الأمر التافه عنه.. لكنها النفس البشرية العجيبة!

وقتها لم أكن قد قرأت بعد عن العلامة الأستاذ محمود شاكر وقصة خلافه الشهير مع الدكتور طه حسين عندما كان يدرس على يديه، وكانت له وقفة مع الدكتور طه حيث كشف المواضع التي اقتبسها طه حسين من بعض المستشرقين ووضعها في كتاب الشعر الجاهلي منسوبة لنفسه! وعندها كان رد الدكتور طه لا يختلف عن رد أستاذي الذي يعلم الله أنني لم أقصد إحراجه أبدًا.. على العكس كنت أظنه سيفرح بي ويقربني منه. لم يحتمل محمود شاكر الموقف فترك الجامعة إلى الأبد وهاجر إلى الحجاز لسنوات طويلة. أما أنا فلم أهاجر للحجاز لكني هاجرت إلى داخل نفسي بعد أن أصبت بشرخ لم تفلح الأيام في رأبه!

أرز بالكاري

كان لنا في الأزمنة الغابرة صديق أتى من الريف ليلتحق بالجامعة في القاهرة، وكان هذا الصديق لا يخفي إعجابه بكل مايراه في «مصر»، وكثيرًا ما سمعناه يردد ندمه على السنوات التي ضاعت من عمره بعيدًا عن أم الدنيا ويعاهد نفسه على أن يكون ذات يوم من علية القوم ومن رجال الحكم، وذلك عن طريق الاجتهاد في المذاكرة (كان هذا أيام كان التعليم يرفع المجتهدين من طبقة لأخرى). ونظرًا لاغترابه فقد كنا نحن القاهريين ندعوه ليأكل معنا في بيوتنا طبيخًا مما تصنعه الأمهات. وذات مرة كنا نتغدى عند صديق لنا في المنيل وكان صاحبنا الريفي بصحبتنا عندما وجدناه يتأوه من حلاوة طبق أرز كان مشتبكًا معه بكليّـته لدرجة أنه كان يناجيه ويتحدث إليه بشوق. وماكاد يفرغ من الطبق حتى سألني عن ماهية هذا النوع من الأرز، فقلت له إن هذا الطبق الذي لحس عقله هو أرز بالكاري وإن الحاجة أم مجدي صديقنا متخصصة في هذا الطبق منذ أجيال وقد ورثت الصنعة عن والدتها التي كانت سليلة المعايرجي باشا، وقد أتى بها أجدادها الأوائل من إسطنبول على زمن سليم الأول.

تدخل أحد الأصدقاء وقال لصاحبنا: لا تصدقه إنه يلعب بخيالك،

فهذا الذي أكلناه هو طبق أرز بالزعفران، وقد اكتسبت هذه العائلة صناعته من انتسابها للزعفراني باشا صاحب قصر الزعفران الشهير والذي يقع بجامعة عين شمس، وإن الحاجة أم مجدي تعود إلى أسرة مملوكية عاشت على زمن ظاهر شاه وانتقلت من بلاد فارس مع تجار العبيد حيث استقرت بمصر أيام كان الريس بلطاي يصول ويجول في البلاد.

تدخل صديق ثالث وعقب قائلًا: أنتما الاثنان مخطئان.. وطبق الأرز هذا ذو أصول هندية لكنه ليس أرزًا بالزعفران كما زعم هذا الجاهل وإنما هو أرز بالكاري كما قال ذاك الغرير، لكن موطنه الأصلي الهند وليس إسطنبول.. وبالتالي فحكاية المعايرجي باشا وسليم الأول لا أساس لها من الصحة.. كما أن حكاية بلطاي لم تثبت تاريخيًّا.

قلت: إذا كان ذلك كذلك فمن الممكن أن يكون هذا الطبق قد خرج من بيت طاغور الشاعر العظيم على شكل برياني أو على الأقل هذا هو أرز المهاتما الشهير المعروف في بنجالور!

سرح الفتى مع الخيال وأحسسنا أنه يستدعي أزمانًا ملكية كانت فيها الموائد عامرة بما لذ وطاب، فلم نتردد في إضافة التوابل لهذا الخيال فحدثته عن طبق الشركسية بالدجاج الذي تخصصت فيه والدتي، وحدثه آخر عن كشك ألمظ المشهورة به عائلته، وثالث عن طبق الشاتوبريان الذي أخذوه عن جارتهم الفرنسية. كل هذا والمسكين يصدق كل ما يسمع ولا يدري أن ما أكله لا يعدو كونه طبق أرز عادي عليه بعض العدس الأصفر ولم يخطر بباله أننا فقراء مثله..

صحيح لا نعرف البتّاو والجعضيض اللذين كانا يطاردانه في أحلامه لكننا كنا من أكلة الفول والكشري والبصارة في أحسن الأحوال.

مرت السنون وتحققت أحلام صديقنا الريفي وصار من علية القوم ومن مخططي السياسات بالحزب الوطني.. ولم أعد أراه إلا ممتشقًا سيجارًا فخمًا من ماركة كوهيبة.. وكلما رأيته اقتربت منه وهمست في أذنه بأنني سأكتب عنه بالاسم وسأحكي للقراء عن قصة الأرز بالكاري الذي أطار عقله وجعله على استعداد لأن يعمل عجين الفلاحة حتى لا يغادر مائدته إلى الأبد فكان يضحك مبديًا الاستهانة!

عندما قرأت ما قاله الدكتور علي الدين هلال أمام الشباب بالإسكندرية عن أن من يسأل عن المستقبل السياسي لمصر ويتطلع لمعرفة رئيسها القادم هو قليل الأدب أدركت أن الحزب الوطني بريء من كل ما نرميه به وأن الحق كل الحق على طبق الرز بالكاري!

يا واخد القرد

عشت دائمًا أسمع وأقرأ قصائد وملاحم تتغزل في الأمثال الشعبية وروعتها وتحكي عن الحكمة المقطرة الكامنة وراء كل مثل مما تركه لنا أجدادنا الحكماء الذين خبروا الحياة وعركوها ثم تركوا لنا ميراثًا سمعيًّا من الأمثال مستودع الحكمة والتي هي بمثابة مصابيح تنير لنا الطريق.

غير أنني كلما أمعنت النظر في أغلب الأمثال التي تتردد بين العامة وجدت العجب العجاب حتى إنني وصلت إلى نتيجة مخالفة تمامًا لما هو شائع.. فأولًا الصياغة اللفظية لمعظم الأمثال تدل على ثقافة شعبية رثة أدت إلى ركاكة في التركيب. ولا أقصد بهذا أنني كنت أتوقع ثقافة العلماء والأدباء في الإنسان الشعبي الذي صاغ المثل وعدّله وقلبه من جيل لجيل حتى وصل إلينا في صورته الراهنة، لكني أقصد أن الشخص يمكن أن يكون بسيطًا وعميقًا في نفس الوقت.. ناهيك عن أن أغلب ما تركه لنا الأجداد هو أمثال منحطة تخاصم الشهامة والكبرياء وتعلي من قيم النفاق والخنوع وتقبيل أحذية الأقوياء مثل المثل الشهير: اللي يتجوز أمي أقول له يا عمي أو: لو وجدت القوم يعبدون العجل حش وادي له.

صحيح هي أمثال تتسم بالواقعية وتساعد المقهورين من قبل المستعمر الأجنبي ورجاله المحليين على البقاء على قيد الحياة من خلال التحور والتلون مثل الحرباء التي تستجيب للظروف الطبيعية وتتلون تبعًا لها. لكن أمثلة أخرى لا صلة لها بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم وإنما تتصل بالعلاقات الاجتماعية بين الأفراد لم تخل أيضًا من نفس الآفات والعلل، ومنها هذا المثل الذي يضحكني بشدة كلما سمعته والقائل: يا واخد القرد على ماله..يروح المال ويفضل القرد على حاله!

المثل هنا يحذر من يضحي بالجمال وهو يختار شريك حياته ويقبل أن يتزوج بشخص قبيح مقابل الثراء الذي ينتظره.. يحذره من أن المال الذي أغواه سوف يفنى حتمًا ثم لا يتبقى له سوى القرد. وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا المثل فضلًا عما يدعيه من حكمة يغترف من نبع الأخلاق الكريمة التي تعلي من قيمة الحب والمودة في العلاقة الزوجية، لكن الحقيقة أنه لا يحفل إطلاقًا بمثل هذه الأشياء، وكل الذي يشغل سيدنا الحكيم صاحب المثل هو أن الحسبة على الأغلب خاسرة لأن المال سيفنى وسيأخذ الأخ صابونة نابلسي في النهاية!

ومن الواضح أن من يرددون المثل وهم يظنون أنفسهم يحسنون قولًا لم يدر ببالهم أن من يعتبرونه قردًا ويجلسون للتآمر عليه.. بعضهم ينصح بنبذه والابتعاد عنه وبعضهم يسعى لنهب ماله.. هو إنسان في المقام الأول له مشاعر وأحاسيس يتعين احترامها، وهو بالتأكيد لم يسع للزواج بالأكثر وسامة وجمالًا إذ قد يكفيه إنسان يكافئه في الملامح يسعد معه في زيجة متعادلة ليس فيها غالب

ومغلوب، وهو لا يدري وهو يجلس في حاله أن القوم اتخذوه هدفًا لأفكارهم وتنازعهم الشرير! فضلًا عن شيء مهم غاب عن الأوباش الحكماء هو أن مال القرد قد يخيّب ظنهم ويحقق المفاجأة فيزيد ويربو، وأن ثروته قد تتضاعف، وأن فناء المال ليس قدرًا محتومًا، بل ليس هناك ما يدعو لحدوثه من الأساس إذا ما أحسن القرد إدارة أعماله ومشروعاته وسهر عليها بجد واجتهاد.. فماذا يكون الموقف وقتها؟..

هل يقر الضمير الجمعي الذي رحب بالمثل وتسافل على شخص بريء، كما أظهر الشماتة في المغفل الذي حتمًا سيأخذ بمبة.. هل يقر بخطئه لأنه أساء تقدير إمكانات القرد الإدارية والتنظيمية؟ وهل يعتذر ويدعو صاحبنا إلى البقاء معه واتخاذه زوجًا حقيقيًّا ما دام ماله ما زال موجودًا، ومن ثم العمل على إسعاده وإحاطته بالرعاية والاهتمام بما يضمن اغتراف أكبر قدر من فلوسه التي لا تنفد.. ثم يدعو الآخرين إلى احتذاء موقفه والبحث عن قرد ناصح لكل منهم ممن لا يفنى ماله ولا تضيع ثروته!

صحيح.. أمثال غبية فضلًا عن كونها واطية!

رجل أسطوري!

شخصية لها العجب.. هو واحد من تلك الكائنات الفريدة التي لا تجد بسهولة من يشبهها.

لديه قدرات شخصية خارقة في التعرف على البشر والولوج إلى داخلهم وإقامة علاقات معهم سواء أرادوا هذا أم لم يريدوا. هو لا يحمل أي شهادات وإنما تخرج من أكاديمية الشارع التي علمته ما يجهله أصحاب الدكتوراه.

تعرفت عليه في المهجر حيث كان من أوتاد الجالية العربية هناك. ولم لا وهو قد هاجر منذ عام ١٩٦٤ واستقر هناك وعمل بكل ما يخطر على البال.

قال لي: في البداية فتحت مطعما للفول والطعمية، كان أول مشروع لي منذ أربعين سنة، لكني تركته لأتجه للعمل الإعلامي!!

ليس في الأمر ما يدهش.. في السنوات التي قضيتها بالمهجر عرفت أن أي شخص يمكنه عمل صحيفة عربية فالأمر هناك بسيط ويخلو من أي تعقيدات إدارية أو أمنية. كل المطلوب هو جمع الأخبار

والتحقيقات والمقالات من الصحف والمجلات العربية الصادرة في نفس الأسبوع والاختيار من بينها لصنع عدد من الصحيفة!

وبالطبع ليس الغرض من الصحيفة تقديم خدمة إعلامية أو وصل المهاجِر بأخبار وطنه أو أي لغو من هذا، وإنما الأساس هو الإعلانات التي يتم جمعها ونشرها بالجريدة وهي الغرض الأساسي من المشروع. وفي الحقيقة قد كانت تلك الإعلانات هي السبب الوحيد لإمساكي بمثل هذه الصحف حيث كنت أجد بها عناوين وتليفونات المقاهي والمطاعم العربية ومحلات البقالة والجزارة الحلال. ولا يخلو الأمر من طرافة حيث كنت أقابل أحيانًا بعضًا من مندوبي الإعلانات وعلى رأسهم بالطبع صاحب الجريدة وكانوا يحدثونني عن الجهد والمال الذي يتجشمونه في مهنة البحث عن المتاعب من أجل الحصول على الخبر الجديد واقتناص الصورة الطازجة والتحقيق المفيد.. ولعلهم كانوا يظنونني ساذجًا لا أعرف أنهم يقصقصون أخبار الأسبوع الفائت ويلصقونها كما هي ويظنون ما يفعلونه صحافة!

ولكني للحق كنت شاهدًا على ما كانوا يقاسونه فعلًا من أجل تحصيل ثمن الإعلانات من القهاوي والصيدليات والمطاعم حيث كانوا يقدمون خدماتهم الصحفية بالأجل!

المهم أن صاحبنا هذا سلك هذا السبيل لكنه تميز عن سواه من أصحاب الصحف بأنه أنشأ أكثر من صحيفة..واحدة خصصها من أجل زعيم بلاده في وطنه القديم وقام بوضع صورته على صدر كل عدد من المطبوعة الهزيلة، ثم صار يرسلها ومعها مقالات تمجد في

الزعيم كتبها له لاجئ سياسي عثر عليه واستخدمه في الكتابة..صار يرسلها إلى الوطن الأم وفتح قنوات اتصال مع وزارات الخارجية والداخلية والإعلام والسياحة وطلب منهم اعتماده رجلهم في المهجر فاعتمدوه وهم يظنونه صيدًا ثمينًا قد جندوه للعمل في خدمتهم ولم يعلموا أنه كان يقع على الأرض من الضحك وهو يحكي لي عن خيبتهم!

ليس هذا فقط، لكنه قام بدور حمامة السلام التي تنشر التفاهم والمحبة بين المسلمين والمسيحيين وبهذا ضمن جُعلًا شهريًّا من المؤسسات الدينية على الجانبين وقد ظن كل منهما أنه موالٍ لهم!

لكن أشهر نوادره كانت في العمل التليفزيوني.. كيف؟... كانت دولة المهجر المكونة من أناس أتوا من كل أنحاء العالم تقدم خدمة للجاليات المهاجِرة تتمثل في منحهم ساعة تليفزيونية مجانية أسبوعيًّا لأبناء كل جالية في تليفزيون المقاطعة.. أي تقدم ساعة للروس وأخرى للبولنديين وثالثة للصينيين ورابعة للعرب. وهنا جاءت فطنة هذا الرجل العجيب، فقد تقدم واستحوذ على الساعة المقدمة باللغة العربية وقام بكل مهارة باستقدام أحد المسلسلات العربية وعرض جزء صغير في كل حلقة، بالإضافة إلى شيء من الغناء، أما باقي الوقت فقد استغله في الحصول على إعلانات من المطاعم والفنادق والمقاهي وشركات الطيران العربية على الرغم من أن البرنامج هو خدمة مجانية تقدمها الدولة!

ليس هذا فقط وإنما نزل الرجل إلى وطنه القديم واجتمع بالمسؤولين حيث شرح لهم أن حبه لوطنه يكلفه كثيرا، وآخر آيات

هذا الحب المحطة التليفزيونية التي اشتراها في المهجر!... تلك التي كلفه إنشاؤها ملايين الدولارات. وشكا لهم من أنه لن يستطيع الاستمرار في مهمته القومية ما لم يدعموه ويشاركوه الأعباء.. وطبعًا لم ينس أن يقدم لهم شرائط تحوي الفقرات التي يقدمها في محطته المزعومة! وقد لقي الدعم الذي أراده وأكثر.

الغريب أن هذا الرجل الذي كان له أعداء كثيرون في المهجر نفسوا عليه قدراته الخارقة وصلاته الواسعة، وتحقيقه لأي فكرة تخطر بباله.. الغريب أنني أحببت هذا الرجل ورأيته شخصية درامية يمكن أن أكتب عنها رواية، وسعدت بالساعات التي كنا نجلس فيها معًا يروي لي فيها كل شيء بدون تحفظ.

وعلى الرغم من سعة نشاط الرجل وكثرة أعماله من صحافة لإذاعة وتليفزيون وسياحة فإن شيئًا واحدًا ما زال يزلزلني من الضحك كلما تذكرته، وأعتقد أن أحدًا في هذا الكون لم يسبقه إليه.

كان يضع بإحدى الصحف التي يصدرها أكبر قدر ممكن من الإعلانات. إلى هنا والأمر عادي، ولكن غير العادي وغير الطبيعي هو أنه كان يطبع من الصحيفة على قدر عدد المعلنين فقط.. بمعنى أنه بعد أن يرسل نسختين من العدد لكل معلن لا يتبقى بعد هذا أعداد يقرؤها الجمهور المستهدف بالإعلان!

حقًّا إنه رجل أسطوري!

الحكومة يا صلاح

كثر الحديث الساخر والرسوم الكاريكاتورية في الصحف المصرية خلال الأسابيع الأخيرة عن أزمة جديدة أضيفت إلى الأزمات التي يعاني منها الناس وهي أزمة نقص الحشيش في الأسواق وارتفاع أسعاره إلى مستويات غير مسبوقة!

وبعيدًا عن السخرية أعتقد - كما قال أحد الحكماء - أن أي مجتمع في الدنيا يحتاج إلى قدر من التنفيس، والناس في كل زمان ومكان توجد بينهم شريحة تتعاطى المخدرات، وهذه الشريحة ليست ثابتة ولكن يدخل إليها كل يوم أعضاء جدد ويخرج منها أفراد جرّبوا ولم يقتنعوا. وقد رأيت بنفسي كيف يباع الحشيش في هولندا تحت مظلة القانون، كما رأيت تجار الصنف يمرحون في شارع سانت كاترين بمونتريال وفي مانهاتن بنيويورك، والتقيت كذلك من يبيع الهيروين في السالمية بالكويت.

في أوائل الثمانينيات كانت تلمع في سماء القاهرة أسماء مدوية كالطبل مثل كُتكت وأم عنتر ومصطفي مرزوق وهم تجار مخدرات أصدقاء للشعب بضاعتهم جيدة وأسعارهم معقولة. كنت أسمع عنهم من بعض أصدقائي وأندهش من فكرة أن يشتري الناس الحشيش

من الباطنية والجيارة وغيرها على الملأ، ولم أكن أصدق حكاية من يقفون في الحواري وأمامهم طاولات يقومون بتقطيع الحشيش عليها ومعهم موازين دقيقة تؤدي عملها بالعدل والقسطاس والباعة سعداء والمشترون راضون.

عندماعرض عليّ أحد الأصدقاء أن يصطحبني معه في رحلة إلى الباطنية لشراء التموين الخاص به سألته عن معدلات الأمان في الرحلة فطمأنني بأنه حيثما توجد راحة البال يوجد الأمان! وجدت نفسي أرحب وأنا أشعر بالإثارة الممزوجة بالخوف.

دخلنا الباطنية من جهة شارع الأزهر ففوجئت بوجود قوة شرطة مسلحة على باب المنطقة، وعرفت من صديقي أنه من المستحيل أن يعثر البوليس على أي شيء عند عمل الحملات لأن النواطير يتولون الإبلاغ الفوري لدى أي تحرك.. كما أخبرني أن وجود الشرطة يكفل التعامل الأمين بين البائع والمشتري داخل الحارة خشية الخلافات التي قد تحمل ممثلي القانون على التدخل.. ورأيت للأمانة أن هذا هو جوهر القانون ومبرر وجود أجهزة الأمن.. أقصد إشاعة الوئام بين الناس وتغليبهم لروح الود!

شاهدت كل ما سمعت عنه ورأيت بعيني قوانين السوق والتجارة الحرة ومفاهيم الجات.. ودعه يعمل، دعه يمر، دعه يلف في السولوفان!

مال صديقي على بقال في الحارة ودهشت لكونه محل بقالة مفتخرًا وأحضر لي بسطرمة وجبنة رومي وزيتون لأنه يعلم أن هذا هو مزاجي الخاص، فجلست على حجر بالحارة آكل البسطرمة وأشاهد صديقي يتقدم في الطابور المنتظم ويحصل على مبتغاه.

واصلنا توغلنا داخل الباطنية حتى نهاية الحارة ثم صعدنا مرتفعًا بدأ يعلو ويعلو، وأدركت بعد أن صعدت قليلًا أننا فوق جبل من الزبالة والركام والأتربة. أكملنا الصعود وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله.سألت صديقي عن الغرض من صعود التل فأخبرني أنه سيقوم بضرب حجرين في إحدى العشش المنتشرة فوق قمة جبل الزبالة.

قلت له: لا يا حبيبي لقد وصلنا لنهاية الرحلة وسوف أتركك هنا وأعود أدراجي لأنني لن أدخل معك غرزة.

قال: لا تخف يا رجل..إن هذا المجتمع المحيط بنا من كل جانب يحمينا ويؤمن لنا عمل دماغ في الأمان.. سأضرب حجرين فقط ثم ننصرف.

الجدير بالذكر أن هذا التل المليء بالعشش قد أزيل بالكامل وأقيمت مكانه حديقة الأزهر. جلست بجوار صديقي داخل عشة رثة وأنا أتابع بعينيّ الجالسين بجوارنا على الأرض ولكل مجموعة صبي يقوم بالتخديم عليها فيحضر الفحم ويضبط الجوزة ويوقع بإمضائه فوق كل حجر.

بذل الصديق محاولات يائسة لحملي على التجريب حتى أكون جزءًا من الأحداث لا شاهدًا عليها، لكن حكاية انتقال الجوزة من فم لفم كانت شيئًا مقرفًا بالنسبة لي ومن ثم حسمت قراري بالرفض القاطع.

كانت العشة مظلمة وكذلك العشش المجاورة وكان ضوء شمعة أو مصباح جاز في كل عشة يكفي لرؤية خيالات مخيفة على

الحوائط، وانتشر الضحك المتصاعد من العشش في جنبات الجبل رغم أن النكت والإيفيهات الصادرة عن الجالسين كانت شديدة السماجة وليس بها ما يضحك.. غير أن ضعف الإحساس لدى أهل الكيف كان يسهل ضحكهم على أي شيء!

فجأة دوى في الظلام صوت جهوري أجش كأنه صادر من جوف تنين صارخ على مقربة من أذني: الحكومة يا صلاح!

لم أعرف من هو صلاح ولكن الشموع انطفأت وساد الهرج.. وما أدري إلا وصديقي يشدني من يدي ويدفع بي إلى الجانب الآخر من المنحدر، وإن هي إلا لحظات حتى تعثرنا ووقعنا وتدحرجنا ثم وجدت نفسي أقوم مدفوعًا بالرعب وأجري وحدي مبتعدًا في طريق صلاح سالم وفي داخلي تدوي الصيحة التي لم أنسها أبدًا: الحكومة يا صلاح!

دعوة على الغداء

للأستاذ إحسان عبد القدوس رحمه الله قصة جميلة عنوانها «رائحة الورد وأنوف لا تشم» تحكي عن جحيم المطلقات في بلادنا، وكيف أن زهرات جميلات يَضِيع عبيرهن في الفضاء لغياب الأنوف الحساسة التي أودع الله من أجلها الضَّوْع في نساء جميلات فضليات مال بختهن من دون ذنب جنينه.

لكن بعيدًا عن أنوف إحسان عبد القدوس التي لا تشم قد تنشأ أحيانًا المشكلة نتيجة وجود أنوف حساسة تشم وتنفعل وتستجيب.. كيف؟ سأحكي لكم:

ذهبت إلى سنغافورة في رحلة عمل منذ سنوات مع مجموعة من الزملاء.

كنت أفضل أن أسكن وحدي بالفندق أثناء السفرات توقيًا للمشاكل التي تنشأ بين زملاء الغرفة الواحدة على الحمّام وغيره... بينما كان هناك من الزملاء من يفضلون الغرف الثنائية من أجل الونس والتوفير.

لم تكن الرغبة في التوفير تدفع الجماعة لاقتسام الغرف فقط، لكن

كان من المأثور أن يصطحب البعض معه ما تيسر من الزاد المُمَثَّل في المأكولات الجافة والمعلبة، وذلك من أجل صيانة بدل السفر والعودة بقرشين للعيال.

لم أكن أنكر عليهم ما يفعلونه لكني لم أكن أفعل مثلهم لأن السفر كان يعتبر بالنسبة لي فرصة للتمتع بالحياة وأطايبها وعلى رأسها الطعام اللذيذ المختلف في كل بلد.

بعد مضي يومين لاحظت أن أحد الزملاء انفصل عن زميل آخر وترك له الغرفة وذهب ليقيم وحده.. وفي الحقيقة لقد أتعب موظفي الفندق حتى عثروا له على غرفة خالية أثناء انعقاد المؤتمر الذي كنا نحضره.

وفي أحد أيام السفرة صادفت داخل المصعد أثناء ذهابي إلى غرفتي الزميل الذي هجره رفيقه ليسكن وحده،فقام هذا بدعوتي لشرب الشاي عنده بالغرفة. اعتذرت في رفق لكنه مضى خلفي بعد خروجي من المصعد وقال في محاولة لتشجيعي: إن الشاي الذي عندي لا يشبه شاي الفنادق الخالي من الطعم والنكهة، وإنما معي باكو من شاي التموين الذي يعدل المزاج!

ضحكت من اعتزازه بشاي التموين المخلوط بالنشارة الذي اصطحبه إلى سنغافورة ومعه باقي مستلزمات المزاج من سكر وبن وموقد صغير!

قال ليزيد من تشجيعي: وعندي أيضًا جبنة رومي وبسطرمة وزيتون وعيش محمص وكل ما هو ضروري للحياة لمدة أسبوعين من دون أن أفكر في تناول الأكل الآسيوي الذي لا تروق لي

رائحته ولا أدري من أي شيء يصنعونه. قلت له: للناس في الطعام أمزجة.

كان الفندق شديد الضخامة لدرجة السير لمسافة طويلة في ردهاته حتى يصل الواحد إلى حجرته.. خطر لي أثناء التمشية أن أسأله عن سبب انشقاق رفيقه في الغرفة وإيثاره السكن وحده بعد يومين فقط من الوصول، فأشاح بيده كدليل على الامتعاض ولم يرد.

بعد لحظات بادرني بدعوة أكثر كرمًا من دعوة الشاي وأسر إليّ بأن لديه في الغرفة مفاجأة لن أصدقها. سألته في فضول: ماذا لديك يا ترى؟ قال: عندي عِرق من اللحم البتلو مطهو ومتبل أتناول منه على مهل كل يوم شريحتين، ويسرني أن تكون ضيفي على الغداء!

سألته في دهشة: أحضرت معك عرق بتلو بحاله؟ أجاب في نشوة: سترى بنفسك.

وصلنا إلى غرفته فقام بفتح الباب ومضى إلى الداخل وأنا خلفه. ما أن دخلت وجلست على أحد المقاعد حتى دهمتني رائحة نتنة، فدخلت إلى الشرفة لأستنشق هواء نقيًا وأنا أغطي نصف وجهي بيدي.

جاء ورائي وعلى محياه علامات الضيق وقال: وبعدين؟!.. هل ستفعل مثل فلان الذي ترك الغرفة متذرعًا بوجود روائح كريهة لا توجد إلّا في خياله؟

قلت مرتبكًا: أبدًا.. أنا فقط أشعر بدوار وأريد أن أنصرف لأنام.

قال: على الأقل تشرب الشاي معي.

انهمك في عمل الشاي وتركني أفكر في سبيل للخروج من هذا المكان العفن.

نظر إليَّ كمن تذكر شيئًا ودنا مني، ثم إذا به يمسكني من يدي قائلًا: تعال لأريك شيئًا..هناك عرق البتلو الذي قلت لك عنه موجود في الثلاجة وأريدك أن تشمه لتتأكد من سلامته، لأن الأفندي المخبول الذي كان يسكن معي زعم أنه فسد وهو داخل الحقيبة أثناء الرحلة الطويلة.

قلت له: أنا أصدقك لكني لا أريد أن أشم لأن معدتي حساسة وتثور لروائح الطعام.

حاولت أن أتملص منه لكنه ظل ممسكًا يدي بعناد ثم فتح الثلاجة فدهمتني عفونة أطارت صوابي وجعلتني أترنح في مكاني من الغثيان.. بيد أنه لم يرحمني لكن أخرج قطعة اللحم التي كانت في حجم عامود الشاورمة وقربها من أنفي وهو يلح قائلًا: شم كده.. شم!

في الحقيقة أن محاولاتي للتملص منه أدت إلى نتيجة كارثية إذ اصطدم عرق اللحم المتعفن بوجهي ومسح أنفي وفمي فأحسست أنني أوشك على الموت، ولم أدر إلا وشلال من القيء يندفع من معدتي في دفقات متتابعة فيغرق سريره وأرضيته.

بعد لحظات من الدوخة تمالكت نفسي فدخلت الحمام واغتسلت ثم خرجت مسرعًا للهرب من المكان والابتعاد عن هذا المعتوه، واندفعت نحو الباب وأنا أسبه وألعن جنونه وقذارته... ففوجئت به يسألني في عتاب بريء: وماذا أفعل أنا الآن في هذا القيء الذي لوثت لي به المكان؟

نظرت إليه في ذهول، ثم لعبثية الموقف انقلبت حالتي من الغضب الشديد إلى حالة انبساطية مفاجئة.. فما أدري إلا وأنا أضحك في هستيريا ضحكات طويلة ممتدة.. ثم وجدتني أقول له:

بما أن نفسك حلوة يا أخي إلى حد أكل الجيفة القذرة.. فلا أظنك تمانع في استخدام هذا القيء لعمل سندوتشات للعشاء.. يا ابن المعفنة!

انتصاب حمامات

كنت أسير مفردًا

أحمل أفكاري معي

ومنطقي ومسمعي

فازدحمت

من حولي الوجوه

قال لهم زعيمهم:خذوه

سألتهم: ما تهمتي؟

فقيل لي:

تجمعٌ مشبوه

«أحمد مطر»

البيان رقم واحد

في كل مرة أزور مدينة في بلد عربي خليجي أجدني أبذل جهدًا ملحوظًا للبحث عن أهل البلد.

أحيانًا يحالفني التوفيق وأعثر على بعضهم وأحيانًا أفشل حيث يكونون مختفين تحت ركام جحافل الهنود الذين يسدون الأفق ويملئون الفراغ ويشغلون كل حيز ممكن على الأرض.

بالطبع هذه ليست دعوة تحريضية ضد الهنود في الخليج، لكنها ملحوظة تفرض نفسها عليّ وتدفعني للتفكير فيما يكون عليه الوضع في المستقبل لو سارت الأمور سيرًا طبيعيًّا وظل هذا التكاثر الهندي يزداد ويطَّرد.

في بعض المدن لم أجد سائق سيارة غير هندي.. ولا واحدًا بدون أي مبالغة.. لم أركب سيارة أجرة يقودها شخص يتحدث العربية، جميعهم يفتحون الراديو على أغان تبث من محطات في مدراس ودلهي وتريفاندروم، ولم أدخل محل بقالة به يمني أو سوري أو مصري أو لبناني.. كلهم هنود وباكستانيون وبنغاليون، ولم أر في الشارع رجلًا عربيًّا واحدًا، فقط كرنفالات هندية صاخبة تملأ

الشوارع والميادين ومحطات الحافلات. حتى عندما أردت شراء خط تليفون وجدت العاملين بشركة المحمول كلهم هنودًا، وعندما قمت بالاتصال بقسم خدمة العملاء رد عليّ موظف هندي تفاهمت معه بصعوبة بالغة رغم أنني أجيد الإنجليزية، ولم أعرف حينها ماذا يفعل الشخص الذي لا يتحدث سوى العربية.

المشكلة أن الإنجليزية التي يتحدثها الهنود الذين تعاملت معهم هي إنجليزية لا تمت للغة لندن أو نيويورك بصلة، هي لغة خاصة لا يفهمها سوى أهل الخليج ولا يمكن لشخص من خارج المنطقة أن يستوعبها.. أما الكلام العربي الهندي فحدِّث عنه ولا حرج.. أربع أو خمس كلمات يتم تدويرها لتقوم بتغطية كل شؤون الحياة، مع إضافة لفظ بابا وأحيانًا ماما ليكتمل القاموس الهندي في بلادنا العربية!

ومع وجود دور العرض السينمائي التي تضم شاشات عديدة لا تعرض سوى الأفلام الهندية، ووجود المدارس والمعاهد ودور التعليم الهندية، بالإضافة إلى آلاف المطاعم التي تفوح منها رائحة الكاري.. أيقنت أن بعض مدننا الزاهرة التي نتصورها مملوكة لنا نحن العرب هي في حقيقتها مدن هندية، وأدركت أن الهنود يجاملوننا ويتركوننا نتوهم أنها مدن عربية ونتصور أننا أصحابها وأنهم عليها مجرد ضيوف. هم يدَعوننا لأوهامنا لأنهم يدركون ببساطة أنهم في النهاية سيرثون هذه الأرض ومن عليها وما عليها، والمسألة مسألة وقت، فمن ذا الذي يستطيع اليوم أن يعيد التركيبة السكانية إلى طبيعتها ويتخلص من جانب كبير من هؤلاء؟ لا أظن أن دولهم النووية تسمح لكائن من كان أن يتخذ قرارًا كهذا، ولا أظن أن هذا

مرغوب فيه حتى، بعد أن ألف الناس الحياة الناعمة التي يقوم فيها الهنود عنهم بكل الأعمال.

وأخشى أن الكابوس قد يأتي إذا صادفنا ظروفًا كالتي حدثت في الرواية الإنجليزية الشهيرة عندما أصبح خادم العائلة الأرستوقراطية هو السيد، بعدما قذفت بهم الأمواج إلى إحدى الجزر، وكان الخادم هو الوحيد القادر على العمل فأصبح هو شيخ الجزيرة القادر على الصيد والقنص والطهو وإطعام الرعية.

كما أخشى أن أصحو في يوم من الأيام على صوت المذياع يعلن البيان رقم واحد وفيه أن القائد الملهم ممتاز خان أو شابور سينج أو مهراتا كابور قد نزل على إرادة جماهير الأمة ووافق أن يتولى الحكم!

الكتاب الفوسفوري

عندما قامت الهند بإجراء تفجيرها النووي الأول عام ١٩٩٨ فإن الرد الباكستاني لم يتأخر، قامت بدورها بإجراء تفجير عقب التجربة الهندية بأسبوع واحد.

في ذلك الوقت شهدت بعيني الفرحة العارمة والاحتفالات الصاخبة لكلا الشعبين بالإنجاز العظيم وذلك على أرض الكويت! في ذلك الوقت لم تكن تستطيع المرور في ساحة الصفاة أو في دوار الشيراتون من كثافة الحشود التي خرجت تعبر عن فرحتها التلقائية حتى كأنك في بومباي أو في إسلام أباد وليس في الكويت.

وقتها لم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل عن جدوى سباق التسلح الذي يضغط على الخزينة العامة في الهند وباكستان ويحرم المواطن من اللقمة ويضطره للسفر للعمل في الخارج في وظائف الخدم وما شابه.. وكنت أمضي في التساؤل عن جدوى التقدم العلمي الذي لم تتم ترجمته إلى تقدم في الخدمات التي يحصل عليها المواطن وفي مستوى معيشته، وكانت المفارقة تحيرني في أن يقوم أبناء بلد يمتلك القنبلة النووية بما يعني امتلاكهم قاعدة علمية وصناعية جبارة بالعمل بالملايين في أعمال متدنية في بلاد لم تحرز

أي تقدم علمي أو إنجاز تكنولوجي على أي صعيد هي بلادنا العربية السعيدة.. تلك التي ترى نفسها خير أمة أخرجت للناس!

في ذلك الوقت اعترض تدفقَ تأملاتي أحدُ الأصدقاء عندما توجه لي بسؤال مباشر عما يجب على دولة أصبحت نووية أن تفعل لإسعاد شعبها؟ وعما كنت أقدمه لشعبي لو أنني كنت قائدًا لإحدى الدولتين وهي في حالة انتشاء بالإنجاز العلمي العظيم.

في الحقيقة أنني قد عجزت عن الرد ولم أفهم ماذا يعني بسؤاله، لكنه أنقذني من حيرتي وتطوع هو بالإجابة عن الفعل الذي يتعين أن يقوم به الزعيم مستجيبًا لدواعي الوضع الجديد..

قال صديقي: إن المواطن يجب أن يشعر بأن الحياة بعد النووي قد اختلفت عنها قبله، ويجب أن يلمس أن تضحياته وشقاءه قد أثمرا وأن أوان الحصاد قد آن.. لو أنني رئيس وزراء الهند أو باكستان لقمت بدعوة شعبي كله إلى تناول طعام العشاء من مطعم مكسيم في باريس.. وسأطلب لهم فيليه مكسيم الشهير بالخلطة، وسيكون الحلو عبارة عن سوفليه جلاسيه من «لا روش».. يتعين على شعبي أن يذوق الطعام الفاخر وأن يعرف أن أيام الشقاء والحرمان قد ولت بغير رجعة، وإلا ما قيمة النووي الذي يمكن أن يمسح الكرة الأرضية في لحظات؟

عندما لمس الصديق ذهولي مما يقول أشار عليَّ بأن أنتظر ومضى في إكمال نظريته: في اليوم الأول ستقوم أساطيل الطيران والبواخر والسفن في العالم كله بتحويل طعام العشاء من المطعم مباشرة إلى السكان في عششهم الصفيح، وسنقوم بتصويب صواريخنا النووية

ونجعلها مستعدة للانطلاق إلى العواصم الغربية، حتى تلك التي ليس لها نصيب كبير في السياسة الدولية كالسويد وسويسرا وفنلندا..كل هؤلاء يجب أن يحملوا لنا الطعام في تلك الليلة المباركة..في اليوم الثاني بعد أن نستقر على «منيو» الطعام الذي سيحمله العالم لنا كل يوم نبدأ بعد ذلك في التعامل مع بيوت الأزياء الراقية ونجعل الإخوة أيف سان لوران وبيير كاردان وفرساتشي والأخت كوكو شانيل.. نجعلهم يسارعون إلى توريد كل ما يطلبه شعبي من أزياء حتى يصيروا أكثر شعوب العالم أناقة.. وهكذا في باقي الأمور سنحصل من الغرب على كل ما نريد ونستمتع لعدة سنوات بالحياة المخملية الجميلة حتى نمل من الترف ثم يكون لكل حادث حديث.

ومضى صديقي في نظريته: طبعًا أنت تظن أن هذا كلام مجانين ولا يصح أخذه بجدية، لكنني في الحقيقة جاد كل الجد.. ألم تقم الدول الاستعمارية باحتلال بلاد العالم الثالث استنادًا إلى القوة المسلحة؟ ألم تكن تحصل على المواد الخام بالمجان من أجل رفاهية شعوبها؟ ألم يقم العمال الهنود ببناء شبكة مترو لندن للأنفاق والبنادق الإنجليزية مصوبة إلى رؤوسهم؟.. إن هذه النظرية على غرابتها يمكنها أن تتحقق ويمكن للعالم أن يذعن إذا أدرك أن حاكمًا مثلي لن يتردد في إفناء البشرية إذا ترددوا لحظة في الاستجابة لطلباتنا..

ثم ارتفعت نبرة صوته وهو يؤكد: إذا لم نفعل هذا فما قيمة السلاح النووي؟ ومن أجل ماذا كل هذه الفرحة به؟

بعد ذلك أطلق صديقي مفاجأته بأنه ينوي إطلاق نظريته في كتاب

جديد يؤلفه وسيحمل اسم «الكتاب الفوسفوري» تيمنًا بكتاب آخر ملون يحمل لونًا أخضر أطلقه رجل ملتاث وقام بتدريسه للتلاميذ في بلده ثم استدعى الأدباء والشعراء والفنانين وأساتذة الأدب من البلاد العربية المختلفة فأشادوا بالكتاب بعد أن نالوا نفحات المجنون!.. وأكد صديقي أن كتابه الفوسفوري سيجيب عن أسئلة حارت البشرية فيها وسوف يحمل هو الآخر نظريات سحرية لا تقل روعة عن نظريات الكتاب الأخضر.

انتصاب حمامات أفندم

لا أستطيع أن ألوم الحكومة الكويتية على قرارها بالقبض على عدد من المصريين وترحيلهم على خلفية تأييدهم للدكتور محمد البرادعي.

ليس السبب هو اقتناعي بهذا الإجراء وأسبابه، ولكن لأنني أعتقد أن مصر عندما تكون في كامل عنفوانها وصحتها فإنها تلهم العرب وتنفح فيهم من روحها، لكنها عندما ترقد على سرير العجز والمرض فليس لنا أن نحلم بعالم عربي سعيد. وأبسط ما ستسمعه إذا توجهت باللوم إلى أي حكومة تسيء أو يسيء أفرادها إلى المصريين هو: إن المصريين هنا ينعمون بالحياة الكريمة وأيامهم هنا أفضل من أيامهم بمصر وإلا لما استمروا، ولو فرض وواجه المصري هنا بعض المتاعب والصعاب فإن هذا لا يقاس بما يلاقيه أخوه في مصر من عذاب وهوان، حيث يتم القبض على الناس بدون مناسبة وضربهم وتعذيبهم بدون أسباب وانتهاك حقوقهم وحرياتهم طول الوقت.

عندما أستمع إلى هذا الرد لا أستطيع أن أكذبه أو أنفيه لكني أغرق في بحر من الحزن لأن مصر صارت ملهمة في انتهاك حقوق الإنسان

وصار الأشقاء العرب يجاملونها ويقدمون الرعايا المصريين قربانًا لأشقائهم الحكماء!

لا أستطيع أن ألوم الكويت الحبيب، هذا البلد الذي أحمل لأهله أجمل الذكريات طيلة السنين التي قضيتها معهم، لكني أتوجه باللوم إلى السفير المصري اللطيف الحبوب الذي نفى أن يكون هو الذي حرض ضد المصريين! هو فعلًا رجل لطيف وزي العسل لأنه حذا حذو زعيمه ووزير خارجيته الذي قال إنه لا شأن له بالمصريين في الخارج! والسفير أيضًا لم يظن أن عليه واجبًا إزاء مواطنيه الذين يدفعون راتبه وأبسطه أن يسأل: لماذا تم القبض عليهم؟ وأن يتدخل من أجلهم ويجلب لهم المحامين بصرف النظر عن موقفهم القانوني.. فواجب السفير ليس فقط مساندة الأبرياء من مواطنيه، لكن واجبه هو مساندة مرتكبي الجرائم، وهو الأمر الذي كان السفير الكويتي في القاهرة سيفعله لو أن الشرطة المصرية ألقت القبض على مواطنين كويتيين، فما بالك إذا كانوا مواطنين مسالمين أبرياء!

لقد كان من حظي أنني التقيت وتعاملت خلال سفراتي بالخارج مع سفراء ودبلوماسيين في أماكن عديدة وكانوا في غالبيتهم جالبين للخزي! وأذكر أنني التقيت أحدهم ذات حفلة وكان مشتبكًا في عراك مع طبق عظيم يحمل أرزًا ولحومًا ودجاجًا، وكان يأكل ويشرب بنهم في الوقت الذي كان فيه العمال المصريون يطردون بالمئات.. وكان إلى جانب سيادته فخامة المستشار العمالي الذي اشتهر بأنك تستطيع أن تجعله يبيع عمال العالم بأكلة كباب، وكان لا يقل عنه «دناوة». كان منظرهما وهما يأكلان يوحي بأنهما يفعلان شيئًا آخر غير الأكل لهذا فقد اقتربت منهما بعد أن فرغا وقلت لهما: شُفيتم!!

على النقيض من هذا النموذج كان السفير التركي الشهير «انتصاب حمامات» الذي كان سفيرًا لتركيا في إحدى دول البلطيق وعرف عنه التفاني في خدمة الجالية التركية الكبيرة هناك حتى إن السلطات كانت تتحاشى المساس بأي من الرعايا الأتراك خوفًا من الاصطدام بالسفير «انتصاب حمامات» الذي كان إذا استشاط غضبًا فإن أحدًا لا يسلم من زخّاته!

هل تستطيع وزارة الخارجية المصرية بحالتها الراهنة أن ترسل للخارج سفراء يمثلون المصريين تمثيلًا حقيقيًّا، أو يتعين عليها أن تجعل مبعوثيها يقرءون مذكرات السفير التركي ليتعلموا كيفية إدارة الأزمات وكيف يكون التعامل والتصرف في المواقف المختلفة، عسى أن يأتي يوم تمتلك فيه الخارجية ولو شيئًا بسيطًا من وطنية وقوة انتصاب حمامات أفندم!

شعب مصر خير وأبقي

ما زالت أصداء قرار السلطات الكويتية بإبعاد سبعة عشر مصريًا من الكويت تتوالى وآخرها المقال المهم الذي نشرته صحيفة الجريدة الكويتية للمستشار شفيق الإمام، وفيه أوضح عدم دستورية النص القانوني الذي استندت إليه السلطة في قرارها وهو القانون رقم ٦٥ لسنة ١٩٧٩ وتحظر مادته الرابعة عقد اجتماع عام إلا بعد الحصول على ترخيص بذلك، وتعاقب المادة ١٦ من نفس القانون كل من نظم اجتماعًا أو تجمعًا من دون ترخيص بالحبس مدة لا تزيد على سنتين وبغرامة لا تجاوز ألف دينار أو بإحدى هاتين العقوبتين.

وقد أوضح المستشار الإمام أن هذا القانون قد خالف أحكام المادة ٤٤ من الدستور التي تنص على أن للأفراد حق الاجتماع من دون حاجة لإذن أو إخطار سابق، على أن يكون الاجتماع ووسائله سلمية ولا تنافي الآداب. ولهذا السبب فإن المحكمة الدستورية العليا بجلستها المعقودة بتاريخ أول مايو ٢٠٠٦ في الطعن رقم (١) لسنة ٢٠٠٥ قد قضت بعدم دستورية المادتين (٤) و(١٦) من قانون الاجتماعات العامة والتجمعات تأسيسًا على ما جاء في الحكم من أن حق الاجتماع هو حق إنساني.

وبعيدًا عن النصوص الدستورية التي أجْلَت الأمر وأوضحته وبينت عدم دستورية الإجراء المتخذ بحق من تم إبعادهم فإن للأمر زاوية أخرى أراها أكثر أهمية بكثير من نصوص الدستور والقانون على أهميتها.

لعل شعب الكويت الكريم يذكر وقفة الشعب المصري معه في محنة الغزو. وأتوسل إلى كل من يقرأ كلامي هذا أن يفهم أنني لا أتحدث عن وقفة الحكومة المصرية المؤيدة للحق الكويتي لأن هذه الوقفة لم يكن الداعي إليها هو إقرار الحق والدفاع عن الشقيق المظلوم، ولكن القاصي والداني يعلم أنها كانت إحدى تجليات التبعية للموقف الأمريكي الذي رأى مصالحه في إغراء العراق بالعدوان ثم اصطياده وتدميره.

كان موقف الحكم في مصر إذن متوافقًا مع الأماني الأمريكية، ولو أن الأمريكان قد رأوا أن من مصلحتهم الانحياز إلى صدام حسين في عدوانه لقامت حكومات مصر وسوريا والسعودية بالدفاع عن العدوان وتبني أهدافه ومحاولة تسويغها للمواطن العربي! لهذا عندما أتحدث عن وقوف مصر إلى جانب الكويت أنا أعني الشعب المصري الذي رحب بالكويتيين على أرضه وذرف معهم الدمع على ما أحدثه العدوان من خراب مادي ونفسي لشعب آمن كريم، وفرح من قلبه لاندحار العدوان وعودة الكويتيين إلى ديارهم.. ولئن كانت بعض الأصوات المتنطعة تقول بأن الأموال الكويتية هي التي جلبت التأييد لقضيتهم فهذا مردود عليه بأن مظاهرات المصريين خرجت تشق قلب القاهرة ضدّ العدوان على غزة التي لا تملك طعام العشاء، وقوافل المصريين فعلت المستحيل لإيصال المساعدات

للفلسطينيين المحاصرين وذلك رغم أنف السلطة التي ساندت العدوان الإسرائيلي استجابة وتماهيًا مع الموقف الأمريكي! وكذلك وقف شعب مصر مع الشعوب العربية في نضالها في الجزائر واليمن وسوريا وفي كل مكان.

ما أقصده من هذا الطرح أن أقول للكويتيين لا تضحوا بالشعب المصري على مذبح العلاقات الزائلة بالحكومات..مصر هي سندكم وذخركم، والمصريون الذين يحبون الكويت هم الذين سيحمونه بعد أن يتغير الموقف الأمريكي.. وما أسهل أن يتغير هذا الموقف! ولو كان شعب مصر يؤثر المصالح على المبادئ لوجد مصلحته في مساندة بغداد التي كانت تأوي ثلاثة ملايين مصرى تم تشريدهم بفعل الحرب على العراق.

مصلحتكم الحقيقية أيها الإخوة في أن تعود مصر كريمة قوية منيعة تفخرون بها وتستندون إليها..أما مصر الضعيفة المستخذية التي يربطكم بحكامها علاقات مجاملة تضطرون من أجلها إلى مخالفة الدستور والتضحية بالعدالة فأخشى أنها ليست مصر الحقيقية وصداقتها لا قيمة لها وهي إلى زوال ولن تنفعكم.. لكن شعب مصر هو خير وأبقي.

حقوق الخروف

بسبب شح الحياة وسوء البخت الذي رأيته ملازمًا للناس في بلادي والبلاد المماثلة التي ابتليت بطبقة حاكمة لعينة ونخبة انتهازية تعمل في خدمة اللصوص، كنت أتصور في السابق أن الإنسان يحتاج فقط إلى إشباع حاجاته الأساسية ثم لتذهب الحرية إلى الجحيم.

وكنت أنظر إلى البلاد الأخرى وأعتقد أن الإنسان المولود في بلد غني حيث الغذاء الوفير والسلع الاستهلاكية ورحلات الشتاء والصيف إلى لندن وباريس وبانجكوك هو إنسان محظوظ لا يحتاج إلى تعاطي السياسة والكلام فيها إلا من باب الوجاهة وإزجاء الوقت، كما لا يحتاج فعليًّا إلى الديموقراطية التي تعني الشفافية والمحاسبة، إذ ما حاجته إلى الشفافية ما دام المال الوفير يكفي وزيادة، فتأخذ الطبقة الحاكمة معظمه وما يتبقى يفيض على الناس ويجعلهم لا يشغلون بالهم بالقضايا التي تشغل البشر في بلاد العالم الثالث وبعض بلاد العالمين الثاني والأول.

وكنت في الوقت نفسه أندهش عند زيارتي لبلاد الشمال من أن الشعوب التي وصلت لأرقى درجات الرفاهية والديموقراطية والوفرة مثل السويد وسويسرا والدانمارك لا يستنكف الناس بها من القيام

بكل الأعمال بأنفسهم حتى جمع القمامة وتسليك المجاري وتوصيل الطلبات للمنازل وكنت أتساءل: ألا يستطيع هؤلاء الناس بدخولهم المرتفعة أن يستوردوا سريلانكيين وأحباشا يقومون لهم بكل العمل فيقصون لهم حشيش الحديقة ويطهون لهم الطعام ويقودون لهم السيارات ويقومون بتربية الأطفال، بينما يجلسون هم أمام التلفاز يقزقزون الفزدق واللوز ويستمتعون بوقت الفراغ؟

لكن مع التقدم في العمر تغيرت رؤيتي للحياة ولم أعد أغبط الناس على الأنتخة والحياة المريحة في غياب الحرية، لكن رأيت أن للمأساة في بلادنا وجوهًا عديدة تتراوح ما بين التخمة والمسغبة، وأدركت أن الحياة إذا ما توافر بها المال ووسائل الراحة في غياب الحرية والديموقراطية لا يمكن أن تحقق السعادة للبشر، وأن الناس في العالم العربي كله يفتقدون إلى الحرية التي لا تكتمل إنسانية الإنسان إلا بها، وأدركت أن الفقر مع غياب الحرية يصنع الإنسان الذليل الناقم، كما أن الغنى والترف مع غياب الحرية يصنع الإنسان الخروف. كما اكتشفت أن الناس في بلادنا تعساء أشد التعاسة.. الغني منهم والفقير، ذلك لأن لكل منهم سيدًا، وكل واحد يرتعد من سيده ويرجو رضاه بأكثر مما يرجو رضا الله، ويبيت في هم وغم إذا ما أحس بغضب واحد من طوال العمر أو سخط أحد أبناء صاحب العزبة!

ومع تقدم التجربة الحياتية أصبحت على ثقة بأن أبناء عرب النفط يحتاجون إلى الديموقراطية احتياج أبناء عرب الماء لأنه على حد وصف الأستاذ فهمي هويدي فإن الحرية والديموقراطية التي تعني حق الناس في المشاركة والمساءلة وتداول السلطة هي التي تمثل

الفارق بين المجتمع الانساني وبين حظيرة الحيوانات، وأن الإنسان إذا لم يشارك في صياغة حاضره ومستقبله فإن وضعه لن يختلف كثيرًا عن حالة أي قطيع في مزرعة عصرية يتوافر بها الغذاء الجيد والرعاية الصحية الممتازة وتكييف الهواء.

رائحة الفقر

هل لأفراد شعب ما رائحة تميزهم عن رائحة أفراد شعب آخر؟ بمعنى آخر هل يمكن أن نميز رائحة المصريين ورائحة الإنجليز ورائحة اليابانيين مثلًا؟

قفز الأمر إلى ذهني حين كنت أقف مع صديق بالشارع عندما مر إلى جوارنا أحد الأشخاص فهلت بقدومه رائحة قوية لم أسترح لها ووصفها صديقي الذي عاش في الخليج طويلًا بأنها تشبه رائحة الهنود! فهل للهنود حقًّا رائحة تميزهم عن غيرهم؟

في الرواية الشهيرة «العطر» التي كتبها الألماني باتريك زوسكند كان بطل الرواية يمتلك أنفًا استثنائيًّا قادرًا على تمييز شتى الروائح ومعرفة الناس من رائحتهم من دون أن يراهم.. فكان يعرف الكاهن من خلال رائحة الخل التي تميزه، ويعرف الشرطي من رائحة التبغ العالقة به وثالثا من رائحة الحلبة وآخر من رائحة السباخ التي تفوح منه.. وكانت أنفه هي دليله في الحياة كما كانت مقتله في النهاية.

لقد أدركت ما عناه صديقي برائحة الهنود لأنني عشت فترة من عمري بالخليج وعرفت الهنود الذين يمثلون أكثر من ثلثي السكان

هناك وقد خبرت بنفسي تلك الرائحة التي تحدث عنها صديقي ونسبها للهنود. ولكن في اعتقادي أن هذه ما هي إلا رائحة الفقر مخلوطة ببعض التوابل ليس أكثر. وقد أراني التجوال في أرض الله الفقراء والمعدمين من سكان العشش الصفيح في إفريقيا وفي جنوب شرقي آسيا وفي عشوائيات مصر، وهي أماكن لا يمكن أن يصدر عن ساكنيها ما يسعد الأنف حيث مكان السكن عطن غير متجدد الهواء، والطعام في الغالب غير صحي وغير نظيف ومياه الشرب ملوثة، والصرف الصحي لا وجود له، ومن الطبيعي في ظروف كهذه أنّ عادات النظافة الشخصية لا يستطيع أن يكتسبها ويتمسك بها كثيرون، بل ومن العادي أن يعتبرها البعض ترفًا لا يجوز التطلع إليه.

ولي تجربة شخصية عندما كنت أبيع الجرائد في فيينا بالنمسا أثناء فترة الدراسة بالجامعة، وكنا مجموعة من الطلبة نعيش في شقة صغيرة لا خصوصية فيها لأحد ولا مكان لحفظ الملابس وتعليقها ولا يوجد بها حمام، بل توجد دورة مياه في كل دور تستعملها شقق الطابق كله، ومن أراد الاستحمام فعليه الذهاب للحمام العمومي ودفع مبلغ نظير الماء الساخن والصابون والشامبو. في هذا المكان كان الحفاظ على الآدمية ونظافة البدن أمرًا ليس باليسير، وفيه عرفت شابًّا ظل أربعة شهور بدون استحمام حتى تعفّن بمعنى الكلمة، وذلك من أجل أن يوفر فلوسه للحياة الحقيقية التي كان يرى أنها ستبدأ بعد العودة للوطن! ورأيت آخرين في نفس الشقة لم يصلوا لدرجة صاحبنا هذا لكنهم أهملوا استعمال فرشاة الأسنان والمعجون وكانوا ينامون بنفس الملابس التي يذهبون بها للعمل ولا يغيرونها إلا كل فترة.

وهذا في تقديري هو حال العمالة الفقيرة في كل مكان. وبالطبع

لا تخلو الحياة من فقراء معدمين شديدي الحرص على النظافة رغم قسوة الحياة ولكن هذا استثناء لا يقاس عليه.. أما بالنسبة لصديقي الذي تحدث عن رائحة الهنود فلقد كانت خبرته ناتجة عن تجربته بالعيش في الخليج حيث العمالة الهندية الكثيفة وأغلبها يعيش في ظروف صعبة شديدة البؤس في مستعمرات سكنية مكدسة.

ولكن بعيدًا عن العمال الذين يتم جلبهم للعمل في ظروف غير إنسانية، وبعيدًا عن الوسيط الكافر الجالب للعمالة سواء كان شركة أو فردًا، ذلك الذي يأخذ لنفسه معظم الراتب ويمنح العامل مبلغًا ضئيلًا يقوم بإرساله لأهله في حيدر أباد أو بيشاور ويعيش على الكفاف.. بعيدًا عن كل هذا لو أن صديقي مد بصره فنظر إلى المهنيين الهنود في الخليج كالأطباء والمهندسين والعلماء، أولئك الذين تؤهلهم خبراتهم لمكانة متميزة ودخل عال وسكن طبيعي فلا أظنه كان سيذكر حديث الروائح هذا.

هي رائحة الفقر إذن في كل زمان ومكان وليست رائحة شعب بعينه.. كل الحكاية أنها مع فقراء الهنود تأتي مخلوطة بالكاري!

أرقام مميزة

كنت أشتري خط تليفون محمول عندما فاجأني البائع بالسؤال: أي رقم من هؤلاء تفضل؟ قلت له: الأرقام كلها بالنسبة لي سواء وأي واحد منها سيفي بالغرض. نظر إليّ الرجل في شك ثم مال واقترب من أذني هامسًا: عندي تشكيلة مميزة جدًّا لا أقدمها إلا للحبايب، ولن تجد مثيلها إلا لدى رجال الأعمال والشخصيات المهمة.. أما فرق السعر فليس كبيرًا! سألته في دهشة: وما فائدة هذه الأرقام المميزة؟ أجاب واثقًا: الأرقام المميزة تعني أن صاحبها ذو حيثية، ومن خلال الرقم ينتبه الناس إلى قدره ويمنحونه ما يستحق من احترام! أحسست أن حالة الدهشة عندي أوشكت أن تتحول إلى غضب، فقلت للبائع العجيب: هل صار الناس يعقدون آمالهم في التفوق والتميز على أرقام التليفونات بصرف النظر عن قيمة صاحب الرقم الإنسانية والفكرية والعلمية؟ بدا على الرجل عدم الفهم ومع هذا فقد واجهني بحجة ظنها دامغة وقال: إن هذه الأرقام يا أستاذ يسهل تذكرها وحفظها على العكس من الأرقام العادية بمعنى أن لها فائدة على عكس ما تتصور. قلت: ولماذا تعتقد أنني أريد أن أحشو رأسي بأرقام الناس أو أريد لرقمي أن يتذكره أحد.. حسبهم أن

يسجلوا الرقم ويستدعوه عند الحاجة من دون ضرورة لأن يتذكروه، وأنا شخصيًّا لا أتذكر أرقام أقرب الناس إليّ.

خرجت من المحل وأنا لا أفهم كيف يمكن أن يدفع إنسان عاقل ثمنًا زائدًا مقابل الحصول على رقم به عدة خمسات أو سبعات مثلًا، وأي امتياز يشعر به في هذه الحالة خصوصا إذا عرفنا أنه بمجرد تسجيل الرقم للمرة الأولى فإن ما يظهر لك بعد ذلك هو اسم صاحب الرقم، أما الرقم نفسه المدفوع فيه المبلغ الكبير فيطويه النسيان!

الأمر نفسه لاحظته في إعلانات بيع وشراء السيارات.. وجدت أرقامًا بعينها يتقاتل البعض من أجل حيازتها،و رأيت لذهولي أموالًا طائلة تدفع بكل سعادة للفوز بالرقم المأمول، وعرفت أن نفرًا منهم قد يستدين من أجل رقم للسيارة يمنحه وجاهة وسط أهله وناسه، ولا أعرف في الحقيقة نوعية هؤلاء الأهل وسمات أولئك الناس الذين يشعرون بالفخر لأن المحروس ولدهم قد حقق حلمه الكبير وصار من ذوي الأرقام المميزة!

لقد عشت في بلدان كثيرة ولم ألحظ هذه الظاهرة المرضية إلا في بلادنا، فهل التفاهة صفة عربية استحوذنا عليها من دون العالمين وأقسمنا أن نستأثر بها ولا نسمح لأحد بأن ينازعنا فيها أم ماذا؟ هل السبب يا ترى هو أن موسم الحصاد قد أتى إلينا قبل موسم الزراعة! وأن المحصول قد ظهر بدون أن نحرث الأرض ونبذر البذور ونرويها بعرقنا ونتعهدها بالرعاية؟ وكيف يحدث هذا في بلاد مستباحة من كل

من هب ودب.. بلاد ينام بعض الناس فيها على الطوى ولا يخرجون شاهرين سيوفهم في وجه السفيه الذي خرج من التاريخ والجغرافيا وأصبح عالة على الحياة يستهلك نفايات العالم ومع هذا يجلس على الكنبة في سعادة يلعب في تليفونه ذي الرقم الثمين!

بلاد الوهم الجميل

في بلادنا الجميلة على خلاف بلدان العالم الأخرى غير الجميلة يحلم كثير من الناس بأن يسبق أسماءهم حرف «د» الذي يؤكد حصولهم على الدكتوراه. والناس في هذا الشأن على استعداد لبذل الغالي والنفيس حتى يرصع اللقب الفاخر أسماءهم ويمنحهم أهمية بين الناس!

وبسبب الشغف العالي بهذا الأمر فإن أشياء لا تخطر على البال قد حدثت، منها الاتجار بشهادات الدكتوراه بالبيع والشراء، وهي مهمة نهض بها مجموعة من الشطار والسماسرة قاموا بالتعاقد مع نصابين أنشئوا جامعات وهمية على الإنترنت فقط وأصبحوا يجلبون شهادات موقعة ومختومة وعليها حفر باللون الذهبي بكلام غير مفهوم وعلامات ملونة وتتراوح أسعارها بين مائتين إلى ألف دولار! وهناك سماسرة لا يتصلون بأي نصابين من العالم الخارجي، لكنهم يتصلون بمطابع محلية تقوم بهذا العمل على أكمل وجه وتطبع لهم ما يريدون ثم يبيعون الورقة المزورة لأصحاب الخلل والتباهي الكاذب ليعلقوها على جدار الصالون بالمنزل العامر.. بالنفاق!

وهذا النوع هو الغالب في بلادنا ومعظم أصحاب الدال في

العالم العربي من هذه الفئة التي لم تدرس وبعضها لم يدخل جامعة من الأساس!

هذا وقد أغرى ما سبق رجالا آخرين يتمتعون بجسارة أشد أن يصيروا دكاترة دون حتى محاولة الحصول على ورقة مزورة..فماذا فعلوا؟ قاموا بإرسال خطابات ومراسلات ومكاتبات لشتى أنواع الجهات والهيئات والصحف والمجلات وذيلوا مكاتيبهم بحرف الدال يسبق أسماءهم. وطبيعي أن هذه الجهات عندما قامت بالرد فإنها ردت على الدكتور فلان، وطبيعي أيضًا أن الصحف عندما تنشر رسائل القراء فإنها تنشرها بأسمائهم كما وردت إليها.. وهكذا يشيع اسم فلان بحسبانه دكتورًا بمنتهى السرعة من دون أن يفكر أحد أن يسأل عن هذه الدكتوراه متى وأين وكيف!!

هذا عن سكة النصب والاحتيال..فماذا عن رسائل الدكتوراه التي يحصل عليها طلاب العلم من أماكن حقيقية لها أسماؤها كالجامعات والمعاهد؟

في الحقيقة أن السحابة السوداء التي غلفت واقعنا العربي لم تترك مكانًا لم تلوثه.. فحتى الجامعات العربية صاحبة الأسماء أصبحت تتهاون وتتساهل بعد أن فقدت الصرامة العلمية التي عرفت بها، حتى وجدنا بعض الأساتذة يقومون بعمل الأبحاث بأنفسهم للطلاب نظير مبالغ معلومة! كما وجدناهم يتسامحون إزاء رسائل مسروقة ومنقولة بالنص من باحثين حقيقيين، ولا يترددون في أن يمنحوا المجرم المزور شهادة الدكتوراه مع مرتبة الشرف! ولا أذيع سرًّا إذا قلت إنني شخصيًّا أعرف أحد العباقرة الذين يحترفون القيام بعمل الرسائل نيابة

عن طلاب الحصول على الشهادات، وهذا الشخص يحتفظ على جهاز الكومبيوتر الخاص به بمئات الأبحاث التي يستخرج منها ما يشاء ويعمل عليها بالحذف والإضافة والتبديل ويمد الطالب بما يريد على مراحل حتى يحصل على الورقة المقدسة!

أكاد ألمح من يتساءل: وماذا عن أبنائنا الذين نرسلهم للحصول على الماجستير والدكتوراه من الخارج في جامعات الشرق والغرب.. هل يحصلون أيضًا على شهادات مضروبة ومشكوك في صحتها؟

والإجابة عن هذا السؤال أعلم أنها لن تكون مريحة وقد تحمل صدمة.. لكن ماذا أفعل وقد عرفت كثيرين ممن حصلوا على أرفع الشهادات من جامعات فرنسا بعد أن قضوا بها سنوات وعادوا متوجين بأكاليل الغار من دون أن يعرفوا إلا كلمات معدودة من اللغة الفرنسية التي حصلوا بها على الأطروحة الفكرية! ومثلهم كثيرون ممن عادوا لنا من جامعات روسيا وبولندا ورومانيا تسبقهم شهاداتهم وأيضًا لا يعرفون اللغات التي حصلوا بها على الشهادات!

هل معنى هذا أن العملية كلها نصب في نصب أو أن الأمر لا يخلو من جامعات محترمة لا تعرف الهزل والخفة؟ بالطبع هناك جامعات محترمة لا تتهاون قيد أنملة في ما يخص النزاهة، ولكن هذه في الغالب لا تقبل طلابنا ولا تعترف بشهاداتهم التي يحملونها.

لكن هناك بالرغم من ذلك جامعات في الغرب تعمل بالتنسيق مع سياسات دولهم، وهي تغلب الجانب السياسي والبراجماتي على الجانب الأكاديمي فتقبل أبناء العالم الثالث، لكنها توافق لهم على أبحاث سهلة وبسيطة ولا تمثل إضافة للفكر والعلم الإنساني

كما يفترض في رسالة الدكتوراه أن تكون، على العكس من تعاملهم الصارم مع أبناء دولتهم الذين لا بد لهم من أن يعملوا على مشروعات بحثية حقيقية.. وهم يفعلون ذلك ويقبلون طلاب العالم الثالث رغم تدني مستواهم خشية أن يهرب الطلاب إلى جامعات دول أخرى تفتح لهم أبوابها وتأخذ فلوسهم.. وذلك غير الارتباط الثقافي والنفسي الذي يكون عليه الطالب إلى الأبد بالبلد الذي اندمج فيه وحصل منه على رسالته العلمية، وفي هذا فوائد عظيمة يعرفها الاستعماريون العتاة من أصحاب الجامعات.

حالات نادرة هي التي يكون الطالب فيها متميزًا وحريصًا حقًّا على طلب العلم، الأمر الذي يشجع الجامعة على أن تتعامل معه باحترام فتكلفه ببحث حقيقي يسفر عن رسالة علمية ذات قيمة.

ومن أسف أن هذا العدد لا يزيد بأي حال عن واحد بالمائة من مجمل الرسائل التي يعود بها سفراء الوطن الذين يغري مستواهم المتهافت السادة المغامرين بانتحال اللقب مادام قد حصل عليه من الخارج طلاب من فئة المتردية والنطيحة ومن أكله السبع!

العفريت في المحكمة

قرأت منذ أيام في جريدة عكاظ السعودية خبرًا عجيبًا وحوارًا أعجب عن موضوع يشيب لهول غرابته النسناس!

أصل الحكاية عن قضية فساد عادية مما يحدث في كل مكان بالعالم بطلها أحد القضاة الذي وجهت له تهمة التدبير للاستيلاء على عقارات وأموال ضخمة عبر تسلُّمه رشا. إلى هنا والأمر عادي تمامًا، ومن الممكن للمتهم أن يلجأ لمحام شاطر يجد ثغرة هنا أو ثقبًا هناك لإنقاذه أو للحصول على حكم مخفف..يمكن أيضًا للمحامي كما يحدث في الغرب أن يدفع بجنون المتهم وعدم مسؤوليته عن أفعاله ثم يجتهد في إحضار أطباء واختصاصيين يشهدون في هذا الاتجاه. كل هذا يحدث باستمرار في بلاد ربنا. أما هنا فإن المتهم قد أعرض عن كل الطرق التقليدية في الدفاع وقرر أن يلعب بخطة جديدة ومبتكرة فأعلن أن عفريتًا من الجن هو الذي ركبه وتلبسه وهو نفسه الذي قام بارتكاب الجريمة!

ليس هذا فقط، وإنما قامت جريدة عكاظ بنشر حديث مطول مع شخص اسمه (ف ق) قالت إنه يعمل راقيًا شرعيًّا وهو الذي تعامل

مع الجني القابع بداخل المتهم وتحدث معه في حوار رجل لعفريت وعرف منه كل الحقائق حول الجريمة موضوع القضية.

سألت الصحيفة الراقي الشرعي: هل تطرق الجني لمعاملات الفساد وقضية المحكمة؟ قال: نعم تطرق لهذه الأمور. سألته الصحيفة: هل حدد لك الجني من الذي سحر القاضي؟ فأجاب: هي حاجة معروفة أن القاضي مسحور ولجنة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رأت هذا الشيء وكان معنا أيضًا الشيخ (فلان) يقصد قاضيا في محكمة المدينة.

الصحيفة: كيف تأكد لك أن القاضي مسحور؟

الرجل: القاضي قرأ عليه قبلي الشيخ (.....) وبعض مشايخ القصيم وتكلم الجني معهم، والقاضي إذا قرأ عليه أي إنسان.. على طول الجني يتكلم معه!

الصحيفة: طيب وما رأيك فيما يقوله الجني؟

الرجل: هذه الأشياء لا بد لها من قرائن وثوابت وشيخنا ابن باز يرى أن الجني إذا تكلم على لسان الإنس يعامل معاملة المجرم!

الصحيفة: طيب ما رأيك في هذا الذي حصل للقاضي من سحر؟

الرجل: هذه الأشياء سحر وتجعل الإنسان يفعل ما لا يدرك.

الصحيفة: الخطاب الذي سترفعه عن حالة القاضي المتهم..من طلبه منك؟

الرجل: الشيخ....(قاض مسؤول) طلب مني ذلك.

هذا جزء صغير من الحوار المطول لصحيفة عكاظ السعوديةمع الرجل الذي زعم تحدثه إلى الجني والذي سيقوم برفع تقرير للمحكمة ينفي فيه مسؤولية المتهم عن جريمة فساد بمئات الملايين من الريالات! ولا نعرف كيف ستتعامل المحكمة مع الجني إذا ما ثبتت عليه التهمة، وهل يمكن في هذه الحالة ضبطه وإحضاره وتطبيق حكم القانون بحقه أو سنتركه يركب الناس الطيبين ويقوم بارتكاب الجرائم مستخدمًا أياديهم الطاهرة!

الأمر الخطير هو أن اعتماد شهادة الراقي الشرعي والاستناد إليها في نفي مسؤولية المتهم عن أفعاله قد تدفع المتهمين جميعًا لأن يستعين كل منهم بعفريت ابن حلال «يشيل» القضية بدلًا منه، وهذا قد يقتضي إنشاء أقسام في البحث الجنائي تتعامل مع الجن الأحمر والأزرق والقرمزي، كما يقتضي إعادة تأهيل طلبة كلية الحقوق وكليات الشريعة وإعادة هيكلة النيابات والمحاكم للتعامل مع متهمين غير تقليديين من فئة شمهورش وعفركوش وبردقوش، كما قد يقتضي جهدًا تشريعيا بتعديل قوانين العقوبات لتتناسب سنوات السجن مع عمر الجني الطويل، فليس معقولا أن نحكم على عفريت عمره عشرون ألف عام بالسجن خمس سنوات فقط مثلًا..أقل ما يجب أن تكون العقوبة ألفي عام مع الأشغال الشاقة ثم الخضوع للمراقبة بعد ذلك لمدة ٨٠٠ سنة!

إن المحزن حقًّا إذا استبعدنا الجانب الكوميدي في الموضوع هو أن شيوع هذه الممارسات في المجتمع ستدفع الناس بعيدًا عن

المحاكم وستجعلهم يكفرون بالقانون ويلجئون لوسائل أخرى لاقتضاء الحقوق.. كما ستجعل الاقتراب من المحاكم مسألة محفوفة بالمخاوف ما دام السادة القضاة تتلبسهم العفاريت. وفي هذه الحالة من ذلك المغامر الذي سيخاطر بالذهاب إلى محكمة مسكونة يسيطر عليها العفريت وابن عمه.. الحوافريت؟!

الباشا المفبرك أبو العروس

عادة ما أنظر إلى صفحات الحوادث بالصحف، تلك التي تحوي أخبار الجرائم في المجتمع نظرة يشوبها الاستخفاف وعدم التقدير.. ذلك أنني اعتدت أن أقرأ بهذه الصفحات أخبارًا مشكوكا في مصادرها أو أخبارًا كاذبة ومفبركة يقوم المحرر بتأليفها عندما تعز عليه الأخبار الحقيقية!

وعادة ما يذكر محررو هذه الأخبار أسبابًا غير حقيقية للجريمة كأن يكتبوا مثلًا: جريمة قتل من أجل جنيهين.. أو أشياء وهمية من هذا القبيل. كما أن جانبًا من أسباب عدم اعتباري وتقديري لمثل هذه الأخبار هو ملؤها وحشوها بأسماء السيد اللواء والسيد العقيد والسيد العميد الذين يؤكد الخبر أنهم وضعوا الخطة وتابعوا مراحلها وأشرفوا على تنفيذها حتى سقط المجرم الأثيم في يد العدالة.. لا بد من ذكر الأسماء والرتب الفخيمة مع كل خبر حتى لو كان أصحاب السعادة هؤلاء يغطون في نوم عميق عندما قام المتهم بتسليم نفسه!

لكن الخبر الذي أنا بصدده الآن قد تفوق على كل الأخبار المفبركة وزاد عليها بمحاولة الظهور بمظهر الخبر الطريف المضحك.. فما هذا الخبر؟

الخبر قرأته بصحيفة الوطن منذ أيام ويقول عنوانه: مصري طرق باب كويتي «طالب القرب منك يا باشا!».

ويمضي الخبر ذاكرًا أن شابًّا مصريًّا قد تأنق وارتدى حُلة بهية وذهب ليخطب فتاة كويتية من أهلها، فطرق باب البيت وطلب لقاء الوالد، فلما جلس إليه طلب يد ابنته، فما كان من الرجل إلا أن استدعى أولاده الذين أوسعوا الشاب ضربًا، ثم لم يتركوه إلا بعد أن أسلموه لمخفر المنطقة!

أصابني نشر هذا الخبر على هذا النحو بالغم والكآبة لأكثر من سبب:

أولًا: محاولة الاستظراف واضحة من البداية في العنوان، إذ لا يعقل أن يكون الشاب قد قال للرجل: أنا طالب القرب منك يا باشا.. فهذا كلام مساطيل يصلح في أفلام أللمبي لكنه لا يحدث في الواقع، وبخاصة إذا كان الشاب يخاطب أبًا كويتيًّا تقليديًّا فلا هو بك ولا باشا من بتوع السينما!

ثانيًا: إذا كان الأمر قد تطور ووصل إلى المخفر حقًّا ـ وهو ما أشك فيه ـ فلا بد أن تكون الأسباب جد مختلفة عن مجرد طلب يد الفتاة، إذ إن طلبًا من هذا النوع يستدعي إما القبول وإما الرفض.. أما الضرب والإهانة فلا تحدث إلا إذا كانت أسرة العروس مكونة من مجموعة من المجانين الذين يرون أن قدوم شاب من الباب يطلب يد ابنتهم بشكل محترم ونظيف هو عار لا يمحوه إلا الدم!!

انتظرت أن أقرأ في اليوم التالي أي تطورات عن الموضوع فلم أظفر بأي خبر يحكي عما حدث للشاب بالمخفر وأي جريمة اتهمه

بها والد الفتاة؟ وكيف برر إخوتها ما فعلوه بحق رجل أتاهم خاطبًا ولم يأتهم غازيًا؟ وبماذا رد الفتي وما أصل الحكاية؟

كل هذا لم أجد عنه أي خبر وهو الأمر الذي يرجح أن الخبر كله هو محض خيال واختلاق وبخاصة أن محرره لم يذكر اسم المخفر الذي ساقت إليه الأسرة خاطب ابنتهم بعد أن أثخنوه ضربًا!

الخلاصة أن محرر الخبر أراده أن يكون ظريفًا طريفًا فأتى ببالغ السخف والفجاجة، وأراد أن يسخر من شاب شريف احترم الأصول ولم يخرج عنها كما حاول الخبر أن يوحي بذلك، فأنصف الشاب وأظهره في صورة طيبة من دون أن يقصد.. كما أنه أساء إساءة بالغة إلى الأسرة الكويتية من حيث أراد أن يجاملها ويستجلب السخرية إلى الفتى الأثيم الذي تجرأ وطلب يد ابنة الأكابر على نحو يعيد إلى الأذهان الأفلام المصرية في الثلاثينيات والأربعينيات..لكن الخبر لم يحقق هذا الهدف وإنما كرس لمفاهيم يرفضها الإسلام بتقاليده السمحة البعيدة عن الجاهلية الأولى والذي تقول تعاليمه على يد رسوله الكريم: إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، وإلا تكن فتنة في الأرض وعذاب كبير.

لهذا ما زلت عند رأيي في أخبار الحوادث والجرائم التي أرى أنها أهم وأخطر من أن نتركها لمن يعبثون بسلام المجتمع وأمنه الذين لا هم لهم سوى إرضاء الباشا العقيد والباشا العميد.. وليس الباشا المفبرك أبو العروس!

هشام أبو رجب

تابعت قصة المواطن الكويتي الذي صدم بسيارته رجلًا فلسطينيًّا في سوريا على طريق أوتوستراد المزة مما أسفر عن مقتل الفلسطيني بينما كان يعبر الطريق.

ومعروف أن القصة قد انتهت بعودة الشاب الكويني إلى أهله وذويه بعد انتهاء المحنة التي تعرض لها والممثَّلة في دخوله السجن بسوريا على ذمة التحقيق في القضية.

نهنئ الشاب بسلامة العودة ونشيد بالسلطات الكويتية التي تصرفت بوعي ومسؤولية تامة أسفرت عن إنهاء المسألة بعد دفع الدية لأهل القتيل والتفاهم مع السلطات السورية من أجل إطلاق سراحه وعودته إلى أهله سالمًا.

لا أريد أن أفسد على الناس فرحتهم بالنهاية السعيدة للحدوتة، لكني في الوقت نفسه لا أستطيع أن أتجاهل أمرًا ساءني وأحزنني أشد الحزن، وهو ردود فعل الناس في الكويت والتي لمستها من خلال الاطلاع على تعليقات القراء في المواقع الإلكترونية للصحف على الحدث.

لقد قرأت على مدى الأيام السابقة منذ وقوع الحادث مئات التعليقات أسفل الأخبار اليومية التي كانت تترى من دمشق عن جهود الإفراج عن المواطن مرتكب الحادث. كانت التعليقات غريبة بالنسبة لي ومثيرة للدهشة والأسى.. فالموضوع ينطوي على حادث له طرفان: جانٍ ومجني عليه. ومع تسليمنا بأن الحادث كان قضاء وقدرًا وبأن الشاب الكويتي كان يقود على طريق سريع لا ينبغي أن يعبره الناس حرصًا على سلامتهم، فإن التناول الصحفي للموضوع كان خاليًا من الموضوعية.

لقد ذُكر اسم الجاني مئات المرات، لكن اسم القتيل الذي ساح دمه على الأسفلت أغفل تمامًا ولم تذكر صحيفة واحدة في حدود علمي أن اسمه «هشام أبو رجب»، واكتفوا بالإشارة إليه بأنه فلسطيني!

لا أحد ينكر حق الصحافة الكويتية بل واجبها في الدفاع عن أبناء الكويت في كل الأحوال، لكني أزعم أن التناول غير المنصف دفع الناس التي تابعت الموضوع لأن تصب جام غضبهاعلي السلطات السورية.كما لو كانت سوريا هي التي دهست مواطنًا كويتيًّا!

كما ظلت التعليقات عدة أيام تتناول أحوال السجون السورية والأهوال التي تحدث فيها. وأنا بالطبع لا أنفي عن سوريا طابع الدولة البوليسية التي يلقى من تدفعه أقداره إلى سجونها أيامًا لا يحسد عليها، لكن هذا هو ما يلقاه المواطن السوري طول الوقت وليس مخصصًا للتصدير! وكون الشاب كويتيًّا يجعل حظه أفضل من نظيره السوري الذي لا يمتلك سفارة بدمشق! ثم إن السلطات

الكويتية نفسها تطبق القانون في حال الحوادث التي تقع على أراضيها وتحتجز الجناة بصرف النظر عن جنسياتهم.

نعود للتعليقات التي امتلك كاتبوها قلوبًا كالحجارة أو أشد قسوة.. فكتب بعضهم يدعو على أم المجني عليه بألا تهنأ بالمال الذي أخذته من أسرة الجاني وبأن تشتري به دواء!.. ومعظمهم دعا الكويتيين إلى عدم السفر إلى سوريا واستبدال مقاصد أخرى بها ما دامت تقبض على الكويتيين!

لقد أحسست أن الناس في حاجة إلى من يهزها كي يعيدها إلى وعيها ويذكرها بأن أهل القتيل هم بشر مثلنا يحسون كما نحس ويجزعون كما نجزع ولهم ابن ثكلته أمه وتيتم بنوه وترملت امرأته، وأن لهفتنا على ابن الديرة لا يجب أن تنسينا إنسانيتنا وتجعلنا نتحدث كما لو كانت السيارة قد دهست صرصارًا لا قيمة له وأن القيمة كل القيمة لابننا وحده.

الحمد لله على سلامة الشاب الكويتي.. ويأهل الكويت الكرام: اذكروا الله يذكركم واستغفروه يغفر لكم.

عذاب طفل صغير

من الحكايات الموحية التي تروى عن دنيا العمالة الوافدة في الخليج أن رجلًا اصطحب ابنه في الإجازة إلى موطنه، وفي أثناء استماع الولد الصغير إلى خطاب من أحد السياسيين بالتليفزيون جذب انتباهه قول السياسي: «ويجب على كل مواطن أن يقوم بكذا وكذا وكذا» فما كان منه إلا أن مضى إلى أبيه متسائلا: أبي.. هل يوجد هنا أيضًا مواطنون؟

فأجابه الأب مدهوشًا: طبعًا يا بني كلنا هنا مواطنون. فتعجب الولد وظن أن والده يضاحكه.. واحتاج الأب إلى شرح طويل من أجل إقناع ولده بأن كلمة مواطن لا تعني جنسًا بعينه أو فئة معينة من البشر كما صور له عقله الصغير، لكن تنطبق على كل أبناء الوطن الواحد الذين يعيشون في بلدهم.

طبعًا من السهل إدراك الخلط الذي ملأ عقلية الطفل بعد إجابة والده التي عدّها غامضة، بسبب أن الطفل قد ولد في ذلك البلد العربي ونشأ وتربى ودخل المدرسة وكوّن صداقات هناك، وليس في ذهنه ذكريات عن مكان آخر.. صحيح هو يسمع الكبار يتحدثون عن أماكن لا يعرفها وأهل لم يرهم في بلد آخر، لكن هذا مجرد كلام،

أما الحقيقة الماثلة بوضوح أمام عينيه فهي أنه يعيش هنا وينتمي إلى هنا، لكنه مع ذلك ليس مواطنًا. وقد عرف هذه الحقيقة من أقرانه في المدرسة، وعرف أيضًا أن كلمة مواطن تعني إنسانا صاحب امتيازات لا يحصل عليها هو أو أبوه.. يكفي أن الطفل المواطن لا يكلف أباه مصروفات مدرسية كما يفعل هو.

لقد كان أحيانًا يكره نفسه لإحساسه بأنه أخطأ في حق عائلته، وقد كان يمكنهم لو كانوا محظوظين أن ينجبوا - بدلًا منه - «مواطنًا» سعيدًا لا يكلفهم من أعباء الحياة رهقًا!

وهو تربى طوال سنوات حياته القليلة على خطاب سياسي يتحدث عن سياسة التوطين وعن أهمية التوطين وعن الخطط المستقبلية التي توضع من أجل بلوغ هذا الهدف العظيم. ولمس أيضًا أن حرارة الخطاب عن التوطين وجمال التوطين تزداد يومًا بعد يوم.. وعندما استفسر من الكبار عن معنى هذه الكلمة التي تملأ الصحف والمجالس ونشرات الأخبار عرف أن هذه الكلمة تعني في المحصلة النهائية خروجه من المدرسة ومن المنزل وابتعاده عن أصدقائه وذهابه هو وأسرته إلى مكان آخر لا يعرفه وليس له فيه رفقاء. صحيح أنه لا يحس أن هذا الهدف يتحقق لأنه يلمس زيادة عدد الوافدين كل يوم، فضلًا عن أن الكبار هدءوا من روعه وطمأنوه بأن هذا الشعار مرفوع منذ عشرات السنين، لكنه للاستهلاك فقط وليس للتطبيق.. لكنه مع هذا لم يطمئن ولا هدأت مخاوفه وبخاصة أنه يلمس الإحساس بالمرارة لدى أبيه وأصدقائه كلما تردد هذا الشعار.

وقد وقر في ظنه أنه ليس شيئًا طيبًا بالمرة أن يعيش المرء وسط أناس يحبهم ويخلص لهم ومع ذلك تكون أغلى أمانيهم هي أن يتخلصوا منه هو وأسرته معتبرين هذا هدفًا يتعين ألا يغفلوا عنه طول الوقت!

مسكين الطفل الصغير.. يعيش مشاعر اللاجئ الذي لا وطن له مع أنه ليس فلسطينيًّا اغتصبت إسرائيل أرضه، وهو محق في مخاوفه وهواجسه.. لكن مشكلته الكبرى أنه لا يدري أن من أسباب حالة الشتات التي يعيشها رغم وجود وطن له أن اللصوص قد سرقوا وطنه وجرّفوه وجعلوه مكانًا لا يصلح للحياة.. وعندما يكبر سيدرك أنه لا يحق له أن يلوم أصحاب الأوطان الأخرى حتى لو كانوا جارحين لا يراعون مشاعره ولا تقلقهم عذاباته لدرجة أن يكون الهدف الأسمى الذي ينطلقون نحوه وأعز أمنياتهم في الوجود هي أن يصحوا من النوم فلا يجدوه بينهم!..

لهيـــب جهنـــم

في الـــلاذقـــيـــة فـتـنـةٌ ما بـين أحمــد والمسـيـح
هــذا بـنـاقـوسٍ يـدق وذا بـمـئـذنـة يـصـيـح
كـــلٌّ يـــؤيـــد ديـنــه يا ليت عمري ما الصحيح؟

«أبو العلاء المعري»

أصعب من عضة الكلب

التدين المنحرف أصعب من عضة الكلب! ذلك أنه تقريبًا لا علاج له، في حين أن عضة الكلب يمكن البرء من آثارها بعد ٢١ طعنة إبرة في البطن.

التدين المنحرف الزائف هو الذي يجعل لأتفه الأشياء وأهونها أولوية على حساب الدين الحقيقي، وهو الذي يولي أكبر الأهمية للشكليات والمظهريات وسرد الحواديت المسلية لجمهور المستمعين، في حين يغض الطرف عن أعظم الجهاد الذي هو قول كلمة الحق في وجه السلطان الجائر.

التدين المنحرف هو الذي يعلي من شأن الدجالين والنصابين والمشعوذين ومفسري الأحلام، ويجعل كل هؤلاء بمثابة الصواريخ والكبسولات التي تحمل الإنسان العبيط إلى الجنة!

تابعت في الفترة الاخيرة عددًا من برامج الشعوذة وتفسير الأحلام بالقنوات التليفزيونية، فهالني أن جمهور هذه البرامج شديد الضخامة، وأدهشني تعلق الناس البسطاء بالسادة النصابين واتخاذهم نماذج تضيء لهم الطريق المعتم. ومن المؤسف أن الناس تتصور

أن الاستماع إلى الهجاصين وتفسيراتهم لأحلام العوام هو من صحيح الدين، ويظنون أن الأخ الدجال هو عالم جليل لا ينطق عن الهوى إنما يتحدث بما درسه وتعلمه من القرآن الكريم! والحقيقة أن مقدمي هذه البرامج لا يختلفون عن أي نصاب ممن يصادفهم الناس في حياتهم اليومية..

النصاب يتصف عادة بالذكاء، إذ ليس هناك نصاب غبي، وهو دائمًا لمّاح يلتقط الأشياء الصغيرة ويبني عليها سيناريو النصب، وهو يعتمد طريقة الإيحاء للتأثير على الضحية. لهذا كله عندما أشاهد برنامجًا تليفزيونيًّا يتلقى مكالمات المشاهدين لتفسير أحلامهم، وفي الإستوديو يجلس العالم العلامة والحبر الفهامة يمتشق المسبحة ويأخذ في البسملة والحوقلة.. عندما أشاهد هذا أتطلع باهتمام وأستمع إلى المكالمات التي ترد لأهل المحطة التليفزيونية تستغيث بهم أن يفسروا الرؤى والأحلام التي شاهدوها بالليل في منامهم..

يبدأ المتصل يروي حلمه وهو متهدج الأنفاس يتطلع لالتماس الطمأنينة عند رجل التليفزيون الداهية، فيتلقفه هذا ويجلسه على حجره ويهدهده ثم يأخذ في مسح الريالة السائلة من فمه وأنفه ثم يبشره بأن القطة السوداء التي رآها في المنام هي شر قد أبعده الله عنه.. حلاوتك يا مولانا..ما هذه العظمة في التفسير؟! فلما يقول السائل في براءة إن القطة لم تبتعد بل ظلت تقترب في الحلم.. يقول المفسر العتيد الذي لا تنضب جعبته: القطة السوداء هي الوسواس الذي داخل صدرك ولا بد أنك كنت تفكر في شيء سيئ!.. وما الحل يا مولانا؟ الحل يا بني هو أن تقوم فتتوضأ وتصلي ركعتين لله حتى تبتعد القطة السوداء وتخرج من صدرك!

وسائل آخر يقول إنه شاهد لبنًا حليبًا في المنام، فيسأله الأخ النصاب: هل احتلمت بالليل؟. فيقول السائل:لست متأكدًا إذا ما كانت الارتعاشة التي أحسست بها كانت بفعل الشبق أم بسبب تقلصات عضلة الفخذ بعد مباراة الكرة التي لعبتها بالنهار. ـ هل تلعب الكرة؟ ـ نعم يا مولانا ـ الله الله.. الرياضة شيء عظيم يا ولدي.. والآن اتضح كل شيء، اللبن الذي رأيته هو مكافأة سيبعثها الله لك أنت وفريقك وستفوزون بالكأس بإذن الله!

وبالطبع إذا خسر السائل الكأس هو وفريقه فإن المشعوذ النصاب لن يكون فيَ ورطة لأنه يستطيع أن يقول للسائل عندما يتصل به من جديد إنّ ما رآه سابقًا كان أضغاث أحلام ولم يكن حلمًا حقيقيًّا، كما أن السائل لم يوثق صلته بالله هو وفريقه ولهذا خسروا الكأس!

وهكذا لكل حلم مهما بلغت غرابته تفسير جاهز لدى صاحبنا القادر دومًا على ابتكار تفسيرات ترضي العامة وتنتهي دائمًا بالدعوة إلى أداء ركعتين لله.. وهذه بالطبع دعوة لا يمكن أن ينكرها عاقل، وهكذا يحصن النصاب نفسه ضد الانتقاد ويحيط هجائصه التفسيرية بسياج من الآيات القرآنية، ويخلط النصب بالدين من أجل أن يصعّب مهمة من يبغون بالناس خيرًا ويريدون تحذيرهم من النصب والنصابين.

ويلاحظ أن النصاب التليفزيوني هو في العادة شخص ذكي طموح لكنه رغم ذلك محدود المعارف وثقافته ضعيفة ولا يتطلب الأمر منه أن يكون خطيبًا مفوهًا أو شخصية كاريزمية، لكنه يعتمد بالأساس على خيبة الجمهور وعلى أن المتصل عندما يبدأ في إدارة

قرص الهاتف ليتصل بالبرنامج فإنه يكون في أضعف حالاته ويكون على استعداد لأن يصدق ويؤمن بكل ما سيأتيه من هراء.. وهكذا فإن حالة الجمهور البائس لا تدفع النصاب حتى لتحسين أدواته استنادًا إلى أن بضاعته الفاسدة لها زبائن فقدوا الحواس وغاب عنهم العقل وسلموا أنفسهم للأستاذ ليحقق من ورائهم الشهرة المدوية والثراء الفاحش والنفوذ الجبار.

لهذا فإن التدين الزائف الذي يقدمه الحواة والمهرجون أصعب بكثير من عضة الكلب.

من وكسة لخيبة يا قلب لا تحزن!

عندما أقرأ أو أسمع عن إنسان قرر أن يبدل دينه ويعتنق دينًا جديدا تنتابني دهشة حقيقية وأمعن التفكير في الأمر محاولًا أن أستشف الأسباب التي تدعو شخصًا يدين بدين يقدّر أتباعه بالملايين يعده بالجنة ويؤكد له على كفر الآخرين.. إلى دين آخر أتباعه بالملايين يعده بالجنة أيضًا ولا ينسى أن يؤكد له كفر الآخرين!

أنا أعرف أن كثيرين من القراء سيقولون إنه ربما شرح الله صدره للدين الجديد ووجد نفسه متعلقًا به ومستعدًّا للتضحية بكل شيء من أجل ما آمن به. وهذا في الحقيقة هو ما يدهشني.. لماذا؟ لأنني أعتقد أن الأديان جميعًا تدعو للخير وتقاوم الشر وتحرض الناس على الإخاء والرحمة والمساواة، والأديان جميعًا تحوي أشياء منطقية يسهل فهمها وأخرى غيبية تتخطى قدرات العقل ولولا الإيمان ما صدقها أحد. وعندما يريد أتباع ديانة أن يتحامقوا ويتنطعوا فإنهم يتحدثون عن الأشياء الغيبية لدى أديان الآخرين بحسبانها خرافات لا يليق بالإنسان العاقل تصديقها، وكأن غيبياتهم وميتافيزيقياتهم هي معجزات وخوارق، أما نفس الأشياء لدى الآخرين فهي هلوسة وخزعبلات!

أيضًا فإن الأديان تتشابه في أنه يقوم على حراستها دائمًا رجال دين يأكلون بسبوسة وبقلاوة وبغاشة من قيامهم بالمهمة التي لا يجيدون سواها، وهي نشر البغضاء وتلوين القلوب بالسواد وترويع الناس وإلقاء الرعب في النفوس من المصير الأسود الذي ينتظرهم إذا لم يقوموا بكذا وكذا ويمتنعوا عن كذا وكذا. وهذه الكذا المطلوب القيام بها لا تخرج عن إطاعة الحاكم المجرم وتركه يفسق ويفجر والكذا التي يتعين الامتناع عنها قد تكون مقاومة الظلم والمطالبة بالحقوق!

لهذا فإنني كلما سمعت عمن قام بتغيير دينه فإن الأسئلة تفترسني: هل وجد الوقت الكافي لدراسة دينه دراسة متعمقة أدت إلى رفضه، ثم عرج بعدها على الأديان الأخرى فغاص في كتبها وتفاسيرها وشروحها حتى اهتدى في النهاية إلى أن دين كذا هو الأجدر بالاتباع؟ هل معقول أن يكون الأمر قد مضى على هذا النحو؟ في الحقيقة أن هذا السؤال يؤرقني لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها أن أصدق أن شخصًا قد غير دينه عن اقتناع.. وهذا الأمر ليس باليسير لأنه لا يقدر عليه سوى العلماء والفلاسفة أمثال روجيه جارودي مثلًا. أما المواطن المسلم البسيط أو القبطي البسيط فلا يعلم عن أديان الآخرين إلا ما يسمعه في الجامع وفي الكنيسة وهو كفيل بتنفيره من دين الآخر؟!

أما إذا ما مد بصره بعيدًا عن تعاليم رجال دينه وحاول أن يفهم بنفسه فإنه لو كان مسيحيًّا سيشاهد رجال دين مسلمين يسبحون بحمد الحاكم ويعبدونه من دون الله ويقومون بتفصيل الفتاوى على مزاج السلطة، وسيجد أسامة بن لادن ماثلًا في الصورة، كما سيجد مناخًا دوليًّا يحرض على كراهية المسلمين.. فما الذي قد يغريه وسط كل

هذا باعتناق هذا الدين وهو الذي كما أسلفنا لا يملك القدرة على تنحية القشرة الفاسدة حتى يظهر له جوهر الدين العظيم.

ولو كان هذا المواطن البسيط مسلمًا فإنه سيجد كنيسة لا تحترم الدولة وقوانينها ولا تنفذ أحكام القضاء وقد تركت عبادة الله وتفرغت للسياسة بكل ما فيها من دسائس ومكائد وألاعيب ومناورات.. وسيجد قسيسين يملئون وعي الأتباع بأفكار عن المسلم الغازي المحتل الظالم الذي حل ضيفًا ولا يريد أن يرحل.. وإذا نظر غربًا فسوف يرى البينيديكت المتعصب بتاع العيال! كل هذا سيحجب عن المسلم البسيط سماحة المسيحية الحقة التي لن يرى منها شيئًا!

ولا ننسى أن الأديان انتشرت بفعل حلاوة أخلاق معتنقيها.. فالإسلام على سبيل المثال انتشر في الهند وإندونيسيا والصين وباقي بلاد آسيا ثم في إفريقيا بدون حروب أو غزوات وإنما انتشر عن طريق التجار الذين أغرت أمانتهم وصدقهم وحسن خلقهم الناس بالدخول في دينهم.

والسؤال هو: ماذا بقي اليوم في أخلاق الناس مسلميهم ومسيحييهم يمكن أن يغري ويلهم ويُحتذى بعد أن توحش الناس على يد السلطة وصاروا فصيلين لا ثالث لهما: شحاتين وحرامية؟!

وعلى الرغم من أن الله وحده هو المطلع على القلوب فإنني لا أصدق وسط هذه الظروف المزرية أي شخص يغير دينه.. وليسامحني الله!

سؤال سخيف

الأسئلة السخيفة لا ينتج عنها سوى إجابات أكثر سخافة. ونموذج لهذه الأسئلة السؤال البايخ الذي يظن أصحابه أنهم «جابوا الديب من ديله» وهو: هل تقبل أن يصل إلى حكم مصر مسيحي؟ أنا شخصيًّا لو أن أحدًا وجّه لي هذا السؤال لأجبته على الفور بأنني أقبل أن يكون رئيس مصر بوذيًّا أو كونفوشيًّا أو سيخًا محميًّا أو من عبدة العفاريت الزرق إذا أتى بإرادة شعبية من خلال انتخابات غير مزورة. لكن للأسف فإن أصحاب هذا السؤال لا يوجهونه لي ولا يطلبون إجابتي أبدًا، وإنما يحملونه ويقفون به في الكمين في انتظار هدف ملائم ليسقطوا عليه به ويحققوا هدفهم من إجابته السيئة التي يتوقعونها ويسعون إليها!

هذا ما حدث منذ أيام في برنامج على قناة أون تي في عندما استدرج المذيع الدكتورة سعاد صالح وسألها عن رأيها في تولي مسيحي حكم مصر، ثم ما كان من إجابتها التي قالت فيها: «إنه لا ولاية لكافر على مسلم»، ولهذا فإنها ترفض أن يحكم مصر مسيحي! وبعدها توالت الاتصالات التليفونية على البرنامج التي أراد أصحابه أن تبدو وكأنها عفوية، مع أن الأمر كان مرتبًا ومنظمًا وكل أصحاب

المكالمات كانوا يتابعون الفقرة من أولها وينتظرون اللحظة التي تتفوه فيها سعاد صالح بالإجابة المنتظرة حتى ينقضوا عليها ويعطوها درسًا في المواطنة وحقوق الإنسان والدولة المدنية.. وعندما ردت عليهم بأن هذا هو دينها وهذا هو كلام القرآن الذي لا يمكن أن تتراجع عنه، فإنهم استغلوا إصرارها وتشبثها برأيها ليسجلوا المزيد من الأهداف في مرماها الخالي في واحدة من أسهل المباريات التي يمكن للأستاذ نجيب ساويرس أن يصول ويجول فيها ويقول كلامًا لا يمكن أن يختلف عليه اثنان من العقلاء.

ولكن السؤال هنا: ما الداعي إلى كل هذه التمثيلية ذات السيناريو المعد سلفًا، والتي تم تنفيذها كما أرادها المؤلف والمخرج تمامًا؟ وما الفائدة التي تعود على القناة وعلى المشاهد بعد أن يورطوا الدكتورة سعاد صالح في هذا الكلام المنافي حقًّا للدولة المدنية؟ في اعتقادي أن أصحاب هذا السيناريو أرادوا أن يقدموا دعمًا لقداسة البابا شنودة الذي أعلن رفضه تنفيذ حكم قضائي للمحكمة الإدارية العليا على الرغم من أنه هو الذي تقدم للمحكمة بالطعن على حكم أول درجة، فلما أتى الحكم على غير رغبته رفض تنفيذه وتعلل في هذا الرفض بأن الحاكمية عنده للسيد المسيح وللإنجيل وليس للقانون المصري الذي صاغه عام ١٩٣٨ قساوسة ورجال دين أقباط!

وفي ظني أن الذين أمسكوا بيد سعاد صالح ليصلوا بها للإجابة سالفة الذكر عن السؤال الملغوم قصدوا أن يوجهوا رسالة للرأي العام مفادها أن البابا شنودة ليس وحده من يرفض الاحتكام إلى القانون وليس وحده من يتنكر للدولة المدنية وإنما علماء المسلمين أيضًا ينتصرون لأحكام السماء وإن تعارضت مع القانون، لكن

البابا يفضلهم في أنه وهو يطالب بالاحتكام إلى السماء لم يقم ـ علنًا ـ بتكفير المسلمين ولم يزعم أنهم أصحاب دين أدنى كما فعلت الدكتورة سعاد صالح!

هذا هو الغرض من الفيلم الذي جرت أحداثه على قناة أون تي في.. والآن فليهنأ الجميع وليسعدوا فكلنا في الهوا سوا ننشغل بالكلام الفارغ ومحاولة كسب المعارك التافهة ونترك مصر نهبًا للديكتاتورية واللصوصية والإجرام.

لهيب جهنم

يشعرني رجال الدين بالحيرة وأجدني عاجزًا عن فهم كثير مما يقولون.

في الحقيقة أنا أشعر بأكثر من مجرد الحيرة. أنا مصاب بفوبيا إرهاب رجال الدين، ولا أخجل من التصريح بأني أخشاهم وأرتعد منهم وأتوجس مما ينطقون به. كما أعتقد أن ضررهم الواقع على الناس أكثر بكثير من أي فوائد يتوقع السذج أن تأتي من ورائهم!

لا يكاد الواحد منهم يدلي بحديث معقول في أحد الأيام حتى يتبعه في اليوم التالي بكلام يغم النفس ويسم البدن ويلقي بذور الشك في النفوس نحو من فرضوا أنفسهم ممثلين عن الأديان. وأقرب مثال على ذلك هو الكلام الفارغ الذي نسمعه كل يوم عن عصمة الحاكم ووجوب طاعته وعدم الخروج عليه مهما فسق وفجر وظلم وذلك خشية شيوع الفتنة! ولرجال الدين تراث قديم ومخز في هذه الأمور تزينه المقولة الفاجرة الشهيرة: «حاكم غشوم ولا فتنة تدوم»! ترى أي فتنة أكبر من الظلم والفسق وسحق كرامة الناس يا....؟

وليس الكلام السابق يقتصر على رجال دين دون رجال دين آخر،

ولكن من الواضح أن السلاطين كلٌّ قد ألبس جميع الكهنة سلطانيته وأطلقهم على الناس بهدف واحد ووحيد هو تكريس الديكتاتورية والاستبداد.

فما معنى أن يدلي الأنبا بيشوي سكرتير المجمع المقدس للكنيسة الأرثوذكسية بحديث صحفي يقول فيه: الكتاب المقدس يدعونا إلى تأييد الرئيس مبارك؟ (طبقًا لما نشرته صحيفة المصري اليوم). وما معنى أن يرد عليه الدكتور صفوت البياضي رئيس الطائفة الانجيلية بقوله: «إن الكتاب المقدس ينص على الخضوع للحاكم أيا ما كان، وإن الأمر ينطبق حتى على الحاكم الذي نظن أنه متشدد بعض الشيء»؟

لقد كنا نظن أن رجال الدين الإسلامي فقط هم الذين يتعيشون من التمرغ في نعيم السلطة بإطاعة أوامر رجال الحكم في بلاد العالم الثالث ومعظمهم قد وصلوا للحكم على ظهور الدبابات وبعضهم يرث الحكم بشكل آلي من دون إثبات جدارة أو استحقاق، وأغلبهم يدينون بالولاء للسيد الأمريكي وربيبته إسرائيل، فما الذي حدث حتى نرى رجال دين مسيحيين منهم الأرثوذكسي القبطي ومنهم الإنجيلي البروتستانتي ينضمون إلى إخوتهم المسلمين ويقدمون طاعة الحاكم على أي فريضة أخرى واجبة على المواطن البائس التعس المهان من الحكام الواجبة طاعتهم؟!

من الواضح أن هذا تراث موجود لدينا في الجينات، ولا أظن كاهن المعبد اليهودي في شارع عدلي بالقاهرة كان يقول كلامًا مختلفًا لو قدر له أن يصل إلى الصحف والفضائيات.

إذن السادة الأحبار من كل الملل والأديان لدينا ينبئوننا أن القرآن والإنجيل والتوراة تدعو إلى تأييد الرئيس والحزب الحاكم وعدم معارضتهم.. وفي الحقيقة لا أعرف لماذا أغفلوا أحد الكتب السماوية فلم يفتونا بموقف «الزبور» الذي أنزله الله على نبيه داود من تأييد الحاكم وتوريث الحكم!

وأستطيع والحال هكذا أن أؤكد أنه لو كان بيننا بوذيون وكونفوشيون وسيخ وعبدة النار لأخبرنا كهنتهم بأن بوذا يؤيد الرئيس مبارك وكونفوشيوس يبارك توريث جمال الحكم وأن السيخ المحمي يمنح بركاته للحزب الوطني، ولأخبرنا عبدة النار كذلك أن النار المقدسة في شوق عظيم لاحتضان أعضاء مجلسي الشعب والشوري!

رجال الخراب المستعجل

يزداد يقيني يومًا بعد يوم بأن الأديان هي رسالات خير ومحبة، وبالقدر نفسه يزداد يقيني بأن رجال الدين في غالبيتهم هم رسل خراب وفرقة وبغضاء.

كلما رأيت شيخًا أو داعية، قسيسًا أو مبشرًا يسكن في قصر ويأكل بغاشة ويقتني أسطولًا من السيارات أدركت أن أرباح التجارة في الدين تفوق أرباح تجارة السلاح والمخدرات مئات المرات، وأيقنت أن خراب مصر سيكون على يد أولئك الذين أقاموا من أنفسهم جسورًا بين العباد وبين الجنة ولا يستطيعون أن يفهموا أن بوسع إنسان أن يتقرب إلى الله بدونهم وأن يصل إلى الجنة من دون أن يكونوا جزءًا من حياته.

كما أن هؤلاء لا يستطيعون أن يتخيلوا مصر وطنًا للحرية والعدالة، حيث إن سيادة قيم من هذا النوع تضرب بضاعتهم في مقتل وتجعل الناس لا يحتاجون إليهم. إن رجال الدين الجديرين بالتقدير والاحترام هم أولئك الذين لا يعرفهم أحد، الذين ينشرون السماحة والمحبة في هدوء بعيدًا عن الميكروفونات والكاميرات.. أما الصييتة والحنجوريون من نجوم الشيوخ والقساوسة فإن الشك

يتملكني بشأن فكرة إيمانهم بالله من الأساس.. أنا حقيقة أعتقد أن عددًا لا بأس به من رجال الدين لا يؤمنون بالله ويسخرون في قرارة أنفسهم من المؤمنين.. وعندما يختلون بأنفسهم في حجرة مغلقة فإنهم ينفجرون من الضحك على المغفلين من الأتباع الذين يصدقون الهجص الذي يسمعونه منهم عن أن إسرائيل صديق وأن فرنسا من حقها أن تضيق على المسلمين وأن خنق الأشقاء واجب شرعي وأن تأييد الديكتاتورية والاستبداد والقبول بتوريث السلطة هو في صالحهم وأن كل الفِرَق والطوائف والملل والنِّحَل فضلًا عن الأديان الأخرى هم جميعًا من العصاة الذين يجب أن ندعو لهم بالهداية حتى ينضموا إلينا وينعموا بما ينتظرنا من نعيم بعد خراب الدنيا وفنائها.

إن قيم الحرية والعدالة هي التي ستعيد رجل الدين لمكانه الطبيعي بل وستحفظ له احترامه الذي عبثت به أهواء السياسة.. وأنا أتصور أن كثيرين من رجال الدين الذين فقدوا اعتبارهم كان من الممكن أن يكونوا غير ما هم عليه الآن في وجود نظام سياسي مختلف. هل من بينكم من يحترم رجل دين يعمل في خدمة حزب سياسي فاسد؟ هل من بينكم من يثق في رجل دين يحب إسرائيل أكثر مما يحب أهله؟ هل من بينكم من يثق في رجل دين يؤيد الطغاة ويدعو الناس لانتخابهم ويقود حملات مليئة بالكذب والنفاق من أجل أن يحرم الناس من الأمل في العدالة والحرية عن طريق الترويج لتوريث الأوطان؟

أنا شخصيًّا لا أثق أبدًا في هؤلاء وأراهم من بين الأسباب الرئيسية لخيبتنا، كما أراهم أسبابًا قوية للاحتقان والتعصب وتبادل الكراهية..

ولا يثيرني منظر قدر رؤيتي لشيخ وقسيس يتبادلان البوس والأحضان لأنني أعلم أنهما يمقتان بعضهما بعضا بشدة، بل ويشطح بي الخيال لدرجة أنني أتصور كلا منهما يلعب بإصبعه الوسطى وهو يحتضن صاحبه بينما يغمز لأتباعه ألا تصدقوا ما ترونه لأن الحق هو ما أقوله لكم خلف الأبواب المغلقة!

الذين لا كنيسة لهم

نقرأ كثيرًا عن الدور السياسي للكنيسة والنفوذ المتعاظم لرأس الكنيسة القبطية بمصر. ونسمع كل يوم عن دليل جديد على قوة الكنيسة واستهانتها بالدولة المصرية لدرجة العصيان وعدم تنفيذ أحكام القضاء وكذلك معاداة الدولة المدنية رغم ادعاء العكس، وتأييد الدولة الدينية شرط أن تكون مسيحية! ويدهشنا كذلك قيام الكنيسة باعتقال مواطنين مصريين ووضعهم قيد الاحتجاز ورفض الإفراج عنهم. كل هذا نعيشه ونشاهده ولا نرى أو نسمع أي اعتراض من شقق حقوق الإنسان ومغارات المُهاجَر الصحفية التي تأكل ملبنا من المال الطائفي.

لكن رغم الملاحظة الظاهرة بأن الكنيسة صارت دولة موازية تحكم قطاعًا من مصر، ورغم أنها قامت بالاستيلاء على الأقباط وحرمت منهم الدولة المصرية وجعلتهم رعايا لدولة الكنيسة..أقول رغم هذا فإنني أستطيع ـ بكل الحزن ـ أن أتفهم ما حدث وأن أعرف أسبابه، بل وأغبط المسيحيين في مصر أن وجدوا كنيسة ترعاهم عندما سقطت الدولة في مصر واختفت، وأنعى على المسلمين حظهم العاثر في عدم وجود فاعل خير ينوب عن الدولة التي ذهبت مع الريح فيرعاهم ويحميهم ويقدم لهم خدمات الدولة!

غير منصف من ينظر للصورة من زاوية واحدة وهو يحمل على الكنيسة ومشروعها السياسي في مصر عندما يتعامى عن أن الذين لم يتعرضوا للاختطاف وظلوا على ولائهم للدولة المصرية كان مصيرهم الضياع والتشرد والجوع، وبعضهم لجأ للانحراف الوظيفي والبعض الآخر دخل عالم الجريمة الواسع والبعض تخلص من حياته بالانتحار في ظل الدولة المصرية المتلاشية.

لا يستطيع أحد أن ينكر أن المشروع السياسي للكنيسة قد حمى من اعتصموا بالكنيسة من شرور كثيرة حاقت بالمصريين الذين ليس لهم كنيسة.. ولعل مراجعة أسماء الغرقى الذين تتواتر أخبارهم كل يوم من الشواطئ الإيطالية واليونانية تنبئنا بأنه ليس من بينهم قبطي واحد لأن دولة الكنيسة لا تسمح لرعاياها بالتشرد ولكن توفر لهم العمل والمأوى والأمان وتحصل على ولائهم التام وطاعتهم العمياء مقابل الرعاية والحماية.

إن دولة الكنيسة الحالية تشبه الدولة المصرية في الحقبة الناصرية من حيث توفيرها احتياجات المواطن الأساسية من الحق في العمل والمأكل والملبس والمأوى في مقابل قمعه سياسيًّا ومصادرة حقه في الحرية والديموقراطية ومعارضة السلطة، كذلك عقد الصفقات باسمه والتصويت نيابة عنه.

كما لا يستطيع أحد أن ينكر أن احتمال تعرض المواطن القبطي للرذالة على يد مخبر خسيس أو أمين شرطة شرس هو احتمال ضئيل، ذلك أن الكنيسة تقيم الدنيا ولا تقعدها لو أن الإصبع الصغير لأحد مواطنيها قد أصيب بخدش.. وهذا للحق أحد أفضال دولة

الكنيسة على أبنائها، ولهذا لا يفترس الوحوش الساديون سوى الرعايا المصريين الآخرين الذين لا كنيسة لهم!

تحية من القلب لدولة الكنيسة التي أصبحت مهيبة ويخشى الأعداء بأسها. ولا يظنن أحد أنني أسخر أو أمزح فمن الخير أن يكون جانبًا ضئيلًا من أبناء الوطن يمثل خمسة بالمائة تقريبًا من المصريين بمنأى عن العذاب والذل خير من أن يكون المصريون جميعا أسفل الحذاء!

رجال البابا.. بتوع العيال!

قام السيد بينيديكت السادس عشر بابا الفاتيكان أخيرًا بزيارة إلى مالطا حيث التقى هناك مجموعة من الذين تعرضوا للتحرش والاغتصاب الجنسي من قبل قساوسة ورجال دين كاثوليك. وقد نقلت الأنباء أن البابا قد استمع من السادة الذين تم استغلالهم جنسيًّا في الصغر على يد رجاله عن حكايات تمزق نياط القلب مما حدا به إلى البكاء من هول ما سمعه.

والحكاية من البداية أن الصحف الألمانية قد كشفت عن فضيحة كبرى تتعلق بقيام مجموعة كبيرة من الكهنة باستغلال الأطفال جنسيًّا طوال فترة السبعينيات والثمانينيات.. وذكرت مجلة دير شبيجل عن أن نحو ١٢٠ شخصًا من ضحايا شذوذ الكهنة الجنسي قد كشفوا عن أنفسهم لدى المحققة «أورسولا راو» وغالبيتهم من التلامذة السابقين الذين استُغلوا من قبل الرهبان والكهنة. وقالت «راو» إن ما يتكشف الآن اتخذ حجمًا لم يكن أحد يتصوره.

هذا وقد ربطت التقارير الواردة من ألمانيا بين فضائح التحرش الجنسي وبين الأسقف جوزيف راتزنجر الذي كان أسقفًا لأبرشية ميونخ عام ١٩٨٠ عندما وافق على أن يستضيف في كنيسته كاهنًا

متهمًا بالاعتداء على الأطفال، وذلك من أجل إخضاعه للعلاج! ومن الجدير بالتنويه أن الأسقف جوزيف راتزنجر الذي تستر على الكاهن المتحرش هو نفسه بينيديكت السادس عشر الذي تم تنصيبه بابا للفاتيكان بعد وفاة يوحنا بولس الثاني عام ٢٠٠٥. وبصرف النظر عن قرار التستر على الكاهن، فالمدهش أن يتم تعيينه مساعد مرشد في الأبرشية رغم المعرفة التامة بجريمته في حق الأطفال والتي تم معاقبته عليها فيما بعد بالسجن ١٨ شهرًا مع وقف التنفيذ!

ولم تكن هذه هي الفضيحة الوحيدة التي تطارد البابا، لكن زاد الطين بلة الكشف عن خطاب كان قد وقعه عام ١٩٨٥ قبل أن يرأس الكنيسة يوصي فيه بتوخي الحذر في تجريد قس كاثوليكي روماني من منصبه بعد أن اعترف بالتحرش الجنسي بالأطفال، وطلب التماس العذر له لصغر سنه! ومن المعروف أن هذا القس واسمه ستيفن كيسل قد حكم عليه بالسجن ستة أعوام بعد ذلك في جريمة جنسية جديدة ارتكبها بحق طفلة صغيرة!

ومن يطالع الصحف الأوروبية الصادرة طوال الشهر الماضي يهوله حجم السباب والسخرية والتهكم التي تعرض لها بينيديكت، فضلًا عن الكم الكبير من الرسومات الكاريكاتورية التي رسمته بشنب يشبه هتلر، وبعضها صوره يجلس مع رجاله يدبرون الخطط للانقضاض على الأطفال، وكلها طالبته بالتنحي وترك كرسي البابوية.

وفي الحقيقة لا أدري إذا كانت دموع البابا في مالطا واعتذاره لمن تم اغتيال براءتهم في حد ذاته يكفي، أم يتعين عليه أن يتقدم باستقالته ويقضي ما تبقى له من عمر يصلي ويطلب من الله أن يسامحه على ما

فعله رجاله بالأطفال وبخاصة أن الفضيحة قديمة وقد جرى التستر عليها زمنًا طويلًا حتى كشفتها الصحافة بآخرة.

وفي الحقيقة إن المرء يحتار وهو يتأمل هذا السلوك من رجال دين كان ينبغي أن يتفرغوا لنشر الفضيلة فإذا بهم يفترسون الأطفال، وهو سلوك نربأ عن أن يرتكبه أفراد من فرقة حسب الله السادس عشر وليس بينيديكت السادس عشر!

السلعوّة

أعينيّ جودا ولا تجمــــدا   ألا تبكيان لصخر النــــدى
ألا تبكيان الجريء الجميل   ألا تبكيان الفتى السيــــــدا
ترى المجد يهوي إلى بيته   يرى أفضل المجد أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألفيتــــــه   تأزّر بالمجــــد ثم ارتــــدى

«الخنساء»

حيوانات السلعوّة المنفلتة

خالد سعيد.. شاب مصري سكندري مثل فلقة القمر،عمره ٢٨ سنة، يعشق الموسيقى وبخاصة الراب.. أنيق، لبق، ذكي، مرح، محب لأهله وأصدقائه ومحبوب من الجميع. إذا نظرت إلى وجهه الجميل تمنيت من الله أن يرزقك بابن في شبابه وجماله أو على الأقل يرزق ابنتك بعريس يشبهه.

ما زلت أنظر إلى صورته التي نشرتها الصحف وهو في كامل بهائه ونضرته وإلى جوارها صورة أخرى لشخص لا يصدق أحد أنه خالد نفسه.. الصورة الثانية لشخص مخلوع الفك مهشم الأسنان محطم الجمجمة متورم الوجه والعينين، الزرقة تكسو صفحته والدماء المتخثرة تضع حدا لحياة الشاب التي انتهت بعد أن تعرض لعدوان وحشي وقع عليه بواسطة اثنين من حيوانات السلعوة المفترسة المنطلقة في الطرقات.

كان خالد يجلس في كافيه للإنترنت عندما دخل اثنان من السلعوة قاما بتفتيش الشباب الجالسين واستوليا على نقودهم كما يفعلان في هجماتهما اليومية. اقترب أحدهما من خالد وتعامل معه بالسفالة المعهودة. لم يقبل خالد أن يتعرض للإهانة وهو الذي يجلس في

حاله، فطلب من السلعوة أن يتكلم بأدب.. لم يحتمل الوحشان أن يريا شخصًا يرفض الإهانة ويرفض دفع الإتاوة، فقاما على مشهد من كل الناس بسحبه للخارج وأخذا يضربان رأسه في الرخام والحديد بمنتهى العنف ثم أنشبا فيه مخالبهما وأعملا فيه أنيابهما، وظلا ينهشان لحمه ويطحنان عظامه لمدة عشرين دقيقة متصلة كانت فيها الفريسة تئن وتتوجع وتطلب الرحمة لكن أيا من الوحشين لم يتوقف لثانية واحدة عن نهش خالد الشاب المهذب الوسيم ابن الناس بكل التوحش والبدائية، ولم يتركاه إلا بعد أن تحطمت جمجمته واختفت ملامحه وصار وجهه مثل العجينة المعجونة بالدماء وفارقت روحه الجسد الذي تهشم وصعدت إلى بارئها تشكو لله إجرام المجرمين وسفالة السفلة وتوحش حيوانات السلعوة الطليقة. مات خالد مقتولًا على يد الوحشين لأنه ارتكب ذنبًا فظيعًا هو أنه اعترض على الإهانة ورفض أن يقوم كلب مسعور بسب أمه وأبيه وطالب أن تتم معاملته كإنسان.

إنني أطلب من كل أب وكل أم أن ينظر إلى صورتي خالد المنشورتين بالصحف قبل القتل وبعده، ثم ينظر إلى صور أبنائه ليتأكد أن كل شاب جميل يشبه خالدًا هو قتيل محتمل.. كل قمر يزين بيوتكم ويعد بتحقيق أحلامكم قد يكون الفريسة التالية، كل ولد ترونه فخر أبيه وعز أمه وسند أخواته البنات من الوارد أن تتسلموا أشلاءه من على الرصيف، كل عريس تعدونه للفرح وللدخول على عروسه من المحتمل أن يسبقوكم ويزفونه للموت مقتولًا، كل شمعة تضيء بيوتكم قد تُصدر الكلاب المسعورة حكمًا بإطفاء نورها إلى

الأبد، وكل ولد رباه أبواه على العزة والكرامة واحترام النفس هو على لائحة الموت التي وضعتها حيوانات السلعوة الطليقة المنفلتة.

لا أحد من أبنائكم بمأمن طالما تتركون الوحوش ترتع بجوار بيوتكم. إياكم أن تناموا مطمئنين إلى أن أبناءكم في أمان لأن أهل خالد أيضًا كانوا يظنون أن ابنهم المهذب الذي يمشي جنب الحيط لا يمكن أن يصيبه أذى، إلى أن أفاقوا على جثة ابنهم ممزقة وغارقة في الدماء ملقاة على الأسفلت!

أتمنى أن يقوم أصحاب السلعوة الذين أطلقوهم على الناس بلم حيواناتهم وجمعها من الشوارع قبل أن يخرج عليهم الناس يمزقونهم ويشربون من دمائهم.

الوطن الذي كان

قالوا عن خالد سعيد إنه بلطجي مجرم وهارب من الأيام، فار من العدالة طريد الفردوس. وقالوا إنه تاجر مخدرات ورئيس عصابة وفتوة وعنده سوابق وخطر على الأمن.

لو كان خالد كذلك هل كان النذلان اللذان قتلاه استطاعا أن يقتربا منه فضلًا عن أن يفتكا به؟

صدقوني لو قلت لكم إنني أشعر بأن خالدًا قد مات لأنه لم يكن شيئًا مما قالوه عنه، وكان في طبعه الهادئ المسالم مقتله. ليته كان قاطع طريق كما ادّعوا عليه.. إذن لصادقوه وتحالفوا معه ولما استطاع أي وحش أن ينهش لحمه، إما بداعي احترام الكار الواحد وإما خوفًا من بطشه!

الناس بعد مقتل خالد أصبحوا يسألون بعضهم بعضا في خوف: ما العمل إذا ما صادفوا أحد حيوانات السلعوة في الطريق؟! ماذا يفعلون إذا طلع لهم من تحت الأرض كما طلع لخالد كائنان مفترسان من حيث لا يدري ولا يحتسب؟ وما النصيحة التي يقدمونها لأبنائهم حتى يحموا أنفسهم من الموت في الشارع؟ هذا السؤال أصبح شغل الناس الشاغل بعد أن رأوا شابًا عاديًا مثل أولادهم يتم تمزيق لحمه

وتحطيم جمجمته وتهشيم أسنانه بدون سبب! الحيرة تستبد بالناس ويسألون أنفسهم كما يسألون جيرانهم: ماذا نفعل إذا خرج لنا وحش من جانب الطريق في ظلمة الليل أو حتى في وضح النهار.. لا فرق؟

المشكلة التي تعذبهم أنه لم يعد باستطاعتهم إذا هاجمتهم السلعوة أن يستنجدوا بالشرطة ويطلقوا الصيحة الخالدة كما في الأفلام المصرية القديمة: يا شاويش.. يا بوليس! وهم لا يستطيعون في الوقت نفسه أن يصرخوا على المارة طلبًا للعون، ذلك أن جمجمة الشهيد خالد خرج منها السائل وانبثق منها المخ على الرصيف بينما الناس يتفرجون ولا يجرؤ أحد على التدخل خوفًا من أن يكون هو الفريسة التالية للحيوان المخيف. لقد كتبت الصحف على لسان صاحب مقهي النت أنه طلب من الوحشين أن يأخذا الفريسة بعيدًا خارج المحل حتى لا يتلوث المكان بدمه وحتى لا يثيرا ذعر رواد المقهى!

هل يتعين على الناس أن يحملوا السلاح خشية أن يبرز لهم الوحش الذي أصبح ظهوره المفاجئ لا يفاجئ أحدًا؟ إن ما يبكيني على القمر المغدور أنه في لحظاته الأخيرة كما قال صاحب المقهى لم يكن يفهم ماذا يحدث له ولماذا! لقد كان مذهولًا حين وجد نفسه يتلقى الضربات الجبارة والدماء تنفجر من رأسه، وفكه ينخلع من دون أن يعرف السبب. إن بإمكاني أن أصدق أن خالدًا وهو يتلقى الضربات كان على استعداد لأن يدفع نصف عمره ويعرف لماذا يضربونه، بشرط أن يتركوا له النصف الآخر، لكنهم أبوا إلا أن يأخذوا عمره كله من دون أن يجيبوه عن سؤاله! وأتصور لو أنه عرف حقيقة الأمر لمات راضيًا بالشهادة، لكنه للأسف مات والسؤال على لسانه: فيه إيه يا جماعة؟

هل يجد خالد في الجنة من يقدم له تفسيرًا عن السبب؟

الأغلبية بخير!

نحن نعرف كما تقول لنا الصحف كل يوم وكما يقول التليفزيون أيضًا أنه في مصر فإن القاعدة العريضة بخير والأغلبية محترمة شريفة ناصعة البياض، أما الجانحون المنحرفون فهم قلة أو شرذمة ضئيلة لا يؤبه لها ويسهل دائمًا محاصرتها والقضاء عليها لننعم بعد ذلك بالحياة الجميلة مع الأغلبية الشريفة.

صحيح أن هناك من المواطنين من يزعم أن الفساد انتشر حتى غطى الحياة كلها في البلد وأن المرء لا يستطيع إنهاء مصلحة بغير تفتيح مخ ودفع رشوة، ولكن هذا النوع من المواطنين يمكن أن تقول إنهم من النوع الفقري الذي لا يحلو له الخروج لقضاء مصالحه إلا في الأيام التي تكون فيها الأغلبية الشريفة في إجازة ولا ينتظر أبدًا حتى تعود ليرى بنفسه كيف تكون الخدمات على أصولها!

نفس الأمر ينطبق على المواطنين الذين يكثرون من الافتراء على رجال الشرطة واتهامهم بشتى الاتهامات رغم أن من بينهم بشرًا من أحسن الناس إخلاصًا للمهنة وخدمة للوطن وتفانيًا في أداء الواجب، وهذه شهادة لا ينكرها إلا جاحد.. ومع ذلك فإن كثيرًا من المواطنين الذين يسوقهم حظهم للمرور بالكمين الليلي فيتعرضون للغباوة في

المعاملة وغلظة القلب والخشونة اللفظية لا يعترفون أبدًا بأن سوء الحظ قد يكون له دخل بالموضوع ويستسهلون إلقاء اللوم على رجال الكمين متناسين أنهم مروا في الوقت الذي كانت فيه الأغلبية المحترمة من الضباط والمخبرين ما بين إجازة سنوية أو إجازة عارضة أو غياب بدون إذن، الأمر الذي أوقعهم في يد القلة التي لا تراعي ربنا ولا تخشى عقاب القانون.

ومثلهم بالضبط من يريد عمل رخصة قيادة بعد أن قضى عدة شهور في مدرسة لتعليم قيادة السيارات واستعد جيدًا للامتحان ومن ثم يتوجه لإدارة المرور ليفاجأ بأناس يؤدون اختبار القيادة وقد قاموا بإسقاط كل الأقماع في اتجاههم للأمام ثم هرسوا الأقماع أثناء عودتهم للخلف ومع ذلك يحصلون على الرخصة أمام عينيه وينطلقون بالسيارات في المدينة!.. هذا المواطن على الأغلب سوف يستسهل إلقاء اللوم على حالة الضياع التي أغرقت الوطن، خصوصا لو كان يرى هذا المنظر يتكرر في كل مرة يزور فيها إدارة المرور.. لكن النظرة المتأنية قد تكشف للمواطن أن الأمر لا يعدو أن يكون مصادفة سيئة هي التي تجعله يتخير أيامًا غير مناسبة تكون فيها الأغلبية العارفة للأصول والملتزمة بأداء الواجب خارج ساعات العمل الرسمية أو خرجت للتو وستعود بعد قليل.. لكن قلة الصبر تجعل المواطن لا ينتظر فيضطر للتعامل مع القلة الجانحة.

الأمر عينه يحدث للمواطن إذا احتاج للمستشفى بعد منتصف الليل ويحدث له أيضًا إذا احتاج نفس المستشفى في عز النهار، فعادة ما يجد ممرضين بلا قلب وأطباء يكرهون المرضى.. وقد تصور له نفسه المفترية أن الطب راح في التسونامي والتمريض مات وشبع

موتًا من دون أن يحاول اختبار فرضية أن العيب قد يكون في الظروف التي جعلته يمرض في وقت الإجازة السنوية للأغلبية الشريفة.

ومثلهم من ينتظر الإسعاف أو يطلب المطافئ أو يريد عمل محضر أو ينهي إجراءات صرف المعاش أو يريد تنظيم مظاهرة أو استخراج شهادة ميلاد أو تسجيل قطعة أرض أو الحصول على قرض أو ركوب تاكسي أو الإبلاغ عن جريمة أو طلب سباك أو شراء بطيخة.. كل هؤلاء لا يكلف الواحد منهم نفسه أن يستيقظ مبكرًا ليلحق أفراد الأغلبية المحترمة التي تؤدي الواجب بشرف ثم ترحل سريعًا.. سريعًا لدرجة لم تجعل أحدًا ممن أعرفهم على الأقل يحظى بشرف لقائها.

من يلجم الكلب العقور؟

عندما شاهدت بالصحف وجه الطالب المصري ذى العشرين ربيعًا الذي خرج يتظاهر مطالبًا بالحرية وقد تورمت وجنتاه وبرزت عظام وجهه والتصقت عيناه وانبعجت تضاريسه وانمحت ملامحه وضربت الزرقة المشوبة بلون الدم كل بقعة من جسمه.. ظننت للوهلة الأولى أن وابور زلط قد عبر فوقه جيئة وذهابًا عدة مرات. غير أن المكتوب تحت الصورة كان مما يشل العقل ويصيب الدماغ بالتوهان، لأن الشاب الذي صار وجهه شوارع كان متهمًا بأنه قام وحده وبدون مساعدة من كتيبة مظلات أو وحدة كوماندوز بضرب عشرين من رجال البوليس الغلاظ الأشداء ما بين ضابط ومخبر وعسكري فجندلهم جميعًا وأحدث بهم عددًا من الإصابات شهدت بها تقارير طبية كتبها نفر ممن أقسموا قسم أبقراط!

وقتها كان ما يشغلني هو الإجابة عن السؤال التالي:من الذي علمهم هذه الأساليب المنافية لطبع الشعب المصري الذي لم يُعرف عنه أبدًا كل هذه القدرة على الافتراء؟

اليوم عرفت الإجابة بعد أن أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي أن النشطاء المدنيين الذين كانوا على متن سفن أسطول الحرية الذين

تألفوا من برلمانيين ومثقفين ينتمون لأربعين دولة قد قاموا بالاعتداء على القوة الإسرائيلية المسلحة المزودة بزوارق حربية منصوب عليها مدافع وصواريخ والمعززة بأسراب من الطيران الحربي المحلق فوق السفن، وأحدثوا بالقوات الإسرائيلية إصابات اضطرت جيش الدفاع الإسرائيلي إلى القيام بقتل عشرين وإصابة ستين آخرين دفاعًا عن النفس!!

الآن عرفت من هم المعلمون والأساتذة الذين ألهمت دروسهم الصبيان والتلامذة في كيفية ارتكاب الجرائم بمنتهى الوحشية ثم الادعاء بدون حياء بأن القتيل الأعزل هو الذي بدأ بالعدوان.. أو لعل تبادل الخبرات بين الطرفين هو الذي يصل بالأداء إلى هذه الذرى الرفيعة.. ولا أستبعد أن تقوم إسرائيل بتقديم من بقي على قيد الحياة من الناشطين النبلاء إلى المحاكمة! ومثلما أن العصبة التي «خرشمت» وجه الفتى الصغير ثم ادعت عليه زورًا وبهتانًا لم تلق الذي يحاسبها أو يردعها أو يمنعها من تكرار ذلك في المستقبل.. كذلك العصابة الحاكمة في تل أبيب لن تجد من القوى أو المنظمات الدولية من يتصدى لوحشيتها ويضع رأسها في اللجام.. وسوف تجد كل التأييد من أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا، وسوف تستمر في البلطجة والإجرام طالما وجدت العون من القادة العرب الذين وقفوا اليوم يتفرجون على أردوغان وهو يدافع وحده عن الشعب الفلسطيني الأسير في غزة، وسوف يظل السيف الإسرائيلي يفوت في الجسد العربي ما دمنا ندع تركيا وحدها تقوم بتقديم الشهداء نيابة عنا.

إن أشد ما يحزن في المشهد الدموي الذي صنعته إسرائيل أن أسطول الحرية والنشطاء الثمانمائة ما كان لهم أن يتحركوا ويخاطروا

ويقعوا تحت رحمة البرابرة الإسرائيليين لو أن معبر رفح كان مفتوحًا وإمدادات الغذاء والدواء والوقود كانت تصل إلى أهل غزة.. وإن ما يملأ النفس مرارة أن مصر قد عرضت على سفن أسطول الحرية أن ترسو في العريش بدلًا من الذهاب إلى غزة، لكن أحدًا لم يصدق الدعوة ولم يأخذها على محمل الجد، ذلك أن الناشطين الذين وفدوا إلينا في القافلة السابقة بقيادة جورج جالاوي ما زالوا حتى الآن يتلقون العلاج في المستشفيات ولم يتعافوا بعد من أثر حفاوة اللقاء!

مصر في مواجهة السلعوة

أرض الله في مصر واسعة وبرحة وفسيحة، وتتسع لكل الأخيار والأشرار، وتستطيع أن تستوعب أحلام الجميع: أحلام البسطاء في لقمة العيش وشربة الماء النظيفة في ظل شجرة، وأحلام الأشرار الخبثاء الذين يريدون مراكمة الثروة واقتناء الأشياء بنهم وشره لا يعرف الاكتفاء.. كل الأحلام يمكن أن تجد لنفسها مكانًا على أرض مصر الشاسعة.. ومع هذا فإن رجال الأعمال السفلية وأصحابهم في السلطة يستكثرون على الناس أبسط الأشياء.. وإلا لماذا يتركون الدنيا كلها، يتركون مليون كيلو متر مربع هي أرض مصر الفضاء ويقومون بالتنشين على بقعة أرض بذاتها تم اختيارها بعناية لإقامة المفاعل النووي وهي أرض الضبعة بالساحل الشمالي، ويصرون على إقامة مشروع سياحي عليها غير عابئين بأن ذلك الموقع هو الذي استقر العلماء منذ سنين على إقامة المفاعل النووي به؟!

ونفس رجال الأعمال السفلية يتركون ذات المليون كيلو متر الممتدة من الإسكندرية إلى أسوان ومن رفح حتى السلوم ويسنون مناشيرهم لاقتطاع قطعة الأرض الزراعية اليتيمة بالأقصر التي يعيش عليها مزارعون بسطاء وذلك ليقيموا عليها مدن الملاهي

والديسكوهات من دون أن يفكروا في أصحاب الأرض، ومن دون أن يرف لهم جفن من جريمة قتل الأرض الخضراء التي هم مقدمون عليها.

وكانوا قبل ذلك قد تجاهلوا خريطة مصر بأكملها وأعرضوا عن كل الأماكن التي يمكن عليها إقامة مصنع للأمونيا يملأ محيطه تلوثًا، واختاروا بإصرار مريب مدينة رأس البر الجميلة التي تعتبر أجمل وألطف وأرق مصيف في مصر كلها عند تلاقي نهر النيل بالبحر المتوسط! أجمل مكان سياحي ترفيهي عائلي يختارونه لإقامة مصنع، وأكثر موقع مناسب للمفاعل النووي يختارونه لإقامة منتجع سياحي! هل هي مؤامرة لتخريب هذا الوطن الذي كان آمنًا؟

الأمر الغريب أن هؤلاء المخربين يجدون مسؤولين يرحبون بهم ويذللون الصعاب لهم ويسعون جاهدين لخدمتهم في القضاء على كل ما هو جميل في مصر. كان في إمكان المسؤولين أن يفردوا الخريطة أمام كائنات السلعوة المفترسة وأن يدلوهم على أماكن أخرى تصلح لإقامة مشروعاتهم المدمرة التي لا نحتاجها سواء مصنع رأس البر أو ملاهي الأقصر أو منتجعات الضبعة.. كان بإمكانهم أن يمنحوهم التسهيلات ويقتسموا معهم المغانم في أماكن أخرى فاضية من أرض الوطن الواسع دون أن يفسدوا علينا حياتنا ويزيدوا أيامنا عكارة، لكنهم وكأنما قد دخلوا بعضهم مع بعض في سباق وتحدٍّ أيهم ينشر أكبر قدر من الخراب وأيهم يحيل حياتنا جحيمًا وأيهم يفلح في قتل المصريين غمًا وكمدًا؟!

عندما قرأت للمرة الأولى عن زيارات مشبوهة يقوم بها مسؤولون

في السياحة بصحبة خواجات إلى الضبعة تحت جنح الظلام كنت أعتقد أن منسوب الطراوة قد ارتفع في عقل الصحفي محرر الخبر إلى درجة جعلته يهلوس، لأنني كنت أحسب أن المشروع النووي خط أحمر لا يجوز العبث معه واللعب في حرمه أو إلى جواره، وأن هناك في مصر قوى صلبة لا يجوز الهزار معها.. لكن الأيام تمر ويثبت لي أن الأمر جد لا هزل فيه وأن ما أتصوره خطوطا حمراء هو مراع خضراء يرتع فيها الوحوش وحيوانات السلعوة، ويضعون خططهم الملعونة وهم آمنون مطمئنون بأن مصر تحت تأثير المخدر لن تقوى على ردعهم.

لا أدري لماذا تحضر في ذهني دائمًا صورة الفلاحة المصرية التي كتبت عنها الصحف، تلك المرأة الضعيفة التي نهضت من فوق ماجور العجين وهجمت على حيوان السلعوةالذي تسلل إلى الدار وأخذ طفلها بين أنيابه محاولًا افتراسه، فدخلت في معركة حياة أو موت مع الحيوان المسعور وأنشبت أظافرها وأسنانها وأعملت يديها وقدميها في الوحش حتى صرعته في النهاية وانتزعت وليدها الصغير وضمته إلى حضنها.

الشرف الرفيع

تتسارع خطوات الغضب في مصر بين جموع المحامين ووراءهم نقابتهم وبين رجال القضاء والنيابة بسبب احتكاك وقع بين أحد المحامين وأحد رؤساء النيابات في طنطا الأمر الذي تطور إلى إلقاء القبض على اثنين من المحامين وتقديمهما لمحاكمة سريعة قضت بحبسهما خمس سنوات!

نقلت الصحف أن الأمر بدأ حين دخل المحامي مكتب رئيس النيابة دون استئذان فطلب رئيس النيابة الحرس الذي قام بتقييد المحامي مما أتاح له توجيه صفعة للمحامي! ونقلت الصحف أيضًا أن المحامي تحين الفرصة بعد قليل وقام برد الصفعة لرئيس النيابة لتشتعل الدنيا بعدها وتصل إلى الحكم بحبس المحامين.

من وقتها والحرب دائرة بين نقابة المحامين التي دعت أعضاءها فاستجابوا للإضراب وقاموا بشل عمل المحاكم في طول البلاد وعرضها مطالبين بالإفراج عن زميليهم وإقامة محاكمة عادلة تشمل مدير النيابة أيضًا.

هذا ملخص الأحداث الدرامية التي دخل نادي القضاة طرفًا فيها

ملوحًا بتوجيه ضربات موجعة للمحامين الذين ردوا باقتحام مجمع محاكم المحلة بالغربية واحتجاز المحامي العام لنيابات شرقي طنطا.. وما زالت النار مشتعلة.

ما يثير دهشتي في الموضوع أكثر من أي شيء آخر أنني لم أستطع استساغة حكاية «الكرامة» التي رددها الجانبان واتهم كل طرف فيها الطرف الآخر بمحاولة الحط منها والاعتداء عليها.. وفي هذا عندي أسبابي...

فعلى سبيل المثال لا تخلو الصحف في معظم الأيام من أخبار عن اعتداءات يتعرض لها المحامون على يد الشرطة مثلما حدث الشهر الماضي عندما تجمهر بعض المحامين أمام المحكمة الجزئية في حلوان مطالبين بنقل أحد الضباط الذي اتهموه بضرب زميل لهم! وعلامة التعجب سببها أن المحامين لم يظهروا غضبًا يليق بالاعتداء بالضرب على محام زميل وإنما اكتفوا بطلب نقل الضابط بدلًا من إقامة دعوى ضده والزج به في السجن، ولم نسمع وقتها صوت نقابة المحامين الذي يصم الآذان هذه الأيام! هذه واحدة..

والأخرى هي الأخبار التي لم تعد مستغربة في أيامنا السوداء هذه عن اعتداء بعض رجال الشرطة بالضرب على بعض القضاة مثلما حدث في مطار الأقصر منذ عدة شهور ونشرته الصحف عن اثنين من القضاة بمحكمة أسوان الابتدائية قام نقيب شرطة وأمين شرطة بإهانتهما والاعتداء عليهما بالسب والضرب في المطار.. وقتها قرأنا عن إصرار القاضيين على القبض على النقيب والأمين وتقديمهما للمحاكمة، ثم انقطعت الأخبار بعد ذلك ولم نعرف ماذا تم في

الموضوع!.. ولم نر وقتها غضبة مُضريّة من جموع القضاة ولا من ناديهم لأخذ حق زميليهما والقصاص من رجال الشرطة المعتدين.

وطبعًا لم ينس الناس العلقة التي نالها أحد القضاة على باب ناديهم بوسط البلد من أحد الضباط، ولم يشفع له إخراج كارنيه النادي كما لم يشفع له كونه قاضيًا ابن قاض!.. وتم حينها نقله للمستشفى حيث تلقى العلاج قبل أن يخرج ويتصالح مع من اعتدى عليه وحطّم عظامه!

حدث ذلك من دون أن نسمع أصوات رجال القضاء تتوعد بالثأر من المعتدي الأثيم وتحيله إلى المحاكمة!!

ما الذي نصل إليه من الوقائع السابقة؟ أنا شخصيًّا فهمت أن الطرفين (المحامين والقضاة) لا يرون بأسًا كبيرًا في الاعتداء بالسب والضرب إذا كان المعتدي ينتمي إلى الشرطة.. أما إذا كان المعتدي على المحامي عضو نيابة أو قاضيًا، والمعتدي على رجل القضاء محاميًا.. فهنا وهنا فقط..لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدمُ!

السعد وعد

الندل له طعم مالح ولـه خصايل ذميمة
القرب منه فضايح والبعد عنه غنيمة

«ابن عروس»

الدكتور زويل وتابعه.. المسلماني

في المنتدى العربي للإعلام الذي جرت فعالياته بدبي (مايو ٢٠١٠) قام الدكتور أحمد زويل بإلقاء محاضرة حظيت بحضور مكثف من جانب الإعلاميين العرب الذين يعرفون قدر الرجل وما حققه بجهده ودأبه وأمانته العلمية.

استمعت إلى المحاضرة من ضمن من استمعوا فوجدت نفسي في حيرة.

وقد أوقعني في الحيرة أنني أحب هذا الرجل وأفخر به ولا أجد بأسًا في أن «أتعايق» به كما يفعل العرب جميعًا!

هذا المنتدى مخصص لمناقشة القضايا الإعلامية، بينما الدكتور زويل عالم وليس إعلاميًّا، لكن لا بأس في أن يشرف المنتدى بوجوده وأن نستمع منه إلى آخر إنجازاته العلمية أو إلى تجربته في الحياة وقصة كفاحه التي أوصلته إلى ما هو عليه الآن.

ولكن الدكتور زويل لم يحدثنا فيما هو خبير فيه وتحدث إلينا فيما يجهله.. وهذه على أي الأحوال هي آفة معروفة في عالمنا العربي، إذ إنه بمجرد أن يبرز فرد بيننا ويحقق نجاحًا في عمله حتى نوسعه

استضافة في الإذاعة والتليفزيون والصحافة واللقاءات والمنتديات سواء كان عالمًا كزويل أو أديبًا كمحفوظ أو مدرب كرة كحسن شحاتة أو لاعبًا مثل جدو!

وفي كل الأحوال تنهال عليه الأسئلة في السياسة والاقتصاد والإعلام والقضايا الدينية والفلسفية متناسين أنه متخصص في شيء واحد فقط، وأنه حتى لو كان من المهتمين بالثقافة والشؤون العامة فإنه في هذا المضمار لا يعدو كونه واحدًا من ضمن ملايين لا يملكون ما يؤهلهم للحديث في كل أمور الكون!

تحدث الدكتور زويل عن علاقة الإعلام بالتطور العلمي فلم يضف جديدًا، وكان معظم ما قاله مردودًا عليه وقابلا للنقاش، بل إن النقاش في هذه الحالة كان فريضة واجبة حتى لا يفتتن الناس بالعالم المشهور ويصدقوا أن آراءه حول الإعلام والسياسة هي حقائق ثابتة لا يجوز الاختلاف معها، بينما الواقع أنها اجتهادات تستوجب المناقشة والاختلاف الذي لا ينال بالطبع من مكانة العالم الكبير.

ومع هذا فإن المشكلة الكبرى هي أن هناك دائمًا وسطاء يسعون لوضع أنفسهم بدون مناسبة بين الناس ومن يحبونهم.. ومثال لهذا ذلك الدور الغريب الذي يقوم به الأستاذ أحمد المسلماني الحاصل على توكيل الدكتور زويل في الشرق الأوسط، والذي لم يترك للرجل فرصة للتفاعل مع الحضور والإجابة عن أسئلتهم رغم استعداد زويل لذلك!

وكذلك لم أفهم الكلمة التي قام المسلماني فيها بتقديم الرجل وكأننا لا نعرفه، في حين كان يجب ترك هذه الكلمة للجانب الإماراتي

الذي دعا الرجل عرفانًا بقيمته، لكنها الرغبة في احتكار زويل وفرض الوصاية عليه!

ولم يعجبني أبدًا أن يقوم المسلماني باختيار من يرغبون في مناقشة الرجل ومحاورته، وكان يمكن أن يقوم بهذا زويل بنفسه أو أن يتم تلقي الأسئلة قبل الندوة ووضعها (بأمانة) بين يديه ليجيب عنها. لكن ما حدث كان شيئًا غريبًا أثار استياء الحضور عندما تم تجاهل كل الذين اشتمّ منهم المسلماني أنهم قد يوجهون أسئلة ذات قيمة، فقام بدور الرقيب ومنع أسئلتهم عن الرجل ناسيًا أنه قادم من أمريكا حيث يقوم الناس بمحاجاة رئيس الجمهورية ومعارضته من دون غضاضة. وقد آلمني أن ما حدث قد أثار استياء معظم الإعلاميين الذين حضروا والذين وقف المسلماني بينهم وبين التفاعل المباشر مع زويل، وبخاصة أنهم ليسوا من الدهماء لكنهم في معظمهم قامات إعلامية سامقة قام المسلماني بقمعهم وكأنه يمثل في مواجهتهم الجناح الإعلامي للأمن المركزي!

وأخشى أن هذا قد مس صورة الدكتور زويل لديهم من دون ذنب جناه بسبب أن هناك من يريد أن يضفي على نفسه أهمية زائفة من خلال الالتصاق برجل عظيم، لكنه لا يقوم في الواقع إلا بالإساءة إليه!

وفي الحقيقة عندما أنظر حولي أجد فيضًا من الرجال العظماء الذين تفخر بهم أي أمة، وكنت أتمنى أن يكون هناك مسلماني للدكتور البرادعي ومسلماني للدكتور محمد غنيم ومسلماني للمرحوم عبد الوهاب المسيري وكل منهم لا يقل عن الدكتور زويل عظمة وتميزًا، لكن أحدًا منهم لم يصادف مسلمانيه بسبب أن السلطة لا تستلطفهم، والقرب منهم ليس به سفر وأنس وفرفشة وفلاشات!

السعد وعد يا عين

عاد بلال فضل للكتابة اليومية من جديد بعد أن كنا قد استرحنا منه لفترة طويلة.

عاد لينكد على الناس الطيبين ويضايقهم ويكتب عنهم أشياء غير ضرورية وغير لطيفة متناسيًا عطاءهم الكبير في خدمة الأوطان. وإلا فما معنى أن يكتب متهكمًا على حصول الدكتور مصطفى الفقي على جائزة مبارك في العلوم الاجتماعية ومعها أربعمائة ألف ننّيخ (النّنّيخ عملة مملوكية كانت قد اندثرت ثم عادت لزوم الجوائز).

وما معنى أن ينتقد بلال تسمية الجائزة باسم الرئيس مبارك؟ إن كل الشعوب التي تحب حكامها تتنازل طوعًا عن الاسم العذري قبل الزواج، فلماذا الاندهاش؟ وما معنى أن يكتب بلال أن هناك من العلماء ذوي الثقل والإنتاج العلمي من كانوا أجدر من مصطفى الفقي بالجائزة؟ ألا يدخل هذا في باب الاعتراض على حكمة ربنا الذي يؤتي النفحات من يشاء؟ لقد ناقض بلال نفسه عندما اعترف بأن الدكتور الفقي شخصية اجتماعية إلى أبعد حد بدليل أنه لا يترك ندوة أو حفل كوكتيل إلا حضره، ثم يستكثر عليه بعد أن أقر بجدارته الاجتماعية أن يفوز بالجائزة!

إن كان بلال يعتقد أن الدكتور الفقي ليس له إنتاج علمي يبرر حصوله على الجائزة فهو غلطان؛ لأن هذا الإنتاج موجود بكل تأكيد وقد تعثر عليه الأجيال القادمة، ولا يجب أن نبرر فشلنا في العثور عليه بنفي وجوده! وهناك نقطة أود أن ألفت انتباه الصديق العزيز بلال إليها وهي أن المناصب والجوائز وما تجلبه من بنكنوت هي في النهاية رزق من السماء كما صرح الرئيس السوداني عمر البشير ذات مرة عندما سألوه عن كثرة المدد الرئاسية التي تولاها.. قال الرجل إن الرئاسة هي رزق بعثه الله إليه ومن يعترض على إرادة الخالق فليتحمل نتيجة مروقه في الدنيا والآخرة.

فهل يريد بلال أن يكون من المارقين الذين ينفسون على الناس ما أتاهم من السماء؟ ثم لا تنس يا بلال أن الدكتور مصطفى الفقي هو صاحب نظرية المنور وبير السلم والدور المسروق وأشياء كهذه.. والمعنى أنه من الجيل الذي لم يحصل على شيء؛ لأن الوقوف في المنور والدنيا ضلمة لا يجعل المرء ظاهرًا فيختارونه وزيرًا أو حاكم مقاطعة، فليس أقل من تعويضه بجائزة دأبت الدولة على منحها لكل عابر سبيل.

ولا تقل لي يا بلال إن الدولة عوضته بمنحه مقعدًا في مجلس الشعب على رغم إرادة الناخبين الذين صوتوا لخصمه، ولا تُعِدْ على مسامعي قصة القاضية نهى الزيني ومعها ١٥٠ قاضيًا شهدوا بخسارة الدكتور الفقي للانتخابات ثم تعتبر هذا بمثابة مكافأة منحوها له؛ لأنني في الحقيقة لا أعتقد أن الرجل قد كسب شيئًا من هذا المقعد، لكني أظن أنه اعتبره ابتلاءً صبر عليه لينال فيما بعد جزاء الصابرين الذين احتملوا المساس بمصداقيتهم وسمعتهم أمام الناس. فبالله

عليك لا تنكأ الجراح ودع الرجل يهنأ بمقعده في مجلس الشورى الذي أتى بالتعيين هذه المرة توقيًا لحرج التزوير!

ثم هل تظن أنك تحرج الفقي عندما تسأله عن رأيه الشخصي في تسمية الجائزة باسم الرئيس مبارك وما إذا كان من الأفضل أن تتسمى باسم مصر؟ لعلمك يا بلال إن أسئلة من هذا النوع لا يمكن أن تنال من رجل في قوة الدكتور مصطفى الفقي، ثم إنك لم تحدد للرجل هل تريد إجابة علنية تنشرها وسائل الإعلام أو تريد إجابة شخصية يهمس بها في أذنك بعد أن يلقاك خارج البلاد؟ يجب أن تكون دقيقًا وتحدد مطلبك بوضوح.

وهناك شيء أخير أود التذكير به، وهو أن الدكتور محمد إبراهيم سليمان وزير الإسكان السابق قد نال وسمًا رئاسيًّا رفيعًا بعد أن ترك الخدمة تقديرًا لعطائه لمصر، في حين أن الدكتور مصطفى الفقي لم يحصل على أي أوسمة بعد تركه للخدمة وهو صاحب عطاء مماثل.. فهل هذا عدل؟

إني على استعداد لأن أتنازل عن كل الجوائز التي حصلت عليها ومن بينها ميداليات وكؤوس وعدد ٣ فوفوزيلا للرجال الذين خدموا مصر بإخلاص، غير أن ما يمنعني أن هذه الجوائز قد حصلت عليها في دورات رمضانية في رياضات عنكب وكُع والبرغوتة، ولا أظنها تليق.

لكن أضعف الإيمان أن نترك هؤلاء الرجال يهنئون بجوائزهم وأوسمتهم من دون مضايقة.. ولا تنس يا بلال شيئًا مهمًّا وهو أن السعد وعد.. عشان خاطري يا بلال!

نقرة واحدة مقرفة

ليس مستغربًا قيام بعض رجال الفكر والأدب والسياسة ممن حوت حياتهم تجارب عريضة أن ينقلوا جانبًا منها إلى القراء خصوصا إذا كان من ضمن هذه التجارب اقترابهم من شخصيات لها وزنها وقيمتها وفي الحديث عنهم ما يمتع القارئ ويفيده ويسليه.

ومن هذا اشتهرت كتابات بكل اللغات تحت اسم عرفت هؤلاء أو أنا وهؤلاء.. إلخ.

لكن من ضمن شروط هذا النوع من الحكي أن يكون صاحبه متمتعًا بمصداقية واحترام، وأن يكون القراء قد اعتادوا منه الصدق والاستقامة حتى يكون لحواديته قيمة ونفعًا، وكذلك أن تكون قد ربطته بالشخصيات التي يحكي عنها علاقة حميمة حقيقية... أما أن يكون صاحب الحكايات مزورًا عتيدًا ومحترف فشر ومساندًا للفساد، ومع هذا يحاول التمسح بالفكر والثقافة زورًا وبهتانًا والانتساب إلى أهل الكتابة تعسفًا وجورًا مستغلًّا حالة الفوضى الشاملة وضعف ذاكرة الناس فيستمر في الكتابة الأسبوعية لعدة سنوات عن شخصيات يزعم أنه دنا منها وعرفها عن قرب، ويأخذ في سرد قصص مملة سقيمة مليئة بالأكاذيب عن أناس لا يعرف معظمهم أو يعرفهم لكنهم لا يعرفونه فهذا مما يدخل في الدجل

الذي تتحمله الصحيفة قبل أن يتحمله الهجاص الراوي.. وبخاصة أن الصحيفة دأبت على أن تضع تنويهًا لهذا الهلس بالصفحة الأولى كل أسبوع وكأنه حدَثٌ مهمٌّ!

سنوات والناس تتوقع أن يتوقف الأستاذ ويفرغ من حواديته الركيكة وهو لا يتوقف، حتى صاروا يدركون أنه يكتب عن أي أحد تصادف وسار معه في نفس الشارع بعد أن فرغت الحكايات شبه الحقيقية من زمان!

والشخصيات التي يروي عنها تنقسم إلى أنـواع: بعضهم شخصيات عظيمة حقًا مما يستبعد معه أن يكون قد صادقهم فعلا، وأنا على يقين أنهم ينظرون إليه نفس نظرة رجل الشارع العادي له! وبعضهم شخصيات محدودة القيمة ولا شأن للناس بصداقته بهم.. والغريب أنه في سرده لحواديته عن أولئك وهؤلاء لا يتبحبح ويأخذ راحته إلا وهو يروي عن الأموات الذين لا يستطيعون تكذيبه، أما عندما يحكي عن الأحياء من ذوي القيمة فسرعان ما يكتشف القارئ أن العلاقة التي ربطت الأفندي بهم لم تتعد لقاء عابرًا أو مصافحة على الماشي أو تبادل بعض عبارات المجاملة في حفل أو ما شابه!.. ومع ذلك يستغل أسماءهم في ملء المساحة وفي كتابة أشياء من المؤكد أنهم أنفسهم يضحكون وهم يقرءونها.

أما المفارقة المثيرة للتأمل فهي أن الصحيفة التي يكتب بها حكاياته المملة هي نفسها التي قامت منذ سنوات ـ في ضربة معلم ـ بفضح جريمة التزوير الكبرى بمجلس الشعب والتي كان بطلًا لها!

ولعلهم يعتقدون أن هذه نقرة وتلك نقرة أخرى.. مع أنها كلها نقرة واحدة.. مقرفة!

البرادعي والشخصيات القذرة

هل يولد الناس وصفحتهم بيضاء نقية ثم تبدأ خربشات الزمن ووساخات البشر تخط على الصفحة سطورها وتلقي عليها قاذوراتها؟ أو أن هناك من البشر من يولدون وطائرهم معهم، فيرضعون زبالة من أول لحظة ثم يصيرون بعد ذلك مكبات نفايات غير محكمة الغلق تمشي على الأرض وتسعى بين الناس؟

مناسبة هذه التساؤلات هي أنني لم أستطع أن أفهم أبدا لماذا توعد أحد الضباع الضارية الدكتور البرادعي بالاعتقال؟ ولا أنفك منذ أن أطلق الضبع تهديده أفكر في الدواعي التي حدت به إلى أن يقطع كل صلة كانت تربطه ببني البشر ومن ثم يلتحق بدنيا الضباع التي لا تواجه الفرائس ولا تقوم حتى بالصيد أو القنص أو الافتراس وإنما تكتفي بكل دناءة بالتعيش على الجيف والرمم والجثث المتعفنة.

حاولت أن أصل إلى العناصر التي صاغت تكوين هذا الكائن وأمثاله ومعرفة الأسباب التي أوصلته لهذه الحالة وأن أفهم المراحل التي مر بها قبل أن يصل إلى مستوى الضبع الدنيء، وتساءلت بيني وبين نفسي هل هو ضيق الرزق؟ هل هو غياب القدوة؟ هل هي النفس الفاجرة الصغيرة التي ترغب في المال والمنصب والضوء

والحماية بأي ثمن؟ أم هو الخواء والضعف المهني والثقافي وبالتالي محاولة الاستفادة من غياب العدل والاستعداد لتكملة النقص النفسي الحاد من خلال الزحف حول أحذية ذوي السلطان وطلب القرب من نعالهم وشباشبهم.

كنت أتحدث مع أحد الأصدقاء عن هذا النوع من المخلوقات وأنا في شدة الغضب نتيجة عجزي عن فهم كيف يمكن أن يفكر أحد العبيد في إلحاق الأذى بشخص يسعى لأن يحرره من العبودية والحياة المدنسة ويعيده إنسانًا من جديد عن طريق الديموقراطية والعدل والفرص المتساوية؟ علّق الصديق بأن مسألة العدل والفرص المتساوية هذه هي بالضبط ما يخيف الضبع وأمثاله لأنهم يعلمون جيدًا أن الشفافية والنظافة ستكشف حقيقة أنهم خلقوا للعيش في المزابل وتبين أنهم لا يستحقون لا المال ولا المناصب ولا النفوذ ولا حتى الطلة على الناس من خلال التليفزيون..

وأضاف صديقي أن حكاية التليفزيون هذه مهمة للغاية لان برامج «الصراع» التي انتشرت في الفضائيات قد خلقت طلبًا عاليًا على الضباع والذئاب والنسانيس، ومن سمات هذه البرامج أنها تستضيف شخصيات متعارضة لإضفاء حيوية على الحوار، وقد كان من الممكن في الأزمنة النظيفة أن يوجد شخصيات متعارضة يحظى كل منها بالاحترام، لكن في زمان العفن فإن هذه البرامج تجلب شخصية محترمة أو على الأقل تحاول أن تكون كذلك كأحد أطراف البرنامج، ويكون الطرف الآخر شخصية قذرة تحظى باحتقار المشاهد، وهذه الشخصيات القذرة تسعى من إستوديو إلى إستوديو ومن برنامج إلى آخر، لذلك فإنهم يقاومون بشدة التغيير الذي قد

يعيد للوطن نظافته ويعيد للمواطن آدميته ويؤدي إلى تعديل نمط البرامج التليفزيونيةو استغناء الفضائيات عن الشخصيات القذرة وهذا ما لا يقدرون عليه!

وختم صديقي كلامه قائلًا: هل عرفت أيها الساذج لماذا قام الضبع بتهديد الدكتور محمد البرادعي الرجل الشريف الفائز بجائزة نوبل للسلام والساعي إلى تحرير العبيد والاستغناء تمامًا عن خدمات الشخصيات القذرة؟

يا أنا يا خالتي..

المتهم بريء حتى تحضر خالته.. مبدأ قانوني معروف في جزر البحطيطي. ورغم أن هذا المبدأ يكفل للمتهم أقصى عدالة ممكنة فإنني متنازل عن هذا الحق حتى أقطع الطريق على خالتي التي حتمًا سوف يسعدها أن تحضر حتى تتم إدانتي!

وأنا بصراحة قد حولت موقفي من خالتي بنسبة مائة في المائة بعد كل ما فعلته لإلحاق الضرر بمصالحي وبعدما لم تراع استثماراتي كما تفعل مع أولادها.. وشعاري من الآن سوف يكون يا أنا يا خالتي.. لماذا؟.. أقول لكم:

تعرفون طبعًا أنّ ياما قلبي قال لي لأ وأنا ألاوعه.. وقد لاوعته طويلًا حتى ظن أنه ليس قلبي وإنما قلب الليل، وقد أعلن فقدانه الثقة بي وقرر أن يمنح ولاءه لمن يدفع أكثر، وأنا لا أملك سوى حب بلا حدود وعلبة كشري خالي العدس صلصة زيادة، فهل يقبل قلبي أن يشاركني لقمتي ويكف عن أن يقول لي لأ؟

سكت قلبي وتحدثت إليّ الزهرات الجميلات كيف أنّ أعينها اتسعت دهشة.. لحظة القطف، لحظة القصف، لحظة توقيع أحمد

المغربي على عقد يمنح أحمد المغربي مليون متر مربع بتلاتة تعريفة لم يدفع منها شيئًا.. ومارادونا بتاع الأرجنتين.. بعت لي ألعب وينج يمين. اعتذرت لمارادونا لأني أشوَل، فأرسل لي باقة عليها بطاقة، قرأتها وأنا بين إغماءة وإفاقة.

أزهار مارادونا جاءت إليّ وأحزانها الملكية ترفع أعناقها الخُضْر كي تتمنى لي العُمر حتى أعيش ثم أموت كمدًا بفعل الأيام التي تخلت عني فيها خالتي وولاد خالتي ولم يخرج من كوع نطع منهم أن يهبني أرضًا حتى لو كانت نصف مليون متر فقط من الأرض التي ترتفع أسعارها بعد ربع ساعة من التوقيع.

ولو كانت خالتي فيها الخير لكان لها في الرجل السعودي الطيب أحمد المغربي أسوة حسنة، هذا الرجل الذي ضرب خير المثل في البر بأهله وعشيرته وبخاصة ولاد خالته. ألم تروا كيف منح واحدًا منهم مليون متر من الأرض اللي مثل اللوز، ولم يكتف بهذا وإنما اصطحب ابن خالته الآخر واقتنص معه جزيرة آمون الساحرة على النيل بتلاتة تعريفة أيضًا قبل أن يلغي الرئيس التعاقد. ولا أدري حقيقة سر إلغاء عقد جزيرة آمون خصوصا إذا عرفنا أن هذا العقد لم يكن الدافع إليه الجشع أو الرغبة في المكسب، وإنما كان الغرض الأساسي منه وصل ما انقطع من صلة الرحم بين المرء وأهله.

وأشد ما يؤلمني الآن أن يتصور البعض بعد إلغاء البيعة أن الموضوع كان عبارة عن «خالتي وخالتك واتفرقوا الخالات» لأنني أقبل أي شيء في الدنيا إلا أن تتفرق الخالات.

وعلى الرغم من أنني لم أحلم يومًا بالحصول على جزيرة آمون

فإني لا أنفي أطماعي القديمة في جزيرة بدران، وزعلي من خالتي أساسه أنها بعد أن تزوجت من السيد بدران رفضت أن تهبني جزءًا صغيرًا من الجزيرة رغم أنها لم تتزوج من بدران إلا طمعًا في جزيرته، لكنها استأثرت بها وحدها هي وأولادها ولم تفكر في أختها وولاد أختها.

من الآن كل واحد يعرف مصلحته، وإن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا بن الكلب يا حرامي! لكن حاسب لأنه ممكن يعضك في مؤخرتك.. ومن الآن يا أنا يا خالتي!

تعالي لي يا خالتي

نشرت صحيفة الدستور أن وزير الإسكان أحمد المغربي قام بتوقيع عقد يتضمن منح أولاد خالته مليون متر في القاهرة الجديدة بسعر رخيص عقب توليه وزارة الاسكان بفترة قصيرة.

في اليوم التالي قرأنا نفيًا قاطعًا للخبر على لسان أحد كبار المسئولين بالوزارة، وكان النفي القاطع في غاية «الطعامة» إذ إنه اعترف بتوقيع الوزير على عقد الأرض لكنه أعلن أن هذا التوقيع كان إنفاذًا لاتفاق سابق تم قبل تولي الوزير الحالي وفي عهد وزير الإسكان السابق!!

بعد قراءتي للخبر ولمحاولة نفيه وصلت إلى اقتناع بأن الموضوع لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن الوزير هو الذي قرر منح الأرض للشركة المملوكة لأقاربه بسعر ٢٥٠ جنيها للمتر ثم قام بتوقيع العقد بعد عدة شهور، وإما أن الوزير ليس هو الذي اتفق مع أولاد خالته على منحهم الأرض لكنه من وقع معهم العقد!

وعلى الرغم من تصوري في البداية أن الأمرين هما شيء واحد ولا فرق على الإطلاق بين أن تقرر منح أولاد خالتك أراضي مصر

بسعر بخس وبين أن يأخذ غيرك القرار ويقتصر دورك أنت على توقيع العقد معهم!.. إلا أنني بعد نفي المسؤول القاطع لأن يكون الوزير أحمد المغربي هو من قرر منحهم الأرض لكنه «حاياللا» من وضع إمضاءه الكريم على أرض قد لا يكون موافقًا على منحهم إياها! أقول إنني بدأت أتفهم الموقف وأعتذر عن سوء ظني الذي صور لي في البداية أن الوزير منح مليون متر مربع لأولاد خالته فإذا بالرجل مظلوم ويقتصر دوره في العملية فقط على مجرد التوقيع على منح أولاد خالته مليون متر مربع من أرض مصر بسعر كوميدي!

طبعًا أنا أعلم أن أحد كبار المسؤولين بالوزارة سيرد بأن هذا السعر لم يكن كوميديًا على الإطلاق عندما تم تخصيص الأرض لأولاد خالة الوزير لكنه كان السعر الطبيعي الذي يتم به البيع لعموم المصريين الذين ليسوا أولاد خالة أي وزير. وأنا أهنئ مقدمًا المسؤول الفكيك الفطن على يقظته وفطنته.. لكن مع ذلك يتبقى عندي سؤال أرجو ألا يستبوخه أحد أو يعده تطاولًا أو تشكيكًا لا سمح الله لأنه يتعلق بالمصادفة التي تجعلني أمنح أولاد خالتي عقد الأرض ثم أقوم من فوري بتغيير نظام البيع ليكون بالمزايدة الأمر الذي يترتب عليه أن يرتفع سعر الأرض إلى عنان السماء ويتحول أولاد خالتي في لحظات إلى مليارديرات!

أنا سؤالي بريء ولا أقصد منه أي شيء مما دار في ذهن أصحاب النوايا السيئة، لهذا فإنني سأقبل فورًا وبكل رحابة صدر وحسن نية الإجابة القائلة بأن نظام المزايدة هذا ترتب عليه تضاعف الفلوس التي دخلت الخزانة العامة والتي أخذتها الوزارة من المصريين الطيبين الذين يريدون بناء مسكن لهم وللعيال، أي أن النتيجة كانت

لصالح الوطن في النهاية.. حتى لو كانت خالتي وأولاد خالتي قد استفادوا من القرار وأصبح مليون المتر خاصتهم يساوي أكثر من خمسة مليارات فإنه ليست هناك مشكلة في أن يكون صالح الوطن وصالح المواطن «ابن خالتي» هما شيئا واحدا.

كباب وكفتة

أشعر بالرثاء لأجهزة الأمن على زمن عبد الناصر تلك التي طالها وعلق بسمعتها عار استخدام أساليب قاسية مع المعارضين وصلت إلى التعذيب البدني. وسبب رثائي لهم تحديدًا على الرغم من أن تراث استخدام العنف والتعذيب مع المعارضين لم يتوقف يومًا واحدًا حتى الآن، هو سذاجتهم في التعامل مع التنظيمات الشيوعية! لقد كانوا لفرط طيبتهم يظنون أن هؤلاء الناس خطرون غلى النظام ولم يروا وسيلة لدرء ما تصوروا أنه خطرهم سوى اعتقالهم وتعذيبهم بقسوة.

والحقيقة أنني عندما أنظر الآن لمن تبقى من فلول هذه التنظيمات أدرك خيبة الأجهزة التي لم تفهم أن هؤلاء الناس كان يمكن أن يستقطب النظام معظمهم ويجعلهم جنودًا له لو أنه حل الكيس قليلًا ومرر إليهم بعض النفحات، لكن يبدو أن ذلك الزمن كان طابعه الاستقامة التي وصلت أحيانًا لحدود الغباوة. واستمرت نفس الغباوة على زمن السادات الذي كان يكره اليساريين كراهيته للشيطان فضن عليهم بأي نفحات من التي كانت كفيلة بجعلهم يؤيدون كامب دافيد ويباركون الانفتاح الاقتصادي ويؤيدون بيع المصانع!

على العكس من ذلك كانت الأجهزة الأمنية في عهد مبارك التي فهمت أن هؤلاء الناس يمكن أن يتحمسوا لخدمة النظام، أي نظام إذا هو أطعمهم كفتة وشيش طاووق! وهذا ما حدث بالضبط.. إذ إن النظام الذي يدافع عنه اليوم شيوعيو الأمس هو الذي يصادق إسرائيل ويحاصر الفلسطينيين ويشرد العمال ويبول على كل أفكارهم التقدمية. هذا الكلام حقيقي تمامًا وليس نكتة لأن كل من منحوه مقعدًا بالتعيين في أحد مجالس الهلس أو منحوه وظيفة ومرتبًا يأكل منه لحمة وفراخا باع القضية وأصبح يعمل بمنتهى البساطة في خدمة نفس الجلادين الذين كان يعارضهم!

ومما يؤكد هذا الكلام ما نراه اليوم ماثلًا أمام الجميع من أن مؤيدي الاستبداد وبقاء الأوضاع المتكلسة ومقاومة أحلام الناس في التغيير يتصدرهم شيوعيون كنا نظنهم مناضلين وحالمين بالتغيير فإذا بهم من الذين إذا أطعمْتَهم شاورمة تستطيع أن تمتطيهم وتسوقهم حيثما شئت. أحد هؤلاء يركب حزبًا كان يضم القوى الوطنية في السابق، واليوم أخذ الحزب العتيد وربطه بذيل الحزب الوطني وصار يعقد المؤتمرات التي ظاهرها المطالبة بالتغير وحقيقتها مناهضة الحراك الحالي وإجهاض أي عمل وطني يلامس أحلام الناس وذلك في صورة مخزية جعلت من حزبه المعارض معارضًا للشعب وليس للحكومة! والآخر الذي ما زال يعيش على بقايا وهج حققه من الدفاع عن الفقراء قبل أن تدركه سندوتشات الوزير، فأخذ يكتب ويكتب مستخدمًا البلاغة و«اللماضة» القديمة في كل ما يطلبه الأسياد وآخره مقاله المشين الذي نسب فيه للبرادعي أنه قال للنشطاء السياسيين الذين اجتمع بهم: «نحن لا نجتمع بهدف السعي من أجل إصلاح

دستوري، ولكن من أجل دعم ترشيحي للرئاسة من دون أن ينافسني أحد من الحاضرين». الجملة السابقة نسبها السيد المناضل للدكتور البرادعي دون أن تؤلمه بواسيره أو يشكّه ناصوره أو يطرف جفنه.

وحتى عندما كتب الدكتور حسن نافعة نافيًا عن البرادعي قول هذه الجملة الملفقة فإن المناضل في تعقيبه على رد نافعة لم يتطرق إليها وإنما قام بتهديد الدكتور حسن نافعة بإمكانية أن يلصق به تهمة مساندة الإخوان!

لهذا فأنا لا أهزل عندما أقول أن الأجهزة على زمن عبد الناصر والسادات لم تفهم أن خمسة كيلوجرامات مشاوي مشكّلة مع العيش والسَلطات كانت تكفي وقودًا لتحريك كتيبة من الرفاق في أي اتجاه يريدون!

في صيدلية التمساح

يـا مصر وانــتــي الحبيبة وانــتــي اغـتــرابـي وشقايا
وانـتـي الــجـراح الرهيبة وانــتــي اللي عندك دوايــا

«أحمد فؤاد نجم»

اللبوس للجميع

لامني بعض الأصدقاء وسألوني مستنكرين: لماذا لم نسمع رأيك في الانتخابات التي جرت وقائعها أخيرًا وأنت الذي لا يترك شيئًا في العادة لا يكتب فيه؟

أوضحت لهم أنني على عكس ما يعتقدون لا أكتب حول كل ما يحدث، ولكني في حقيقة الأمر أنتقي ما يستحق الكتابة عنه والتعليق عليه، وكثيرًا ما وجدت أمورًا جسامًا تحدث ولم أعلق عليها بسبب أن هناك من فعل هذا باقتدار فأوفى الموضوع حقه ولم يترك لي أو لغيري ما يقال، وأنا لا أميل إلى تكرار ما قاله غيري إلا لو كانت هناك زاوية جديدة للتناول.

وفيما يتعلق بالانتخابات الأخيرة فإنني لم أعلق عليها لأنني كنت مشغولًا في واقع الأمر بالضحك والقهقهة أكثر من أي شيء آخر. الضحك والقهقهة على الذين أحبوا ثم خذلهم الحبيب. إن الأمر يتجاوز هذه المرة مقولة أنهم أخذوا بمبة أو أخذوا زومبة أو حتى أخذوا البنسة.. لقد كان السيخ هذه المرة محميًّا بالنار، وقد أخذهم العفريت في الخرابة وعمل لهم حاجات قلة أدب ثم رفض أن يستر عليهم. والأكثر إيلامًا أنه رفض أن يمنحهم الربع جنيه الذي يُدفع في مثل هذه الحالات!

كنت أضحك على الذين ظنوا أنفسهم واعين وأولاد ناصحة يستطيعون أن يضحكوا على الكلب العقور وأن ينتزعوا من بين أنيابه قطعًا صغيرة من لحم الوطن التي أراد أن يلتهمها وحده. أنا لا أصدق أن هناك من فكر في نزول الانتخابات لصالح هذا الشعب ولصالح هذا الوطن.. كلهم ممثلون يضحكون علينا..حتى لو كان من بينهم من أبلوا بلاء حسنًا في المجلس السابق فهم بالتأكيد قد عرفوا أن جهدهم السابق قد ذهب أدراج الرياح، وأن جهدهم اللاحق سيلحق بسابقه، ومع هذا أصروا على الترشح وهم يضحكون علينا وعلى أنفسهم. كل من فكر في الترشح كانت تحدوه طموحات شخصية، أما خير الوطن ومصلحته فليست مجالس اللهو والعبث مكانًا مناسبًا لتحقيقه.

لم يفهموا ما فهمه أبناء الشعب حتى الأميون منهم الذين بفطرتهم ينصرفون عن هذا اللغو والهراء، وحاولوا تسويق مقولات غبية لعينة لا يطلقها إلا أحمق لا يريد أن يتعلم، ولم تكفه ثلاثون عامًا من الدعارة المتصلة ليفهم أن الإدلاء بالصوت في الانتخابات في هذا الوطن هو قلة قيمة لا تليق بالإنسان المحترم. حاولوا تكرار نفس المقولة السقيمة السخيفة المملة التي تقضي بأن المشاركة والإيجابية خير من القعود والتقاعس وأن الحضور المكثف للناخبين من شأنه أن يسد منافذ التزوير ولا يدع فرصة للمجرمين للاستيلاء على بطاقات الذين لم يحضروا وتسويدها لصالح أفراد العصابة!

لم يفهم هؤلاء الحكماء أن اللعبة تضم أجزاء عديدة وأن الصناديق ليست جزءًا أساسيًّا من اللعبة،ذلك لأنه بإمكان الناخبين أن يقبلوا بحرارة على الإدلاء بالصوت وبإمكانهم أن يتسلقوا

الأسوار لدخول اللجان المغلقة، وبإمكانهم أن يصارعوا الأمن والبلطجية والشبيحة، وبإمكانهم أن يرغموا الموظف الوسخ على إيجاد أسمائهم في الكشوف. يستطيعون كذلك من أجل مرشحهم المحبوب أن يقوموا بحماية الصناديق بأجسادهم، وأن يتابعوا عملية الفرز والعد وحساب الأصوات، بإمكانهم أن يبذلوا دماءهم..بإمكانهم أن يفعلوا كل هذا وأكثر..لكن ما الحل إذا فعلوا كل هذا وبدا لهم من خلال الفرز والعد وشهادة القضاة أن مرشحهم قد فاز باكتساح.. ثم إذا بأحد حيوانات السلعوة يمسك بالميكروفون ليعلن النتيجة التي تخالف كل ما رأوه بأعينهم وكل ما ضحوا من أجله..ثم يتم اعتماد النتيجة بمجرد النطق بها ولا تفلح أحكام القضاء ولا دماء الأبرياء في وقف المهزلة!

لهذا كله فإنني ما زلت أضحك على كل من «حب ولا طالشي» ودائمًا ما أتذكر في مثل هذه الحالات الكاتب الأعجوبة الأستاذ أحمد رجب وهو يتمثل حال المرشح من خلال أغنية أم كلثوم التي تقول فيها «أصون كرامتي من أجل نفسي» وقد حولها الأستاذ رجب إلى «أهين كرامتي من أجل كرسي»!!

وإذا كان البعض قد ظن أن التمساح الرهيب قد يسمح لهم بأن يلتقطوا فتات اللحم من بين أسنانه وهو فاغر فاه على اتساعه، وظنوا أن التمساح يحتاج إليهم لأداء هذه المهمة، فإنه قد اتضح لهم الآن أن التمساح قد فضّل أن يترك بقايا الطعام لتتخمر وتتعفن بين أسنانه على أن يتركها للطيور اللطيفة!

ولعلهم يكونون قد شفوا من أوهامهم بعد العلاج الذي قدمه لهم التمساح نتيجة التسلخات التي أحدثها فيهم!

وفي الحقيقة فإن ما صرفه كل من شارك في اللعبة من صيدلية التمساح كان صنفًا واحدًا أصر على تقديمه لضحاياه.. وقد وزعه عليهم بالعدل والقسطاس ليثبت أن: اللبوس للجميع!

ادبح يا زكي إدوار!

كنت في إجازة من الكتابة عندما سمعت عن حكاية شراء رجل الأعمال السيد البدوي لصحيفة الدستور، ومن ثم لم يتسن لي أن أقول رأيي في الموضوع، ولم أر داعيًا لقطع الإجازة وإرسال مقال خصيصًا لهذا الغرض، فضلًا عن أنني أحسست أن مقالًا كهذا قد يسبب حرجًا لإبراهيم عيسى مع المُلَّاك الجدد رغم تأكدي من أنه كان سينشره! لهذا آثرت أن أنتظر وأترقب فصول التمثيلية التي كنت أرى كل مشاهدها ماثلة أمامي.

كان السؤال الذي تداولته مع كل أصدقائي هو: ما المدى الذي سينتظرونه قبل أن يقوموا بإقالة إبراهيم عيسى؟ البعض قال سنة والبعض الآخر قال ستة شهور.

في هذه الأثناء كانت رسائل ترد إليَّ على البريد وعلى الفيس بوك من القراء تسألني في انزعاج: هل ستستمر في الكتابة بالدستور في وجود المُلَّاك الجدد؟ وكنت أرد بأنني لم أشغل بالي في السابق أبدًا بأسماء مُلاك الصحف وقد وطنت نفسي منذ بدأت حالة الكتابة المنتظمة أن أتمثل قول الشاعر بشار بن برد:

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى

ظمئت وأي الناس تصفو مشاربــه!

لهذا كان كل ما أشترطه في الصحيفة التي أكتب بها هو حسن السير والسلوك وعدم وجود مشاكل تحريرية من اختصاص بوليس الآداب تتعلق بأعمال القوادة وتسهيل الرذيلة وخلافه!

وكان يكفيني وجود إبراهيم عيسى كصمام أمان يحمي ما أكتبه وينشره كما هو، الأمر الذي سمح لي بأن أكتب كل ما خطر على بالي ومكنني من أن أطحن كثيرا من الشخصيات الفالصو الذين كان البعض يشيع بأن إبراهيم عيسى يعمل معهم وبالتالي لن يقبل أن يتركني أنتقدهم وأهاجمهم في صحيفته. أثبت لي إبراهيم أنه رجل حقيقي ولهذا كنت أكتب ببلاش دون أن أتقاضى أجرًا وأنا في غاية السعادة!

ثم وصلتني دعوة للسحور أقامها الملاك الجدد تجمع السادة الكتّاب والصحفيين بالدستور في قاعة فاخرة بفندق فور سيزونز.

كنت قبل وقت قليل قد انتقدت الدكتور السيد البدوي في أحد مقالاتي ونبهت القراء إلى خشيتي من أن يكون حزب الوفد هو الوريث لبعض مقاعد الإخوان في الانتخابات المزورة القادمة بناء على تصريح أطلقه البدوي، وأعلن فيه أن حزبه سيحصل على ٢٠ مقعدًا في الانتخابات القادمة.. وتساءلت في مقالي كيف عرف البدوي عدد مقاعده في انتخابات هو يعلم أنها ستزور حتمًا؟ هل جلس مع المزورين وشاف النتيجة في الكونترول؟. ومن الغريب أن هذا المقال بالذات كان به خطأ مطبعي جعلني أطلب إعادة نشره مرة ثانية فتم نشره

مرتين. والذي لم أكن أعرفه واتضح لي بعد ذلك أن هذا المقال تزامن نشره مع المفاوضات التي كانت جارية لشراء الدستور، ومع هذا نشره إبراهيم عيسى مرتين..فيالروعة هذا الرجل! بالمناسبة اسم المقال «صدقة يمنحها لص» لمن أراد أن يقرأه على النت.

لهذا فقد فوجئت ليلة السحور عندما أقبل عليّ الدكتور البدوي مصافحًا ومحييًا برغم ما كتبته عنه وقلت لنفسي:هذا الرجل إما إنه كبير النفس جدًّا ويقدر الاختلاف في الرأي وإما أنه داهية أريب!

بعد أن جلسنا وأخذنا أماكننا حول الموائد، وبعد أن ألقى إبراهيم عيسى كلمة مرتجلة تحمل كثيرا من الأمل، صعد إلى المنصة شخص لا أعرفه وأمسك بالميكروفون في سعادة ظاهرة. سألت الصديق الجالس إلى يساري: من هذا؟.فقال: هذا مجدي إدوار شريك السيد البدوي في ملكية الدستور. بعد أن بدأ الرجل يتكلم أدركت أن الدكتور السيد البدوي رجل داهية ولا يفترق عن حكامنا الذين يأتون لنا بوزراء ومساعدين من نوعية فلان وعلان، وذلك حتى نعرف قيمتهم ونبايعهم مدى الحياة بعد أن نرى مستوى مساعديهم!

تحدث الأخ حديثًا ركيكًا لا ترابط فيه ولا فكر ولا مقدرة لغوية عن أشياء بدت لي عجيبة..فالأخ يعرض لنا أفكاره وفلسفته في الحياة ورؤاه السياسية وكلها أبعد ما تكون عن خط الدستور بل إنها تتصادم بكل قوة مع الجريدة التي يزعمون أنهم اشتروها للحفاظ عليها وتطويرها.

عدت أسأل الأصدقاء: قلتوا لي مين ده؟. فأجابني أحدهم: هذا عادل إدوار الذي سيوضع اسمه على صدر الجريدة!

استمر الرجل يتكلم حتى ظننت أن هذه الليلة لن تنقضي قبل أن تكون روحي قد أزهقت..لم أكن وحدي الذي أصابه الملل، لكن كل من بالقاعة بدءوا يتأففون استعجالًا لأن ينهي كلمته حتى يتركنا نأكل اللقمة ونروّح. ويبدو أنه أحس بموقف الحاضرين فقرر أن يعاقبهم واستمر متحديًا أولئك الذين بدءوا يرفسون في الأرض من السأم والإعياء.. بدأت الهمهمات بأن الرجل يتكلم بفلوسه وأنه لولا هذه الفلوس ما أمكن له أن يقترب من المنصة ويلقي على أسماعنا أفكاره الألمعية.

وهنا تصرف كل من بالقاعة على نحو واحد دون اتفاق. أعطى الجميع ظهورهم للمنصة وبدءوا أحاديث اجتماعية مبرهنين على أن فلوس هذا الرجل لن تجلب له وسط هذا الجمع مستمعًا واحدًا له قيمة! وعندها فوجئ الجميع بالرجل يتشنج ويعلو صوته قائلًا: ما ينفعش كده.. عندما أتكلم لازم تسمعوني..إذا لم تسكتوا وتستمعوا فسوف أنزل! علا صوت من مائدة قريبة: مين الراجل ده يا جماعة؟! فأجابه واحد ابن حلال: هذا منير إدوار.. وهو جاي مع السيد البدوي وسوف يعمل على تطبيق أفكاره التي سمعتموها الآن في الصحيفة!..

على أي الأحوال فرح الجميع عندما غضب إدوار متصورين أنهم نجحوا في إسكاته.. لكن على مين؟.. ابتلع الرجل غضبه وظل يتحدث لمدة أربعين دقيقة حتى إنني أحسست بجلدي وقد بدأ ينشع زيت!..

خرجت وذهبت للحمام ثم عدت والأخ ما زال يحكي..خرجت

ثانية وشربت شايا في الردهة ورجعت والأستاذ عاطف إدوار ما زال يضرب في العجين. لكن الناس كانت قد نسيت وجوده وانصرف الجميع للأكل والشرب والدعابة حتى إن أحدًا لم ينتبه بعد أن ترك المايك ونزل من على المنصة!

لست ألوم هذا الرجل على أي شيء..فقد كانت حالته واضحة تمامًا تلك الليلة، وأعتقد أن من يلومه يخسر.. لأنه يستطيع بسهولة أن يبرر موقفه ويقول: أنا عبد المأمور.. يقولوا الي ادبح يا زكي إدوار.. يدبح زكي إدوارد.... بيع يا زكي إدوار... يبيع زكي إدوارد. اهرب يا زكي إدوار.. يهرب زكي إدوار.

لكني مع هذا لا أعتقد أن زكي إدوار ومعلمه الداهية يستطيعان الهروب مما اقترفت يداهما!..

آه يا وطني الحزين

آه يا وطني الحزين.. حولتني بلحظةٍ

من شاعر يكتب شعر الحب والحنين

لشاعر يكتب بالسكين.

هذا بعض مما خطه قلم الشاعر نزار قباني تعبيرًا عن المسار الذي اتخذه شعره رغمًا عنه.. فبدلًا من أن يتفرغ لشعر الهوى والغزل الذي يتقنه ويحبه ويبرع فيه وجد نفسه والحرائق تشتعل في وطنه يدع ترف أشعار العشق والغرام ليدخل معمدانية النار ويكتب بالسكين أشعارًا حادة جارحة يستشعر قارئها نصل السكين وآلام جروحه.

وبالنسبة لي عندما أنظر إلى العمر الذي مضى أراني أقرب ما أكون لهذا المعنى الذي قصده نزار قباني..فكثيرًا ما وجدت نفسي ممتلئًا حد التخمة بقصيدة شعر تقف أبياتها على الباب منتظرة أن أمد يدي وأقطفها، أو مشحونًا بعمل روائي تتشكل فصوله وشخوصه وتمثل أمامي بوضوح ولا ينقصها سوى أن أتفرغ وأجلس لأكتبه.. لكن للأسف فإن الوطن الحزين لا يرحم ولا يترك لي فسحة لأكتب ما أحب.

بالأمس أرسل لي صديق عزيز رسالة قصيرة قال فيها: «مقالك اليوم قاسٍ للغاية رغم حقيقة ما كتبته». فرددت عليه قائلًا: أنا أعلم أنه كذلك ولست سعيدًا بما كتبت.. ولكن ماذا أفعل؟ كل يوم جرح جديد وكل ساعة مفاجآت غادرة حتى لم نعد قادرين على اتقاء الضربات الآتية من كل اتجاه.. من رجال السياسة ورجال الأمن ورجال البيزنس ورجال الدين.. ولقد تكسرت النصالُ على النصال حتى لم يبق موضع في الروح إلا وبه ضربة سيف أو طعنة خنجر. فهل يترك المرء كل هذا الإجرام في حق الوطن وأهله ويسكت عنه ثم يجلس ليكتب قصصًا وأشعارًا عن الحب والهوى!

كنت أحلم زمان بأن الثورة التي أنصفت الفلاحين وقامت بتوزيع خمسة فدادين على كل فلاح تمنحني بالمثل أفدنة خمسة، وتمنيت أن أبني في وسطها بيتًا صغيرًا من الطوب اللبن على طريقة المعماري الأعظم حسن فتحي، وأن أزرع الأرض بيدي وردًا وفلًّا وياسمينًا ورياحين وأبيع جزءًا من الأزهار لأتعيش من ثمنها وأهدي الباقي لأصدقائي وأجلس على باب البيت وبجواري زير الماء البارد.. ثم أمد بصري للأمام فأشاهد الحقول الخضراء وأملأ من منظرها عيني ومخيلتي ولا أفعل شيئًا سوى أن أكتب أشعارًا تزيد وتكبر كل يوم لتشكل دواوين كثيرة أعصر فيها قلبي وأقدمه للعشاق.

هل ترون كيف هو حلم بسيط وساذج حتى يظنه البعض سهل المنال؟.. لكن عشرات السنين مرت ولم يزد مرور السنين الحلم إلا ابتعادًا!.. وأدركت بعد أن رأيت الحلم يفر من بين أصابعي ويركب

الناقة ويشرخ أنني تهورت بأكثر مما يجب وطلبت من الدنيا أكثر مما تستطيع أن تقدم لي وأن ما حلمت به يفوق ما تمناه «علي» ابن الريس عبد الواحد عندما ذهب يطلب يد إنجي من أبيها الباشا!

وفهمت بعد فوات الأوان أنني مضيت بعيدًا في التحليق بالخيال ولم أتبن حلمًا يسهل تحقيقه. فحتى عندما أصبح شراء الأفدنة الخمسة ممكنًا بعد رحلة حياة شاقة ومؤلمة.. أين هي النفس التي تقدر على كتابة شعر الحب والعاطفة؟ وأين هو الجلد السميك الذي يسمح: بأن يشاهَد الوطن يستباح، واللصوص يقتسمون المسروقات في وضح النهار، والخيانة تتسمى حكمة، والوزير وأولاد الحاجّة خالته يستولون على أرض مصر بدون حساب، والإسرائيليون صاروا أعز الأصدقاء والمقاومون أصبحوا إرهابيين، وأصدقاء السفير الإسرائيلي من القوادين والبغايا يرفعون قضايا على من يكشف سفالتهم، والفتنة الطائفية من جانب الكهنة المجرمين تعصف بكيان الدولة؟.. ثم بعد كل ذلك تجد في نفسك القدرة والرغبة في أن تجلس على شط القناية ساعة العصاري والهوا مهفهف مرتديًا الجلباب الفلاحي المريح لتكتب أشعارًا!

لعنة الله على من حرموني من حياة حلوة أظنني كنت أستحقها!..

٨٠ مليون يزيد!

لم أعد أفهم شيئًا ولم أعد أعرف ماذا أفعل..

في العام الماضي نشرت الصحف المصرية قصة الطبيبين اللذين وقعا في براثن السلطات السعودية، وكيف لم تتردد تلك السلطات في الحكم عليهما بالسجن والجلد بالسياط عدة آلاف من الجلدات لكل منهما!

كانت الصحف تنشر كل يوم عن دموع الزوجتين والبنات والأبناء وحكاياتهم التي تمزق نياط القلب ساردة الوحشية التي يتعرض لها الرجلان في سجون المملكة وهي تحكم على الناس بالهوى والمزاج! ومما أكد للناس في ذلك الوقت حكاية الهوى والمزاج أن الأخ القاضي الذي أدانهما وقضى بضربهما بالسياط صرّح للصحف قائلًا: لو أن المتهمين كانا سعوديي الجنسية لضاعفت لهما العقوبة!! هنا أدرك الجميع أن الأحكام تصدر هناك على ضوء جنسية المتهم وربما لونه ورائحته ونوع ثيابه!

أذكر وقتها أنني انفعلت وتفاعلت مع المأساة الشخصية للرجلين وكتبت وشراييني تكاد تنفجر مهاجمًا «ليس إدانة الطبيبين» ولكن

ضربهما بالكرباج، ذلك أنني لم أقتنع أبدًا بمسألة أن السعودية تطبق شرع الله وأن الضرب بالكرباج هو جزء من هذا الشرع، ببساطة لأنني تعلمت من الإسلام والمسيحية والبوذية والكونفوشية أن من يستدعي القوات الأجنبية لاحتلال بلاده وضرب أهله وغزو بلادهم لا يحق له أن يتحدث عن شرع الله، ولا يجوز أن يضرب الناس بالكرباج منفثًا عن أحقاده تجاه المصريين متذرعًا بالشرع، وهو الذي لا يستطيع أن ينفذ هذا الشرع على مواطن أمريكي مثلًا!

ثم تمر الأيام ويخرج الطبيبان من محبسهما ويعودان إلى الوطن من خلال صفقة غير معلنة، ونتوقع أننا سنراهما في مدينة الإنتاج الإعلامي ينتقلان من دريم إلى المحور والحياة وباقي الفضائيات، كما توقعنا أن يكونا نجمي الصفحات الأولى بالصحف اليومية والأسبوعية لفترة طويلة. ولكن لدهشة الناس يتم إلقاء ماجور كبير فوق الخبر ولا تنشر الصحافة شيئًا عن الأهوال التي توقعنا أن الرجلين سيسردانها عن أيامهما في معتقل المغول. بل الأغرب أن الحديث المقتضب الذي أدلى به أحدهما أوضح فيه أن المعاملة بالسجن كانت طيبة للغاية والطعام شهي والرعاية الصحية ممتازة والضرب لم يكن بكرباج أو سوط كما نظن، لكن كان بخرزانة صغيرة ولم يكن مؤلمًا بالمرة!

وقتها شعرت بأنني غريب عن هذه الحياة وتساءلت: ما هذا الذي أفعله بنفسي؟.. هل كان الطبيبان يرفلان في جنة أبناء عبد العزيز بينما أنا جالس بعضي يمزق بعضي لهفًا عليهما؟!

ومنذ أيام قليلة يفجعنا خبر الزيارة التليفزيونية التي قام بها وزير التعليم لإحدي مدارس حدائق حلوان، ويراه الناس على شاشات

التليفزيون وهو يبعثر كرامة الناظر والأساتذة، كما قرأنا عن حارس المدرسة الذي شتمه الوزير وتوعده بالضرب بالجزمة.

ومرة أخرى أجد عروقي تنفر وضغطي يرتفع والأدرينالين يصل لمعدلات تسمح بخوض المعارك، فأكتب مناصرًا الأساتذة الذين ذبح الوزير كرامتهم وبعثر كبرياءهم أمام الشاشات وهو يحاول الإيحاء بأنه يعيد الانضباط للعملية التعليمية!

ولكن بعد أيام أفاجأ بالصحف تنشر أن الأساتذة الذين أخذوا الطريحة على الملأ يطلبون لقاء الوزير لطلب الصفح والغفران، ويشهدون بأنه كان محقًّا في كل ما فعله بهم، ويبدون استعدادهم لبوس القدم وإبداء الندم على غلطتهم في حق الوزير!

حقيقة أنا لا أدري ماذا أفعل، ولا أعرف ماذا يريد هؤلاء الناس أن يفعلوا بي؟

هل يريدون أن يثبتوا لي أنني على خطأ في تعاطفي معهم وأنهم يستحقون كل ما يحل بهم؟ هل يريدونني في المستقبل أن أقف مساندًا لمن يضربهم بالجزمة؟

أنا أعرف أن طول القهر قد جرد الناس من الفضائل، ولكن ماذا أفعل؟! إن هؤلاء الناس لا يدركون أنني أصل أحيانًا لدرجة من الاحتقان أخشى معها على حياتي، وأحيانًا أبكي بصوت مسموع بينما أكتب!

أنا لا أطلب من الناس أن يواجهوا كربلاءاتهم اليومية بشجاعة الإمام الحسين..لكنني لا أستطيع أيضًا أن أحيا وسط ٨٠ مليون من أنصار يزيد!

وكل الذي فوق الترابِ تُراب

عندي هدف في الحياة أسعى للوصول إليه، وهو على بساطته شديد الصعوبة، ولا يقدر على بلوغه إلا أولو العزم أصحاب الإرادة الصلبة، وذلك أنه يحتاج إلى قدرة هائلة على الاستغناء والترفع والاستعلاء على الدنايا.

تكمن صعوبة الهدف في أنه يتعارض مع السلوك العملي الذي يتدرب عليه الناس طيلة أعمارهم وأصبحوا الآن يأخذون فيه دورات وكورسات تعلمهم ماذا يفعلُ الإنسان الذي يرغب في علاقات طيبة ومصالح سالكة مع الناس.

أرغب بمنتهى البساطة في أن آخذ قرارًا حاسمًا باترًا لا رجعة فيه ومن دون أي استثناءات بأن أي شخص أطلبه في الموبايل ولا يرد لا أكلمه مرة أخرى مهما كانت النتائج؛ لأنه من المعلوم أن التليفون المحمول يبين بوضوح المكالمات الفائتة ويعرفك من الذي اتصل بك عندما لم يكن التليفون في متناولك. قد يقول قائل: يا أخي.. هلا عذرت الناس، فربما كان من تطلبه مريضًا أو في عمل مشغولًا أو في موقف صعب أو في حالة نفسية لا تسمح له بالحديث مع أحد، فكيف تأخذ منه موقفًا حادًّا لهذا السبب البسيط مع أن خير الناس أعذرهم للناس؟

وللإجابة عن هذه الملاحظة أقول إن كل ما سبق قد يكون صحيحًا، ولكن ليس عن هذا أتحدث..أنا أتحدث عن الإهمال العمدي في الرد.. أتحدث عن شخص لديه انتفاخ نفسي يتعامل باستهانة مع الآخرين ويشعر بالأهمية متصورًا أن الناس ستتحمل قلة ذوقه طالما كانوا محتاجين إليه.. والعجيب أنك ستجد هذا الشخص دائمًا لديه استعداد للحس بلاط من يحتاج إليهم!

تكمن الصعوبة في الوصول لهذا الهدف الذي أتحدث عنه في أن كل كتب التنمية البشرية التي يتعلق بها الناس بشكل مجنون والتي تداعب أحلام الشباب في كيف تكون مديرًا ناجحًا وكيف تكون جذابًا للجنس الآخر وكيف تصبح مليونيرًا في زمن قياسي، تلك الكتب التي تعلِّم الناس إرشادات السلوك وتحقيق النجاح وتأخذ بأيديهم للوصول لأعلى المناصب، تتحدث عن أهمية المرونة والليونة وامتصاص الصدمات وفوائد كبت الانفعال وضرورة رسم الابتسامة، كذلك احتمال قدر من قلة ذوق البشر ومقابلة الإساءة بالإحسان. ومعلوم أن هذه الكتب في انتشار كبير بسبب ضيق الفرص وشدة المنافسة وضعف الثقة بالنفس وانعدام التأهيل.

ليست الكتب فقط هي من تعلم الناس تقديم التنازلات، ولكن المصالح المتداخلة وتعقيدات الحياة تصل بهم إلى نتيجة مؤداها أن من لا يشرب مرارًا على القذى يظمأ، وأي الناس تصفو مشاربه؟ وتعلمهم أيضًا أن قدرًا من التناحة ضروري لتفويت الفرصة على من يريد أن يلتهم حقوقهم وإضاعة فرصهم، كما أن الأمثال الشعبية التي تدعي الحكمة تعلمهم أنه «إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي!».

لكل هذا وأكثر منه فإن الوصول لهذا الهدف الذي أسعي إليه ليس سهلًا بالمرة، لأن الوصول إليه قد يلحق الضرر بمصالحك ومصالح من تحب، وقد يعطل مكاسب كان من الممكن أن تحصل عليها، وقد يقطع علاقات وينهي صداقات كانت مثمرة أو حتى واعدة. لكني رغم هذا أزعم أنني قد نجحت في أن أصل إلى أكثر من ٨٠ بالمائة من الهدف وهي نسبة لو تعلمون عظيمة.. ذلك أني والحمد لله لم أقبل أبدًا أن يتسيد عليّ الكلاب. ومع ذلك فإن سعادتي لن تكتمل قبل بلوغ الهدف كاملًا.

فليتك تحلو والحيـــاة مريرة

وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر

وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك العفو فالموتُ هين

وكل الذي فوق التراب تراب

أبناء اللصوص والغواني

في ذكري رحيل جمال عبد الناصر تتداعى الذكريات إلى سنوات الطفولة التي كانت خالية من لعب الأطفال ومن وسائل الترف والترفيه حيث كنا فقراء.. لم أكن وحدي.. كان زملاء الفصل والفصل المجاور، والبيت والبيت المجاور كلهم مثلي، لذلك لم نكن نعاني الشعور بالحرمان.

ما زلت أذكر أن أقصى أحلامي كانت الحصول على سندوتش بسطرمة من التي كان يجلبها فراش المدرسة بعد أن يقوم بجمع ثلاث تعريفات ممن يريد واحدًا. وكان عدد الراغبين من زملائنا الأثرياء بالفصل لا يزيد على ثلاثة أو أربعة! أما الباقون وأنا منهم فكانوا يكتفون بالسندوتش الذي يبيعه عم سعد بائع الطعمية بتعريفة! لكن إلى جانب هذا التبرم الذي كان يستمر خمس دقائق في اليوم كان الزهو يملؤني بقية اليوم كوني رئيسا للفصل (كانت معايير الاختيار تجمع ما بين التفوق العلمي والشخصية). والجميل أنه كان يداخلني يقين لا يعرف الشك أنني بالغ سندوتش البسطرمة وما هو أكثر منه في المستقبل.

ولا شك في أن وجبة الجبنة الدمياطي مع العيش المحمص

(الوجبة المفضلة عند جمال عبد الناصر) كانت تعطينا الإحساس بأن المسافة بيننا وبين رئيس الجمهورية هي مسافة وهمية. ولا يتصور أحد كيف يكون موقفك من الدنيا وحبك لها وإقبالك عليها وتعلقك بها وعشمك فيها عندما تعرف أن طعام رئيس الجمهورية هو نفس طعامك.

ملحوظة: هذا الزهد هو أحد أسباب حبي للرئيس الإيراني أحمدي نجاد ولو كره المتعاصون!

قارنت بين هذا وما حدث من ابني وهو عائد من المدرسة مكتئبًا ذات يوم رافضًا الحديث، وعندما ألححت في معرفة سبب ضيقه اعترف لي بعد ضغط أنه يشعر في الفصل بأنه أقل من زملائه! لماذا يا حبيبي بالصلاة على النبي؟ لقد أدخلتك أغلى مدرسة لغات مسايرة للموضة التي لم أستطع مقاومتها، وأقوم عن طيب خاطر بدفع مصروفاتك التي تحصل في مقابلها على تعليم هزيل وسخيف! واخترت لك مدرسة مجاورة للبيت تمضي إليها في دقيقتين، وأمنحك مصروفًا أخفيت عن أبي حجمه حتى لا يظن أنه لم يحسن تربيتي.. ومن يوم أن أصبحت ابنًا لي لم أسمح بأن تركب أوتوبيس أو حتى ميكروباص حيث جئت إلى الدنيا ولدينا سيارة.. ناهيك عن الطعام والشراب والثياب والنزهات والسفر للخارج والسينما والمسرح. هذه الأشياء التي كانت تشغل بالي وتصاحبني في أحلام اليقظة طول الوقت وأنا في مثل سنك كلها بالنسبة لك مسلَّمات لا تستدعي أي توقف.. وعندما طلبت مني ٢٠٠ جنيه لشراء رواية «هاري بوتر» بالإنجليزي من عند فيرجين منحتك المبلغ وأنا أضحك. وقتها لم تفهم سبب ضحكي ولم تعرف التاريخ الذي

استدعيته ولا المحطات التي مرت أمام عيني وأنا أنزل لمبيع الكتب القديمة في سور الازبكية لأشتري كتبًا جديدة.. وبعد هذا كله تأتي الآن لتقول لي إنك تشعر بالحرمان!

ذهلت عندما صارحني ابني بأن معهم بالفصل أولادًا يأتون المدرسة وفي جيوب كل منهم آلاف الجنيهات!.صرخت ملتاعًا: ماذا؟! آلاف الجنيهات؟. قال: نعم. قلت: ماذا يعمل آباؤهم؟ قال: رجال أعمال.. وهم يقومون ببذر المال على السعاة والفراشين بل وبعض المدرسين!.. وكل يوم يطلبون بالتليفون الطعام دليفري من المطاعم المنتشرة بالحي وتأتي سيارات الخدمة من المطاعم محملة بالوجبات التي ينتظرها المدرسون حتى إنهم أصبحوا يلحون في طلبها إذا تأخرت، وصار توددهم إلى هؤلاء التلاميذ داعيًا إلى سخريتنا!

عند هذا الحد وجدتني لا أريد أن أسمع ولا أن أعرف المزيد.. وترحمت على جمال عبد الناصر الذي كنا في زمنه لا نملك شيئًا، لكننا لم نشعر بأننا فقراء. كنا مرفوعي الرأس ولم نعرف أبدًا القنوط أو نحس بالضآلة والهوان، على العكس كان الأمل والكبرياء والثقة في الغد عنوان أيامي.

كنتُ الألفة على الفصل من دون أن يكون أبي وزيرًا أو تكون خالتي رقاصة، وكان المدرس رجلًا بحق..أما اليوم فإن أبناء اللصوص والغواني جعلوا ابني يشعر بالاكتئاب وجعلوني أشعر بالخجل لأني أتيت للدنيا بأبناء وأسكنتهم في وطن العار!

رحم الله جمال عبد الناصر.

العقد الفريد.. في بشاعته

هناك في بلادنا منظومات فكرية وسلوكية تشبه حبات العقد مرتبطة بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا، ولا أظن أن حبة منها تحضر دون حضور أخواتها.

على سبيل المثال إذا وجدت رجلًا عربيًّا متحمسًا للمشروع الخاص ومؤيدًا لحرية السوق ومناوئًا لفكرة تدخل الدولة والتخطيط إلى آخره.. هذا الرجل ومن دون أن أعرفه أستطيع أن أقول لك وأنا مغمض العينين إنه يكره جمال عبد الناصر كراهية التحريم.. ليس فقط توجهاته الاقتصادية وليس فقط أخطاؤه وعثراته وإنما يحمّل الرجل كل ما حل بنا من مصائب من سنة ١٩٥٢ حتى اليوم.. ونفس هذا الرجل ستجده يلعن مجانية التعليم ودخول الفقراء المدارس والجامعات، مع أنه لا علاقة على الإطلاق بين تشجيع المشروع الخاص وبين السخط على حق الناس في التعليم، لكن هذا هو ما يحدث، وستجده يكره مشروع السد العالي ويعتبره السبب في خراب مصر! وستجده بدون أسباب ينتابه حنين مرضي لأيام الملكية التي لم يعشها ولم يشهد يومًا واحدًا منها! واستكمالًا لبقية حبات العقد سنجد الحبة التالية تتضمن حب إسرائيل أو على الأقل عدم الممانعة من التعاون معها، وهذا أمر بالغ الغرابة لأن من يحبون التجارة وتبادل

السلع ورؤوس الأموال أمامهم السوق العربية الفسيحة، وبإمكانهم تحقيق ثروات طائلة لا يلوثها الدم العربي الذي يلطخ كل شيكل يتعاملون به مع إسرائيل، لكنهم أبدًا لا يستطيعون أن يبعدوا أبصارهم عن الكيان الصهيوني.

وهم لا يمكن بحال أن يحملوا أي إدانة لإسرائيل مهما ارتكبت من مجازر ومهما ولغت في دماء الأطفال، لكنهم في كل الأحوال سيلتمسون لها الأعذار وسيقومون بتحميل الضحية العربية كل اللوم لأنها الطرف الذي استفز إسرائيل الوديعة الطيبة! وبطبيعة الحال فإن الحبة التالية ستتضمن النقمة والسخط والغضب على كل من يقاوم إسرائيل أو يرفع يده أمام وجهه ليتفادى ضرباتها، وستتضمن هذه الحبة بذل كل الجهد والمال ووسائل الإعلام للتشهير بالمقاومين ولصق كل التهم والأوصاف البغيضة بهم. وغني عن القول أن نفس هؤلاء المؤيدين لحرية السوق، ودعه يعمل دعه يمر، في بلادنا الحلوة ستجده من الكارهين للعرب وفكرة العروبة والروابط التي تجمع الناس من الخليج إلى المحيط، لأنهم يعتقدون أن رابطة البيزنس أغلى من رابطة الدم والدين والجيرة.

ولا أنكر أن هذه المسألة تحيرني بشدة وقد فشلت في أن أعرف لها سببًا، ذلك أن المواطن في الغرب الرأسمالي الذي يعتبر المشروع الخاص في حكم المقدس لا يعتنق نفس الأفكار ولا تتملكه نفس النوازع، فهو يستطيع أن يقيم بيزنسه الخاص من دون أن يحب أعداءه ومن دون أن يكره من يدافعون عن تراب وطنه ومن دون أن يتحدث بالسوء عن مفاخر بلاده ومآثرها، ومن دون أن يهيل التراب على الشرفاء بها ومن دون أن يمانع في أن يتعلم أهله بالمجان ـ من خير بلدهم ـ ومن دون أن يعتبر إسرائيل أعز عليه من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه!

قلة موارد أم قلة أدب؟

هل المشكلة تتمثل في قلة الموارد؟

هل أزمة مصر سببها أن الرزق قليل والموارد محدودة حتى إذا زادت هذه الموارد أمكن للشعب أن يأمل في الرخاء وأن ينعم مثل باقي خلق ربنا بناتج ثروته وخيرات أرضه؟

لا أظن.

فلو فرضنا على سبيل المثال أن الأرض تفجرت من تحت أيدينا نفطًا وغازًا وزيتًا وقطرانًا وسولار وبنزين ٨٠ و٩٠ و١٠٠ فهل يجني شعب مصر شيئًا من أنهار النفط كما ينعم المواطن الخليجي مثلًا؟

وهل إذا تفجرت ينابيع الماء واكتشفنا خزانًا جوفيًّا للمياه يكفي لزراعة مائة مليون فدان مع إمكانية الدفع بعشرين مليون مواطن خارج الوادي الضيق لينشئوا جنة خضراء ويزرعوا كل المحصولات من قمح إلى ذرة وشعير ومن خضر إلى فواكه..هل إذا غرقنا في المياه العذبة وصار بإمكاننا زراعة عشرات الملايين من الأفدنة يتغير حال المصريين وينتقلون من حياة الذل والمهانة والتسول ليصبحوا مثل

المواطن الأوروبي الذي يزرع الأرض ويعيش من خيرها في رغد وبحبوحة؟

للأسف لا أعتقد أن شيئًا من هذا يمكن أن يفيد أو ينفع المواطن المصري. فبفرض أن المعجزة تحققت وأمكن لنا أن نستخرج خمسين مليون برميلًا من النفط كل يوم فإن المستفيد في هذه الحالة سيكون الشريك الأجنبي الذي سيحصل على الجانب الأكبر من الغنيمة، أما حصتنا نحن فسوف يتم اقتسامها بين جانبين..الجانب الأول لن يخرج عن نادي إنبي الرياضي ونادي بترول أسيوط ونادي مازوت مسطرد، وستذهب فلوس النفط إلى اللاعبين والمدربين والمعلقين وإلى الزلنطحية من صعاليك الإستوديو التحليلي. أما الطرف المحظوظ الآخر الذي سوف يستفيد من الاكتشافات البترولية الهائلة على أراضينا فهو الصديق الإسرائيلي الذي سيحظى عندئذ ليس بغاز رخيص وبترول بتعريفة كما يحدث الآن، لكنه سيأخذ البترول بالمجان بعد أن تقوم معاملنا بتكريره وتوصيله في أنابيب إلى المستوطنات المقامة على الأرض العربية المحتلة حتى تحصل مصانعهم على كفايتها وينعم المستوطنون اليهود ببترول وغاز مصر!

أما في حالة العثور على الماء واستصلاح عشرات الملايين من الأفدنة فلن يكون للأسف لشباب مصر أي نصيب فيها، لأنها كلها ستذهب إلى الوليد بن طلال الذي أتوقع أن يبوس مسؤولونا أعتابه حتى يرضى أن يأخذ خمسين مليون فدان مروية ومزروعة، وما عليه سوى أن يقطف ثمارها ويبيعها وحلال عليه فلوسها..لكنه مع ذلك سيتركها تبور ولن يزرع منها فدانًا واحدًا! وإذا تبقى شيء من الأرض بعد ذلك فسوف يتم البحث عن أحد الأصدقاء من القتلة

أو الخونة أو المخنثين ومنحه إياها، وسوف يُكتب في عقد البيع أنه ليس مضطرًّا لزراعتها إذا كانت الزراعة تضايق سيادته أو تسبب له حكـّة في المؤخرة أو تجعل أسنانه تضرس!

هذه هي الحقيقة بدون أي مبالغة..ليست المشكلة هي نقص الموارد، لكنها نقص التربية والأخلاق والوطنية، ورغبة السلطة في تعذيب وإهانة وإذلال المواطن المصري ومنح خيره للغرباء أمام عينيه ثم الاستمتاع برؤية الحسرة تقتله والكمد يفترسه!

الحياة الرديئة

الحياة ذات النوعية الرديئة تحط من مدارك الناس وتجعل تذوقهم للجمال ضربًا من المستحيل. وكلما طال بالناس أمد الحياة الرديئة ازدادت الحواجز بينهم وبين الراقي من الفنون والآداب وتناءت المسافات بينهم وبين المبدعين من أصحاب المواهب النادرة في الفن والأدب... ذلك أن إدمان القبح واعتياده يجعل الإحساس والفهم والتفاعل مع الفنون الراقية والأدب الإنساني والقدرة الاستثنائية شيئًا بالغ الصعوبة، كما يجعل المبدع الحقيقي شخصًا غير مطلوب ولا مرغوب ولا محبوب.

كنت في زيارة صديق عائد من الخارج بعد سنوات طويلة، وقد طاب لصديقي أن يقدم لي بمنتهى الفخر ولده ذا السنوات العشر الذي يعزف على الكمان بعبقرية نادرة. قدم الطفل الصغير عزفًا ساحرًا لمقطوعات ليست سهلة مما جعل أكفنا تلتهب بالتصفيق من النشوة والسعادة ونحن نستمع للكلاسيكيات الغربية الراقية إضافة إلى موسيقى أغنيات عبد الوهاب وأم كلثوم. وأخبرنا الصديق أن ابنه قد وصل إلى هذا المستوى على يد مجموعة من الأساتذة كانوا يتعهدونه بالرعاية والتعليم، وأنه قد شرع بعد عودته للوطن في اختيار أعظم الأساتذة ليستكمل معهم الولد رحلته مع الموسيقى.

في الحقيقة أن استمتاعي بالعزف الجميل وفرحتي بالطفل الصغير لم تمنعاني من التفكير فيما سيحدث لهذا الولد في المستقبل، وما سيحدث لأبيه الذي وفر له كل شيء حتى أصبح قطعة فنية تمشي على الأرض..كيف ستكون حياتهما بعد أن يكبر الابن ويجد أن أفضل ما تؤهله موهبته للحصول عليه هو أن يكون عضوًا في التخت الذي يعزف خلف تامر حسني أو مصطفى قمر أو محمد محيي أو هيثم وكريم ووائل ولؤي؟! وما قيمة كل الجهد والتدريب والكفاح في رحلة الفن إذا كانت النتيجة في الآخر ستكون بهذه التعاسة؟ وكيف تكون الحياة بهذا الظلم حين تقدم لمطرب ضعيف عازفين مبدعين يقفون خلفه ويعزفون تفاهاته وذلك في تعبير صارخ عن غياب المعايير العادلة.

الأمر نفسه يمكن لمسه في حالة أي أب يصطحب صغيره إلى النادي ويلحقه بالتدريب على رياضة كالسباحة أو الجمباز أو القفز بالزانة وهي رياضات تحتاج إلى تدريب طويل ومتواصل ومكلف أيضًا، وحينما يبلغ لاعبها درجة كبيرة من الإتقان فإنه يقدم إعجازًا بشريًّا دالًّا على عظمة الخالق من خلال مخلوقاته. وقتها أيضًا تنتابني نفس الدهشة وتعلق بحلقي ذات المرارة عندما أتصور مصير فتى المستقبل الذي قد يصير بطلًا أوليمبيًّا يحصل لوطنه على ميداليات عندما يرى الإعلام والجماهير الغفيرة والفلوس بلا حساب تركع على أعتاب «جدّو وستّو وخالتو وعمتو» في الوقت الذي لا يعلم أحد بوجوده ولا يحس به أحد!

في المجتمعات المتقدمة يشجعون كرة القدم، لكنهم في الوقت نفسه يحتفون بأبطال اللعبات الأخرى ويمنحونهم ما يستحقون من

الشهرة والمال والمجد. ويستمعون إلى الأغاني لكنهم لا يهملون صاحب موهبة في العزف، ذلك أن نوعية الحياة هناك تتسع وتسمح بوجود جمهور للراقي من الفنون والمتميز من الرياضات وتجعل منهم نجومًا مشهورين.

أما هنا فإن خراب التعليم وفساد الإعلام وتدهور الحياة الثقافية فضلًا عن وقوع الثروة في يد الجهلاء.. كل ذلك حال بين الناس وبين الفهم والإحساس والتذوق.. وربما يفسر هذا ظاهرة جدو اللاعب وجدو المطرب وجدو الممثل.. وكذلك جدو السياسي!

حنانيك يا عم العفريت!

تركَتْ التمثيلية البشعة التي قام بدور البطولة فيها الوزير أحمد ابن زكي بدر جرحًا غائرًا في نفسي لدرجة تمنيت معها لو كنت حاضرًا أثناء قيامه بإهانة الناظر والمدرسين على مرأى من تلامذة مدرسة الخلفاء الراشدين، وأقسم بالله العظيم أنني لم أكن لأتردد في أن أُسمع الناظر وزملاءه عن الوزير في وجهه بأعلى الصوت ما يرضيهم ويشفي نفوسهم التي حطمها الوزير الفظ الغليظ، الفرح بالسلطة والراغب في أن يشتهر إعلاميًّا على حساب كرامة أناس قد يكونون عند الله والناس أقيم وأرفع وأفضل منه مائة مرة.

ما يغيظ في مثل هذه الممارسات الهمجية أنني أضع نفسي مكان هؤلاء البشر الذين سقط عليهم الوزير كالقضاء والقدر من دون توقع منهم، ثم استغل سلطته ومنصبه ومعرفته الأكيدة بأدب هؤلاء الناس وأخلاقهم العالية وتوقيرهم للرؤساء فأشبعهم إهانة وسخرية واستهزاء واستعرض شجاعته أمام الكاميرات وفي حماية حراسه على معلمين أفاضل مسالمين ليس من بينهم زلنطحي مجرم سافل قليل الأدب عديم التربية وليس من بينهم معقد منحرف نفسيًّا فاقد للمروءة والشرف ولا من بينهم ضال جهول يوزع سفالاته على

الناس.. هم معلمون أفاضل سحقتهم حكومته وسحبت ثوب الستر من فوقهم، ثم أتى جنابه ليجهز عليهم بكل ما سمحت به روحه من ألفاظ وقرارات مخالفة للقانون ومعادية للإنسانية ولا تتفق مع الفضائل التي ميزت المصريين دومًا.

ما يغيظ إلى حد القهر أنني أعرف أنه كان هناك بالتأكيد من بين المدرسين الذين سحقهم الوزير من يستطيع في حالة منازلة أو مناظرة أو مناقشة عادلة لا يحتمي أحد طرفيها بالحراس المسلحين أن يهزم الوزير سواء بالمنطق والعقل أو من خلال السخرية والتهكم والقافية. نعم ليس الوزير هو البُرَم الوحيد في هذا الكون الذي يستطيع أن يتهكم على الناس أمام الكاميرات.. هناك أناس منحهم الله طلاقة لسان وخفة دم وسرعة بديهة ومنطقا واضحا وبإمكان أي منهم أن يقيم حفلة كوميديا على الوزير ومن يتشدد له.. كذلك بإمكان أي منهم إذا أراد الوزير المغتر بمنصبه أن ينزل لهم رجلًا لرجل بعيدًا عن حراسه وأمن مركزه أن يجندله ويشندله ويقندله ويجعله يعجز عن النطق ومجاراة الحوار.

لكن للأسف لا يجرؤ سيادة الوزير على مواجهة أحد سوى المرؤوسين الذين يعلم أنهم في المركز الأضعف وبالضرورة سيتحملون ظرفه وخفة دمه وصوته العالي وسيلزمون الصمت أثناء وصلة التمثيل اللتي قام فيها بدور العفريت المخيف والتي من الواضح أنه استعد لها جيدًا باستدعاء الكاميرات والميكروفونات والفضائيات.. وأتصور أنه سهر طوال الليل يذاكر الدور أمام المرآة ويراجع جمل الحوار ليثبت للدنيا أنه جدع وأجدع من عتريس.. حتى شوفوا.. حتى بُصّوا.. لقد كان سيادته ينظر للكاميرا ويحلم بلحظة

يعود فيها للبيت حتى يقوم بتشغيل الشريط ويشاهد نفسه وهو يقوم بدور سبع البرمبة أمام أناس محترمين وأولاد ناس حولتهم حكومته وحزبه إلى غلابة ضعفاء فأصبحوا يستحقون اللين والرحمة وليس الشراسة والعجرفة.

رفقًا يا عم الوزير بالناس لأن الله يستطيع أن يفعل بك ما لا يخطر على بالك انتقامًا لمن هزئت بهم، وعندما تريد القيام بدور العفريت فافعل هذا بالبيت أمام المرآة حتى لا تكسر نفوس أناس أبرياء طيبين.

السّيخ المحميّ

النفس تبكي على الدنيا وقد علِمتْ
أن السعادة فيها ترْكُ ما فيـــــــــها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنـــــها
إلا التي كان قبل الموت يبنيـــــها
فإن بناها بخير طاب مسكنـــــــــه
وإن بناها بشرٍّ خاب بانيـــــــــها

«الإمام على بن أبي طالب»

شكرًا باولو كويلو

للأديب الكبير باولو كويلو رواية مبهرة كتبها بصوت هامس لا يكاد يسمع لفرط شاعريته. الرواية اسمها «على نهر بييدرا.. هناك جلست فبكيت».. تحكي الرواية عن الإيمان بالله وما يمكن أن يصنعه بالنفوس وعن القوى التي يهبها الله لعباده الطائعين وعن طاقة الأمل المفتوحة للناس دومًا.

في حوار بين بطلة الرواية وأحد الرهبان حكى لها الراهب قصة أنقلها لكم بالنص:

«كان أحد العلماء يدرس سلوك القرود في إحدى الجزر الإندونيسية، وقد توصل إلى تلقين قرد كيف يغسل البطاطا في مياه النهر قبل أن يأكلها. فحبة البطاطا المغسولة من الرمل والقاذورات العالقة بها تصبح شهية الطعم. ولم يكن هذا العالم الذي يكتب دراسة حول قدرات التعلم لدى هذه الطائفة من القرود ليتخيل للحظة ما سوف يحصل لاحقًا. فكم كانت دهشته عظيمة عندما لاحظ أن قرودًا أخرى في الجزيرة راحت تقلد القرد المذكور. وحين جاء اليوم الذي تعلمت فيه كل قرود الجزيرة غسل البطاطا، شرعت كل قرود جزر الأرخبيل تحذو حذوها. لكن ما يدعو لدهشة أكبر هو

أن القرود الأخرى تعلمت من دون أن تقيم أي صلة بالجزيرة التي أجرى فيها الاختبار! هناك دراسات علمية عديدة ومتنوعة حول هذا الموضوع. لكن التفسير الأكثر شيوعًا يقول إنه عندما يتطور عدد معين من الأفراد، فإن النوع بأسره يتطور في النهاية. ما زلنا نجهل كم هو عدد الأفراد المطلوب، لكننا نعلم أن الأمور الأخرى تجري على هذا النحو».

أدهشتني هذه الحكاية التي أجراها باولو كويلو على لسان أحد شخوص روايته وتوقفت عند فكرة أن هناك عددًا معينًا من الأفراد إذا قمت بتعليمهم سلوكًا معينًا فإن هذا السلوك ينتقل لأفراد آخرين حتى لو كانوا لا يقيمون بنفس المكان.. ثم تساءلت عن العلاقة بين هذا وبين نظرية الكتلة الحرجة في الفيزياء وهي تلك النقطة التي إذا بلغها التفاعل سهل عندها حدوث الانشطار النووي.

لا أنكر أن هذه الفكرة ألهمتني وأضاءت أركانًا في نفسي كانت شبه معتمة ومنحتني أملًا في التغيير بما قدمت لي من تفسير عن كيف يحفظ الله أوطانًا ملأها الفساد وعاث سلاطينها فيها ظلمًا وعدوانًا وإرهابًا وتزويرًا، وتذكرتُ مقولة يرددها العوام عن كيف يحفظ الله البلاد رغم كل مظاهر الخراب والجور بفضل الناس الطيبين الذين يمتد تأثيرهم في نفوس الجميع فيبقي شعلة الخير مضيئة ولو واهنة انتظارًا ليوم يأتي فيه العدل الذي طال انتظاره.

شعرت أيضًا بشيء كنت أعرفه لكن لا أحسه بدرجة كافية، وهو أن إحداث التغيير لا يحتاج إلى ملايين من الثوار الذين يملؤهم الوعي والغضب.. لكنه يحتاج إلى طليعة من عشرات الآلاف يعرفون

الطريق الصحيح ويصرون على بلوغه في وطن يسكنه عشرات الملايين. وهذا العدد كلما زاد أنبأ هذا بقرب الوصول إلى الكتلة الحرجة التي لا عودة بعدها، وعند وصول هذه الفئة إلى عدد معين فإن النوع بأسره يتطور في النهاية.

وهكذا فإن هذه الفئة القليلة تستطيع إذا صح منها العزم أن تجعل الروح ذاتها تسري في كل النفوس وأن تنقل نفس المشاعر إلى أبناء الوطن المبتعدين عن دوائر التأثر والتأثير فتجعلهم جميعًا يقومون بغسل حبة البطاطا قبل تناولها حتى لو كانوا لم يشهدوا التجربة أمام أعينهم.. وهذه هي قوة الإيمان وسحره.

شكرًا باولو كويلو.

رائحة الشواء المتصاعدة

كنت شاهدًا ذات ليلة على حفلة أقامها رجل أعمال ممن انتفخت كروشهم بالمال الحرام.. مال المصريين الذي أهداه اللصوص لأصدقائهم اللصوص. كان الحفل عبارة عن عشاء مصحوب بعزف موسيقي حي بين الآثار.. ولا أعرف كيف حصل الوغد على تصريح يسمح له بفرش الموائد في هذا المكان واستحضار الخراف المشوية التي كانت موجودة بقوة في هذه الليلة الدسمة التي أكل فيها أصدقاؤه حتى بشموا، وولغوا في لحم الأوزي والبعرور بشراسة منقطعة النظير. وللأسف، فإن الصحفي اللذيذ الذي صك مصطلحات الأوزي والبعرور ومزجها بالمحادثات السياسية بين الزعماء العرب لم يكن نجمه وقتها قد سطع، وبالتالي لم يكن مدعوًّا في ليلة الأنس تلك، وإن كان زعيمه المغوار قد قام بالواجب أحسن قيام.

في هذه الليلة كان رجل الأعمال في حالة مزاجية طيبة على أثر نجاحه أخيرًا في قضم قطعة من لحم الوطن، ولهذا فقد رأى أن يجمع محبيه ومنافسيه في سهرة أوريجينال في أحضان التاريخ وعلى أنغام الموسيقى.. لهذا فقد استدعى أفضل العازفين وأكثرهم مهارة وموهبة في العزف على الكمان والعود والهارب والناي والساكس

ونوع من القيثارة شديد العذوبة لا أعرف اسمه. وقد بلغت روعة العزف في تلك الليلة درجة جعلت الحضور يفترسون اللحم المشوي والسلطات والأرز بالخلطة كله ويعبّون المشروبات التي أريقت كما لو كانت ماء طلمبات حبشية!

سرحت طويلًا تلك الليلة في المفارقة العجيبة التي تجعل فنانًا موهوبًا لديه منحة هي قبس من روح الله، وهي بمعيار القيمة أفضل وأقيم وأكثر نبلًا من كل ما يمثله صاحب الحفل وأصدقاؤه المفلسون روحيًّا أصحاب النفوس الخاوية والقلب الغليظ الذين لم يعيروا العزف أدنى اهتمام وانهمكوا في الأكل والحديث البذيء، وما فرق معهم قيام كل فنان ببذل قطعة من روحه في معزوفته لأناس لا تعي ولا تحس.

شعرت وقتها بالغضب وندمت على الحضور بصحبة صديق فنان وتمنيت أن يقرر العازفون الانصراف، وحلمت بأن آخذهم معي إلى أصدقائي في الحسين وأقيم بهم سهرة صباحي مع من يحسنون الاستماع ويعرفون للفن قيمته وللفنانين أقدارهم.. غير أني أفقت على حقيقة أن شلة الحسين لن تستطيع أن تدفع لأصحاب المواهب سوى قلوب تخفق بالحب وعيون تلمع بالفرحة وقسمات وجوه تنطق بالسعادة والامتنان.

وعلى الرغم من أنني قد عرفت في رحلة الحياة بعضًا من رجال الأعمال الذين امتلكوا حسًّا رفيعًا وذوقًا طيبًا وتقديرًا للفنون، فإن السادة الحضور في تلك الليلة كان أغلبهم من النوع الحلوف الذين انتقلوا من المجاعة إلى التخمة من دون المرور بمرحلة الشبع!

لا أدري لماذا تذكرت ليلة العازفين والخراف تلك عندما شاهدت فريق الكرة يعود من أنجولا ومعه الكأس، وأبصرت تكريم رجال الأعمال لهم، وشعرت بالحزن لأني أعلم أن بعضًا ممن ظهروا في الصورة كانوا حضورًا في الليلة إياها عندما كان العازفون يملئون الأفق سحرًا بينما هم يأكلون ويتجشئون.. وأدركت أن شحاتة وفرقته التي أسعدت مصر قد لا يكونون بالنسبة لهم أكثر من مجرد تسالي في الخلفية.. بينما رائحة الشواء المتصاعدة هي الأصل!

كآبة مفاجئة

كتبت منذ عدة سنوات مقالًا عنوانه: «نظرية الجزمة الدوارة» تحدثت فيه عن حياتنا السياسية والاجتماعية التي اعتاد الناس فيها أن يكون كل منهم ظالمًا ومظلومًا، ضاربًا ومضروبًا، راكبًا ومركوبًا، معتديًا ومعتدى عليه في الوقت نفسه، وكيف أنهم ارتضوا هذه الصيغة العنيفة المذلة الكاسرة للنفس والمميتة للقلب حتى إنهم لم يعودوا يرون في هذه الصيغة شيئًا شاذًّا، لدرجة أن الرئيس في العمل أصبح يقوم بالتنكيل بالمرؤوس إذا فكر هذا في رفع رأسه ولو قليلًا، ذلك لأن هذا الرئيس نفسه ينحني للرؤساء دائمًا وبالتالي لا يفهم كيف لا يحصل بالمثل على انحناءات مماثلة من المرؤوسين!

وعدت لقراءة مقال للدكتور محمد أبو الغار كتبه منذ عام بعنوان: «إذا وافقت أن تكون عبدًا فلا تشتك من معاملة الأسياد».. وهو يدور حول نفس الفكرة، وقد عرض فيه الدكتور أبو الغار موقفًا حدث مع هاني هلال وزير التعليم العالي في افتتاح مباني الجامعة الأمريكية بالتجمع الخامس حيث جلست على المنصة السيدة سوزان مبارك والسفيرة الأمريكية سكوبي ومعهما رئيس الجامعة الأمريكية. وذكر أبو الغار أن الوزير هاني هلال الذي لم يجد لنفسه مكانًا على المنصة

استفسر عن السبب فقيل له إن هذه الترتيبات تمت بمعرفة الرئاسة، وعندها فإنه توجه إلى حيث يجلس جمال مبارك الذي كان حاضرًا الاحتفال في الصف الأول.. وقبل بلوغه مكان جمال بعدة أمتار أشار له هذا بيده إشارة معناها عد إلى مكانك، وذلك لأن جمال مبارك كان يعلم ما سيحدث فيه الوزير، وبالفعل تراجع هلال وجلس في مقعده وسط الجمهور.

وأنهى الدكتور أبو الغار مقاله بتفسير ما حدث من وجهة نظره وذلك لأن هاني هلال «قبل منصبًا وأصدر أوامر لمرؤوسيه وكانت الإجابة بالسمع والطاعة،فتخيل للحظة أنه بمقدوره أن يقول شيئًا بسيطًا صغيرًا للكبار، ولكنه لقي جزاءه لأنه نسي نفسه وموقعه في مخاطبة الأسياد».

سبب تداعي هذه الأشياء على خاطري هو ما حدث في لجنة التعليم بمجلس الشعب في الجلسة التي حضرها وزير التعليم العالي منذ أيام عندما استأسد على أحد مرؤوسيه وهو في الوقت نفسه أستاذ جامعي وزميل لهلال، لكن ذلك لم يشفع للرجل فقام بطرد الدكتور محمد السعدني مدير مدينة مبارك للأبحاث العلمية من الجلسة أمام جمع من الحضور وأمره أن يذهب وينتظره في مكتبه بالوزارة حتى يعود إليه، وذلك في تصرف جارح مليء بالكبر والغطرسة!

قرأت ما فعله الوزير مع محمد السعدني، وتذكرت ما حدث لهلال العام الماضي على يد جمال مبارك وهممت بأن أطلق ضحكة مجلجلة غير أنني عجزت وبدلًا منها اكتسى وجهي بكآبة مفاجئة!

روبين هود.. والكُفّار

في الفيلم الأخير للمخرج ريدلي سكوت «روبين هود» يوجد مشهد يقف فيه بطل الفيلم «راسل كرو» أمام ريتشارد قلب الأسد العائد من فلسطين بعد آخر جولة في حملاته الصليبية.. يتقدم ريتشارد من روبين هود ويسأله: هل تظن أننا نلنا رضا الرب بعد كل ما فعلناه من أجل أورشليم؟ فيرد: لا أعتقد أن ما فعلناه يرضي الرب.

وهنا يتغير وجه ريتشارد ويكتسي بالغضب، لكن روبين هود يمضي قائلًا: عندما أتذكر مذبحة عكا التي نفذناها وقمنا فيها بذبح أكثر من ٢٥٠٠ امرأة وطفل، تقفز أمام عيني صورة امرأة مسلمة لا أنساها أبدًا.. حين كان السيف يرتفع في الهواء وقبل أن يهوي على عنقها، نظرتُ إلى عينيها فلم ألمح فيهما الرعب ولا حتى الغضب.. وجدت وجهها هادئًا وكانت تنظر نحوي في إشفاق، وأدركت فيما بعد أنها عرفت أنه في اللحظة التي قررنا فيها أن نذبح الأبرياء العزل فإننا قد صرنا كفارًا.

وأتصور أن بنيامين بن أليعازر وزير الصناعة والتجارة الإسرائيلي الحالي قد واجه ذات النظرة حين كان قائدًا لوحدة شاكيد في يونيو ١٩٦٧ وهو ينظر في أعين الجنود المصريين العزل الذين وقعوا

في الأسر قبل أن يقوم بدفنهم أحياء. وأغلب الظن أن شهداء هذه المذبحة وهم في لحظاتهم الأخيرة لم يكرهوا الرجل ولم يحقدوا عليه، لكنهم رثوا لحاله وأشفقوا عليه من هول ما كان مقدمًا على ارتكابه، وذلك لأنهم أيضًا قد أدركوا أنه في اللحظة التي بدأ يهيل فيها عليهم التراب قد صار كافرًا.

لكن ترى هل هناك بين من يسكنون معنا ويتكلمون لغتنا ويأكلون طعامنا من يستحقون ذات الشفقة التي استحقها ريتشارد وبن أليعازر؟ نعم هناك كثير بكل أسف ممن يستحقونها ويحصلون عليها.. فرجل الأمن الذي ترتفع كفه لصفع إنسان فإنه قبل أن تلامس يده الملعونة وجه الضحية يكون قد خرج من رحمة الله والتحق بمملكة جهنم حتى لو كانت زبيبة الصلاة تملأ وجهه أو كان صليب المسيح موشومًا بمعصمه.

من يضرب أسيرًا لا حول له ولا قوة فإنه يؤذي نفسه بشدة ويصيب ضميره بالتسمم ويخرب روحه بيده، فيظل بعضه يمزق بعضه من الداخل من دون أن يدري حتى ينعكس هذا على الوجه الذي يطالعه في المرآة. ولا يمكن أن تصادف أحد الجلادين مهما بدا وسيمًا إلا والنظرة المتأنية لوجهه تكشف أن قوى الشر تتصارع داخله وأن مزيجًا من الجبن والخسة والنذالة يطحن بعضه بعضًا.. ويظهر هذا أكثر ما يظهر حين يبتسم، وليجرب أحدكم أن ينظر في وجه أي من هؤلاء عند الابتسام وسيروعه أن يرى وجه كلب!

وقد سمعت من طبيب نفسي أعرفه أن واحدًا من هؤلاء لا يستطيع أن يضاجع امرأته إلا بعد أن يقوم بتعذيب عدد من الأبرياء وأنه لا

يستعد لهذه المهمة بحبة فياجرا كما يفعل زملاؤه، لكنه يستجمع الدم في عروقه من خلال سماعه لصوت الأنين ورؤيته للدماء تغطي وجوه الضحايا بعد وصلة تعذيب!

ولا عجب في أن النائب الوغد الذي طالب في مجلس الشعب بإطلاق النار على من يطالبون بحقوقهم كان واحدًا من هؤلاء.. وهو وأمثاله لا يحتاجون للممثل راسل كرو والمخرج ريدلي سكوت حتى يعرفوا أنه في اللحظة التي يرفعون فيها سيوفهم في وجوه الأبرياء العزل فإنهم يصيرون كفارًا.

السّيخ المحميّ

أنا من أشد المؤمنين بنظرية المؤامرة، ولهذا لا أعتقد أن شيئًا بريئًا يمكن أن يصدر عن السلطة أبدًا.

عندما كانت الصحف على مدى أسبوع كامل تتحدث عن مشروع قانون يبيح تجارة الآثار نسبته لأحمد عز، وعندما كانت نفس الصحف تشير إلى أن فاروق حسني وزاهي حواس يتصديان بقوة لقانون عز، كنت أسخر بيني وبين نفسي من التمثيلية التي أخذت فصولها تتتابع.. لماذا؟ لأن فاروق حسني وزاهي حواس لا يعقل أن يتصديا لرغبة سامية من تلك التي اعتاد أحمد عز أن يتحمل وزرها أمام الناس.. والأمر الطبيعي لو لم يكن الموضوع مجرد سيناريو تم فيه توزيع الأدوار أن يكون فاروق حسني وزاهي حواس بالتحديد في طليعة المؤيدين لبيع الآثار! ولم يكن أي منهما ليعدم حججًا وأسانيد توضح لشعب مصر الخير العميم الذي سيعود عليه من المشروع، أو كانا على الأقل سيصمتان حتى يتم تمرير القانون ويتركان نواب المعارضة هم الذين يقاومون المشروع الذي كان بالتأكيد سيصدر رغم أنف العفاريت الزرق! وتقديري أن الأمر كله مجرد بالون اختبار سيتلوه بعد فترة العرض الحقيقي.

لكن الذي حدث أن عز قدم أفكاره التي استقاها كما ذكرت الصحف من تجارب أوروبية وبعدها اعترض فاروق حسني وزاهي حواس وهددا بالاستقالة إذا تم تمرير القانون.. إلى هنا أعتقد أن السيناريو كان يمضي في طريقه الطبيعي.. فما الذي أغضب القوم من زاهي حواس بعد ذلك إلى حد تبكيته وتقريعه وإهانته بل وإرسال رسائل تخويف إلى الرجل جعلت فرائصه ترتعد من الرعب؟

أعتقد لأنه في ذروة اندماجه في معارضة ما طرحه عز تقمص روح الزناتي خليفة فأسرف أمام مندوبي الصحف في مهاجمة عز والتهكم عليه وعلى ما طرحه على نحو جعل القوم يرونه يقوم بدور البطل على حسابهم رغم أنهم جميعًا «دافنينه سوا!».

وهنا قرروا في مجلس الشعب أن يجعلوا منه عبرة لمن يخرج عن النص ويتجاهل الملقن الجالس في الكمبوشة! وقام أحمد عز بنفي أنه تقدم بمشروع قانون وتحدى أن يثبت أحد أنه فعل، ورأينا أقطاب المجلس يدافعون عن عز ويقولون إن ما تقدم به مجرد دراسة منقولة عن القانون الإيطالي للاسترشاد بها ليس أكثر، ورأينا زاهي حواس يتراجع ويعتذر وقدماه لا تكادان تقويان على حمله من الخضة لدرجة أنه لم يكتف بالاعتذار وإنما امتدح أحمد عز وقال إنه رجل حسن النية، رغم أن موضوع النية لم يكن مطروحًا للمناقشة ولكن مقترحات تتعلق بإباحة الاتجار في الآثار! وقال إنه منبهر بأحمد عز من زمان ومعجب ببلاغته وفصاحته (وكأنه يتحدث عن الجاحظ أو تأبط شرًّا). وهكذا قبل زاهي حواس التفسير الذي قالوه عن أفكار عز بأنها دراسة وليست مشروع قانون وكأن المشكلة في الاسم، مع أنني على استعداد لأن أنحّي جانبًا تسمية الأمر «مشروع قانون» وأنحّي

أيضًا تسميته «دراسة» ويمكن أن ننتقي له اسمًا جديدًا يتوافق عليه الجميع وليكن تامر مثلًا أو هيثم!

وهنا تثور عدة أسئلة من قبيل: هل تامر الذي تقدم به النائب أحمد عز كان يدعو لإباحة تجارة الآثار للأفراد أم لا؟ ولماذا قبل زاهي حواس السكوت على تامر بل وامتدح من تقدم بتامر؟ وهل للسيخ المحمي الذي اقترب من صرصور الأذن علاقة بالأمر؟

فلاح كفر الهنادوة.. والجنزوري

كل من تقلد منصب رئيس الوزراء في عهد الرئيس مبارك خرج من الوزارة معززًا مكرمًا محتفظًا بالجاه والعز والأبهة ومتقلدًا منصبًا جالبًا للبنكنوت العريض. واحد فقط يعرفه الجميع خرج من المكتب على البيت في هدوء بدون زيطة أو زمبليطة، وبدون قرار رئاسة بنك ينحت منه مليون أهيف كل شهر، ولا حتى رئاسة جراج المجالس المتخصصة الذي ركن فيه دائمًا من استغنى عنهم النظام ومازال يحمل لهم بقايا ود.

الدكتور كمال الجنزوري وحده الذي لم يلق عطفًا وحنانًا من الزمان بعد خروجه من الوزارة، على العكس من كل من سبقوه ولحقوه ممن جلسوا على الكرسي المذهب.

علي لطفي مثلًا خرج من الوزارة فتقلد منصب رئيس مجلس الشورى وهو منصب بدرجة نائب رئيس جمهورية.. عاطف صدقي بعد خروجه ذهب ليتولى الإشراف على المجالس القومية المتخصصة ليظل ضمن الفريق ولو من على الدكة..عاطف عبيد خرج من مكتب رئيس الوزراء إلى مغارة علي بابا حيث رئاسة مجلس إدارة المصرف العربي الدولي ودولارات بلا حدود.. فلماذا

كمال الجنزوري وحده يا ترى الذي باء بالغضب وتم شلحه على هذا النحو؟

لا أحد يعرف الأسباب، أو إن البعض يعرف ولا يريد أن يبوح.. لم يبق إذن سوى التكهن، وأستطيع من خلال بعض الأشياء البسيطة أن أكوّن فكرة عما حدث قد تكون قريبة من الحقيقة.

بعد تولي الدكتور عاطف صدقي رئاسة الوزارة بدأ الفنان مصطفى حسين والكاتب أحمد رجب في الاشتغال على شخصية فلاح كفر الهنادوة الذي يناطح رئيس الوزراء ويحاوره.. وتم رسم عاطف صدقي في صورة كاريكاتورية مبتكرة وهو يجلس على كرسي مرتفع وقدماه تتأرجحان في الهواء بعيدًا عن الأرض.. ومن الواضح أن هذه الصورة كانت تلقى الرضا السامي بالرغم من أنها مسخت الرجل وقدمته في صورة هزلية مضحكة. بعد عاطف صدقي تولى المنصب كمال الجنزوري، وفي عهده خلت صحيفة أخبار اليوم من الكاريكاتير الشهير واختفى فلاح كفر الهنادوة لأن الجنزوري على ما يبدو رفض فكرة أن يكون مهزأة يتسلى بها الشارع المصري ورسم لنفسه صورة محترمة أصر عليها، ويبدو أنها كلفته منصبه!

بعد الجنزوري تولى عاطف عبيد وقد رحب من أول يوم بعودة فلاح كفر الهنادوة وأبدى سعادة بأن تقدمه الصحافة كما كانت تفعل مع المرحوم عاطف صدقي، وقد وضح أنه وعى الدرس جيدًا بعد رؤيته لرأس الذئب الطائر وأدرك بفراسته طبيعة المرحلة ومقتضياتها.. وقد قضى في الوزارة خمس سنوات أتى فيها على الأخضر واليابس وقام بشخرمة مصر كما لم يشخرمها أحد وجعل

أعزة أهلها أذلة بعد أن باع مصانعها وشركاتها بتراب الفلوس، ومع هذا فقد خرج من الوزارة على البنك طوالي.

وطبعًا ما زال فلاح كفر الهنادوة يصول ويجول مع الدكتور نظيف كل أسبوع، ويبدو أن هذا الفلاح قد أصبح المعيار الذي يمكن لمن يريد الرصد أن يتابعه ليتأكد أن من يقبل بفلاح كفر الهنادوة منادمًا وسميرًا ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾، وأما من يعرض عن فلاح كفر الهنادوة ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾!

أبويا اتحرق!

لا يمكن لمن يشاهد أمارات السعادة والفرح على محيا الرئيس اليمني علي عبد الله صالح إلا أن تنتقل إليه هو نفسه عدوى السعادة وتقفز إلى روحه ظلال الفرحة التي تغلف روح القائد اليمني السعيد.

أما مناسبة السرور الطاغي فعجيبة جدًّا..المناسبة كانت قيام قاذفات القنابل من سلاح الجو السعودي بإلقاء حمولتها من الصواريخ على الأراضي اليمنية، وهو الأمر الذي أدى إلى وقوع عدد كبير من اليمنيين بين قتيل وجريح مع إلحاق دمار تام بالمساكن والماشية وكل ما يعيش عليه المواطنون ويتعيشون منه! واستمرت السعادة بعد ذلك طيلة الأيام التي دخلت فيها القوات السعودية بالمدرعات والمجنزرات وناقلات الجنود وراجمات الصواريخ إلى الأراضي اليمنية لمطاردة جانب من شعب الرئيس علي عبد الله صالح ومحاولة القضاء على هذا الجانب الذي يسكن منطقة صعدة المجاورة للحدود السعودية.

ولا يمكن طبعًا أن ألوم السعوديين على دخولهم المعارك ضد الحوثيين، وهم فصيل من شعب اليمن قيل إنه دخل الأراضي السعودية وسيطر على مساحة من الأرض وكان لا بد من التصدي

له. لكن اللوم الممزوج بالذهول لا بد أن يكون من نصيب الرئيس اليمني الذي مهما بلغ خلافه مع أبناء شعبه من الحوثيين فلم يكن من المتصور أبدًا أن يبدي كل هذه الشماتة وهذا السرور عندما يقصف قراهم الطيران السعودي ويحيل مساكنهم البائسة إلى أنقاض.

والواقع أن الرئيس اليمني تنتظره أيام صعبة قادمة لن يستطيع فيها أن يفرح كثيرًا بعد أن يتحرك ضده أبناء الجنوب الذين بدأت نذر تحركاتهم تلوح في الأفق، وعليه والحال هكذا أن يبحث عن دولة مجاورة تقصف له عدن وباقي مدن اليمن الجنوبي حتى تريحه من صداعهم ومطالبهم. ولعل ما تناقلته وسائل الإعلام عن الاهتمام الأمريكي المفاجئ باليمن وما يحدث فيه بعد القبض على النيجيري الذي حاول تفجير الطائرة في ديترويت وتواتر الأنباء عن تدريبه على يد رجال القاعدة باليمن.. لعل في هذا ما يريح الرئيس صالح، فلربما قام الأمريكيون أيضًا بتسديد ضربات جوية إلى قطاع جديد من الأرض اليمنية تثلج قلب الرئيس.

والحقيقة أن الخلاف بين نظام الحكم في صنعاء وبين جانب من أقاليم البلاد يعود إلى الإهمال الجسيم الذي يلقاه اليمنيون من حكومتهم المركزية وعدم وصول يد التنمية إليهم.

وكنا نتمنى أن يهتم الرئيس اليمني بمشكلات شعبه ويعمل على حلها بدلًا من أن يتجاهلها ثم يفعل مثلما فعل الفنان يونس شلبي في مدرسة المشاغبين بعد أن اشتعلت النار في والده الناظر حين جرى فرحًا مهللًا: أبويا اتحرق.. أبويا اتحرق!

سلاح لقتل الأشقاء فقط

تقوم الولايات المتحدة بتسليح إسرائيل، كما تقوم في الوقت نفسه بإمداد الدول العربية بالسلاح في مفارقة مستلفتة للنظر. ولا شك في أن أمريكا ما كانت لتسلح العرب لولا تأكدها من أن السلاح الذي تقدمه لهم لن يقتل غير العرب والمسلمين، ولن يتم توجيهه أبدًا نحو إسرائيل!

وعلى الرغم من هذا اليقين فإن الأمريكان لا يغامرون بمنح العرب السلاح المتطور الذي يزودون به الكيان الصهيوني، لكنهم يقدمون للعرب السلاح منزوع الدسم، محدود الفعالية، الخالي من التكنولوجيا الراقية.. سلاح يمكن فقط به للسعودية أن تحارب اليمنيين ويمكن لمصر أن تؤدب به السودان أو ليبيا أو فلسطين، ويمكن لقطر والبحرين أن يتناوشا به على الحدود..لكن لا يمكن أن يتفوق أو يعادل ما لدى إسرائيل التي تضمن لها أمريكا التفوق الكمي والنوعي على الدول العربية مجتمعة.

والحقيقة أن تزويد الغرب الاستعماري للعرب والمسلمين بالسلاح لم يبدأ اليوم أو أمس، لكنه بدأ في أوائل القرن التاسع عشر عندما قامت فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية بتسليح محمد

علي بعد اعتلائه عرش مصر. في ذلك الوقت لم يتم تزويد الباشا بالسلاح فقط، لكنهم بنوا له ترسانة بحرية لبناء السفن، ومصانع للذخيرة وتصنيع السلاح. والغريب أنهم لم يضنوا عليه بالسلاح المتطور كما تفعل أمريكا اليوم ولكن قدموا له أحدث ما وصلوا إليه ولم يخشوا من حيازته لسلاح يماثل ما بحوزتهم، ربما لاطمئنانهم لتوجهات الرجل وثقتهم بأن هذا السلاح لن يستخدم إلا ضد العرب والمسلمين.

والحقيقة أن الرجل لم يخيب أملهم بعد تجنيده لأبناء الفلاحين وتكوينه جيشًا شديد البأس..فأرسل ابنه إبراهيم باشا إلى الجزيرة العربية عام ١٨١٦ حيث قمع الحركة الوهابية وأنهى حكم الدولة السعودية الأولى واحتل الدرعية عاصمة ملكهم ونصّب نفسه أميرًا على مكة بعد أن أسر أميرهم وأرسله لأبيه في القاهرة، فأرسله محمد علي إلى الآستانة، فطافوا به في أسواقها ثلاثة أيام قبل أن يقتلوه. (ولعل هذا يفسر العداء السعودي التاريخي للمصريين). بعد ذلك توجه جيش محمد علي إلى السودان ليقمع تمردًا وقع هناك فأنشأ مدينة الخرطوم وعمل على تأمين منابع النيل.

حتى ذلك الوقت لم تكن لمحمد علي مشكلة مع الغرب الاستعماري، إذ إن الأراضي التي فتحها وأطلق عليها مدافعه وبنادقه كانت أراضي العرب والمسلمين، والدماء التي أسالها في غزواته ومعاركه كانت دماء العرب والمسلمين.

بدأت المشكلة حينما قاتل بقواته في اليونان إلى جوار السلطان العثماني وحارب في «المورة» ونالت نيرانه من الأوروبيين اليونانيين

وابتعدت للمرة الأولى عن قتل العرب والمسلمين، وهذا ما لا يمكن قبوله! فقد محمد علي إذن حظوته ودلاله عند الغرب بعد أن تجاوز الدور المرسوم له وبعث أسطوله بقيادة ابراهيم باشا ليحارب إلى جانب الأسطول العثماني ومعهما الأسطول الجزائري.. أكرر الأسطول الجزائري (هذا الكلام للأوباش الذين شتموا شعب الجزائر من أجل ماتش كرة) وقفت مصر والجزائر إلى جوار تركيا في وجه الأساطيل الغربية: البريطاني والروسي والفرنسي في خليج نوارين.

ومما يجدر تأمله أن المتحدثين عن محمد علي لا يتطرقون إلى هذا الجانب المهم في فهم مساعدة الغرب له ثم انقلابهم عليه. لقد تركوه يشق في لحم الدولة العثمانية، وتركوه يقاتل في الحجاز ونجد وفي السودان وباركوا جميع خطاه، فلما امتدت يده إلى اليونانيين قطعوها وأغرقوا أسطوله في نوارين ثم قاموا بتحجيمه وإعادته إلى قواعده في مصر وفرضوا على جيشه قيودًا أضعفته وأنهت أسطورته.

فلعل العرب المتعلقين بأذيال الغرب،أولئك الذين ينفقون ثروات شعوبهم على تكديس السلاح يدركون أن السلاح الأمريكي البريطاني الفرنسي إنما هو مخصص من أجل أن نقتل به بعضنا بعضا، وليس مخصصًا للدفاع ضد الأعداء ولا لنصرة الأشقاء.. وكيف يكون ضد الأعداء ولنصرة الأشقاء إذا كانت إسرائيل هي التي تشرف على انتقائه قطعة قطعة.. وهي التي تضع توقيعها على أوراق السماح بتصديره!

ماذا يَفعل بالنهار؟

على باب الجنة يا طعم التـــوت
أنا ممكن أحب لحد ما أمـــوت
وأزرع لك جـوه البحر بيـــوت
وأخلي سنين الصعب تفـــوت
أنـا أشيل الشقا وانـتـي تطبطبـي
وأتـعـب لـك وانـتـي بـلاش تتعبي

«جمال بخيت»

حقًّا.. ماذا يَفعل بالنهار؟!

كان الرئيس الروسي خروشوف يحكم الدولة السوفييتية وهي في أوج عظمتها وفي عز مجدها، وقد وفرت له الإنجازات العلمية العظيمة التي تحققت في عهده وعلى رأسها إرسال سفينة إلى الفضاء للمرة الأولى.. وفَّرت له ثقة كبيرة بالنفس وبقدرات شعبه بعد أن أصبح الاتحاد السوفييتي في عهده إحدى قوتين عظميين تتقاسمان السيطرة على العالم.

وقد تجلت هذه الثقة في ردود أفعال الرجل التي كانت مثيرة للدهشة في كثير من الأحيان.. وأشهرها تلك المرة التي خلع حذاءه فيها ودق به على الطاولة داخل الأمم المتحدة مهددًا ومرعدًا عندما كان يلقي خطابًا ناريًّا بالمنظمة الدولية. والموقف الآخر عندما حدثه السفير الإيطالي في موسكو ذات مرة بإجلال مبالغ فيه عن بابا الفاتيكان، وقد أطنب المتحدث وأفاض في الحديث عن أهمية الرجل الكونية وتأثيره الروحي في الملايين، وهو الأمر الذي اضطر خروشوف إلى أن يقاطع الرجل في حدة متسائلًا: أي أهمية هذه التي تتحدث عنها؟. كم فرقة مدرعة يمتلك هذا الرجل؟!.. كم صاروخا؟.. كم طائرة؟.. هذه هي الأشياء التي تمنح الرجال أهمية ولا أراه يمتلك منها شيئًا!

ومع كل نوادر خروشوف والقصص التي تحدثت عن جسارته وعدم تمتعه بقدر عال من اللياقة طبقًا للمفهوم الغربي، فإن حكاية طريفة هي التي تستهويني من سيرة الرجل وقد حدثت داخل القصر الملكي البريطاني وسردها الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتاب سنوات الغليان.

كان الرجل في زيارة رسمية إلى بريطانيا وتمت دعوته إلى العشاء مع الملكة وعائلتها بالإضافة إلى رئيس الوزراء والوزراء وكبار الشخصيات في الدولة من أعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم، ويبدو أنهم حشدوا له كل الشخصيات المهمة إدراكًا لأهميته وأيضًا لمعادلة صلفه وجرأته وللتدليل على مكانة بريطانيا.

في وسط الحشد الكبير الذي انتظم لمصافحته قدموا له دوق يورك الأمير فيليب فمد يده وصافح الرجل، لكن الحاضرين أحسُّوا أنه ربما لا يعرف أن هذا الرجل هو زوج الملكة إليزابيث فمال على أذنه أحد رجال البروتوكول وأخبره أن هذا الرجل هو دوق يورك، فتساءل خروشوف زعيم البروليتاريا في العالم ورئيس الحزب الشيوعي السوفييتي الذي هدم الإمبراطورية القيصرية وقضى على طبقة الأمراء.. تساءل خروشوف في براءة حقيقية: ما معنى دوق يورك؟ فشعر الحاضرون بالحرج واقترب منه بعضهم وهمسوا له بأن هذا الرجل هو الأمير فيليب. لكن هذه الإجابة لم تزده إلا حيرة فسألهم: ماذا يشتغل هذا الرجل؟.. هل هو وزير أو محافظ أو ماذا؟ وهنا أغرق الجميع في الخجل، وحاولوا أن يتداركوا الموقف المحرج ويفهموا هذا الجلف الروسي بالأهمية الملكية للأمير فقالوا له: يا فخامة الرئيس هذا الرجل هو زوج الملكة. وهنا

أبدى خروشوف تفهمه، لكنه تساءل: ولكن ما طبيعة عمله؟ قالوا له محرجين: يا صاحب الفخامة نقول لك إن هذا الرجل هو زوج الملكة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا. وهنا صاح بهم خروشوف: نعم نعم! ولكن ماذا بالله عليكم يفعل بالنهار؟

وهنا كادوا يغمى عليهم جميعًا!

كوز بطاطا.. وعسلية

نكتة كاريكاتورية مرسومة في إحدى الصحف العربية لفنان الكاريكاتير المبدع «حامد نجيب» جذبت انتباهي. رسم حامد رجلًا يمثل الغرب وعلى رأسه قبعة يقف على منصة ملقيًا خطبة يؤيد فيها حقوق الشعب الفلسطيني بينما الجمهور العربي يستمع إليه في سعادة وانتشاء.

خلاصة الخطبة هي ما كتبه حامد على لسان المسؤول الغربي الذي قال: «نحن مع الشعب الفلسطيني المناضل حتى يحقق الإسرائيليون أحلام دولتهم!».

أصاب «حامد» كبد الحقيقة من خلال رسمة بسيطة وأقل قدر من الكلمات.

لقد دأب المسؤولون الغربيون على أن يقدموا لإسرائيل بالمجان التكنولوجيا والسلاح المتطور والمفاعلات النووية بينما يبيعون لنا بتكلفة باهظة بعض التأييد اللفظي، أي أنهم يبيعون لنا الهواء الذي علموا أننا نكتفي به ليطري على قلوبنا الحارة!

وإلا فبماذا تفسر إلحاح الصحف البريطانية على نشر أخبار كاذبة

حول المسؤول الإسرائيلي الفلاني الذي كادت السلطات البريطانية تعتقله لارتكابه جرائم حرب في غزة لولا أنه ألغى رحلته في آخر لحظة بعد أن بلغه نية الإنجليزاعتقاله.. أو الجنرال العلاني الذي نجا من المصير الأسود بمعجزة بعد أن تم تهريبه من لندن قبل ثوان من إلقاء القبض عليه!

آخر أبطال هذا الفيلم الرديء هي تسيبي ليفني وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة التي كانت في السلطة وقت الحملة البربرية على الفلسطينيين العزل في غزة في يناير ٢٠٠٩ عندما قام البرابرة بقصف الأطفال بالأسلحة الكيمياوية.

نشرت صحافة لندن أن قوة من بوليس سكوتلانديارد تحركت إلى الفندق الذي كانت تسيبي ليفني تعتزم النزول فيه وقامت القوة بتفتيش الفندق وقلبه رأسًا على عقب قبل أن يتبينوا أن المطلوبة لم تصل لندن بعد أن تم تحذيرها من سوء العاقبة إن هي وطئت الأراضي البريطانية!

طبعًا هندية الفيلم ليست محل شك، لكنها لا تنال من القضاء البريطاني الشامخ والنزيه والمستقل والذي يقوم فعلًا بإصدار قرارات بالقبض على المجرمين طبقًا لقانون بريطاني يمد ولاية قضاء جلالة الملكة ليشمل جرائم ضد الإنسانية وقعت خارج الحدود البريطانية. ولكن ما ليس نزيهًا ولا مستقلًّا هو السياسة البريطانية التي تعبث بالعدالة محاولة تفريغها من مضمونها بدليل السعي المحموم من ساسة لندن لإلغاء القوانين التي تغضب إسرائيل.

لكن ما لفت نظري إليه في الفيلم الهندي المتعلق بفرقة البوليس

التي ذهبت لاعتقال الحلوة تسيبي من الفندق هو السذاجة في الإخراج، إذ كان بإمكان قوة البوليس قبل التحرك من سراي القسم أن تنقر نقرتين على الكومبيوتر حتى تستبين إذا كانت ليفني قد دخلت من المطار أم لا.. بدلًا من الهجمة العنترية العقيمة التي نفذوها وهم يدركون أن مجرمة الحرب التي يريدونها لم تدخل لندن من الأساس! وهو فيلم يشبه في تعاسته فيلم صدور قرار منع ممدوح إسماعيل صاحب عبارة الموت المصرية من آلسفر بعد التأكد من أن الطائرة التي هرب فيها قد غادرت الأجواء المصرية في طريقها لعاصمة الضباب!

ما يفعله الإنجليز هو ما عبر عنه الفنان حامد ببساطة آسرة على لسان المسؤول الغربي الذي يقدم دعمًا لفظيًّا للعرب مقابل فلوسهم الكثيرة التي يستولي عليها، في الوقت الذي يقدم لإسرائيل الدعم الحقيقي ويمدها بكل أسباب القوة.. وهذا لا يفترق كثيرًا عن أن تقدم كوز بطاطا وإصبع عسلية لعبيط القرية مقابل الاستيلاء على أرضه!

لعبة الخمسة

النصابون لا تنضب مخيلتهم أبدًا ولا يكفون عن إنتاج كل جديد في دنيا الاحتيال.

عندما شاهد الناس ودائع البنوك تنهب بواسطة رجال الأعمال السفلية بتواطؤ واضح من النواطير الذين كان يفترض أن يحموها.. عندما حدث هذا فإن شهية الصغار أيضًا تنفتح على النصب باعتباره عنوانًا للمرحلة، فيلجأ المغامرون الصغار إلى ابتداع صيغ جديدة تناسب أيديهم القصيرة وعدم وجود أنصار لهم بالبنوك على العكس من كبار الحيتان الذين يتنازلون لمدير البنك ولمن عينوه عن جزء من الكعكة مقابل تمرير العملية وقبول الضمانات الوهمية المقدمة من حضرة الحوت! أما الصغار فقد تفتقت قرائحهم عن بعض الحيل الصغيرة التي حفروا بها لأنفسهم مكانًا متواضعًا في دنيا النصب، والنفاذ إلى شيء من فلوس البنوك أسوة باللصوص الكبار وأصدقائهم اللصوص.

من الحيل الحديثة التي شاع استخدامها بين أبناء الطبقة الوسطى ما حكاه لي أحد الأصدقاء الذي كان شاهدًا على عملية نصب مكتملة الأركان وتسمى «عملية الخمسة» وهي عملية تناسب أصحاب

رؤوس الأموال المحدودة التي جمعوها بشق الأنفس، وتبدأ اللعبة بأن يشترك خمسة من الأصدقاء الذين يعرفون بعضهم بعضا جيدًا ويثق كل منهم في الآخرين بأن يضع كل واحد منهم في المشروع مبلغ مائة ألف جنيه فيكون المجموع خمسمائة ألف جنيه يشترون بها قطعة أرض باسم واحد منهم، وبعد مرور عدة شهور يبيعها هذا الواحد على الورق لأحد أصدقائه من أعضاء عصابة الخمسة بمبلغ يفترض أنه مليون جنيه، ثم بعد شهور ينقل ملكيتها لفرد ثالث من المجموعة بمبلغ مليوني جنيه.. وهكذا تنتقل ملكية الأرض بينهم ويزداد سعرها على الورق مع كل عملية بيع حتى نصل إلى الشخص الخامس الذي يشتريها بمبلغ خمسة ملايين جنيه وذلك بعد مضي سنة ونصف السنة على شرائهم للأرض أول مرة. بعد ذلك تبدأ المرحلة التالية في لعبة الخمسة إذ يتوجه مالك قطعة الأرض إلى أحد البنوك ويطلب قرضًا بضمان قطعة الأرض ومعه كل أوراق البيع والشراء التي تشهد بتصاعد قيمة قطعة الأرض إلى أن وصلت لخمسة ملايين جنيه.. ومن الطبيعي أن يوافق البنك على صرف القرض بعد أن يذهب خبراؤه ويقوموا بمعاينة الأرض على الطبيعة ويتأكدوا من الوجود الحقيقي لها.

في المرحلة التالية يتقاسم الأصدقاء مبلغ خمسة ملايين الجنيه وينال كل منهم مليونًا.

وبطبيعة الحال لا يقوم صاحب الأرض بسداد أي من أقساط القرض فلا يجد البنك مناصًا من الحجز على قطعة الأرض وفاء للدين!

المرحلة التالية تتوقف على مدى الرضا أو الجشع الذي يتمتع به تنظيم الخمسة.. فقد يقنعون بما أصابوا ويعودون إلى حياتهم العادية بعيدًا عن البيع والشراء والنصب، أو قد يغريهم المكسب فيضعون الملايين الخمسة في قطعة أرض جديدة ثم يقومون بتدويرها فيما بينهم حتى تلد وتصبح خمسة وعشرين مليون جنيه بعد سنة ونصف السنة.. وهكذا.

والآن ما رأيكم في لعبة الخمسة؟... هل هناك من يريد أن يلعب؟

أكاذيب وأوهام

قل لي بربك: ألم يحدث أن كنت بصحبة أحد الأصدقاء عندما شهدتما موقفًا أو وقع أمام أعينكما حادث أو تعرضتما لمحاولة نصب أو رأيتما أي شيء مما يستحق أن يروى أمام أصدقاء آخرين؟ وحاول أن تتذكر من فضلك.. عندما شرع صديقك في اليوم التالي وبمنتهى الحماسة في رواية ما حدث أمام الشلة، هل تذكر الدهشة التي ارتسمت على وجهك والذهول الذي اعتراك وأنت تستمع إلى صديقك يروي أحداثًا لم تحدث ويضيف مواقف جديدة من نسج خياله وينسب لنفسه أقوالًا وأفعالًا لم يقلها ولم يفعلها؟

كلنا مررنا بهذا، وأنا شخصيًّا كان لي صديق كلما خرجت معه عاد إلى المجموعة بقصص وأساطير نابعة من خروجتنا ومبنية على ما صادفناه فيها، ولا أنكر أنني كنت أشعر بالاضطراب وأنا أستمع إلى أكاذيب تروى وقصص تُخترع، وفي الوقت نفسه لا أرغب في إحراج صديقي الذي دخلت القصة إلى رأسه من جهة ثم خرجت من الناحية الأخرى حدوتة جديدة تمامًا ومغايرة للحقيقة!

في البداية كنت أظنه فشارًا من كبار الفشارين، ثم تبينت بعد ذلك أنه لا يكذب، هو يروي الحكاية كما يراها، ولو أراد أن يكذب ما

حكى حواديته أمامي.. كان على الأقل سينتظر حتى أرحل ثم يأخذ راحته في الكلام لئلا يتعرض للحرج إذا ما كذّبته وحكيت للآخرين حقيقة ما حدث.

في ظني أن بعض الناس.. لا.. كثيرا من الناس تتصارع الأخيلة والتوهمات داخلهم طول الوقت وتتطاحن مع الوقائع والحقائق، ثم يستخلصون منها نتيجة ترضيهم نفسيًّا وتشعرهم بالإشباع.. فبعضهم على سبيل المثال يروي الموقف كما هو بالضبط مع تعديل بسيط هو أن ينحي البطل جانبًا أو يعطيه كتفًا صغيرًا ثم يقف مكانه ويحل محله ويصنع من نفسه الشخصية الرئيسية في الموقف.. وبعضهم لا يسلب البطل حقه ولكن يقوم بتعديل في السيناريو فيدخل عليه بعض المحسنات والتوابل ويضيف له بعض الإفيهات الكوميدية حتى يحدث التأثير المطلوب في السامعين، وفي كل الأحوال تكون الحقيقة هي الضحية. وعلى هذا فمن الممكن أن يشاهد عشرة أشخاص نفس الحدث ويرويه كل منهم على هواه فلا يعرف المستمع حقيقة ما حدث أبدًا.

إدراكي لهذه الأشياء جعلني أنظر للتاريخ وكُتبه وكتبته ورواة أحداثه نظرة ملؤها الشك والريبة.. فإذا كانت الأحداث التي وقعت أمام أعيننا بالأمس تأخذ بعد مضي ٢٤ ساعة في مخيلة شهودها أشكالًا وألوانًا جديدة، فما بالك بالحكايات المتواترة والمروية منذ مئات السنين، أي الأشكال يا ترى أخذت وأي المحسنات أدخلت عليها وأي الأشخاص عبث بها فلوّنها وشخبط عليها ومحا منها

وأضاف إليها حتى وصلت إلينا في صورتها الراهنة.. وعليها بنينا أهرامًا في الخيال لأبطال قد لا يكونون أبطالًا، كما بنينا صورًا فظيعة لأنذال قد لا يكونون في حقيقتهم بكل هذه البشاعة!

الخلاصة.. التاريخ الذي نقرؤه يصلح للاسترشاد فقط وتكوين فكرة عما حدث، أما حقيقة ما حدث بتفاصيله فلا يعلمها إلا الله.. والله وحده.

هارودز.. آخر الثغور!

من أكثر الأشياء إثارة للدهشة التعليقات التي حفلت بها الصحف بعد انتشار خبر بيع محلات هارودز في لندن المملوكة لمحمد الفايد إلى شخصيات قطرية نافذة.

أوْجه الدهشة في الأمر عديدة، وأولها: أن البعض رآها حلقة في سلسلة المنافسة في الساحة الخارجية بين مصر وقطر ومحاولة قطر وراثة الدور المصري!!

وعلامات التعجب سببها أن التكامل هو الأمر الواجب بين الأشقاء وليس التنافس، فضلا عن أنه أمر معيب للغاية أن تشكو مصر الكبرى من المنافسة القطرية! وثانيًا: إن عملية البيع وإن كان أحد أطرافها قطريًّا فإن الطرف الثاني لا يسهل اعتباره مصريًّا إلا إذا اعتبرنا أوباما مواطنًا كينيًّا.. فمحمد الفايد الملياردير الذي يعيش في بريطانيا منذ عشرات السنين والذي قطع علاقته بمصر من زمان قد سعى جاهدًا للحصول على الجنسية البريطانية مرة تلو الأخرى، غير أن الإنجليز أبوا أن يمنحوه جنسيتهم، وإن لم يمانعوا في احتضان استثماراته وفلوسه واكتفوا بمنحه الإقامة على جوازه المصري الذي يحمله على مضض!

وثالثًا: فإن الذين يتحدثون عن محلات هارودز باعتبارها صرحًا مصريًّا رابضًا في منطقة جسر الفرسان بقلب لندن يتَّسمون بالسذاجة المفرطة، فهم يتحدثون عنها كما لو كانت شركة النصر للتصدير والاستيراد التي منحت مصر نفوذا خارجيًّا واسعًا في إفريقيا وآسيا وقامت بدور وطني لحماية الأمن القومي المصري، وينسون أن شركة محلات هارودز هي شركة بريطانية كان صاحبها يصونها ويتعهدها بالرعاية لمصلحته الشخصية ولم يكن يديرها لحساب الدولة المصرية!

ورابعًا: إن نفس السذج شعروا بذات الحزن الذي شعرنا به عندما كانت شركاتنا التي بناها المصريون بالدم والدموع تفر منا وتذهب للأجانب بأثمان رمزية، وتعاملوا مع محلات هارودز على أنها الشقيقة الكبرى لشركات مثل شركة بيع المصنوعات وبنزايون وعمر أفندي، والأخيرة تعاملت معها الحكومة بغضب عظيم وانتقمت منها شر انتقام فباعتها بدون أسباب مع غيرها من الشركات الناجحة بتراب الفلوس كما باعت مئات الشركات والمصانع والأراضي المملوكة للمصريين من دون أن يطرف لها جفن.. بعضها اشتراه إسرائيليون يتخفون خلف جنسيات أخرى وبعضها اشتراه إسرائيليون من دون تخف كما حدث في الفضيحة التي كان بطلها لواء شرطة سابق باع للإسرائيليين بمساعدة موظفين منحرفين شققا وفيلات وأراضي في سيناء، وهو الأمر الذي يمنعه القانون ولكن يسمح به الفساد!

خامسًا: سواء باع الإنجليز أحد صروحهم لملياردير مصري أو ملياردير قطري فإنهم لا يسمحون له بأن يشرد العمالة البريطانية ويلقي بها في الشارع من دون منحها حقوقها في حماية الحكومة

كما حدث عندنا بدل المرة مائة مرة، وهم يلزمون المشتري مهما كان نفوذه بالخضوع للقوانين البريطانية، وهو الأمر الذي نعفي منه من يتعطف ويشتري أصولنا بواحد على مائة من سعرها السوقي!

لهذا ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن محلات هارودز هي آخر الثغور التي سقطت في يد الأعداء مثلها مثل غرناطة التي مثّلت مُلكًا تليدًا بكينا عليه كالنساء بعدما لم نحافظ عليه كالرجال!

ذكريات مُدخّن سابق

اليوم (٥ مايو ٢٠١٠) أكون قد أتممت سبع سنوات من الحياة بعد الإقلاع عن التدخين.

ما زلت أذكر آخر يوم كنت فيه من المدخنين.. كنت أجلس مع الأصدقاء بالمقهى في مونتريال نضحك ونتسامر.. وبعد أن عدت إلى البيت وأويت إلى الفراش وجدت نفسي عاجزًا عن التنفس.. كنت أفتح فمي على اتساعه محاولًا التقاط الهواء من دون جدوى. أحسست بالغرفة تميد بي وشعرت بأنني على وشك الدخول في غيبوبة لعدم وصول الأكسجين إلى المخ. شعرت بالرعب من أن تتلف خلايا مخي أثناء الغيبوبة القادمة وخشيت أن أفيق بعد يوم أو اثنين لأجد نفسي أرقد في المستشفى الذي نقلني إليه أولاد الحلال وقد أصبت بشلل نصفي أو فقدت بعض حواسي.

استنجدت بصديق فأسرع بالتقاطي وحملي إلى مستشفى «رويال فيكتوريا»، وهناك وضعوا لي أجهزة تنفس وأكسجين فعدت إلى الحياة من جديد بعد أن كان الموت يناوشني ويحدق بي!

تم عمل كشف شامل على أجهزة الجسم ووظائف الأعضاء،

وأقبل عليّ الطبيب يحمل خبرًا سارًّا: ليس عندك سرطان! شعرت بالانزعاج من هذا الخبر الذي يفترض أنه طيب. سألته: وهل كنتم تشكون في إصابتي بالسرطان؟ أجاب: لا.. لكني فقط أخبرك بالنتيجة! وسألني: منذ متى تدخن؟. فقلت: منذ كنت في الإعدادية!

أوضح لي الطبيب أنني قد ضحكت على الدنيا واستمتعت بالتدخين لسنوات طويلة من دون أن أدفع ثمنًا فادحًا.. ولكن تحذيره كان واضحًا: أنت الآن تقف على الحافة، ومن الآن فصاعدًا سيكون للتدخين ثمن لا يمكنك احتماله. ومضى الطبيب يشرح:

عندما يكون المرء شابًّا فإن خلاياه وأنسجته وتكوينه الجسماني يتحمل أضرار العادات السيئة كالتدخين وشرب الخمر والطعام الدسم، ولكن بمرور الوقت تتراكم الأضرار وتتأثر الأعضاء في الوقت الذي تكون عمليات البناء والنمو قد توقفت وعمليات الهدم قد بدأت، ويكون المنحنى الطبيعي لدورة الحياة قد أخذ أقصى ارتفاعه ثم بدأ يتجه لأسفل. وجدتني متفهمًا تمامًا لكلامه وتذكرت قول الشاعر: لكل شيء إذا ما تم نقصان!

حقًّا لقد كنت في السن الصغيرة ألعب مباراة كرة مع أصدقائي والسيجارة في فمي، وهي حالة تعبر عن منتهى الغرور والجهل والغباء، وكنت لخيبتي أضحك ممن يحذرونني من خطر التدخين وأتساءل في وقاحة: أين هو هذا الخطر؟.. إنني ألعب المباراة كاملة ولا أشعر بأي تعب.

لم أكن أعلم أن التأثير يكون تراكميًّا والضرر يكون مثل البناء

الذي يعلو ويعلو في غفلة من صاحبه، وعندما يكتمل يكون الوقت قد فات لعمل أي شيء.

تذكرت وقتها حجم الخراب الذي ألحقته بنفسي نتيجة إصراري على التدخين في كل وقت وتحت كل الظروف. حتى في كندا التي تحظر التدخين في كل مكان وتضيق على المدخنين بشكل كبير ولا تترك لهم مكانًا يمارسون فيه عادتهم القذرة سوى الشارع.. حتى هناك كنت أترك مكتبي وأنزل الشارع أقف مع أهل الكيف أدخن وسط درجة برودة قارسة.

بعد كلام الطبيب تملكني الخوف فأخذت قرارًا بالإقلاع الفوري عن التدخين... فهل كان تنفيذ القرار سهلًا؟ أبدا.. بالمرة.. لقد كانت تجربة أقسي من جهنم، وشعرت وقتها نتيجة افتقادي للنيكوتين أنني تعيس جدًّا وعشت أيامًا مريرة فكرهت نفسي وكرهت الحياة وصرت كئيبًا مكتئبًا شديد العدمية فاقدًا للإحساس ببهجة الحياة وجدواها!

لكن بمرور الأيام بدأت الأعراض الانسحابية تزول وصار كل يوم أفضل من سابقه حتى تخلصت من كل تأثير للسيجارة بعد ثلاثة أشهر، وأحسست أنني ولدت من جديد.

واليوم وعلى رغم عدم كراهيتي لرائحة التبغ التي قضيت عمري معها فإنني لا أفكر مطلقًا في العودة للتدخين ليس لأضراره السيئة، ولكن لأنني لا أقدر على المرور بتجربة الإقلاع عن التدخين مرة أخرى!

جمجمة لعينة

منذ سنوات عندما أردت الحصول على رخصة قيادة سيارة من مونتريال حيث كنت أعيش فإنهم طلبوا مني التقدم لامتحان نظري وآخر عملي. عبثًا حاولت أن أقنعهم أنني سائق قديم وبحوزتي رخصة قيادة مصرية وأخرى من الكويت، وبالتالي لا حاجة بي لأي امتحانات، لكنهم رفضوا الاعتراف بالرخصتين وأصروا على الامتحان.

رغم ضيقي فإنني سلمت بالأمر وعذرتهم لأنهم لا يعرفون شيئًا عن بلادنا، أو أن ما يعرفونه لا يشجعهم على الوثوق بنا وبالأوراق الصادرة عن مؤسساتنا التي يرونها فاسدة وليست محل ثقة. نظرت إلى الرخصة الكويتية في حسرة لأنني حصلت عليها بشق الأنفس وبعد امتحان حقيقي أثبتُّ فيه جدارة، ونظرت للرخصة المصرية وضحكت لأني تذكرت حصولي عليها قبل سنين من تعلمي قيادة السيارة!

بعد عبور الامتحان التحريري جاء يوم الامتحان العملي وخرجت مع الممتحن الذي يتوقف على تقريره منحي الرخصة من عدمه. جلس الرجل إلى جواري وطفت به شوارع المدينة مثلما طلب،

وقد حاول إيقاعي في الخطأ أكثر من مرة كأن يطلب مني صف السيارة بجوار حنفية حريق أو مثل طلب الدخول العكسي في شارع اتجاه واحد، لكني كنت يقظًا للغاية ولم أسقط في أي من فخاخه.. وعندما طلب مني العودة إلى مبنى المرور كنت أشعر بأن الرخصة قد أصبحت على بعد سنتيمترات من جيبي.

جلست في الصالة أنتظر سماع اسمي.. وبعد قليل سمعت النداء يطلب مني التوجه إلى شباك رقم كذا، وهناك بدلًا من منحي الرخصة فوجئت بالموظفة تخبرني بموعد الاختبار الجديد بعد ثلاثة شهور لأنني رسبت في الامتحان!.. لم أصدق ما قالته وهرعت وأنا في شدة الغضب أسأل عن مكان الممتحن الظالم الذي خالف ضميره وأعطاني درجة لا تسمح بحصولي على الرخصة وأنا الذي أقود سيارة منذ أن كان سيادته يرتدي الشورت.

وصلت إليه في مكتبه ولم أخف غضبي وأنا أسأله عن سبب رسوبي في الامتحان.

ابتسم في هدوء وقال: أنت سائق ممتاز، ومن الواضح أن خبرتك كبيرة في القيادة، وفي الحقيقة لقد أعجبتني الطريقة التي تركن بها السيارة في حيز ضيق بين سيارتين وذلك بالرجوع للخلف ومن مرة واحدة، لكن عندك عيبا خطيرًا لم أستطع أن أفهمه وأتمنى بما أنك جئت إليّ بقدميك أن توضحه لي. قلت: وما هو؟ قال: لاحظت أنك عند الاقتراب من التقاطعات تضع قدمك على الفرامل مهما كان لون الإشارة، بمعنى أنك عند الإشارة الخضراء تعبر بخوف وتوجس وقدمك تلامس الفرامل بدون داع.. ثم أضاف: ولا يخفى

عليك أن في هذا خطورة كبيرة عليك وعلى من هم خلفك، لأن السيارات تندفع بسرعة طالما كانت الإشارة خضراء، وأنت عندما تلمس المكابح فإن مصباحك الخلفي يضيء منبهًا الآخرين بأنك ستتوقف، وعليه فإن الذي يسير وراءك سيضع قدمه بدوره على مكابحه وهكذا يفعل كل الطابور، وقد يؤدي هذا إلى حادث تتصادم فيه عشرات السيارات بسبب أنك دست على الفرامل بينما إشارتك مفتوحة!... ثم تنحنح الرجل قبل أن يقول في خجل: وقد لاحظت بحكم عملي أن هذا العيب ينطبق على أغلب القادمين من مصر ولم أفهم السبب!

كنت أستمع إليه وأنا مذهول، ولم أستطع أن أكذّبه لأن ما يقوله حقيقي تمامًا، لكن لم يخطر ببالي من قبل أنّ في هذا خطأ.

أخذت أفكر وأنا أترك المكان وأسير في الشارع في السبب الذي يجعلني أنا وباقي المصريين نضع أقدامنا على الفرامل عند التقاطعات حتى لو كانت الإشارة خضراء، ولم تطل حيرتي لأنني تذكرت أننا نفعل هذا لأننا نفتقد الشعور بالأمان في أثناء القيادة؛ وذلك لأنه لا توجد لدينا في بلدنا إشارات، وإن وجدت فإن أحدًا لا يحترمها، وعليه فالقيادة في شوارعنا تتم بطريقة حافة الهاوية، أي أن الجميع يندفع عند التقاطعات من كل الجهات وأقدامهم تلامس الفرامل، ومن تخونه شجاعته أولًا ويغلب حرصه على الحياة تهوره فإنه يتوقف وهو يشعر بالانكسار مفسحًا الطريق للأكثر جسارة ونزقًا واستهانة بالحياة!

ومن الواضح أنني لم أستطع التخلص من هذا الميراث التاريخي الذي اصطحبته معي داخل جمجمتي إلى مونتريال، الأمر الذي أدى إلى رسوبي ثلاث مرات متتالية في امتحان يجتازه بسهولة فتية في سن أولادي... فيالخيبتي!

نصف تشطيب

لا أعرف سر نفوري الفطري من مهنة السمسار.. ذلك الذي يتخذ من نفسه وسيطًا بينك وبين شخص آخر في عملية بيع وشراء لايفترض أن يكون له فيها ناقة ولا نعجة! ولطالما اعتقدت أن السمسرة هي عملية طفيلية مقيتة يقوم بها إنسان فهلوي يحتكر لنفسه معلومات ليست من حقه. وأبسط صور السمسرة التي نعرفها هي السمسرة في الشقق والعقارات، وفي الغالب ليس هناك من لم يتعامل مع الوسطاء في هذا الأمر بالبيع أو الشراء أو التأجير. وفي الحقيقة أن التدهور الذي لحق بالمجتمع في العقود الأخيرة قد قفز بهذه المهنة الدنيا وجعلها تتصدر المهن الجالبة للمال بعد أن اختفت الصناعة وحلت محلها التوكيلات، واندثرت الزراعة وصار الفلاح يقف في طابور العيش!

ولقد كانت الصورة النمطية للسمسار كما كنت أراه في الطفولة هي صورة رجل يرتدي جلبابًا فوقه جاكتة وفي قدميه جزمة كاوتش بدون شراب!.. وهذه هي صورة فاروق المكوجي الذي كان يعمل سمسارًا في حيّنا إلى جانب كي الملابس.

بعد الانفتاح قام فاروق بتأجير مكتب تصدرته لافتة تقول: «الهدى

والإيمان للخدمات العقارية» ولم أعرف ما صلة الهدى والإيمان بالوساطة في بيع الشقق ولكنها حمى اجتاحت البلد وأخذت تخلط في الأذهان الدين بالكسب من دون مجهود! قام فاروق بتغيير الجلباب وارتدى بدلة لكنه ظل على ولائه للجزمة الكاوتش. الفرق بين فاروق السبعينيات وفاروق في الألفية الجديدة هو أنه كان يقنع في السابق بخمسين قرشا ثمنًا للمشوار، ثم يحصل على خمسة جنيهات عند الاتفاق، لكن الآن صار يحصل على نسبة مئوية من البائع والشاري كما لو كان شريكًا في العقار أو وريثًا في التركة!

أول وآخر مرة تعاملت فيها مع فاروق أخبرني أن لي عنده شقة محترمة مواصفاتها كذا وكيت، وهي شرحة وبرحة وتطل على شارع عريض. ذهبت معه إلى الحاج صاحب العمارة، ولا بد بالطبع أن يكون صاحب العمارة حاجًّا كما لو أن أداء الفريضة هو أحد مسوغات الحصول على الترخيص بالبناء!

كان يدخن الشيشة أسفل العمارة، وما أن رآنا حتى نهض لتحيتنا مرحبا. ولم تنجح العباية المطرزة والسبحة في إخفاء أن للرجل سحنة مجرم قديم!

دخلت في الموضوع مباشرة فقال الحاج: نكتب العقد الآن وتدفع الفلوس وسوف أسلمك الشقة بعد ستة أشهر. سألته عن نوع التشطيب فقال: ببركة الحبيب نص تشطيب.

ولأنني كنت ساذجًا فقد سألته في جدية تامة: ماذا تعني بنصف تشطيب؟.. فبسمل وحوقل وتنحنح وبصق ثم قال: يعني على المحارة يا أستاذ بالإضافة إلى تركيب حلوق للأبواب والشبابيك!

ولما كنت في ذلك الوقت معدوم الخبرة ولم يسبق لي أن تعاملت في هذه الأشياء بالبيع أو الشراء فقد قلت والدهشة على وجهي: وهل كسوة الجدران بطبقة أسمنتية تعتبر نصف تشطيب؟ فأجاب في غضب: طبعًا.. وماذا كنت تعتقد نصف التشطيب؟ قلت له: إن الشقة بوضعها الراهن هي مجرد خرابة، وتشطيب هذه الخرابة وجعلها تصلح لسكنى البشر يقتضي تركيب أبواب لكل الحجرات وشبابيك من خشب وزجاج وألوميتال، غير سيراميك أو باركيه للأرضيات، علاوة على الأدوات الصحية من أحواض وصنابير وأطقم حمام ومطبخ، كذلك دهان الحوائط والأسقف وتمديد الوصلات الكهربائية في كل أركان الشقة.. وهذا كله يقتضي التعامل مع نجارين وسباكين ومبلطين ونقاشين وكهربائية وعمال ألوميتال وعمال زجاج بكل ما يقتضيه التعامل معهم من عناء وتحمّل لكذبهم وذمتهم الخربة وتقاعسهم ومحاولتهم أداء أسوأ شغل بأكبر أجر!.. غير المبلغ الكبير الذي سأتكبده في تعمير الخرابة التي ستبيعها لي باعتبارها شقة، وبعد كل هذا تساوي بين ما سأفعله أنا وما ستفعله أنت وتطلق على كل منهما نصف تشطيب!

قال وهو يسحب أنفاسًا من الشيشة: يا أستاذ أنا أترك الأشياء التي ذكرتها للزبون حتى ينتقي من المواد ما يحب ومن الألوان والخامات ما يهوى ويشطّب الشقة على ذوقه!

قلت له: ما رأيك يا حاج في أنني أريد أن أبدل معك وأقوم بعمل نصف التشطيب الخاص بك وتقوم أنت بالنصف بتاعي ما دام كل منهما يمثل خمسين بالمائة كما تقول؟

ويبدو أن فاروق السمسار قد أدرك من ضيق العينين وتقلص الفكين وارتعاشة اليد أن الوحش القابع داخل عم الحاج قد بدأ يتمطى وأن نذر العنف قد أخذت تلوح في الأفق، فما كان منه إلا أن سلم على الحاج في عجلة وشدني من يدي فأنهضني وأخذني مسرعًا وأدخلني في السيارة.. ولم ينس وهو يودعني أن يوصيني بألا أعبر هذا الشارع مرة أخرى حتى لا يراني الحاج لأنه أصبح بدون شك يتشاءم مني.. ولو لمحني مرة أخرى فقد يتهور ويريني التشطيب على أصوله!

الدول الراعية للإرهاب

توجد معايير ومقاييس تحدد الهيئات الدولية على ضوئها نوعية الدولة المراد كتابة التقرير عنها، وهل هي في عداد الدول المتقدمة أو ما زالت نامية ومتخلفة.. هناك مقياس للشفافية ومعيار للنزاهة ومكيال للأخذ بأسباب التقدم.

ورغم عدم ثقتي بالهيئات الدولية وموازينها ومكاييلها وضميرها الخرب، فإنني لا أثق أيضًا بدول العالم المتعفن التي تنبطح صاغرة أمام الهيئات الدولية وتنفذ كل طلباتها إلا ما تعلق بالديموقراطية وتداول السلطة وحقوق الإنسان.

وفيما يتعلق بي شخصيًّا فإنني أمتلك مجموعة من المعايير والمكاييل الخاصة بي للحكم على دولة ما، ولا أسمح لنفسي أبدًا بالحكم من بعيد.. أي أنني لا بد لي من أن أقوم بزيارة الدولة بنفسي من دون السماح لصحيفة أو مجلة أو محطة تليفزيونية بأن تصوغ لي فكرتي ورأيي.

ومجموعة المعايير هذه هي التي تمنحني الثقة في دولة ما، أو تسحب رصيد الثقة الذي كان لها عندي.

على سبيل المثال: لا أستطيع أن أغفر لأي بلد نقص أو شح دورات المياه العامة في الشوارع والميادين والأسواق، ويستوي عندي اختفاء دورات المياه مع وجود دورات مياه قذرة أو منخفضة النظافة. كلاهما.. الاختفاء أو الوجود القذر يُعَدَّان عندي من دلائل الوجود في دولة راعية للإرهاب. نعم.. الدولة التي تصيب الناس بالألم والحرج وتصيبهم بأمراض المثانة وتضاعف من متاعب الكلى والسكري لديهم، وتضطرهم لقضاء الحاجة في غير أماكنها الطبيعية بما يعنيه هذا من شعور ضاغط بالإثم في نفوس الناس أو اعتيادهم على الفجور والقذارة ومن ثم نشر الأمراض هي طبقًا لمعاييري الخاصة دولة مهترئة وراعية للإرهاب.. ذلك أن دورات المياه لا تحتاج لميزانيات وأموال.. تحتاج فقط لمسؤولين يعرفون النظافة.

موضوع آخر تظهر فيه معاييري الصارمة في الحكم على البلدان، وذلك عند الرغبة في ارتياد إحدى دور العرض السينمائي ومشاهدة فيلم.. لا تفوتني أبدًا ملاحظة أن دور العرض الحديثة في معظم أنحاء العالم والموجودة في الغالب داخل المولات توجد بها كافيتيريا تبيع السندوتشات والمسليات والحلوى والمشروبات الباردة والساخنة وذلك حتى يكتمل استمتاع الزبون بالعرض. وعلى الرغم من أنني لست من هواة الأكل والشرب داخل السينما فإنني ما أكاد ألمح اللافتة الملعونة منصوبة على باب السينما حتى يتغير دمي وأصاب بالغم والقرف..ماذا تقول تلك اللافتة؟

تقول: ممنوع اصطحاب المأكولات والمشروبات من خارج السينما!!

كان من الممكن أن أحترم هؤلاء القوم لو أنهم قاموا بمنع الأكل والشرب داخل دار العرض تمامًا حتى يبدي الجمهور الاحترام والتركيز اللازم للفيلم. أما أن يكون المنع من نصيب الطعام الوارد من الخارج فقط، فهذه هي البلطجة بعينها، وهي تعني أن المجرم صاحب اللافتة يعلن للناس أن الأكل المسموح به فقط هو الذي يشترونه منه هو شخصيًّا، أما طعام الآخرين فممنوع! وإذا كانت قوانين التجارة التي تشجع على المنافسة وتمنع الاحتكار قد شرعت من أجل صالح المستهلك فإن هذا الرجل الفاشي صاحب اللافتة يعمل ضد القانون، ولافتته هذه غير شرعية وغير دستورية، وتطبيقها على الناس بقوة رجال الأمن يمثل عقد إذعان ظالم ومجحف بحق الناس.

والأمر ليس كما قد يتصور البعض متعلقا بقضية تافهة تبتعد عن مشكلات الناس الأساسية، لكنها في حقيقة الأمر من ضمن الأشياء التي أحكم بها على أنني موجود في دولة قانون أو في دولة متهتكة خليعة. ولقد سافرت كثيرًا ورأيت في هذا الصدد أنواعًا من السلوك.. رأيت بلدانًا تمنع الأكل والشرب والتسالي في السينما والمسرح بتاتًا احتراما للفن.. ورأيت بلدانًا تبيح أن تشتري التسالي بمعرفتك من أي مكان سواء من كافيتيريا السينما أو من الخارج لأنك إنسان حر في بلد حر.. كما رأيت بلدانًا تقوم بتأجير دار العرض بثمن باهظ وغير واقعي لأحد البلطجية، ثم تساعد المجرم بإصدار تعليمات مخالفة للقانون وللإنسانية بمنع المأكولات إلا ما كان من منتجات البلطجي.

لكن هناك فوق ذلك بلادًا تجاوزت ما سبق كله وتفوقت عليه، وهي تقوم بقطع الفيلم في منتصفه بينما الناس في ذروة المشاهدة فتصيب الجمهور بصدمة وتقدم استراحة إجبارية لا يريدها أحد

وليذهب الفيلم والمخرج والجمهور إلى الجحيم. كل ذلك حتى تدفع الناس لاستهلاك ما تبقى من معروضات بالكافيتيريا مساعدة منها للأخ في تحقيق المبلغ اليومي الذي يتطلع لتحقيقه.

إذن ليست في نظري القوائم التي تعدها أمريكا لخدمة إسرائيل عن الدول الراعية للإرهاب قوائم حقيقية، وإنما الدول التي تفعل الأشياء الآنف ذكرها هي الدول الإرهابية بحق.. وللغرابة فكلها من الدول التي تعمل حكوماتها في خدمة إسرائيل!

السّر في بيـر

ما الذي يفكر فيه الناس؟

أيعتقدون أن الموضة أمر يتغير بحسب فصول السنة؟

هل جاءوا حقًّا من أصقاع الدنيا للتباهي بملابسهم وجواهرهم؟

إنهم لا يفهمون.

الموضة ليست إلا طريقة في القول:

أنا أنتمي إلى عالمكم. أنا أرتدي بزة جيشكم ذاتها، فلا تطلقوا عليّ النار.

«باولو كويلو»

السّر في بير

كل الناس طيبون.. لا أحد خبيث ولا أحد شرير وليس هناك من يبغي بك سوءًا. تستطيع أن تمنح ثقتك للجميع وتستطيع أن تأتمن الأصدقاء على أسرارك وأنت واثق بأن السر في بير.

للعرب مقولات كثيرة عن أهمية حفظ الأسرار وتخبئتها في صناديق مرصودة. وهم يقولون: إن السر إذا جاوز اثنين فشا وشاع. ولهم مأثورات تعلي من قيمة الكتمان وتحذر من البوح والفضفضة، ليس حرصًا على صاحب السر من افتضاح أسراره فقط ولكن لأسباب أخرى. والتراث العربي القديم يحمل ما يوضح هذه الأسباب الأخرى فيشير إلى ضيق الناس وتبرمهم بمن يثقل عليهم ويضع ثقته فيهم ويرمي الكرة في ملعبهم عندما يبوح لهم بأسراره ويضع على أعتابهم مكنون نفسه وما يمور بداخله من أشياء بعضها يخزيه أن يعرفه الناس عنه. وبالطبع هناك ما يبرر ضيق الناس بهذا العبء، إذ إن صاحب السر يطرد من صدره ما ينغص عليه، وينفض عن كاهله حمله الثقيل، ويتخفف مما يكدره ويعكر عليه صفو حياته ويرمي بهذا كله في حجر صديق يثق به ويأنس إليه ويطمئن إلى نزاهته وأمانته.

ولكني أختلف مع العربي القديم الحذر بطبيعته والمتشكك

بالسليقة، وأشجع الناس على الثقة بالأصدقاء المقربين وبثهم الأسرار مهما كانت أهميتها ومهما بلغ حرجها. قد يقول قائل: وهل تضمن أن يكون الصديق على قدر الثقة والمسؤولية ولا يبيعني فيتاجر بأسراري أو يفضحني أمام الناس؟ ولهذا أقول: نعم أنا أثق بأصدقائك وأعلم أنك تنتقيهم بعناية وأن ثقتك بهم في محلها.. توكل على الله يا رجل وبح بأسرارك لصديق وفي.

ومع ذلك، فلا بد أن تعرف الآلية التي يتم التعامل بها مع الأسرار ليس في المجتمع العربي فقط ولكن في المجتمع الإنساني الشامل وبين بني الإنسان في كل زمان ومكان.. والمسألة تبدأ بأن تنتحي جانبًا بصديق عزيز تعتبره جزءًا منك وتثق به ثقة عمياء وتخبره بسرك، مع التشدد في أخذ العهود والمواثيق بأن هذا الكلام بينك وبينه فقط ولا يجب أن يبرح باب الغرفة. وبالطبع كما قلت من قبل فإن هذا الصديق أمين تمامًا ويحفظ العهد، لكنه مثلك ولا يختلف عنك.. فكما أنك لم تحتمل أن تحمل السر وحدك واخترت أن تتخفف منه بإشراك أعز الأصدقاء فيه مع اعتبار أن السر ما زال في بير، فإن صديقك الوفي الأمين سيفعل الشيء نفسه.. هو لن يخونك ولن يفضحك ويخبر الأوباش بسرك، لكنه سينتقي أفضل أصدقائه المعروف بالحكمة والصدق والأخلاق الحسنة وسيطلعه على سرك وهو واثق بأن المسألة لم تخرج برة لأن هذا الصديق لن يبوح به مطلقًا!

ولك أن تتأكد أن صديق صديقك هذا رجل محترم نشأ في بيت طيب يعرف مكارم الأخلاق ولا يلجأ للدنية في السلوك، لهذا فإنه سيصون سرك وسيحفظه بين ضلوعه، ولك أن تطمئن إلى أنه عندما يشق عليه الأمر فإنه لن ينزل للمستويات الدنيا ويلوك سيرتك، لكنه لن

يخبر به سوى رفيق طفولته وصديق عمره وواحد من أفاضل الناس المشهود لهم بالتقوى والورع والبعد عن السلوك الملتوي.. وبهذا يكون قد أراح نفسه ونفض عنها الحمل الثقيل ومع هذا لم يخن الصداقة عندما أودع السر شخصًا واحدًا فقط هو من ثقاة الناس!

ومن الطبيعي أن هذا الرجل الأخير التقي الورع سيطوي قلبه على السر ولن يحكي تفاصيله إلا لأقرب الناس إليه وأحبهم إلى نفسه.. زوجته الفاضلة وأم العيال التي قد تحتمل الضرب بالسيف ولا تغدر برجلها الذي هو مصدر فخرها وعزها ولا يمكن أن تفضح واحدًا من أصدقائه أو أصدقاء أصدقائه، كما أنها ستظل وفيّة لتربيتها الحسنة وأصولها السامقة، لهذا فإنها بعد أن يبدأ الصداع النصفي في مهاجمتها كل يوم من ثقل الحمل الذي تحمله ستستعين بأمها العاقلة الحكيمة وتعرض عليها السر بعد أن تستحلفها بصيانته وحفظه. وغير خاف على حضراتكم أن الأم الراقية ابنة الأصول سليلة الحسب والنسب ستتعامل مع الأمر بما يليق به ولن تبوح به لأسافل البشر الذين قد يستغلونه في السوء ولن تطلع عليه مخلوقا سوى ابنة عمها البتول التي حجت إلى بيت الله الحرام سبع مرات ويقصدها الناس للنيل من فيض حكمتها وسعة علمها وفضلها وكرمها.

في الواقع إنه بعد مرور أسبوع سيكون حوالي عشرة آلاف إنسان قد عرفوا السر، وبعد مرور أسبوعين سيكونون قد بلغوا مائة ألف، وبعد شهر لن يمكن إحصاء من عرفوا.. لكن الحقيقة تظل ساطعة وهي أن أحدًا لم يفش السر وأنهم جميعًا قد حفظوا العهد وحافظوا على الوعد ولم يتحدثوا في الأمر لدى من لا يراعون الله، وإنما انتقى كل منهم من بين أصدقائه شخصًا وفيًّا أمينًا باح له وحده وذلك حتى يظل السر إلى الأبد في طي الكتمان!

البيئة... حبيبتي

يعجب المرء وتصيبه الدهشة عندما ينزل في فندق ثم يهم باستخدام الحمام فتطالعه لافتة أعلى الحوض تستحلفه أن يرتفع إلى مستوى الإنسان المحترم الذي يعرف مسؤولياته تجاه الكوكب وأن يترفق في استخدام المناشف ويتعامل معها بحرص حيث إن الاستخدام الكثيف لها من شأنه أن يلوث البيئة ويعكر صفوها! ولا يفوت الفندق أن يوضح لك أن وضع المنشفة على الأرض يعني أنك تريد تغييرها، أما إبقاءها أعلى الرف فيشير إلى أنك رجل ودود يصادق البيئة ويرافقها في غدوها ورواحها وينوي استخدام نفس المنشفة لليوم الثاني على التوالي!

وتستمر نفس الدهشة مع دخول الحمامات العامة في الشوارع والمراكز التجارية وكلها تخاطب ضميرك وتناشده لكي تتحلى بالأدب والذوق والكياسة فتستخدم المجفف الهوائي بدلًا من المحارم الورقية التي تثير امتعاض البيئة وتجعل أسنانها تضرس من فرط الحساسية، وكل هذا بسبب سلوكك المعيب عندما تصر على تنشيف يديك اللعينتين بمنديل ورقي!

في البداية تصورت المسألة عبارة عن مبادرة شخصية من فندق

بخيل يضن على زبائنه باستخدام الفوطة بعد الاستحمام لأنه لا يريد أن يستهلك أدواته بسرعة، ثم اكتشفت أنه اتجاه عام في كل الفنادق ببلدان العالم المختلفة، ومعنى هذا أن هناك توجيهًا كونيًّا تم تعميمه وتوزيعه ومتابعة تنفيذه من قبل قوى كونية نافذة لا تبالي بعبثية توجيهاتها وكوميدية تعميماتها وفكاهية لافتاتها..كل ما تريده هو أن ينصاع العالم ويقول: تمام يا أفندم!

سألتُ عما يضير الكوكب من استخدام المناشف فقالوا إن عملية الغسيل تتضمن استخدام مساحيق وأدوات تنظيف وأن هذه المواد الكيمياوية تعتبر من ملوثات البيئة، وكلما أفرطنا في استخدامها ألحقنا الضرر بكوكبنا الحبيب!

عجبت جدًّا لهذا التفسير لأنه يتناقض تمامًا مع إعلانات التليفزيون على كل الشاشات في العالم والتي تسوّق لمساحيق الغسيل وتدعو إلى استهلاكها واستخدامها وتدعونا إلى ألا نبالي ببقع الصلصة وبقع الحبر ولطخات الطين على ملابسنا لأن مسحوق كذا كفيل بإزالتها. وطبعًا المسحوق العجيب هذا من إنتاج واحدة من كبريات الشركات في العالم وهي منتمية بالطبع للدول الصناعية التي تنتج كل الملوثات والموسخات ثم تقوم بتعميم بيان ترغم دول العالم كلها على رفعه بأهمية احترام البيئة!

السبب الأساسي في ضيقي من هذه اللافتات هو أنها تقوم بتحميلي ضمنًا مسؤولية تلويث البيئة ومحاولة جعلي شريكًا في هذا الجرم من دون أن يكون لي دخل في الأمر برمته، فلا أنا الذي اخترع المحارم الورقية ولا أنا الذي ينتج مساحيق الغسيل ويكسب

المليارات من بيعها.. فلماذا يلاحقونني بدعاياتهم في كل مكان ويتصرفون وكأن العالم هو قرية صغيرة ملكنا جميعًا نحظى كلنا بخيراتها ولهذا لا بد أن نتشاطر المسؤولية فيها بالتساوي، وهو الأمر غير الحقيقي وغير العادل أيضًا..فهذه القرية ملك الكبار وحدهم، وأسلوب حياتهم وطرق استمتاعهم بتلك الحياة هو ما أفسد هواء الكوكب ولوّث مصادر مياهه، كما أن أطماعهم في نهب الكوكب وحروبهم العدوانية لأجل هذا الغرض هي التي ألحقت به أكبر الدمار.

ومن الطريف المبكي أن هؤلاء الذين لا يريدونني أن أستخدم منشفة جديدة هم أنفسهم الذين زرعوا في أرض بلادي نصف مليون لغم أثناء حربهم العالمية الثانية ما زالت حتى اليوم تمنع الاقتراب من منطقة العلمين بصحراء مصر الغربية وتعوق تنميتها وتقدمها.. فأي تصالح مع البيئة هذا الذي يمنعهم من إزالة ألغامهم وتنظيف البيئة؟ وهم أنفسهم الذين أمدوا إسرائيل بالسلاح وسمحوا لها بزرع التربة اللبنانية بالقنابل العنقودية التي لم تنفجر بعد.. ولا أحد سواهم من استخدم اليورانيوم المستنفد الذي يجعل الأرض غير صالحة للزراعة بالعراق وأفغانستان.. وهم الذين ألقوا على اليابان قنبلتين نوويتين ما زالت آثارهما باقية حتى الآن. ثم يأتون اليوم ويطلبون مني بكل لطف وأدب ألا أستخدم منشفة جديدة من أجل البيئة!

سحقًا لهم ولبيئتهم ولكذبهم وتضليلهم وتلاعبهم بنا. لن أكف عن استعمال المحارم الورقية ولسوف أستخدم من الفوط والمناشف في الفنادق مثنى وثلاث ورباع، ولن أكون أبدًا ذلك المواطن العولمي العبيط الذي يتقاذفونه مثل الكرة الشراب.

فخامة الرئيس والضرب في المحاشم

ممارسة الرياضة من جانب حكام وزعماء العالم ليست شيئًا مستغربًا.. وإذا أخذنا الرئيس أوباما مثالا فقد عرفنا أنه كان لاعبًا ماهرًا لكرة السلة حصل فريق مدرسته بفضله على البطولة عندما كان في السنة النهائية في مدرسة بوناهو في هاواي عام ١٩٧٩.. ولا ننسى مباراته الشهيرة التي بثتها قناة «سي إن إن» عشية إعلان نتائج الانتخابات الرئاسية الأخيرة التي أصبح بموجبها أوباما رئيسًا للولايات المتحدة، وهي المباراة التي لعبها المرشح أوباما مع أصدقائه في شيكاغو.

كذلك الرئيس السابق بوش كان بارعًا في قيادة الدراجات وقد تسابق معه رئيس وزراء الدانمارك «راسموسن» في مزرعته بتكساس. وأيضًا الرئيس نيكولاي ساركوزي الهاوي لرياضة الجري والتي لا يباريه فيها رئيس آخر. ولدينا رئيس الوزراء الروسي بوتين وهو بطل مدينة بطرسبورج السابق في رياضة الجودو.

لكن الذي يفوق كل هؤلاء في شغفه بالرياضة هو الرئيس «إيفو موراليس» رئيس بوليفيا الذي يهوى كرة القدم بجنون. وغير بعيد الأزمة التي دخل فيها مع جوزيف بلاتر رئيس الاتحاد الدولي لكرة

القدم بعد قراره بعدم إقامة المباريات الدولية في مدن ترتفع بأكثر من ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر حتى لا يتعرض اللاعبون للإرهاق نتيجة قلة الأوكسيجين، وهو الأمر الذي عنى استبعاد مدينة لاباز عاصمة بوليفيا وحرمان المنتخب البوليفي من اللعب على أرضه.

ومن المعروف أن الرئيس موراليس لا يكتفي بتشجيع فريق بلده لكنه يلعب الكرة أيضًا ويشارك في كثير من المباريات في مركز رأس الحربة. وقد حملت لنا الأخبار نتيجة آخر مبارياته التي جرت بين فريق رئاسي وآخر تابع للبلدية بمناسبة افتتاح ملعب جديد في العاصمة. لعب الفريق الرئاسي بقيادة موراليس وفريق البلدية بقيادة دانيال كورتاخينا وهو لاعب مدافع له توجهات سياسية وكان عضوًا في حزب الرئيس موراليس واسمه «الحركة نحو الاشتراكية»، غير أنه غير وجهته إلى المعارضة وصار يتبع حزبًا سياسيًّا معارضًا اسمه «الحركة بدون خوف». ويبدو أنه استلهم اسم حزبه فتحرك «بدون خوف» وانقض على الرئيس في الملعب فركله بكعب قدمه ركلة قاسية أطارت صواب الرئيس الذي لم يكتف بقرار الحكم بطرد اللاعب، لكن اندفع نحوه في إصرار ووجه له ضربة عنيفة تحت الحزام بين قدميه فأسقطه أرضًا يتلوى من الألم.

بعد المباراة حاولت الشرطة القبض على اللاعب غير أن تدخل رئيس البلدية حال دون ذلك. وقد صرح اللاعب بأنه كان يؤدي في الملعب بشكل طبيعي وأنه لم يتعمد إيذاء الرئيس. أما موراليس فقد أشار عليه أطباؤه بالراحة لثلاثة أو أربعة أيام والعلاج بالمسكنات ومضادات الالتهاب.

وأعتقد أن الدرس المستفاد من هذه المباراة والذي يتعين على كل لاعب أن يعيه أنّ اللعب مع الرئيس له أصول وله حدود، وأن من يتعدى تلك الحدود سوف يخرج من الملعب على ظهره بعد أن يقوم الرئيس بضربه في المحاشم من دون أن يجرؤ حكم المباراة على التدخل بطرد الرئيس كما قام بطرد اللاعب المنافس!

ولعله ينبغي لهذا اللاعب أن يحمد ربه لأن حالة الديموقراطية الناشئة في بوليفيا والحراك السياسي بها مع إمكانية تداول السلطة قد جعلت الأمر يقف عند هذا الحد.. ولنا أن نتصور ما كان يمكن أن يحدث في بلاد أخرى لو أن لاعبًا فكر في أن يقترب من الرئيس لمسافة خمسة أمتار وكم الرصاص المصبوب الذي كان سيمزق اللاعب واللاعبين القريبين منه والحكم وحامل الراية... هذا غير أسرته وأصدقائه وجيرانه الذين كانت ستتعرض محاشمهم للدهس المريع!

العولمة المُملّة

مالطعم الحياة قد تغير ولم يعد كما كان؟! زمان كان السفر يملأ النفس بهجة لأنه كان يعني التغيير.. الانتقال من مكان له شكل وسمات وخصائص إلى مكان آخر له شكل وسمات وخصائص مغايرة. وكان هذا يشحذ الذهن ويملأ مسام الروح بزاد جديد من مفردات الحياة. لكن المدن الآن تشابهت ولم يعد السفر يقدم جديدًا بعد أن مسخت العولمة الطابع الخاص بكل بلد وحولت الدنيا إلى قرية صغيرة.. مملة!

ما معنى أن أجلس مع أصحابي مساء في محل ستاربكس ثم أسافر في الصباح لأجد ستاربكس نفسه في انتظاري أيا كانت وجهتي سواء سافرت إلى أمريكا أو فرنسا أو كينيا أو المكسيك؟ ما الفرق بين مطار فرانكفورت ومطار الدوحة إذا كانت نفس المطاعم والكافيهات هي التي تخدم الركاب؟ وأي متعة يحصل عليها المسافر إذا كان طعامه في كل مكان من بيتزا هت وبيرجر كينج؟ وأي سعادة تدخل إلى النفس إذا كانت محلات كارفور ومترو وماركس وسبنسر تفرض نفسها عليك في كل قارات العالم ولا تترك لك فرصة للفكاك منها. إنها حتى لا تحاول أن تقدم شكلًا مختلفًا باختلاف البلد وإنما هي

نفس المساحة بنفس التقسيم الداخلي والأرفف ونفس البضاعة. لقد كان المسافر فيما مضى وفي زمان ما قبل العولمة يذهب إلى فرنسا فيجلس في أحد مقاهيها الجميلة على الرصيف ويطلب سندوتش من أحد أصناف الأجبان الفرنسية داخل خبز الباجيت المقرمش الشهي.. واليوم أظل أبحث طويلًا وسط ركام الماكدونالد وإخوته لكي أعثر على مطعم فرنسي ضال في باريس!

اليوم أينما وليت وجهك فثمة «كوستا» أمام ناظريك.. يتربص بك على كل ناصية ويمنعك من الإحساس بطعم المكان وخصوصيته، وإذا بحثت عن أحد الأسواق من أجل التبضع لم تجد سوى مولات متشابهة في كل مكان. لم تعد هناك أسواق ذات طابع محلي يحمل بصمات المكان وملامح أهله. فإذا دلفت داخل المول تجد في استقبالك محلات دبنهامز ومانجو وزارا وراديو شاك. وكل المولات لها نفس التقسيم.. طابق به ردهة الطعام وتضم نفس المطاعم في كل المدن، وطابق به السينما وتضم عدة قاعات للعرض، ونفس الأفلام المعروضة في سينمات أبو ظبي هي المعروضة في ريودي جانيرو وفي كيب تاون.

إن العولمة لم تقتل المطبخ المحلي فقط وإنما قتلت أيضًا الذوق المحلي في الملابس عندما قامت بتعميم الأذواق أو تأميمها لصالح ذوق واحد فقط هو الذوق الغربي أو بالأحرى الذوق الأمريكي.. كما قضت قضاء مبرمًا على صناعة السينما في كل مكان، وأتحداك أن تجد دار عرض واحدة في برلين تعرض فيلمًا ألمانيًّا! أو دار عرض في إستوكهولم تعرض فيلمًا سويديًّا كما كان ذلك يحدث منذ سنوات! لقد كنت معتادًا في سفراتي أن أتعرف إلى الناس من خلال مشاهدة

أفلامهم، واليوم ليس هناك سوى الإنتاج الأمريكي في كل مكان. حتى السينما العربية وعمادها الفيلم المصري فقدت مكانها في دور العرض بالمدن العربية وأصبح العثور على فيلم مصري يمثل مصادفة سعيدة إذا عثرت عليه في دبي أو في الدار البيضاء!

الحياة أصبحت ثقيلة الدم بعد أن لم يعد في السفر ما يمثل كشفًا أو يثير دهشةً أو يقدم إلهامًا، ومن الخير للمرء أن يجلس في ستاربكس المجاور لبيته ويوفر مصاريف ومشقة السفر من أجل شرب نفس القهوة بنفس الطعم في نفس القدح من يد عمال يحدثونه بنفس اللغة (الإنجليزية) ثم يعود متوهمًا أنه كان في بلد آخر!

الأعسر لا يدخل الجنة

الخرافة ومعاداة العلم والمنطق أقوى من التعليم وأعمق أثرًا في مجتمعاتنا مهما ادعينا العكس.

ابني الصغير ولد أعسر اليد، أي أن اليد الرئيسية التي يستخدمها هي اليسرى.. وليس في هذا الأمر أي ميزة تميز صاحبه كما أنه لا يعيب مَن خلقه الله هكذا. ولا أعتقد كما يظن البعض أن العباقرة هم الذين خلقهم الله على هذه الشاكلة، فالغباء لا يستثني أيمن من أيسر. كما لا أعتقد أيضًا أن من يستخدم يده اليسرى في الكتابة وفي تناول الطعام هو من العصاة المارقين الخارجين عن الدين كما يظن بعض المجانين.

اضطرتني ظروف العمل للسفر للخارج لمدة طويلة. في البداية سافرت وحدي وتركت أولادي لظروف مرض أمهم. عند عودتي في إجازة لاحظت أن ابني تبدو عليه علامات التعاسة والغضب وأنه أصبح عصبي المزاج ضيق الصدر يثور لأي سبب بعد أن كان طفلًا وديعًا هادئًا. في نفس الوقت لاحظت أنه أصبح يتناول الطعام بيده اليمنى. أخبرني أحد أقربائي الذي تركت أسرتي في عهدته وهو شديد السعادة والزهو بنفسه أنه نجح بفضل الله في تعليم الولد الصغير

أن يستخدم يده اليمنى عند الأكل! وأضاف أن الأمر لم يكن سهلًا بالمرة لكن أخذ منه مجهودًا كبيرًا، واعتذر لي بأنه اضطر أحيانًا إلى أن يضرب ابني حتى لا يتركه نهبًا للعادة البغيضة التي هي استخدام اليد اليسرى!! وزاد على هذا بأنه في سبيله بعد أن نجح في مهمته هذه أن يبدأ في تعويده على الكتابة باليد اليمنى أيضًا.

كنت أستمع إليه والغضب يعتمل في داخلي وبي رغبة في أن أبطش بمن اضطهد ابني وكلفه فوق ما يطيق وجعل الولد يتحدى الطبيعة والفطرة التي فطره الله عليها وهو يظن أنه يحسن صنعًا. وحزنت بشدة لرؤية من يعتقد أن الله يثيب من يستخدمون يدًا معينة ويغضب على من يستخدمون اليد الأخرى مع أن الله هو خالق اليدين ولا حيلة للإنسان في أن خلقه الله ومراكز المخ تعمل بشكل رئيسي مع إحدى يديه فتجعلها اليد الرئيسية وتجعل الأخرى ثانوية.

كظمت ثورتي وسألته: لماذا تجشمت كل هذا العناء في تعليمه استخدام اليد اليمنى مع أن استخدام اليد اليسرى لم يكن ليضر أحدًا؟ أجاب: لأن الله لا يبارك إلا لأهل اليمين والرسول عليه الصلاة والسلام كان يستخدم يمناه في الأكل والكتابة! قلت وأنا لا أصدق كل هذا الجهل عند واحد من أحب الناس إلى قلبي: أولًا الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يقرأ ولا يكتب وبالتالي استخدام يده اليمنى في الكتابة هي حكاية غير صحيحة. وثانيًا تناوله الطعام باليد اليمنى يعود إلى أن الله لم يخلقه أعسر ولو خلقه أعسر لاعتمد على يسراه في كل شيء. وأضفت أننا يتوجب علينا أن نتأسى بالرسول الكريم في خُلقه وصفاته الحسنة، أما الأكل باليمنى أو باليسرى فلا أظن الرسول ترضيه حالة الاكتئاب التي

أصبح عليها الطفل الصغير بفعل قسره على ما يكره. وأنا شخصيًّا أعتقد أن الله يثيب الناس ويعاقبهم على ما هم مسؤولون عنه، فهو على سبيل المثال لا يعاقب الأعمى على عماه كما لا يكافئ المبصر على إبصاره.

لم يفهم قريبي شيئًا من كلامي وظل مصرًّا على حدوتة أهل اليمين وأهل الشمال التي يفهمها على نحو ساذج، فوجدت لزامًا عليّ أن آخذ أولادي وأسافر بهم وقررت ألا أتركهم يبتعدون عني لحظة واحدة حتى لا يتحكم فيهم مجنون، يضربهم ويفرض عليهم جهله وهو يظن أنه يحسن صنعًا.

الذين كهربوا مؤخرة الجمل!

دأبت الولايات المتحدة الأمريكية على انتهاك حقوق العرب والمسلمين تحت مزاعم الخوف من الإرهاب لدرجة أنها صارت تتفحص المؤخرات وتضع داخلها مجسات تقيس النشاط التفجيري، وخلا التعامل مع المؤخرات العربية من الكياسة المفترضة مع مواضع حساسة كتلك.. ومع ذلك لم يغضب العرب ولم يثوروا للسراويل المدلاة والإليات التي يتم جسّها ووزنها ومسحها بأجهزة السكانر وبالعصي الممغنطة وكذلك بالأصابع، ولم يضايقهم أن ينحنوا بشدة حتى ترتفع المؤخرة في الهواء وتكون في مستوى الموظف الفاحص! ولا أدري متى يغضبون ويقررون أن يعاملوا الغرب بالمثل!

والعجيب أنه في الوقت الذي يتعامل الغرب فيه مع البشر بهذا الأسلوب فإن جمعياتهم لحقوق الإنسان تثور وتملأ الدنيا صياحًا على إحدى الرياضات المفضلة لبعض عرب الخليج وهي رياضة سباق الهجن بسبب استخدام أطفال صغار لقيادة الجمال أثناء السباق. وقد عدت منظمات الغرب هذا الأمر نوعًا من الإساءة للطفولة التي تصل لدرجة الاستعباد مما حدا بمحبي هذا النوع من السباقات لأن يقوموا بتعديلات جوهرية أسفرت عن أن يستبدلوا

بالأطفال آلات روبوت صغيرة توضع على ظهر الجمل عند المؤخرة وهي تحاكي جهاز الطيار الآلي الذي يقوم بقيادة الطائرة.

ولما كان سعر الهجين يرتفع تبعًا لأدائه في السباق وقدرته على تحقيق مراكز متقدمة تجلب لصاحبه المجد والفخر، فإن المحاولات تشتد دائمًا للحصول على الهجن المتميزة صاحبة القوة والرشاقة والمناورة والأداء العالي. وكالعادة لا بد أن يتسلل الراغبون في الكسب السريع بدون مجهود إلى هذا المضمار مثلما يتسللون إلى كل نواحي الحياة.. فماذا فعلوا؟

آخر ما تفتق عنه الذهن الشيطاني حدث في سباق جرى أخيرًا في إحدى دول الخليج.. قام الموظف المسؤول عن الجمل بوضع صاعق كهربائي في جهاز الروبوت الذي يعمل بالتوجيه عن بعد بالريموت كونترول، وكلما قام المتحكم في الريموت بالضغط توجهت وخزة كهربية إلى مؤخرة الحيوان الأعجم الذي يهرع من فرط الرعب والألم ويندفع للأمام، الأمر الذي جعل الجمل المسكين يفوز بالسباق تحت التعذيب الرهيب.

الجناية الكبرى في الأمر تتمثل في أن الهجين الذي يتعرض لهذه التجربة تضعف قوائمه وتترقق عظامه ويفقد قدرته على التحمل وبذل المجهود ويصير في حاجة إلى العلاج والرعاية الطبية.

ومن الواضح أن أحد وجهاء المدينة قد وقع ضحية نصاب باعه جملًا تكهربت مؤخرته وحقق نتيجة عظيمة في المرة الأولى، لكنه برك بعد أن اشتراه الزبون وخمدت همته، فما كان من الزبون إلا أن قام بمقاضاة النصاب ونجح في إدخاله السجن.

الأمر المضحك في الأمر أن النصاب قد حكى في أثناء التحقيق أن الفكرة قد واتته بعد أن شاهد اختبار فحص المؤخرات في نيويورك وتخيل ما يمكن أن يحدث لو قاموا بكهربة المؤخرات العربية، وسرعان ما قفزت في ذهنه فكرة أن يضع الصاعق الكهربي أسفل الجمل.

والغريب أن هذا الرجل الذي انحنى في نيويورك وترك الأصابع الأمريكية تعبث في دُبُره قد عاد وفعل ما فعلوه به مع حيوان مسكين لا حيلة له.. من أجل المال! ولا غرابة في هذا لأن قومه الذين دأبوا على ضرب الأبرياء بالسياط لا يجدون غضاضة في خلع السراويل والانحناء في مطار جي إف كي!

الإنسان والقوقعة

قمت بكثير من السفرات بطرق مختلفة.. بعضها وحدي وبعضها بصحبة أصدقاء، وأخيرًا تشجعت للمرة الأولى واشتركت في رحلة وجدتها مطروحة للبيع على الإنترنت فقمت بالتسجيل والدفع «أونلاين» وحجزت الرحلة والفنادق وتذكرة الطيران من دون أن أقابل أي شخص أو أتحدث إلى أي إنسان. كانت الأماكن متاحة لمن يمد يده ويحجز من أي مكان في العالم وظلت مفتوحة حتى تم استيفاء العدد المطلوب.

زمان كان مفهوم السياحة مختلفًا، وكثيرًا ما سمعت أصدقاء لي يعملون بالسياحة يرددون: لدينا اليوم فوج فرنساوي قادم على طائرة الفجر، أو أمامنا غدًا مهمة استقبال فوج ياباني قادم بالباخرة. الآن تغير هذا المفهوم ولم تعد الرحلة تضم جنسًا واحدًا، وإنما أصبحت تضم أخلاطًا متنوعة من البشر قدموا من كل مكان من دون سابق معرفة.

بعض أعضاء الرحلة يكونون ثنائيات: زوجا وزوجة أو صديقًا وصديقة.. وبعضهم يكونون بمفردهم، وأقلهم عبارة عن أسرة صغيرة مع الأبناء. يبدأ الناس الرحلة في أول يوم وهم متوجسون بعضهم من بعض، متقوقعون كل واحد داخل محارته التي شيدها

ليحمي نفسه من الآخرين. ومع هذا يمكن ملاحظةأن كل واحد يختلس النظر إلى الآخرين يحاول أن يفهم من منهم يمكن أن يكون قريبًا إليه يسهل الاندماج معه؟ ومن الذي يستحسن أن ننأى بأنفسنا عنه منذ البداية؟!

ليس مستغربًا طبعًا أن تكون مجموعة مميزة من أعضاء الرحلة من العواجيز الطاعنين في السن بعضهم تخطى التسعين وكثير منهم فوق السبعين.. ولا عجب في هذا إذ إن الناس في معظم أنحاء العالم يعملون بجد طوال فترة الشباب حتى إذا تقاعدوا بدءوا برنامجًا للسفر حول العالم والتمتع بالفرجة على الدنيا. وبعض المسافرين يكونون في أواسط العمر ممن يدخرون طوال العالم للقيام برحلة في إجازة الصيف. ويلاحظ قلة عدد الشباب في مثل هذه الرحلات حيث إنه يناسبهم أكثر الصعلكة الرخيصة والإقامة في بيوت الشباب مع من في سنهم من دون برنامج منظم يلزمهم بالاستيقاظ كل يوم مع مطلع الفجر.

يستمر الناس يرقبون بعضهم بعضًا.. حتى وهم يجلسون إلى مائدة الطعام متجاورين لا يتبادلون سوى ابتسامات متكلفة. ويظلون في أول يومين حذرين لا يريدون الاندفاع في صداقات قد لا يستطيعون الفكاك منها لبقية الرحلة لدرجة أنه عندما يتم تخييرهم بين الاشتراك في عشاء جماعي بأحد مطاعم المدينة أو تركهم أحرارًا في ذلك المساء فإنهم يفضلون أن يكونوا مع أنفسهم! ولكن مع مرور الوقت يبدءون على استحياء في الإطلال برؤوسهم خارج القوقعة ليروا ما يحدث في القواقع المجاورة، ويمكن للراصد أن يلمس أن ثمة تغييرًا طفيفًا قد حدث وأن أغلبهم لن يمانع إذا ما أخذ أحدهم

المبادرة بالتعارف.. ورويدًا رويدًا يتشجع البعض ويأخذ في تقليب عينيه بشكل أسرع حتى يعثر على رفاق من نفس نوعيته بعدما دخلت الرحلة في الجد وهو لم يصاحب أحدًا بعد! وفي العادة يكون الأسرع في المبادرة هم المتقدمين في السن، ربما بسبب أنهم يشعرون أكثر من غيرهم بأنه لم يتبق الكثير الذي يسمح بالتلكؤ!

وبطبيعة الحال يمكن رصد بدايات كسر الجليد، وتكون أولًا بالاندفاع نحو قائد الفوج الذي يصاحب المجموعة طوال الوقت بالشرح والتعليق والتفسير ثم يبدأ الأوروبيون منهم بالاقتراب بعضهم من بعض، ويحذو حذوهم الآسيويون من ماليزيا وسنغافورة واليابان فيأخذون في التجول وارتياد المحال التجارية معًا. وينظر العربي الوحيد حوله فيجد العواجيز هم الأكثر ميلًا إليه وإقبالًا عليه واستعدادًا لمصادقته فيفهم أن الصورة النمطية للعربي ما زالت مسيطرة على الأفهام وأن مهمة العربي في مثل هذه الرحلات هي الأكثر صعوبة إذا كان راغبًا في عقد صداقات، وتمر برأسه صور معارفه في أوروبا وكندا وأمريكا من العرب الذين لم يستطيعوا الزواج والحصول على الإقامة والجنسية إلا عبر نساء كبيرات في السن أو عاطلات عن الجمال حيث إن الفتاة الطبيعية الجميلة لديها في العادة مواصفات في فارس الأحلام ليس من بينها أن يكون عربيًّا!

يبدأ الناس في الرحلة بمرور الوقت يستأنسون بالاختلاط والقرب ثم يركلون القوقعة وينفتحون بعضهم على بعض بعد أن تزول المخاوف ويرحل الخجل..لكن يا خسارة.. بعد أن تكون الرحلة قد شارفت على الانتهاء وحان أوان الوداع!

جامعة لوسي أو كوكو

من ضمن المقترحات الفعالة لتنشيط العمل العربي المشترك الاقتراح الجبار الذي خرج من القمة العربية الأخيرة التي عقدت بمدينة سرت بليبيا.. يقضي الاقتراح بتغيير مسمى الجامعة العربية واختيار اسم جديد لها، ولا أدري إذا كان الزعماء العرب قد استقروا على الاسم الجديد أم أنهم يحتاجون إلى مساعدة مثلما يفعل الأب والأم في انتظار وليدهما القادم عندما يطلبون من الأهل والأصدقاء المساهمة باقتراح اسم للمولود. ومن جانبي أقترح أن نسميه لوسي إذا جاء أنثى أو نسميه كوكو إذا جاء ذكرًا غضنفر. ولعل الاسم الجديد يكون فاتحة خير على العرب أجمعين!

يحدث هذا الهزل في أعلى مستويات العمل العربي المشترك بينما إسرائيل لا تهدأ ثانية واحدة في بناء مخططاتها وأحلامها التوسعية التي وصلت نسبة النجاح فيها لعنان السماء.

ومن دلائل هذا النجاح أن الإسرائيليين لم يعودوا يخفون نواياهم أو يتستروا على الزعماء العرب الذين قدموا أجل الخدمات للدولة العبرية.

في حفل تسليم وتسلم قام «عاموس يادلين» رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (أمان) المنتهية ولايته بإلقاء كلمة في حضور الرئيس الجديد للجهاز «أفيف كوخفي» استعرض فيها أهم النجاحات التي تحققت في خلال أربع سنوات ونصف السنة قضاها على رأس جهاز الاستخبارات العسكرية. تحدث عاموس عن مسرح للعمليات امتد مئات الكيلومترات شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا..

تحدث عما فعلوه في إيران من اغتيالات واضطرابات وقلاقل، كما تحدث عن نجاحهم في جنوب السودان حيث زرعوا الفتنة وقاموا بتهريب السلاح للجنوبيين وعملوا على تدريب الجيش والاستخبارات في الجنوب وفي دارفور من أجل خنق مصر والسودان. تحدث عاموس أيضًا عن اغتيال عماد مغنية الذي أقض مضجعهم بعملياته الناجحة ضد إسرائيل، وعن شبكات التجسس التي زرعوها في لبنان والسيطرة على قطاع الاتصالات بها. كما اعترف عاموس بالخروقات التي أحدثوها في إفريقيا ونشر شبكات التجسس في ليبيا وتونس والمغرب والتي أصبح كل شيء فيها في متناول أيدي الإسرائيليين!

وعندما وصل عاموس للحديث عن مصر صال وجال وانتفخت أوداجه وهو يطمئن جمهور المستمعين إلى أن مصر العقبة الكبرى صارت كالعجينة في أيديهم بعدما أحكموا سيطرتهم عليها بحسبانها الملعب الأكبر للنشاطات الإسرائيلية.. وفي هذا قال عاموس بالنص:

«في مصر فإن العمل تطور حسب الخطط المرسومة منذ عام ١٩٧٩، فلقد أحدثنا اختراقات سياسية واقتصادية وأمنية وعسكرية

في أكثر من موقع، ونجحنا في تصعيد التوتر والاحتقان الطائفي والاجتماعي لتوليد بيئة متصارعة متوترة دائمًا ومنقسمة إلى أكثر من شطر في سبيل تعميق حالة الاهتراء داخل البنية والمجتمع والدولة المصرية، لكي يعجز أي نظام يأتي بعد حسني مبارك عن معالجة الانقسام والتخلف والوهن المتفشي في مصر».

هذا بعض ما فعله الإسرائيليون بنا على مرأى ومُسمع من أشاوسنا الأماجد الذين ذكرهم عاموس بالاسم وخصّهم بالشكر على ما قدموه للدولة العبرية من خدمات.

الأمل الآن صار معقودًا على ما ستفعله الجامعة العربية في ثوبها الجديد للتصدي للهيمنة الإسرائيلية ولجم الوحش الصهيوني العقور بعد أن ننجح في التحول الإستراتيجي الذي سيقلب الموازين لصالحنا..ألا وهو تغيير مسمى الجامعة العربية لمواجهة التحديات الجديدة بعد أن يصير اسم جامعتنا الحبيبة لوسي أو كوكو.. حسب تساهيل ربنا.

الفرافير

وتصور...

حُب البلطجي للسِّنجة

حب السفاح للخنجر

حب الكُمساري للفكة

حب القطة للمنوَر

تلاقيني بحبك أكتر

«سعيد كاوتشا»

حسن شحاتة.. والفرافير!

أسعدني الفوز ببطولة إفريقيا للمرة الثالثة على التوالي مثلما أسعد كل المصريين.. لكن مشكلتي أنني لا أعرف كيف أفرح فرحة صافية بسبب عجزي عن تسكين الموصلات العصبية التي تحمل لي الألم على أبناء مصر الذين أغرقت السيول بيوتهم وتجارتهم وحولتهم إلى مشردين، ولا أستطيع أن أتجاهل أن هذا الفوز يحدث ومصر تغوص في الوحل حتى العنق. ولا أدري لماذا يرتبط الحصول على هذه البطولة كل سنتين بأحداث مأساوية تحدث لنا تجعل الذي يريد أن يفرح من القلب يخجل ويشعر بأنه جبان وليس عنده دم!

لا أنسى روماريو قائد منتخب البرازيل عام ١٩٩٤ عندما تم تتويج فريقه بكأس العالم الذي أقيم بالولايات المتحدة. سألوه عن شعوره وهو يحمل الكأس للمرة الخامسة فقال: لا أستطيع أن أقول سوى أن الأمر مجرد لعب.. أما هذه الكأس فقد تُسعد الشعب البرازيلي لمدة أسبوع يعود بعده للحياة البائسة التي يحياها معظم أفراده حيث الجريمة ومدن الصفيح والأكل من القمامة (كان هذا قبل عهد الرئيس لولا دا سيلفا الذي انطلق بالبرازيل إلى عنان السماء).

وأنا أعلم أن المصريين سيتلقفون الفرحة التي عزّت عليهم

أسبابها في كل شيء إلا في مباريات الكرة، وكأنها حقن مخدرة تنسيهم الوجع مرة كل عدة أشهر. ولا شك في أنهم سوف يرقصون في الشوارع وسوف يسدون الطرقات ويشعلون الصواريخ، كما سيوقفون السيارات المارة ويصعدون فوقها ويرغمون قائديها على التصفيق والتهليل بالإكراه، وقد يستخفهم الطرب فيكسروا بعض السيارات أو يتحرشوا بالبنات وسط الزحام.. ولن يستطيع أحد أن يقول لهم عيب لأنه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة التي حسمناها في أنجولا، ولا داعي لأن نفرض القانون الغائب طوال العام في هذه اللحظات الحلوة.. وساعة الحظ كما نعلم لا تعوض. لكن أسخف من ذلك كله الأغاني الركيكة التي ستنطلق على مدى الأيام القادمة من كل الإذاعات والتليفزيونات.. ولا أكره شيئا في حياتي قدر كراهيتي لأغاني المناسبات التي يكتبها شعراء نحّيتة يعلمون أن الوطن يتلاشى ومع ذلك يؤلفون له - بالطلب - أغاني لا يعنونها ولا حتى يصدقونها!

لقد غرقت عبارة ممدوح إسماعيل وابتلعت ١٠٣٣ من أبناء الوطن بينما كنا في ذروة ساعة حظ وكان الفرافير وأولاد الرايقة يشربون نخب الفوز بالبطولة التي تحققت على أرض إستاد القاهرة عام ٢٠٠٦. وقتها كرهت الكرة والكأس وفقدت القدرة على الفرح بعد أن عرفت أن القوم لم يزعجوا الرئيس ويوقظوه من نومه حتى يأخذوا منه الأوامر بإنقاذ الذين يصارعون الغرق، وفضلوا أن يتركوا الناس تموت على المغامرة بأن يبوءوا بغضب الرئيس!

والآن لا يضايقني قدر إحساسي بأن الفرافير الذين ينهبون مصر هم أعلى الناس صوتًا وتغنيًا بحب الوطن الذي يحلبونه، ويعكر

فرحتي إدراكي أنهم لا يحملون لحسن شحاتة وأبنائه تقديرًا أو حبًّا حقيقيًّا.. كل ما في الأمر أن الرجل وفريقه يقومون بتأدية نمَر مسلية وفقرات مثيرة مثلما كان الأمراء يملؤون القصور بالبهلوانات والمهرجين، ويجلبون الديوك لتتصارع من أجل دفع الملل وإزجاء الوقت وجلب السرور إلى النفوس.

حذار من مزج الفرحة.. بالسفالة

كتبت أكثر من مرة مهاجمًا وسائل الإعلام المنحطة التي تدنت لمستويات بشعة في هجاء الشعب الجزائري من أجل مباراة كرة قدم. وقلت إنه من العار أن نسمح لمجموعة من الزلنطحية والدهماء من حملة الإعدادية بأن يقودوا الرأي العام في مصر نحو الهاوية.

وقد أوضحت أن هؤلاء السوقة يعملون بكل أسف في خدمة مجموعة من المترفين الفرافير ويأتمرون بأوامرهم وينفذون مشيئة أصحاب العزبة الذاهبين بالوطن في ستين داهية. وفي الوقت نفسه أدَنْتُ بمنتهى القوة وسائل الإعلام السافلة على الجانب الآخر التي مارست بحق مصر نفس الشرشحة، لكن موقف مصر كان هو الأسوأ والجدير بعظيم الإدانة.. ببساطة لأنها مصر.

واليوم بعد أن سحق منتخب مصر الكروي فريق الجزائر بأربعة أهداف لن يتغير حديثي ولن أعتبره نصرًا قوميًّا مظفرًا.. لأن الأمر في النهاية هو مجرد لعب ولهو، ولن أفجّر طاقتي النفسية في الشعب الجزائري معايرًا إياه بكذا وكذا مثلما بدأت بعض الأقلام المصرية تفعل. لكن للأمانة أجدني راغبًا بشدة في السخرية من الفريق الجزائري (وليس شعب الجزائر).. ذلك أنه بكل المعايير فريق فالصو يمكن

هزيمته بواسطة فرق الكرة الشراب في مصر مثل فريق الأسد المفترس وفريق قهوة حباحة، وأرى أن مكانه الطبيعي هو في ذيل الفرق الإفريقية، كما أشعر بالأسى لأنه وصل إلى كأس العالم بسبب خيبتنا القوية، ولو أنه وقع في أي مجموعة أخرى خلاف مجموعتنا في التصفيات المؤهلة للموندويال لكان على قارعة الطريق بكل تأكيد.

إذن أنا لست ضد الشماتة في المنتخب الجزائري الضعيف الذي تصور نفسه وحشًا كاسرًا بفضل تهاون فريقنا ورعونته، ولست آسفًا أن يبيت الجمهور الغوغائي السافل في مرسيليا وغيرها في شدة الحزن والكرب، فبما أن تفاهتهم صورت لهم أن مباراة كرة مع الأشقاء هي معركة فيها مظفّر ومدحور.. فليذوقوا إذن طعم العلقم ما دام هذا هو اقتناعتهم.

ومع ذلك فلا يمكنني أن أقبل أبدًا ما كتبه واحد من الغوغاء المهاويس المنتمين لصحافة الأوباش الذي كأنما كان ينتظر فوز مصر حتى يفتح بالوعته على اتساعها ويقول: «نعم يبحث بلاتر ورجاله كيف يعاقبون المنتخب المصري على الفعل الفاضح الذي قاموا به في إستاد بانجيلا.. ولكن هل هناك عقاب لفعل فاضح برغبة ومزاج الطرف الجزائري أو كان اغتصابًا مستحقًّا بالأربعة؟»... ما هذا القرف؟ هل سنعود بعد الفوز لنتحدث بنفس اللغة الواطية التي تحدثنا بها بعد الهزيمة وننحدر لمستوى البغايا ونحن نحتفل بالفوز الذي لن يجلب مالًا ولن يصون عرضًا ولن يوقف السيول في سيناء ولن يصد الصخور المنهارة على رؤوسنا ولن يوقف تزوير الانتخابات ولن يعلّم وزير بيت المال السافل الذي يهددنا بأن يطلع دين أبونا.. الأدب!

أحمد والحاج أحمد!

الحديث عن منتخب الكرة المصري باعتباره منتخب الساجدين هو حديث فالصو مثل المتحدثين به.

لا أقول هذا بسبب أن بعض الإخوة المسيحيين يغضبون من هذه التسمية، إذ إن اللاعبين في دوري أوروبا يشيرون بعلامة الصليب عقب إحراز الأهداف ولا يغضب المسلمون هناك من ذلك. لكني أقول إنه فالصو لأنه يصور الأمر على أن الفوز في المباراة يكون حليف الأكثر إيمانا والأشد ورعًا.. وهذه ليست الحقيقة أبدًا.

وبالرغم من اعتقادي هذا فإنني لم أشعر بارتياح إزاء الهجوم الذي تعرض له حسن شحاتة مدرب المنتخب عندما صرح بأنه يختار اللاعب الملتزم الذي يحرص على أداء الصلوات. لقد شنوا عليه هجومًا كاسحًا وأوسعوه سخرية وأعطوه دروسًا في كيفية اختيار الكوتش للاعبيه. أنا أعتقد أن حسن شحاتة يتمتع ببصيرة صافية وعقل سليم وهو ما جعله يدرك مبكرًا أن أحمد مثل الحاج أحمد وأنه ليست هناك فروق فنية شاسعة بين لاعب وآخر من أعضاء الفريق المصري، كما لا يوجد منهم نجوم أفذاذ بشكل حقيقي يصل سعر الواحد منهم لعشرات الملايين وتتصارع عليهم أندية مثل ريال مدريد ومانشستر

يونايتد من أمثال دروجبا وإيتو وكانوتيه وقبلهم جورج وايا وعبيدي بيليه.. ليس الآن فقط ولكن على مر العصور. فمنتخب الأسطوات الذي كان شحاتة نفسه يتزعمه وكان يضم الخطيب وفاروق جعفر وطاهر الشيخ وطه بصري وغيرهم من المعلمين لم يحقق شيئًا ولم يحصل على بطولات أو يصل لكأس العالم أبدًا، والجيل الذي تلاه وبه طاهر أبو زيد وحسام حسن ومجدي عبد الغني واستمر في الملاعب سنوات طويلة لم تسفر إلا عن إنجازات هزيلة للغاية..

الخلاصة أن شحاتة وصل لاقتناع أنه ليس هناك ما يدفعه لأن يتحمل لاعبًا متطاولا سيئ الخلق أو غيره متمردًا قليل الأدب أو آخر يتدلل ويبدي قدرًا كبيرًا من الرقاعة، إذ إنهم جميعًا في المحصلة النهائية لا يفترقون في شيء عن احتاطييهم الجالسين على الدكة وكلهم في النهاية سيحققون ذات النتائج المخيبة للآمال التي اعتادها الجمهور. من هذه الزاوية أنظر إلى تصريحات شحاتة عن طريقته في اختيار لاعبيه، وأتصور أنه يقصد تفضيله للاعب الممثل الذي أحسن أهله تربيته وتعليمه الأدب واحترام الكبير، وإذا كان قد تحدث عن الصلاة كمثال فأظنه كان يعني أن من يصلي لن يُشِيح بوجهه أو «يشَوّح» بيده في وجه مدربه ولن يسب زملاءه ولن يبصق في وجه الحكم.

وعلى الرغم من اعتقادي بأن هذه المعايير لا تصلح لاختيار فريق في أوروبا حيث الجميع محترفون ومهذبون بقوة القانون ولهذا فالمستوى الفني وحده هو الفيصل.. فإنها تصلح تمامًا عندنا حيث إن الأخ أحمد ـ كما أسلفنا ـ هو نفسه الأخ الحاج أحمد!

ضلالات وهلاوس

تعتبر مشاهدة كرة القدم تسلية عظيمة لكثير من الناس وأنا من بينهم، لكن لا ينكد عليّ أمرٌ قدر التعليق على المباريات. وفي الحقيقة لا أفهم لماذا يتم اختيار بعضٍ من المعلقين من بين غير المتعلمين..أحيانًا أشعر بأن طريقة الفرز المؤدية للاختيار تشبه نفس طريقة الفرز عند اختيار من يلتحق بالأمن المركزي من بين المتقدمين للتجنيد..دائمًا أصحاب المفهومية من المجندين الجدد يذهبون إلى الجيش ومن يتبقى يتم شحنه إلى وزارة الداخلية.

لا أريد أن أكون متجنيًا لكني لا أفهم كيف ما زلنا بعد كل تلك السنوات نسمع نفس الكلام الذي كان يردده الكابتن لطيف عم المعلقين وشيخهم رغم أن بعضه كان ينطوي على أخطاء كنا نغفرها للطيف بسبب حبنا له الناتج عن خفة دمه وذوقه والقبول الرباني الذي حظي به. على سبيل المثال لا تخلو مباراة من حديث عن لعبة «هات وخد».. دائمًا يقول المعلق إن اللاعب عمل هات وخد مع زميله مع أن العكس هو الصحيح فاللاعب الذي بحوزته الكرة لا يحتاج لـ«هات» لكنه يبدأ بـ«خد» ثم يتلقاها مرة أخرى.. هذه على سبيل المثال لم أكن أتوقف عندها مع الكابتن لطيف لكن

مع غيره من ثقلاء الظل فإن الأخطاء تكون ماثلة أمامي بدون قدرة على الغفران!

وهناك أيضًا جملة «أرضية برازيلية» في الحديث عن الكرة المنخفضة من جانب الملعب، على الرغم من أنه لا تخلو مباراة من هذا النوع من التمريرات وليست مرتبطة بالبرازيليين وحدهم... لكنه الكابتن لطيف الذي علمهم هذا الكلام وتركهم يعاقبوننا به! ومثلها جملة «يلعب الكرة مثل الموزة أو حرف الواو».. هذه الجملة أصبحت مملة وتعبر عن فقر الخيال لدى المعلقين.. ومن آيات فقر الخيال نفسه أنهم لا يترددون في تبرير خيبة أي لاعب بأنه يلعب بمبدإ السلامة! ويا عيني على المعلق الذي يحاول التمرد والخروج من عباءة الكابتن لطيف باشتقاق جمل ولازمات خاصة به من عينة «مش ممكن مش ممكن مش ممكن!» أو «يا نهار أبيض يا نهار أبيض!» أو «الله عليك يا حبيب والديك!» وأشياء أخرى سخيفة على هذا النسق.

وليس الأمر متعلقًا باللازمات السخيفة فقط، لكن المشاهد يشعر أحيانًا بأن المعلق يتفرج على مباراة أخرى غير التي يبثها التليفزيون.. فأحيانًا يمتدح شوطة تعلو العارضة بعشرة أمتار، وأحيانًا يقلل من أهمية تمريرة لأنها لم تذهب لنجمه المفضل، وكله كوم واعتبار كل كرة تلمس العارضة هي فرصة مؤكدة وهدفا محققا ضائعا، مع أن الحقيقة أن الكرة التي اصطدمت بالعارضة لو أنها انخفضت قليلًا لصارت في الغالب في متناول الحارس! وهم كذلك لا يملكون الحس اللازم لتقدير الكرة الخطرة من غيرها فيتصورون أن أي انفراد بالمرمى هو فرصة ضائعة مع أنه أحيانًا تكون الكرة أقرب لحارس المرمى فيشتتها بسهولة! وهناك شيء آخر يثير حفيظتي ويبدد حلمي

أكثر من أي شيء آخر عندما أسمع شحطا طويلا عريضا يتحدث عن «الشوت الأول» أو «خط الوسط» أو «نُس ساعة». هذا فضلًا عن المأساة الأخلاقية الممثَّلة في أن يتقدم المعلق بالشكر لرجل الأعمال صاحب القناة الذي يدفع له أجره ويشكر مدير القناة والمدير التنفيذي وكل من لهم صلة بحوافزه ومكافآته! صحيح أن الكابتن لطيف كان زمان يشكر مدير الأمن ومدير الإستاد لكنه لم يكن يقبض منهما!

ناهيك عن الرغي المتواصل الذي يهرس النافوخ، وثقل الظل الذي يتم تعويضه بالاستظراف وإلقاء النكات والإفيهات البايخة.

غير أن الإفيه المضحك حقًّا حدث الأسبوع الماضي عندما ظل المعلق يعتذر بشدة عن انقطاع الصوت الذي استمر خمس عشرة دقيقة، من دون أن يعرف المسكين أن هذه كانت أجمل ١٥ دقيقة في المباراة!

أحكام كرة القدم

المتأمل لمباريات كأس العالم لكرة القدم التي تدور رحاها هذه الأيام يمكنه أن يعرف أن الجماهير في العالم كله قد وزعت انتماءاتها ما بين الفرق التتي تتصارع على الكأس بصرف النظر عن وجود دولة المشجع ومشاركتها بالمونديال من عدمه

وقد ساهم في رفع شعبية بعض المنتخبات متابعة الجماهير لدوريات كرة القدم في أوروبا وأمريكا الجنوبية ومعرفتهم بلاعبي ريال مدريد وبرشلونة ومانشستر يونايتد وتشيلسي وميلانو وروما وإياكس وإيندهوفن وجلطة سراي وبوكا جونيور، وهو الأمر الذي لم يكن متوافرًا للجماهير من قبل، وكانوا في الماضي يتابعون اللاعبين كل كأس عالم ثم تنقطع سيرتهم لمدة أربع سنوات ثم يلتقونهم في الكأس التالية أو يكونون قد اعتزلوا وحل محلهم لاعبون آخرون.

شكّلت كأس العالم عام ١٩٧٨ حالة غير مسبوقة في الوطن العربي، إذ إنه كان المونديال الأول الذي ينقل التليفزيون كل مبارياته على الهواء مباشرة، وقبل ذلك كانت النتائج تأتينا ثم نشاهد المباريات في اليوم التالي لوقوعها. حدث هذا في كأس ١٩٧٤ التي استضافتها ألمانيا وشاهدنا بالتليفزيون المصري قليلًا من مبارياتها البايتة التي

عرفنا نتائجها، وقبلها مرت كأس عام ١٩٧٠ التي شاركت فيها المغرب كأول دولة عربية بعد مشاركة مصر في عام ١٩٣٤، وقد مرت مرور الكرام حيث جرت وقائعها في ذروة حرب الاستنزاف مع الوحش الإسرائيلي وفي السنة التي تخصصت فيها إسرائيل في قصف مدارس الأطفال والمصانع والمنشآت المدنية. وقد سبقتها كأس عام ١٩٦٦ وكانت مصر تنقل مبارياتها المهمة بعد ثلاثة أيام من المباراة، وكان هذا يعد إنجازًا في ذلك الوقت وقد تم بفضل الكابتن محمد لطيف وصلاته الكروية بإنجلترا التي جرت مباريات الكأس على أراضيها!

لهذا فإن كأس عام ١٩٧٨ كانت هي الأولى التي يشتري التليفزيون المصري مبارياتها كاملة، وكان لاستضافة الأرجنتين لها مع فارق التوقيت الرهيب أثر في أننا كنا نبدأ المشاهدة من العاشرة مساء وحتى ساعات الصباح الأولى. أتذكر في هذه الكأس الحماسة الجنونية للجمهور العربي في تشجيع هولندا التي وصلت للمباراة النهائية لتقابل منتخب الأرجنتين صاحب الأرض، وكان حب الجماهير للفريق الهولندي مرجعه إلى أنه يصل للمرة الثانية على التوالي للمباراة النهائية ليواجه صاحب الأرض بعد أن واجه في الكأس السابقة المنتخب الألماني على أرضه أيضًا، وكان لخسارته في المرتين أثر مرير في الجماهير العربية التي شجعته بجنون!

بعد ذلك عرفنا التليفزيون الملون وشاهدنا المباريات اعتبارًا من كأس عام ١٩٨٢ بصورة مختلفة، لكن كان علينا أن نتابع النجوم ثم لا ندري شيئًا عنهم بعد ذلك، إلى أن ظهرت القنوات الفضائية وملأت السماء فأصبحت الجماهير تتابع الدوري الإنجليزي والإسباني

والهولندي والإيطالي وتعرف سعر كل لاعب وسيرته الذاتية وأين نشأ والفرق التي لعب لها وكم يقبض في الأسبوع، وتشكلت روابط لمشجعي فرق أوروبا في بلادنا وأصبحت المشاحنات تقع بين مشجعي إيه سي ميلان ومشجعي بارما في البحرين أو بين مشجعي برشلونة ومشجعي أتليتكو مدريد في الرياض أو بين مشجعي ليفربول ومشجعي أرسينال في القاهرة، وقد ظهر هذا واضحًا في الكأس الحالية حيث انفطرت قلوب الشباب حزنًا على خروج الفريق الإنجليزي ثم خروج الفريق البرازيلي وتلاه الأرجنتيني ولكل منها مشجعون ومريدون من شبابنا.

وأعتقد أن انتماء الإنسان إلى فريق يشجعه هو أمر يلبي احتياجًا طبيعيًّا لديه، ولا غضاضة إذا كانت المنتخبات العربية قد غابت أن يشجع المرء فريقًا يختاره من بين فرق العالم حتى لو كان ينتمي لدولة ترى العرب جرذانًا لا تستحق الحياة.. فلكرة القدم أحكامها.

رياضة متوحشة

المتابع لمباريات كأس العالم لا يملك صدقًا سوى أن يتساءل: هل كرة القدم هي حقًّا رياضة؟

ذلك أن الرياضة كما علمونا في الصغر تسمو بالروح وتحافظ على البدن وتعلم الإنسان ألا يغتر بالنصر ولا ييأس من الهزيمة، ولهذا فقد درج الناس على الحديث عن الإنسان المهذب الجنتلمان المتسامح بأنه صاحب روح رياضية أو أنه شخص «سبور».

لكن يبدو أن وصف الرياضة بهذه الأوصاف وتكرار الحديث عنها على هذا النحو يشبه الحِكَم والأمثال التي علموها لنا في الصغر وأثبتت التجارب كذبها مثل مقولة «الصدق منجّ»، فلا شك في أننا بعد أن تعدينا سن ابتلاع الأوهام أدركنا أن الصدق يذهب بصاحبه إلى الجحيم في الدنيا، وعرفنا أن التوافق والمواءمة والسلام مع الآخرين يقتضي قدرًا من الالتواء يزيد أو ينقص حسب الحاجة! كذلك الحديث عن الروح الرياضية في لعبة يتم فيها بيع البشر وانتقالهم من ناد إلى آخر نظير مبالغ ضخمة ينال اللاعب منها قدرًا كبيرًا من دون أن يختلف أداؤه ولا مجهوده هنا عن أدائه ومجهوده في ناديه السابق.. يعتبر الحديث عن الروح الرياضية هنا شيئًا مستغربًا

وبخاصة أن اللعبة يتم تمويلها بالأساس من المراهنات التي تقوم على المقامرة والمكسب الحرام.

هذا فضلًا عن أن هذه الرياضة لم تقم في أي وقت من الأوقات بتعميق أواصر المحبة بين الشعوب، على العكس هي تقوم بالتأثير على عقول الجماهير وتحويلها إلى قطعان من الحيوانات الفاقدة للعقل والتي دائمًا ما تكون على استعداد لمخاصمة مصالحها ومعاداة أمانيها والتنكر للجيرة والأخوة وروابط الدم والتاريخ والدين واللغة.. ولا ننسى أن حربًا عسكرية اندلعت في أمريكا الجنوبية بين هندوراس والسلفادور بسبب مباراة في كرة القدم، كما أن العلاقات بين الشعب المصري والشعب الجزائري وصلت إلى أدنى مستوياتها بسبب الوصول لكأس العالم التي لم يكن ينتظر أن تحقق فيها أي منهما شيئًا يذكر!

وهذا للعلم هو السبب الرئيسي للضغائن التي تحتقن بها النفوس في كل بلد عربي ضد جيرانه من الذين لا يمكن الوصول لكأس العالم من دون المرور عبرهم مثل دول الشمال الإفريقي العربية التي تشجع فرق إفريقيا السوداء على حساب الأخ العربي. والأمر نفسه بين الشقيقات الخليجيات اللاتي تفضل جماهيرها أن تصل اليابان أو ترينيداد وتوباجو إلى نهائيات البطولات الكروية ولا يصل إليها الشقيق العربي. فضلًا عن أن كرة القدم صارت ميدانًا للتنافس السياسي بين دول بعضها أصغر من أن يبين على الخريطة تملك المال والحيوية والرغبة في الظهور وبين دول تملأ الخريطة من دون أن يكون لها تأثير، وتتبادل هذه وتلك الضربات تحت الحزام ومحاولة استعداء الجماهير ضد الأخرى.

لهذا كله لم أعد أعتقد أن كرة القدم رياضة مثل غيرها من الرياضات، وإنما هي لعبة يتلهى بها الناس بين حرب وحرب في انتظار اندلاع القتال الحقيقي الذي تسيل فيه الدماء بين الدول والشعوب. ولعل هذا هو السبب في أن المسابقات الكروية تتوقف عند نشوب الحروب وذلك بدون أسباب مقنعة مثلما حدث في كأس العالم التي توقفت فعالياتها بعد عام ١٩٣٨ ولم تعد إلا في عام ١٩٥٠، مع أنها لو كانت رياضة حقيقية لما كان هناك داع لتوقفها أثناء الحرب!

عن قطر والمونديال

هل كان الرئيس باراك أوباما يعني ما يقول عندما عبّر عن استيائه من فوز قطر بتنظيم بطولة كأس العالم لعام ٢٠٢٢؟ وهل كان يشعر فعلًا بأنه اختيار خاطئ ذلك الذي منح شرف تنظيم المونديال للإمارة الصغيرة الواقعة على الخليج العربي؟

أغلب الظن أن الجملة التي قالها أوباما لا تخرج عما يسمى بالكلام الساكت أي الذي لا يعني شيئًا، وإنما قد نطق به فقط لأن سؤالًا قد وجه إليه من الصحفيين الذين أرادوا أن يستطلعوا رأيه.

وفي الحقيقة إن أسئلة الصحفيين كثيرًا ما كانت مدعاة لإنتاج أقوال لا معنى لها على لسان من توجه إليهم الأسئلة. وعن هذا قال الأديب الراحل نجيب محفوظ بشأن أحد الصحفيين الذين قابلهم بعد فوزه بجائزة نوبل: لقد تقدم مني ذلك الصحفي الضخم وسألني وهو يرسم على وجهه ابتسامة كبيرة.. مستر محفوظ: ما هي فلسفتك في الحياة؟ ويستطرد الأديب الكبير: في الحقيقة إنني اندهشت من السؤال وشعرت بالارتباك.. ماذا أقول لهذا الرجل الذي يسألني عن فلسفتي في الحياة؟.. هل أقص عليه الحكاية من البداية عندما التحقت بقسم الفلسفة بجامعة القاهرة.. أو أخبره عن حيرتي وفشلي

في الإجابة عن معظم الأسئلة الأساسية حول الكون وجوهر الحياة التي اختبرتها طيلة عمري أو ماذا؟!.. أخيرًا وجدت الحل في أن أقول له.. أنا بطبعي متفائل!

نفس الحيرة أتصور أن باراك أوباما واجهها والصحفي يسأله عن رأيه في فوز قطر بتنظيم البطولة فوجد نفسه مضطرًّا للقول بأنه اختيار سيئ، ولم يكن يستطيع أن يقول غير ذلك والولايات المتحدة..بلده.. كانت تنافس قطر!

ولكن في حقيقة الأمر لا أظن أن الولايات المتحدة قد ساءها اختيار البلد العربي الصغير لتنظيم الحدث الكبير، ولو كانت راغبة فعلًا في عدم رسو العطاء عليه لما فاز بهذا التنظيم ولو أنفق المليارات. ليس فقط بسبب أن الشركات الأمريكية سوف تلتهم الجانب الأكبر من المبلغ الأسطوري الذي تم الإعلان عن تخصيصه لبناء الملاعب والفنادق وشق الطرق وإعداد البنية الأساسية التي من شأنها أن تجعل قطر مكانًا لائقًا لاستقبال الحدث الكبير، وإنما أيضًا لأن الولايات المتحدة تريد بالتأكيد أن تجعل من قطر نموذجًا لنوعية الدول التي تحظى بمباركة البيت الأبيض وتريد أن تقدم هذا النموذج للعالم.. وهذا النموذج المطلوب الذي يحظى بالعطف والتشجيع هو بالتحديد الدول الصغيرة قدر الإمكان، الثرية قدر الإمكان، محدودة السكان إلى الحد الأقصى، والتي مهما تطرفت أو شطح الخيال بقادتها فإن أقصى ما يستطيعون فعله هو طق الحنك!.. إذ إنه في غياب القوى البشرية فإن الثرثرة هي كل ما يتبقى للسياسيين!

ولعل نموذج قناة الجزيرة يوضح المعنى المقصود.. وهي

بالمناسبة القناة الوحيدة التي لا يزعج الأمريكان أن تحظى بالمهنية والكفاءة والاحترافية، بل إن أمريكا لا تتورع عن تقديم العون لها والسماح بحصولها على انفرادات وادعاء تحقيق السبق الإعلامي في أمور مثل شرائط بن لادن الحصرية وغيرها.

الغرض أيضًا في ظني من تشجيع أمريكا للدول بالغة الصغر والثراء هو سحب البساط من تحت أرجل الكيانات الإقليمية الكبرى مثل تركيا وإيران ومصر والجزائر والعراق والسعودية. لأنه في حالة إحدى هذه الدول فإن مائة مليار الدولار التي سيتم إنفاقها على إعداد البنية الأساسية والإنشاءات اللازمة سيكون لها دور كبير في حل كل مشكلات هذا البلد وانتقاله إلى مستوى آخر من مستويات المعيشة ومستويات القوة والقدرة..إذ إن هذا المبلغ كفيل بحل مشكلة البطالة لدى أعداد غفيرة من الأيدي العاملة التي سيستوعبها المشروع. وعندما ينتهي الحدث فإن البنية التنظيمية التي استحدثت والكوادر المدربة التي نمت، والطرق والجسور والأنفاق والمصانع التي أنشئت، والعشرات من الفنادق الحديثة والمطاعم والملاهي ودور السينما والمسرح ستكون تعبيرًا عن دولة جديدة ستطل على العالم متطلعة إلى دور تستحقه.. وهذا الدور قد لا يصب بالضرورة في المجرى الأمريكي.

أما في حالة الدويلات الصغيرة فإن القدرة على الاستفادة من كل ما سبق سوف تكون محدودة للغاية وسوف يكون المبلغ الخرافي الذي أنفق قد ضاع على احتفالية مدتها شهر بدلًا من أن يسهم في إحداث تنمية حقيقية.. وهذا في اعتقادي هو بيت القصيد.

لكن هل ينفي هذا عن قطر اجتهادها في إعداد ملف جيد واستغلالها لحقائق الواقع الدولي؟. بالطبع لا، وإنما هي تستحق التحية لأنها على الأقل لم تدَّع الثورية وتنفق الأموال على مساعدة جماعة الألوية الحمراء أو بادر ماينهوف أو الثوار الأيرلنديين، ولم تقطع طريقًا نوويًا طويلًا ثم تقوم بتسليم كل شيء في النهاية إلى الولايات المتحدة، بل كانت صادقة منذ البداية في إعلان أنها تحب اللعب كما عبّر وزير خارجيتها ذات مرة.

ولعل قدرنا أنّ أقصى ما أصبحنا نحلم به ليس التنمية وبناء القدرة، وإنما أن يكتفي أولو الأمر منا باللعب والفرفشة بديلًا عن الخراب والدمار!

أقوى من سانجام

يا سلام لو دامت فرحتنا وفضلتي معانا

حارسة خطاوينا.. تنادينا

حاضنة أمانينا.. تودّينا

للحب وتضحك ليالينا

وقلوبنا ما تنامش حزينة

«مجدي نجيب»

العتبة جزاز!

الأستاذ طارق الشناوي واحد من أفضل من يكتبون في الفن بالنقد والتعليق والشرح والتحليل وسرد الحكايات المحببة، لهذا لا أملّ ولا أشبع من القراءة له. وحين أرى اسمه على مقال أعرف أنني سأقرأ شيئًا طريفًا مسليًا لا يخلو من العمق والرأي الصائب.

قرأت للأستاذ طارق منذ أيام في عموده بالدستور تفسيرًا لأغنية «العتبة جزاز» التي كتبها الشاعر الكبير الراحل مأمون الشناوي وشاعت في الفترة التي تلت الهزيمة في ١٩٦٧ مثلها مثل أغنيات كثيرة كانت عنوانًا للمرحلة مثل «الطشت قال لي» وغيرها. كنت أظن أن هذه الأغنيات إنما كانت ترجمة لتوجهات عبد الناصر لتخفيف حالة الحزن التي أعقبت الصدمة المروعة بعد زلزال الهزيمة عندما أوصى أجهزة إعلامه بالتسرية عن الناس وبث مواد خفيفة أو بالأحرى تافهة تنسيهم الكارثة التي حاقت بالوطن.

غير أن الأستاذ طارق فاجأني بأن الشاعر مأمون الشناوي لم يجد للتعبير عن هزيمة ١٩٦٧ إلا هذه الكلمات الفولكلورية «العتبة جزاز والسلم نايلو ف نايلو»، وهي صورة تعني الاستسلام لم تكتشفها الرقابة (!!) علامات التعجب هذه من عندي.. ذلك أن الشاعر

أحمد فؤاد نجم مثلًا قد عبر عن صدمته من الهزيمة العسكرية بغنوة بديعة غناها الشيخ إمام تقول: «الحمد لله خبّطنا تحت باطاطنا.. يا محلى رجعة ظباطنا من خط النار. يأهل مصر المحمية بالحرامية.. الفول كتير والطعمية والبر عمار!». صحيح أنها لم تذع بالراديو أو التليفزيون لكن هكذا عبر نجم عن هزيمة عام ١٩٦٧.

وإني لأذكر أغنية ناقدة تحايلت على الرقابة متوسلة بالفن وهي أغنية «ع الانضباط» التي كتبها سيد حجاب ولحنها عمار الشريعي في أواخر عصر السادات، وكانت الدنيا وقتها في مصر قد أصبحت سداح مداح. كتب سيد حجاب: «ع الانضباط يا سلام سلم..ياما اللي بيشوف يتعلم..بس المؤكد يا معلم فيه خلق سايبة لازمها رباط!». وقد قام المبدع عمار الشريعي بوضع لحن سريع راقص للأغنية، وبهذا شتت تفكير الرقابة بعيدًا عن الكلمات كما حكى عمار بنفسه!

لذلك لا أستطيع أن أنظر لأغنية العتبة جزاز بحسبانها أغنية تحايلت على الرقابة للتعبير عن الإحساس بالهزيمة لأن أحدًا لم يفهمها على هذا النحو أبدًا، وبخاصة أنها من أولها لآخرها أغنية خفيفة تغنيها البنات وتقول كلماتها: «يا بت مالك خسّيتي.. لسة لا رحتي ولا جيتي.. باين عليكي حبيتي.. والسلم نايلو ف نايلو!».

ويذكرني هذا التفسير بقصة «شيء من الخوف» التي كتبها ثروت أباظة، وهي قصة عادية تمامًا عن بلطجي يقوم بترويع القرية التي يسكنها. لكن المرحوم أباظة قام بعد وفاة عبد الناصر بإشاعة أنه تصدى للطغيان وكتب قصته للنعبير عن ظلم عبد الناصر لشعبه، وأن عتريس زعيم العصابة هو عبد الناصر نفسه. طبعًا استغل أباظة أن

بعض شماشرجية السلطة وقت ظهور الفيلم المأخوذ عن الرواية قد أوصوا بمنعه لأنهم اعتقدوا أن ناصر هو المقصود بشخصية عتريس المجرم! وأنا أعتقد يقينا أن ثروت أباظة لم يكن بطلًا عندما كتب قصته العادية، ولو خطر بباله أنه قد يساء تفسيرها لما نشرها من الأساس.. كما لا أعتقد أن مأمون الشناوي قد برهن على أي نحو أن العتبة جزاز تعبر عن الهزيمة.

لكن يبقى من أفضال طارق الشناوي أن كتاباته تمنح أفكارًا للنقاش والكتابة سواء اتفقنا مع ما يقول أو خالفناه.

شيرين وخالتها

نشرت مجلة الكواكب عن الفنانة شيرين سيف النصر أنها رفضت عرضًا للزواج تقدم به إليها الفنان الراحل أحمد زكي. وعَزَتْ شيرين هذا الرفض إلى أن عائلتها لم تقبل فكرة ارتباطها بواحد من الوسط الفني.

جاءت الرواية على لسان خالتها التي ذكرت أن الفنان أحمد زكي حضر لزيارتها في البيت وقال لها: «أنا اشتريت الدبلتين علشان عاوز أخطب شيرين، أرجوك ساعديني عند مدام ليلى أختك وشيرين وأنا مستعد لكل شروطهم! وأوضحت خالة شيرين: طبعًا كانت المسألة مفاجئة بالنسبة لي، لكن قرارًا للعائلة كان يقضي برفض زواج شيرين من الوسط الفني.. جاءني أحمد زكي ثاني يوم وقال لي: يا رب يكون عندك أخبار سارة بشأن خطوبتي أنا وشيرين؟ فقلت له: يا أستاذ أحمد لو كانت شيرين ابنتي لزوجتها لك، لكن للأسف قرار العائلة يرفض زواجها من الوسط الفني. تركني أحمد زكي وذهب لأختي ليلى فقالت له: يا أستاذ أحمد الرفض ليس من أجلك لأن «ألف من تتمنى الزواج بك» لكن عائلتي ترفض بشدة زواج الوسط الفني».

قرأت هذا الكلام المنشور في مجلة الكواكب وضربت كفًّا بكف

من غرابة الحدوتة وعدم معقوليتها. فأولًا: ما معنى أن يذهب أحمد زكي ليطلب يد فتاة للزواج من دون أن يكون قد فاتحها هي شخصيًّا في الأمر؟... هل كان يطلب يد وصيفة بنت محمد أبو سويلم؟ أو كان يطلب يد زميلة راشدة كاملة الأهلية تعمل بالتمثيل وتملك أمر نفسها، وبإمكانه أن يراها ويتحدث إليها كل يوم من دون حواجز؟

وثانيًا: ما معنى أن العائلة ترفض زواج ابنتهم من الوسط الفني؟ إن أحمد زكي لم يتعرف عليها في كلية الطب، لكنه التقاها في البلاتوه وهي تمثل أمامه في فيلم سينمائي! فهل يقبلون اشتغال ابنتهم بمهنة التمثيل وفي الوقت نفسه «يستعرون» من المهنة ويخجلون من أن يعمل بها عريس ابنتهم؟ إن هذا الأمر يذكرني ـ مع الفارق ـ بمشهد من فيلم المشبوه عندما عاتب عادل إمام أخاه سعيد صالح لأنه ألحق زوجته بالعمل كراقصة في كباريه أثناء غيابه في السجن، فما كان من الأخ إلا أن قال له: وهو أنت يعني كنت اتعرفت عليها في الجامعة!

ثالثًا: من المعروف أن أهْل الفنانة التي تتحدث خالتها برفض العائلة تزويجها بفنان بقامة أحمد زكي، قد قبلوا أن ترتبط بثري عربي في زيجة أعلنت عنها شيرين ولم يعلن عنها الزوج السعودي ولا أقام من أجلها عرسًا في بلده كما تقضي الأصول، وأخذها معه إلى لندن ثم انتهى الأمر بالانفصال بعد مدة قصيرة.. والقصة كلها كتب عنها الأستاذ عادل حمودة سلسلة مقالات شهيرة تحدث فيها عن مسؤول كبير في التليفزيون في ذلك الوقت أخذ سيارة مرسيدس مقابل توفيق رأسين في الحلال!

رابعًا: إن الفنانة التي تزعم خالتها أن العائلة لا تقبل اقتران فتاتهم

بفنان قد تزوجت فيما بعد من مدحت صالح، وفي حدود علمي فإن مدحت في ذلك الوقت لم يكن فني لحام أوكسجين ولا كان محاسبًا أو حاصلا على دبلوم زراعة وينتظر القوى العاملة، لكنه كان مطربًا مغنيًا صييتًا قد الدنيا، وكانت شرائطه وكليباته تذاع في كل مكان.. فأين كانت العائلة التي لا تقبل مصاهرة الفنانين في ذلك الوقت؟!

بكل تأكيد من حق الفنانة شيرين سيف النصر أن تتزوج بمن تشاء وقتما تشاء، ومن حقها وحق عائلتها أن تغير رأيها في مواصفات العريس ومهنته كما تهوى، ولا يكون لنا أن نعترض أو نتدخل بالانتقاد.. ولكن ما يدعو إلى التدخل والتذكير هو استباحة ذكرى فنان لا يملك أن يرد، ومحاولة الاستعراض على حساب كبريائه، وهو الأمر الذي لم تكن عائلة شيرين والعائلات المجاورة كلها تقدر عليه في حياته..فرجاء ألا تدع شيرين أحدًا يتكلم باسمها بعد ذلك ويا ريت تقول لخالتها تسكت!

حالة خوار

قال عادل إمام أخيرًا في حديث صحفي لمجلة «أخبار النجوم» إنه يرفض رفضًا قاطعًا اشتغال ابنته بالفن، وكانت نص كلماته «ما عندناش ستات تشتغل بالفن!».

أثارت هذه التصريحات موجة من ردود الأفعال الرافضة لتنكر الفنان الذي يلقبه صهبجيته بالزعيم للمهنة التي صنعت نجوميته واستنكاره أن تعمل بها ابنته. وذكر البعض في تفسيرهم لتصريحاته أن عادل إمام بدا متأثرًا بالتيارات الدينية التي يموج بها المجتمع ومتأثرًا بمصاهرته لأحد أقطاب جماعة الإخوان المسلمين، كما أعرب البعض عن سعادته لعودة الفنان إلى الحق وإدراكه لحرمة الفن وتمنوا له أن يتم الله عليه نعمته ويتوب عليه من رجس الفن الذي علق بثوبه لما يقرب من نصف قرن!

وفي الحقيقة إنني لم أندهش من هذا التصريح ولا أجده داعيًا لأي استغراب، لكن ما يثير الدهشة هو ربط البعض بين هذا الرأي وبين المد الديني في المجتمع وهو ما أعتقد أنه محض هراء.. وحقيقة الأمر في تقديري أن هذا هو تفكير معظم الناس في مصر.. المتدينين منهم والملحدين، وهي أفكار مرتبطة بالطبقة المتوسطة التي لا ترى

بأسًا كبيرًا في أن يمارس ابنهم شيئًا من الشقاوة وأن تكون له بعض المغامرات العاطفية والممارسات المحرمة لأنه في النهاية ولد ولا شيء يعيبه، أما البنت فلا يمكن السماح لها بأي شيء من هذا لأنه يجلب العار للعائلة ويضع رأسها في الطين.

من الواضح أن عادل إمام ينظر للفن على هذا النحو باعتباره ساحة للمغامرات الشبقية يمكن أن ينزل إليها فيصول ويجول ويحرز الأهداف في شباك النجمات ويسجل اسمه في لائحة الدونجوانات، كما يسمح لأولاده الصبيان بارتيادها والتسلي بأطايبها من مال وشهرة واستمتاع، لكن لا يمكن أن يسمح بشيء من هذا لابنته، لأن أي بنت ناس متربية لا يصح أن ترتاد هذه الساحة أو حتى تفكر في الاقتراب منها. هذا هو في تقديري مرجع هذه التصريحات التي فسرها البعض على نحو بالغ الغرابة وحملها ما لا تحتمل وأدخل الدين في الموضوع بدون مناسبة. وفي ظني أن فنانين آخرين غير عادل إمام يحملون نفس الأفكار لكنهم لا يصرحون بها.

ويبدو أن عادل إمام بعد رحلته الطويلة أصبح يمتلك قدرًا كبيرًا من الاستهانة وعدم الاكتراث بمشاعر زميلاته الفنانات، أو أنه يدرك أن أيا منهن لن تجرؤ على استنكار تصريحاته أو انتقاد ما بها من شطط! وللغرابة فإن هذا ما بدا لي صحيحًا بعدما قرأت في صحيفة الدستور تعليقا أكثر من عشر فنانات على تصريحات إمام ومعظمها كانت في غاية الرقة فتحاشت أن تمس الفنان الذي صفعهن بقسوة، فمنهن من قالت: أعتقد أن تصريحات عادل تم تحريفها! ومنهن من قالت: أكيد عادل يقصد أن التمثيل مهنة شاقة وهو يشفق على ابنته من عنائها، ومن قالت:عادل رمز كبير من رموز الفن ومن حقه يقول ما

يشاء!.. وهكذا يتضح أن حالة الخوار التي تميز الناس العاديين إزاء أهل السياسة والحكم، والتسليم والرضا بالظلم والتجبر قد انتقلت إلى الفنانات اللاتي مع إدراكهن التام لما يقصده عادل إمام من أنه لا يرضى لابنته أن تكون واحدة منهن.. إلا أنهن آثرن أن يتملقنه ويبتلعن الإهانة!

وربما تكون الفنانة نادية لطفي الوحيدة التي امتلكت الجرأة لأن تقول: لماذا يتعامل الناس مع آرائه على أنها بيانات رسمية وكأنه زعيم بحق وحقيق أو كأنه القائد العام؟!.. إذا أراد أن يمنع ابنته من الاشتغال بالفن فليمنعها أو حتى يقطع رقبتها.. هو حر!..

ألقاب فالصو

لدى الصحافة عندنا خصلة عجيبة ليس لها مثيل في أي مكان، ألا وهي القيام بتوزيع ألقاب على الفنانين ولاعبي الكرة ليس لها مسوغ ولا تدل على شيء حقيقي.

فمثلما كانت نادية الجندي تسمي نفسها نجمة الجماهير، ونبيلة عبيد تطلق على نفسها نجمة مصر الأولى، فالحاصل الآن أن بعض الصحف لا تتحدث عن الفنان عادل إمام ولا تذكر اسمه إلا مسبوقًا بلفظ الزعيم! كما أن نفس الصحافة دأبت على تناول الكابتن حسام حسن مدرب نادي الزمالك الحالي بحسبانه العميد! وفي الحقيقة فإني لم أكن لأتناول مثل هذه الأمور إلا لأنها تساهم في نشر الوكسة في المجتمع من خلال صك مصطلحات لا تفيد أصحابها، بل وتنشر عنهم قيمًا سلبية لا يسعدهم أن ترتبط بهم.. فكيف ذلك؟

على سبيل المثال نراهم يطلقون لقب الزعيم على عادل إمام لمجرد أنه قام ببطولة مسرحية تحمل نفس الاسم. فهل كل من قام بدور ملك في عمل فني يصير عند الناس ملكًا، وكل من قام بدور إمبراطور يتوج إمبراطورًا؟ وهل إذا كان سعيد صالح أو أحمد آدم هو الذي قدم مسرحية الزعيم، فهل كان وقتئذ يفوز باللقب وينعم

به بدلًا من عادل إمام؟ وإذا سلّمنا باعتماد هذه المسخرة فهل يحق بالمثل إطلاق ألقاب مثل البعرور والهلفوت والكحيان على من قاموا بأعمال تحمل هذه الأسماء؟

ثم إن المتأمل لزعامة عادل إمام المسرحية لا بد له من أن يصاب بالدهشة لأن الأدوار التي شهدت زعامته كانت عن شخصيات سيئة للغاية وأبعد ما تكون عن حقيقة عادل إمام.. فدوره في مسرحية الزعيم كان يتناول شخصية طاغية مستبد فاسد لص يمارس الحكم بأساليب إجرامية ولا يتورع عن التنكيل بشعبه.. فهل هذا هو شكل الزعامة التي تسعد الفنان عادل إمام؟ والمرة الأخرى التي لعب فيها دور زعيم كانت في مسرحية مدرسة المشاغبين عندما قام بدور بهجت الأباصيري زعيم الطلبة الفاشلين! فأي زعامة هذه التي يتشدقون بها ويملئون بها مانشيتاتهم الفالصو؟

والمثال الآخر هو للاعب القدير حسام حسن الذي أمتع الجماهير بفنه طوال سنوات كان فيها مثالًا للتفاني وبذل الجهد وأداء الواجب برجولة والتزام. لكن هذا لا يبرر أن يطلقوا عليه لقب العميد.. أولًا: لأن هذا اللقب مستورد من الخارج من خلال تقليعة سخيفة وفارغة من المعنى.. وثانيًا: لأن هذا اللقب طبقًا لمعاييرهم تافه للغاية وسهل المنال ويمكن لأي لاعب في فريق ألومونيوم أبو زعبل أن يحصل عليه، وذلك إذا ما رفض الاعتزال وأصر على البقاء في الملاعب حتى تتخلخل قوائمه وتتضعضع رُكبه وتذهب حيويته مع الريح. يعتمد اللقب على عدد سنوات البقاء في الملاعب وعدد المباريات الدولية التي لعبها اللاعب. ولا يخفى على أحد أن هذه المعايير يمكن أن تنطبق بسهولة على كثيرين من دون أن يعني ذلك أي تميز أو

جدارة. يمكن مثلًا أن تجد في موريتانيا أو بنجلاديش لاعبين دوليين لعب كل منهم ألف مباراة دولية بالرغم من أن هاتين الدولتين لا ذكر لهما في دنيا كرة القدم. ومن الممكن جدًّا أن نجد لاعبًا من مملكة نيبال يحمل لقب عميد لاعبي كرة القدم في العالم وذلك في وجود ميسي وكريستيانو رونالدو وروني وكاكا وروبين! لهذا لا أعتقد أن هذا اللقب يضيف شيئًا إلى لاعب ومدرب بقيمة حسام حسن لأن اسم حسام حسن وحده دال على الجودة من دون أن يكون عميدًا أو فيلد مارشال!

من غير ليه

استمعت في أحد مواقع الأغاني على النت إلى تسجيل نادر للموسيقار محمد عبد الوهاب ومعه عبد الحليم حافظ رحمهما الله، وكانت بروفة يقوم عبد الوهاب فيها بتحفيظ حليم اللحن الجديد لأغنية «من غير ليه» التي كتبها الشاعر مرسي جميل عزيز والتي كان يفترض أن نستمع إليها بصوت حليم لولا وفاته.

في البروفة كان عبد الوهاب يعزف على العود وعبد الحليم يتبعه ويردد وراءه المقاطع المختلفة من أول الأغنية لآخرها. استلفت نظري أمر رأيته جديرًا بالتسجيل، وهو أن حليم كان يتدخل بالتعديل واقتراح جمل لحنية مغايرة للحن عبد الوهاب الأصلي، وأن عبد الوهاب كان يبدي ممانعة ويحاول إقناع حليم، ثم لا يلبث أن يستسلم ويعزف على العود الجملة كما اقترحها المطرب الكبير! وكان معروفًا عن عبد الحليم حافظ أنه دائم التدخل في ألحان الملحنين بالتعديل والإضافة حتى يخرج اللحن بالشكل الذي يرضيه.

طبعًا من المعروف أن القدر لم يمهل حليم لغناء الأغنية وظل اللحن في أدراج عبد الوهاب من عام ١٩٧٧ حتى أفرج عنها وغناها بصوته عام ١٩٨٨.

من يستمع إلى الغنوة بصوت عبد الوهاب ثم يستمع إلى البروفة التي جمعت الملحن بالمطرب سيدرك أن عبد الوهاب قد تخلص بعد وفاة عبد الحليم من كل الجمل اللحنية التي اقترحها حليم وكان مصرًّا عليها، وأن اللحن أصبح بعد ذلك وهابيًّا خالصًا. وسيدرك المتابع أن عبد الوهاب لم يكن مقتنعًا ولا سعيدًا بتعديلات حليم بدليل أنه تخلص منها عندما استطاع، وأنه ما كان يستجيب إلا تحت ضغط سطوة عبد الحليم حافظ وقدرته على تطويع أعتى الملحنين والمؤلفين لإرادته باعتباره نجم النجوم وملك الشباك في ذلك الوقت.

ربما كانت هذه القصة كاشفة لجبروت النجوم وقدرتهم على فرض إرادتهم على فريق العمل وهي السُّنة التي استمرت حتى الآن وانتقلت إلى نجوم السينما الذين أصبح الواحد منهم يتدخل في اختيار باقي الممثلين رغم أنف المخرج صاحب الحق الأصيل في الاختيار، ويتدخل أيضًا في الورق المكتوب فيفرض على السيناريست أن يوسع من مساحة دوره على حساب باقي الشخصيات ويرغمه على ليّ عنق الدراما من أجل صاحب السعادة النجم الذي يأتي بالإيرادات التي تملأ خزائن المنتج!

وغير بعيد عن هذا ما تقوم به بعض النجمات من اشتراط تصويرهن في الأعمال الفنية من زاوية معينة للوجه وضرورة الابتعاد عن التصوير من الجهة الأخرى التي لا تفضلها.. ويا ويل مدير التصوير إذا حاول أن يقوم بدوره الطبيعي وأخذ اللقطة طبقًا لرؤيته الخاصة.

لم يعد أي مما سبق يدهشني من نجوم الجيل الحالي الذين يخلو أغلبهم من الموهبة والثقافة بعد أن عرفت أن عبد الوهاب أعظم الملحنين في كل العصور وأكثرهم شهرة وتأثيرًا كان ينحني للريح ويقمع نغماته إرضاء للنجم عبد الحليم حافظ!

حسب الله السادس عشر

أهوى الموسيقى الكلاسيك وتسحرني سيمفونيات موتسارت وبيتهوفن وتشايكوفسكي وغيرهم من عباقرة الإبداع الموسيقى الإنساني.

ولطالما قضيت أسعد الأوقات حاضرًا العزف الحي لأشهر الفرق وأعظم العازفين في عواصم العالم وهم يقدمون الموسيقى ومعها شيء من روح الموسيقار نفسه والعازف نفسه.

وقد شغلني كثيرًا في أثناء حضور حفلات الموسيقى دور قائد الأوركسترا، وأحسست بعظمته وشموخه وهو يقف مواجهًا فرقته ومعطيًا ظهره للجمهور ليتمكن من قيادة الفرقة وتوجيه كل عازف للحركة المقبلة. وكم مرة لاحظت تعلق عيون أعضاء الفرقة بالمايسترو وعصاه الشهيرة، تلك العصا التي تبث الإشارة فتنتقل إلى العازف وتسري في كيانه ثم إلى أصابعه لتصنع أجمل النغمات في هارموني متناسق وبديع.

غير أن كثرة حضوري للأعمال الموسيقية الكبيرة في أوروبا وأمريكا وكندا أو عند استقدام الفرق العالمية للعزف في عواصمنا

قد نبهني لشيء كنت أراه دائمًا في بلادنا من دون أن يثير دهشتي ومن دون أن أعيره التفاتًا، وهذا الشيء هو أنني اعتدت أن أرى المطربين والمطربات العرب يغنون وصاحب الفرقة الموسيقية يقف إلى جوارهم يمسك بعصاه ويقوم بدور المايسترو الذي يقود الفرقة.. الآن أصبحت أدرك أن المسألة فيها شيء غلط!!

علامات التعجب السابقة مردها أن الأغنية العربية هي أغنية بسيطة غير مركبة والموسيقى فيها ليست الأساس، ولكن الأساس هو المطرب بشعبيته وإقبال الجمهور عليه بصرف النظر عن اسم الملحن أو نوع العازفين وأسمائهم، ثم يلي المطرب في الأهمية كلمات الأغنية التي يطرب لها السامع ويتمايل معها خصوصا لو كان الإيقاع راقصا!.. فكيف والحال هكذا يقف قائد الفرقة متقمصًا دور المايسترو في أغنية بها أقل قدر من الموسيقى؟

الشيء الأهم الذي انتبهت إليه وأنا غير المتخصص وغير الدارس (فأنا مجرد مستمع هاو) هو أن الأغنية العربية لا تحتاج إلى مايسترو على الإطلاق، فوجود النوتة الموسيقية أمام كل عازف يكفي ويزيد.. لماذا؟ سؤال وجيه والإجابة هي أن العازفين في الأغنية العربية سواء كانت مصرية أو لبنانية أو خليجية أو مغربية يقومون جميعًا وفي نفس الوقت بعزف نفس النغمة.. أي أن الكمان يعزف نفس ما يعزفه العود والقانون والأوكورديون والكونترباس والتشيللو والناي، وجميعها تصاحبها الطبلة والدف في إيقاع يتبع فيه الطبال أذنه دون الالتزام بدقات معينة.. ففيم الاحتياج إلى المايسترو إذن؟

إن الحقيقة أن وجود المايسترو أو قائد الأوركسترا عند العزف

السيمفوني هو وجود حيوي وأساسي ولا غنى عنه، ذلك أن الفرقة ـ على عكس الحال في الأغنية العربية ـ لا يقوم أفرادها جميعًا بعزف نفس النغمة في نفس الوقت وإنما كل آلة أو مجموعة من الآلات تنطلق في لحن فرعي يكمله لحن فرعي آخر تعزفه مجموعة مجاورة من الآلات، والجميع يتقاطعون بعضهم مع بعض ثم ينفلتون ويعرج كل منهم إلى درب ثم يعود بعد وقت مقدر إلى المجموعة وذلك في أداء رفيع مبهر. كل هذا يحتاج إلى القائد المايسترو الذي يحدد لكل منهم بعصاه وبنظرة من عينه وإيماءة من رأسه متى ينطلق ومتى يعود ومتى يتوقف ومتى يلتحم بالمجموعة.

هذا هو دور قائد الأوركسترا وهذا ما يفعله..فماذ يا ترى يفعل قائد الفرقة في أغنية عربية عادية ليس بها توزيع أوركسترالي وليس بها آلات تعزف أكثر من نغمة في الوقت الواحد؟

لا شك في أنه لا يفعل شيئًا سوى أنه يقف بجسارة وفي يده العصا يمثل على الجمهور الطيب ليقنعهم بأهمية دوره، خصوصا إذا انفعل وأخذ المسألة على نحو جاد فتقلصت ملامحه وتشنجت أطرافه واكتسى وجهه باللون الأحمر ويداه ترتفعان في الهواء على نحو أكثر كوميدية مما فعله عبد السلام النابلسي وهو يؤدي دور حسب الله السادس عشر ومعه مساعد المايسترو الفنانة زينات صدقي!

القدرة والطاقة والسعة

لكل إنسان طاقة وقدرة وسعة لا يمكن تجاوزها، وإذا طلبنا من شخص أن يتجاوز ما هو مقدر له كانت النتيجة سيئة. ويمكن أن نتبين صورة ما أقول بوضوح إذا نظرنا إلى حالة الكتَّاب والأدباء والمشتغلين بالفنون عمومًا.

عندما ظهر الممثل محمد هنيدي في فيلم «صعيدي في الجامعة الأمريكية» لم يكن هذا هو الظهور الأول له، لكنه كان موجودًا قبل هذا بسنوات من دون أن يشعر به أحد. ولما واتته الفرصة في دور كبير في فيلم «إسماعيلية رايح جاي» تفاعل معه الجمهور مما جعل إيرادات الفيلم تتضاعف والمنتجين يتشجعون على منحه البطولة المطلقة، وكان هذا خطأ كبيرًا ذلك أن أقصى ما تصل به قدرته وطاقته هو أن يكون متميزًا على الدوام في أدوار صديق البطل!

ما لم يفهمه كثيرون أن هنيدي قدّم في هذين الفيلمين الحد الأقصى لما لديه، وبذل فيهما ذروة طاقته وسعته وقدرته في وقت لم يكن أحد يعرفه وبالتالي لم تكن هناك أي توقعات منه.. وغياب التوقعات هذا قد ساهم بقدر كبير في إحداث المفاجأة والحصول على موقع طيب لدى الجمهور. لكن منذ ذلك الوقت وبعد أن

أصبح هنيدي فنانًا مشهورًا فقد خمدت المفاجأة وارتفع سقف توقعات الجمهور منه في وقت لم ترتفع فيه قدراته، وكان قد بذل الحد الأقصى في أعماله الأولى..لهذا فقد كانت خيبة الأمل تتكرر في كل مرة ومع كل فيلم جديد، ذلك أن عنصر المفاجأة قد انتفى، وحتى الإفيهات الحلوة منه لم يعد لها ذات الأثر حتى وهي جديدة وطازجة لأنه أصبح اسمًا وماركة وصارت توقعات الجمهور منه تحد كثيرًا من قدرته على تحقيق النجاح!

ومثله تمامًا الممثل محمد سعد الذي ظهر قبل سنوات طويلة من فيلم ألليمبي ومع ذلك لم يشعر بوجوده أحد، ثم فجأة اندلعت شخصية ألليمبي عندما قدمها كسنيد للبطل في فيلم «الناظر صلاح الدين» فأدهشت الجمهور وفتحت لمحمد سعد الطريق إلى البطولة المطلقة، وكان هذا أيضًا خطأ ترتب عليه أن التدهور بدأ سريعًا عندما لم يجد الجمهور لديه شيئًا آخربخلاف شخصية الشاب الصايع المسطول الذي ينطق كلامًا فارغًا طول الوقت ولا يكف عن هز مؤخرته وأردافه. فعل محمد سعد ذلك في جميع أفلامه وكرر نفسه بشكل غريب في الوقت الذي كانت التوقعات منه مرتفعة فأصاب جمهوره بإحباط وخيبة أمل.

وإذا كان هناك بقية من جمهور لا يزال يقبل على أفلام هنيدي وسعد فذلك لغياب البديل، لكن في اللحظة التي يظهر فيها كوميديان غريب الشكل والهيئة والإلقاء يستطيع مفاجأة الجمهور بما لا يتوقع، فإن هنيدي وسعد سيجلسان في البيت، تمامًا مثلما فعلا هما في جيل كامل من الممثلين الذين اعتزلوا واختفوا بسببهما!

وربما لو أن كلا منهما قد قنع بالأدوار الثانية التي تتناسب مع حجم الطاقة والقدرة والسعة التي يمتلكانها لظل لهما وهج وبريق على الدوام مثلما ما زلنا نحمل في قلوبنا محبة لفنانين مثل عبد الفتاح القصري وزينات صدقي وعبد المنعم إبراهيم وإستيفان روستي.. ذلك أن أيًا منهم لم يتصور نفسه كلارك جيبل أو فتي الشاشة وقتع بما أهلته له طاقته وسعته الفنية.

الأمر نفسه ينطبق على الكُتاب والأدباء. على سبيل المثال كان هناك كاتب جديد قرأت له فأعجبني، وكان يكتب في مطبوعة مجهولة على فترات متباعدة فلم يعرفه أحد. عندما أعجبت بكتابته لم أتردد في تقديمه لأصدقائي بصحيفة مقروءة، وطلبت منهم أن يستكتبوه مرة في الأسبوع. بدأمعهم بشكل جيد وكان يقدم كل أسبوع مقالًا متميزًا، لكن بعد فترة ألح على الصحيفة برغبته في أن يكتب كل يوم. غامرت الصحيفة وقبلت على أمل أنه سيأتي لها بما لم يستطعه الأوائل، وللأسف كانت النتيجة غير مرضية فلم أقرأ له من وقتها شيئًا ذا بال! ذلك أنه لم يفهم أن طاقته وسعته الفنية تقصر به عن بلوغ الجودة مع الكتابة اليومية، لأن الكتابة الجيدة تحتاج لمساحة من التأمل لا تتأتي يوميًا إلا نادرًا!

آه لو يفهم الناس مسألة القدرة والطاقة والسعة.. إذن لأراحوا واستراحوا.. لكن كيف يفعلون وقد خُلق الإنسان ليكابد ويكبّدنا معه.

أقوى من سانجام

كل زمن له مفرداته، وكل عصر له كلماته وصيغه اللغوية في التعبير، ودائمًا ما تأخذ هذه المفردات شكل الموضة التي تهب فتنتشر وتسود لفترة ثم تخبو مع الوقت وتتلاشى بعد أن يحل محلها تعبيرات جديدة ومصطلحات تتناسب مع ما دخل على حياة الناس من تغييرات.

كنت في الصغر أسمع والدي وأصدقاءه يتحدثون بأشياء لا أفهمها كأن يصفوا شخصًا متأنقًا بأنه «عامل شنبه دوجلاس» بمعنى أنه قام بتسوية شاربه بطريقة دوجلاس.

عندما كبرت عرفت أن دوجلاس هذا هو الممثل دوجلاس فيربانكس بطل السينما الهوليودي المشهور في فترة الثلاثينيات والأربعينيات الذي كان له شارب مميز ظن الرجال في جميع أنحاء العالم أن من يحوز مثله قد يستحوز على إعجاب الجنس الآخر من النساء!

كذلك نما إلى سمعي لسنوات طوال وصف نفس الشخص المهندم الساعي للأناقة والظهور بمظهر حسن بأنه عامل نفسه جيمس. فلما تحريت أصل التسمية عرفت أن السيد جيمس

المقصود ما هو إلا الممثل الشاب في الخمسينيات «جيمس دين» معشوق الجماهير وحلم الفتيات الذي لمع فجأة لسنوات قليلة وقدم ثلاثة أفلام لا غير هي «شرق عدن» ثم «المتمرد بلا قضية» وأخيرًا «العملاق» وهو الفيلم الذي لم يكمله حيث توفي في حادث سيارة في أثناء تصويره. مات جيمس دين عام ١٩٥٥ وهو لم يكمل الرابعة والعشرين من العمر بعد أن أصبح أسطورة هائلة ورمزًا للتمرد. وقد ظل الشباب لسنوات طوال يقلدونه في هيئته وتسريحة شعره، ولهذا انتشر اسمه وامتد أثره حتى أواخر الستينيات.

أما ظاهرة الستينيات الساطعة بحق فكانت ظاهرة الخنافس أو البيتلز وهو فريق موسيقي إنجليزي تكون في ليفربول وكان من رموزه جون لينون وبول مكارتني وقد قدم الفريق طابعًا مختلفًا للغناء وعرف أفراده بشعورهم الطويلة ومظهرهم الثائر حتى ليبدو أنهم لا يستحمون! هذا وقد ظل الشباب في العالم كله طوال فترتي الستينيات والسبعينيات يرتدون البنطلونات الضيقة ذات الأرجل الواسعة التي سميت بموضة الشارلستون أو رجل الفيل، كما أطلقوا شعورهم وجعلوا سوالفهم تتدلى بكثافة على جانبي الوجه أسوة بأعضاء فريق الخنافس.

مع مطلع السبعينيات لاح في الأفق نجم جديد قادم من أقصى شرقي آسيا ومعه موضة شغلت الناس جميعًا في كل أنحاء العالم.. الشخص هو «بروس لي» والموضة هي الكاراتيه.

تشابهت حياة بروس لي القصيرة مع حياة جيمس دين حيث مات كل منهما في سن قصيرة بصورة مفاجئة بعد تألق وصعود سريع للغاية.

في السبعينيات كان الكاراتيه بأحزمته الأسود والأزرق والأخضر هو حلم الشباب في كل مكان، وكانت أفلام الكاراتيه التي تم تصوير أغلبها في هونج كونج هي ما يشد الناس، وكان نموذج بروس لي البطل البسيط الواثق بنفسه والذي لا يرضى الظلم ويحقق العدالة بيديه العاريتين هو مصدر إلهام للجميع.

بعد ذلك لمعت في الثمانينيات فرق مثل الأبا والبي جيز وظهر مغنون مشاهير مثل خوليو إجليسياس وجلوريا جاينور وصولًا حتى مايكل جاكسون، وامتدت الموضات الخاصة بفترة التسعينيات والألفية الجديدة وهو الأمر الذي يعرفه الشباب ولا يحتاج مني لتفصيل.

ما دفعني لهذا الحديث هو أنني كنت أتكلم مع ابني ذي الثمانية عشر عامًا عندما وصفتُ شخصًا ما شديد القوة والنفوذ بأنه «أقوى من سانجام». عندها أبدى ابني اندهاشًا وعدم فهم لما أقول، فأدركت أن هذا المصطلح «أقوى من سانجام» قد ينفع للاستخدام مع الأصدقاء من جيلي ممن شهدوا في طفولتهم ظاهرة سطوع الأفلام الهندية على شاشات السينما في مصر وكان من أشهرها في ذلك الوقت فيلم اسمه «سانجام» استمر في دور العرض فترة طويلة وكانت إعلاناته تملأ الشوارع حتى ضرب به المثل في الذيوع والنجاح الجماهيري، ثم تلاه فيلم آخر اسمه «سوراج» لم يجد أصحابه وسيلة للإعلان عنه وتقديمه للناس خير من أن يقولوا عنه: أقوى من سانجام!

ومن هنا شاع لدى الناس لسنوات طوال استخدام هذا المصطلح بشكل تهكمي، حتى خبا أواره مع مرور الوقت ونسيه الناس.. وقد فاتني وأنا أقوله لابني أن الزمن غير الزمن والوقت غير الوقت!

لو كان الجحش رجلاً لقتلته..

لكنـه للأسـف ليس حتي ذلك الحيـوان الأعجم الذي نعرفـه، وإنما هو ذهنية تُحكم بها الشعوب الغافلة.. وقد حُكمت مصر لثلاثين عامًا بذهنية الجحش.

كل الطرق كانت تؤدي إلى الجحش، وجميع الشـواهد كانت تقول بأن عـام ٢٠١١ هو عام الجحش، والمراقبون للحالة المصرية كانوا موقنين مـن أن الهاوية التي تنزلق إليها البلاد سـوف تدفع النـاس للثورة ولن تترك لنظام مبارك من سبيل غير استدعاء الجحش.

فـي هذا الكتاب، يقدم لنا أسـامة غريب رؤيته لأيـام الثورة وأحداثها، من خلال المقـالات التي كان يكتبها كل يوم من أيام الثورة حتى تنحي حسـني مبارك في ١١ فبراير. ويتبع ذلـك تعليقا على ما تلا الثورة من أحـداث. وباقي الفصول كُتبت جميعا خلال عـام ٢٠١٠، وبضمها لهذا الكتاب، يريد أسـامة غريـب أن يعرف القارئ أن كل مـا حدث في عام ٢٠١٠ بمصر كان يفرش الطريق ويمهده لموقعة الجحش.

أسامة غريب كاتـب صحفـي وروائـي، درس ... القاهرة. اشـتهر بالكتابة السـاخرة وأدب الرحلات ... «مصر ليسـت أمي.. دي مرات أبويا» حفاوة كبيرة ... طُبع سـت عشرة مرة.. يكتب في عدد من الجرائد ... تقوم كتابته على المزج بين النقد السياسي وأدب الرحلات والسخر...



ISBN 978-977-09-3064-9
9 789770 930649



دار الشروق
www.shorouk.com